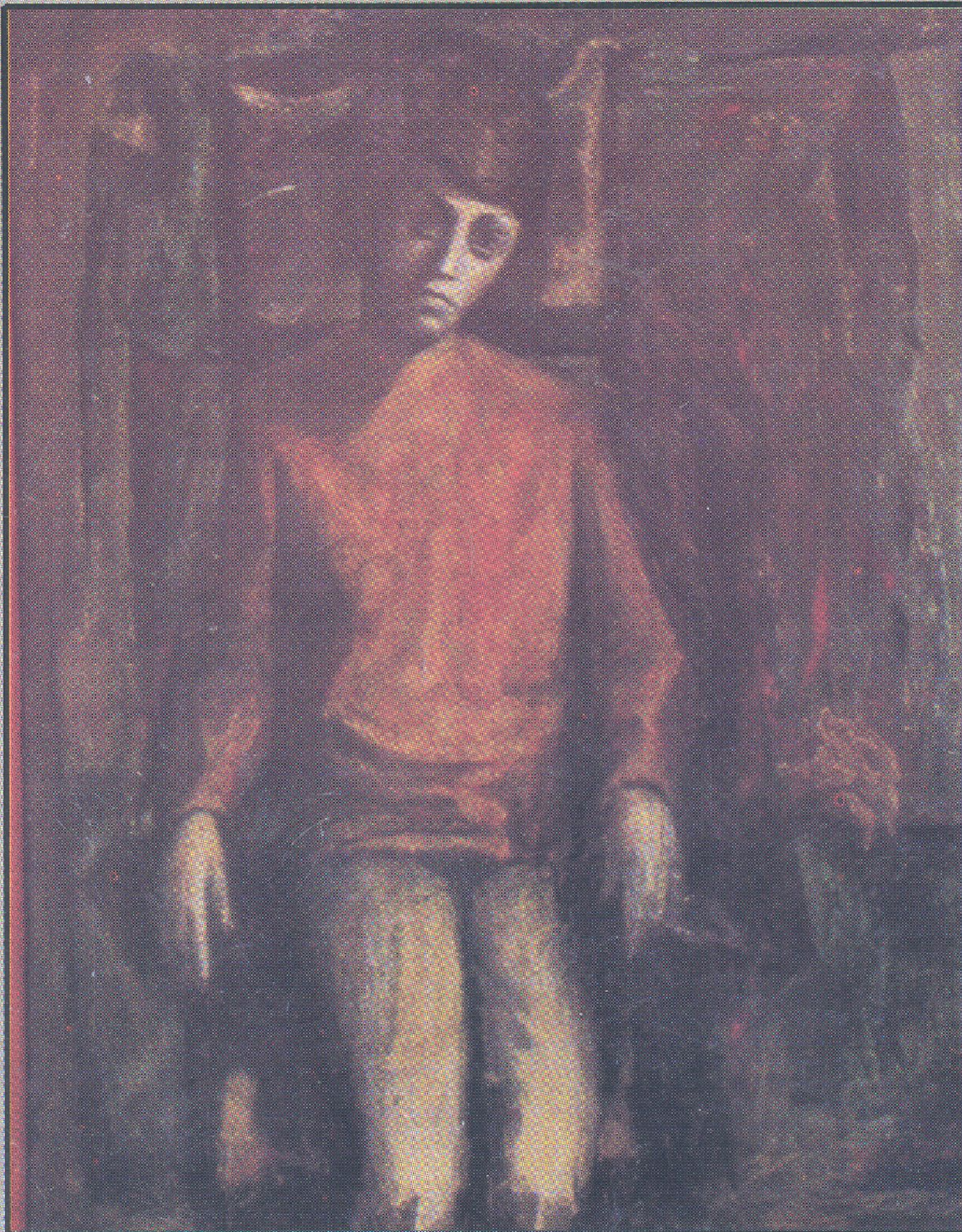
مهرجان القراءة للجميع


مكتبة الأسرة

محمد المويلحى

حديث عيسى بن هشام



الأعمال الإبداعية



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

إهـــــــــداء2006

ورثة الكيمياني/ محمد فاروق الفران

الإسكندرية

حديث عيسى بن هشام

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : آخر كلمات الحب

التقنية : ألوان زيتية على سيلوتكس

المقاس : ١٢٠ × ٧٠ سم

حسن سليمان (١٩٢٨ -   )

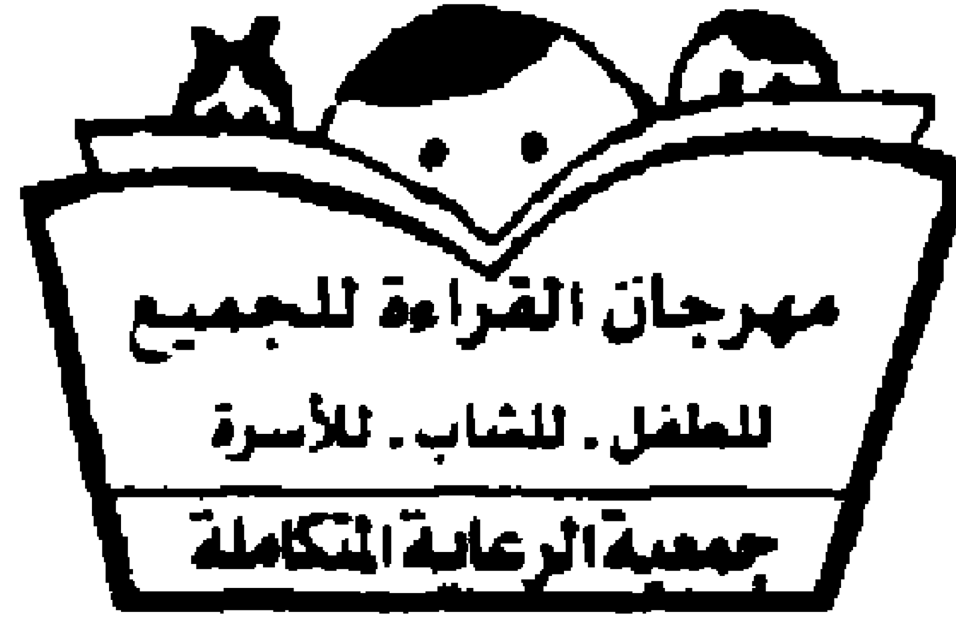
فنان مصرى، ولد فى القاهرة، وتخرج فى كلية الفنون الجميلة بالقاهرة ١٩٥١، فنان متميز مارس التصوير بإجادة فائقة، وأقام العديد من المعارض المحلية والدولية، وهو صاحب رؤية نقدية، وناقد فنى نافذ البصيرة، كتب الكثير من المقالات النقدية بمجلة المجلة والكاتب، وله عدة كتب أهمها: كيف تقرأ صورة، والحركة فى الفن والحياة، وسيكولوجية الخطوط، والفن الشعبى. وله مقتنيات بمتحف الفن الحديث بالقاهرة ولدى الأفراد والهيئات الأهلية والرسمية.

محمود الهندى

حديث عيسى بن هشام

الطبعة الثانية

محمـد المويلـحى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

حديث عيسى بن هشام

محمد المويلحى

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً وبسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.

د. سمير سرحان

بسم الله الرحمن الرحيم

العبرة

حدثنا عيسى بن هشام قال :

رأيت فى المنام، كأنى فى صحراء «الإمام» أمشى بين القبور والرجام (١) ، فى ليلة زهراء قمراء، يستر بياضها نجوم الخضراء (٢) فيكاد فى سنا نورها ينظم الدر ثاقبة، ويرقب الذر راقبه. وكنت أحدث نفسى بين تلك القبور، وفوق هاتيك الصخور، بغرور الإنسان وكبره، وشموخه بمجده وفخره؛ وإغراقه فى دعواه، وإسرافه فى هواه، واستعظامه لنفسه، ونسيانه لرمسه؛ فقد شمخ المغرور بأنفه، حتى رام أن يثقب به الفلك، استكباراً لما جمع واستعلاء بما ملك. فأرغمه الموت فسد بذلك الأنف شقا فى لحده، بعد أن وارى تحت صفائحه (٣) صحائف عزه ومجده ومازلت أسير وأتفكر، وأجول وأتدبر ؛ حتى تذكرت فى خطاى فوق رمال الصحراء، قول الشاعر الحكيم أبى العلاء :

خفف الوطء ما أظن أديم الأ
ض إلا من هذه الأجساد

وقبيح بنا وإن قدم العهد هوان الآباء والأجداد

سر إن اسطعت فى الهواء رويدا
لا اختيالا على رفات العباد

فقرعت سن الندم، وخففت وطء القدم وإن فى دهماء أولئك الأموات، وغمار تلك الرمم والرفات، لمباسم طالما حول

العاشق قبلته لقبلتها ، وباع عذوبة الكوثر بعذوبتها ، قد امتزجت بغبار الغبراء ، واختلطت ثناياها بالحصى والحصباء [٤] .

وتذكرت أن تلك الخدود التى كان يغار منها الورد فيبكى بدموع الندى ويشتعل الفؤاد منها بنار الجوى ويقف الخال منها موقف الخليل [٥] من النيران ، أو ابن ماء [٦] السماء فى شقائق النعمان ، ويترقرق فيها ماء الحياء وماء الشباب ، قد طوى الدهر حسنها طى الكتاب، وصارت بحكم القضاء أديما لوجه الفضاء .

وإن تلك العيون صادت بأهدابها الملوك الصيد [٧] ، فكانوا رعاة الأمم رعايا الغيد . وسحرت ببابل هاروت [٨] وماروت ، ووقفت موقف الاستكانة رب الجلال والجبروت يلتمس - والتاج فى يمينه ، وعرق الحياء فوق جبينه - من خلال لحظاتها قبولا ، كسائل يمد لالتماس الإحسان كشكولا . قد أمست ترابا تحت الرمس، كأن لم تغن بالأمس وأن تلك الفاحم الأثيث [٩] من الشعر ، الخاطف ببريقه سواد القلب والبصر، وقد حصدته من منابته يد الزمن ، فنسج الأجل منه ثوب الكفن.

وإن تلك النهود التى كأنها حقاق من لجين [١٠] تزينت بحب من المرجان ، أو كرات من جليد بثق فيها زهر من الرمان، قد أصبحت كالمخلاة على الصدر ، تحمل الزاد لدود القبر.

كم صـــائن عن قـــبله خـــده

سـلـطـت الأرض عـلـى خــــده

وحـــامل ثقل الثـــرى جـــيـــده

وكـــان يشكو الضـــعف من عـــقــده

وأن تلك الرفـات والعظام ، من بقـايا الملوك العظام، الذين كـانوا يسـتـصـغـرون الأرض دارا ، ويحـاولون عند النجـوم، جـــواراً ، وتلك الضـلوع التى انحنت على البطش والحلم ، والشفـاة التى طالما لفظت أمر الحرب ، والسلم ، وتلك الأنامل التى كـانت تبرى القلم للكتاب، وتبرى بالسيوف الرقـاب وتلك الوجوه والرءوس التى استعبدت الأبدان والنفوس ، ووصفت تارة بالبـدور وتارة بالشـمـوس ، قـد تسـاوى الرئيس فـيـهـا بالمرءوس ؛ فـلا تفـريق اليـوم ولا تمـيـيـز ، بين الذليل منهـا والعزيز .

هو الموت مـثـر عنده مـثل مـقـتـر (١١)

وقـا صــد (١٢) نهج مـثل اخـر ناكب (١٣)

وبرع الفـــتى فى حكمـــه درع غـــادة

وأبيــات كـــســرى من بيــوت العناكب

فــرجل فى غـــبــراء والخطب فـــارس

ومـــا زال فى الأهـلين اشــــرف راكب

ومـــا النعش إلا كـــالســـفـــينة رامــيـــا

بغـــرقـــــاه في بحـــــر الردى المتـــراكب

وبينا أنا في هذه المواعظ والعبر ، وتلك الخواطر والفكر ، أتامل في عـجـائب الحـدثان ، وأعـجب من تقلب الأزمـان ، مستغرقا في بدائع المقدور ، مستهديا للبحث في أسرار البعث والنشـور إذا برجة عنيـفة من خلفي ، كادت تقضي بحتـفي ؛ فـالتفت التفـاتة الخائف المذعور ، فـرأيت قـبرا انشق من تلك القبور ، وقد خرج منه رجل طويل القامة ، عظيم الهامة ، عليه بهاء المهابة والجلالة ، ورواء [١٤] الشرف والنبالة ؛ فصعقت من هـول الوهـل [١٥] والرجل ، صعقة موسى يوم دك الجبل . ولما أفـقت من غشـيـتي، وانتبـهت من دهشـتي، أخـذت أسـرع في مشيتي ، فسمعته يناديني، وأبصرته يدانيني، فوقفت امتثالا لأمره، واتقاء لشره.

ثم دار الحـديث بيننا وجرى، على نحو مـا تسـمع وترى، بالتركية تارة والعربية أخرى.

الدفين ـ ما اسمك أيها الرجل، وماعملك، وما الذي جاء بك ؟

فقلت في نفسي : حقـا إن الرجل لقريب العهد بسـؤال الملكين، فهو يسأل على أسلوبهما، فاللهم أنقذني من الضيق، وأوسع لي في الطريق؛ لأخلص من مناقشة الحساب، وأكتفي شر هذا العذاب. ثم التفت إليه فأجبته :

عيسى بن هشام - اسمي عيسى بن هشام، وعملي صناعة الأقلام؛ وجئت هنا لأعتبر بزيارة المقابر، فهي عندي أوعظ من خطب المنابر.

الدفين - وأين دواتك يامعلم عيسى ودفترك ؟

عيسى بن هشام - أنا لست من كتاب الحساب والديوان، ولكني من كتاب الإنشاء والبيان.

الدفين - لابأس بك، فاذهب أيها الكاتب المنشئ، فاطلب لي ثيابي، وليأتوني بفرسي «دحمان».

عيسى بن هشام - وأين يا سيدى بيتكم فإني لاأعرفه ؟

الدفين (مشمئزاً) - قل لي بالله من اى الأقطار انت ؟ فإنه يظهر لي أنك لست من أهل مصر؛ إذ ليس في القطر كله من أحد يجهل بيت احمد باشا المنيكلي ناظر الجهادية المصرية.

عيسى بن هشام - أعلم أيها الباشا انني رجل من صميم أهل مصر ، ولم أجهل بيتك إلا لأن البيوت في مصر أصبحت لاتعرف بأسماء أصحابها، بل بأسماء شوارعها وأزقتها وأرقامها، فإذا تفضلت وأوضحت لي شارع بيتكم وزقاقه ورقمه انطلقت إليه وأتيتك بما تطلبه .

الباشا (مغضبا) - ما أراك أيها الكاتب إلا أن بعقلك دخلا [١٦] . فمتى كان للبيوت أرقام تعرف بها ! وهل هي «إفادات أحكام» أو «عساكر نظام»؟ والأولى أن تناولني رداءك أستتر به وتصاحبني حتى أصل إلى بيتي.

قال عيسى بن هشام : فنزلت له عن ردائى [١٧] ـ وقد كان المعهود أن سلب المارة لا يكون إلا من قطاع الطريق، فإذا هو أيضا من سكان القبور. ثم ارتداه مستنكفا مترددا وهو يقول:

الباشا ـ للضرورة أحكام، وقد لبسنا أدنى من هذا الرداء فى مصاحبتنا لأفندينا المرحوم إبراهيم باشا على طريقة التنكر، و «التبديل فى الليالى التى كان يقضيها فى البلد ؛ ليستطلع بنفسه أحوال الرعية. ولكن كيف العمل وكيف يتسنى الدخول ؟

عيسى بن هشام ـ ماذا تريد ؟

الباشا ـ أنسيت أننا فى الثلث الأخير من الليل، وليس مَن يعرفنى بهذا الرداء على أبواب مصر، ولم يكن معى كلمة «سر الليل» فكيف تفتح لنا الأبواب؟

عيسى بن هشام ـ كما أنك يا سيدى لم تعرف أرقام البيوت ولم تسمع بها فى حياتك فأنا لا أعرف «سر الليل» ولم أسمع به.

الباشا (مستهزئاً ضاحكا» ـ ألم أقل لك إنك غريب الديار، ألم تعلم أن «سر الليل» كلمة تصدر من القلعة فى كل ليلة إلى «الضابطه وإلى جميع «القره قولات» والأبواب، فلا يجيزون لأحد مشى الليل إلا إذا كان حافظا لهذه الكلمة يلقيها فى أذن البواب فيفتح له، وهى تعطى لمن يطلبها من الحكومة سرأ لقضاء أشغاله بالليل، وتتغير فى كل ليلة : فليلة تكون

كلمة «عدس»، وليلة تكون «خضار»، ولية تكون «حمام»، وليلة تكون «فراخ»، وهلم جرا.

عيسى بن هشام - يظهر لي من كلامك هذا أنك لست أنت من أبناء مصر. فما علمنا أن هذه الألفاظ تطلق فيها على غير الأطعمة، ولم نسمع أنها تدل على الإجازة للناس بالسير في ليلهم. على أن الفجر قد دنا ولم يبق بنا من حاجة لهذه الكلمات ولا لغيرها.

الباشا - الأمر في ذلك موكول إليك.

قال عيسى بن هشام : فسرنا في طريقنا، وأخذ الباشا يزيدني تعريفا بنفسه، ويقص علي من أنباء الحروب وأخبار الوقائع التي شاهدها بعينه وسمعها بأذنه.

وما زلنا على تلك الحال حتى وصلنا في ضوء النهار إلى ساحة القلعة، فوقف وقفة المستكن الخاشع، يقرأ سورة الفاتحة لضريح محمد علي، ويخاطب القلعة بقوله في بلاغة تركيته:

«إيه لك يامصدر النعم، ومصرع الجبابرة من عتاة المماليك ويابيت الملك وحصن المملكة، ومنبع العز ومهبط القوة، ومرتفع المجد وموئل المستغيث وحمى المحتمي، وكنز الرغائب، ومنتهى المطالب، ومثوى البطل الشهم ومقبر الملك الهمام. أيها الحصن كم فككت بالكرم عانيا (١٨) وقيدت بالإحسان عافيا (١٩) ، وكم أرغمت أنوفا، وسللت سيوفا وجمعت بين الناس والندى (٢٠) ، وداورت بين الحياة والردى (٢١) ».

قال عيسى بن هشام : ثم التفت الباشا إلى وقال: أسرع بنا نحو البيت لألبس ثيابى وأتقلد حسامى وأركب جوادى، ثم أعود إلى القلعة فألثم أنيال ولى النعم «الداورى» الأعظم.

الشرطة أو البوليس

ولما غادرنا ساحة القلعة انحدرنا فى الطريق، وبينا نحن نسير إذ تعرض لنا مكارى يسوق حماره، وقد راضه الخبيث على التعرض وسد الطريق على المارة، فكلما سرنا وجدنا الحمار في وجهتنا، والمكارى ينبح بصوت قد بح، حتى أمسك بذيل صاحبى يقول له :

المكارى للباشا - اركب يا أفندى فقد عطلتنى وأنا أسير وراءك منذ ساعتين.

الباشا للمكارى - كيف تدعونى أيها الشقى إلى ركوب الحمار وما رغبت فيه قط وما دعوتك فى طريقى ! وكيف لمثلى أن يركب الحمار الناهق، مكان الجواد السابق !.

المكارى - وكيف تنكر إشارة يدك التى دعوتنى بها وأنت تتكلم مع صاحبك فى طريق «الإمام»، وقد دعيت مرارا من السائرين فلم أقبل منهم، ولم ألتفت إليهم، لارتباطى معك بهذه الاشارة، فاركب معى أو اعطنى أجرتى.

الباشا (وهو يدفع المكارى بيده) - اذهب عنا أيها السفيه، فلو كان سلاحى معى لقتلتك.

المكارى (متسافها فى القول) - كيف تجسر على هذا الكلام ! فإما ان تعطينى أجرتي، وإما أن تذهب معى إلى «القسم»، وسترى هناك ما يعاقبونك به على تهديدك إياى بالقتل.

الباشا لعيسى بن هشام - إنى لأعجب من صبرك على هذا الفلاح السفيه الذى استرسل معنا فى سفاهته ووقاحته فهلم فاضربه بالنيابة عنى حتى تريحه من عيشته وتريحنا منه.

عيسى بن هشام - كيف يكون ذلك وأين القانون وأين الحكام ؟

الباشا - مالى أراك قد شق الخوف قلبك وقطع الهلع انفاسك ، أيعتريك الخوف وأنت معى ؟ إن هذا لعجيب منك !

المكارى (مستهينا) - العفو ! العفو ! من أنت ومن غيرك ؟ ونحن فى زمن الحرية لا فرق بين الصغير والكبير، ولا تفاوت بين المكارى وبين الأمير.

الباشا (لعيسى بن هشام) - ويحك هلم فاضربه أو دعنى اقتله.

عيسى بن هشام - انا لا اضرب أحدا وأنت لاتقتل أحداً مادمت معى . واعلم انه لاتصدر منا «مخالفة» أو «جنحة» أو «جناية» إلا والعقاب من ورائها ، فلا تعجب من طول صبرى واحتمالى، واقول لك ماقاله الخضر لموسى عليه السلام : إنك

لن تستطيع معى صبرا، وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا» ، والطريقة للتخلص من سفاهة هذا السفيه أن أعطيه شيئا من الدراهم فيتحول عنا إلى سوانا ، وأنا أسأل الله أن يبلغنا بيتك بالسلامة.الباشا - لاتعط . هذا الكلب النابح درهما واحدا وقد أمرتك أن تضربه، فإن لم تفعل فأنا أتنزل إلى ضربه وتأديبه، والفلاح لايصلح جلده إلا بجلده.

قال عيسى بن هشام : ثم أمسك «الباشا» بعنق المكارى وأوسعه ضربا، وأخذ المكارى يستغيث وينادى : يا «بوليس» يا «بوليس»، وأنا اجتهد فى إنقاذه من مخالبه، وأستعيذ بالله من شر هذا اليوم، وأقول للباشا : ليس هذا مما يحمد عذبا ، فاتق الله أيها الأمير فى عباده الله . فما أتممت هذا القول حتى رأيته اشتد به الغضب، وتغلبت عليه الحدة، فتغير وجهه، وانقلبت حماليقه (٢٢) ، وتقلصت شفته، واتسع منخره، وضاقت جبهته، ، فخفت أن يحمله جنون الغضب على البطش بى مع المكارى، فتداركت أمرى وقلت له : مثلك أدام الله عزك لايتنزل لمثل هذا الفعل، فأنت أرفع قدرا من أن تمس بيدك الشريفة مثل هذه الجيفة. فسكنت بذلك من حدته ، وعمدت إلى المكارى فوضعت فى يده دريهمات على غير علم من الباشا، وطلبت إليه أن ينصرف عنا، فما أزاد اللئيم بذلك إلا استغاثة بالشرطة واستنجادا «بالبوليس».

الباشا (لعيس بن هشام) - الم اقل لك : إن الفلاح لا يصلحه إلا الضرب ! الم تعلم ! ان غاية ما ينتهى إليه أمره فى رفع الألم عنه أن يعلو صياحه استغاثة بالمشايخ والأولياء !.

ولكن قل لى بالله : هل «بوليس» هذا الذى يناديه ويستغيث به ولى جديد ؟.

عيسى بن هشام ـ نعم إن هذا «البوليس» هو ولى الأمر احتلت فيه القوة الحاكمة .

الباشا ـ لست أفقه هذا المعتى ، فأوضح لى حقيقة هذا «البوليس». عيسى بن هشام ـ هو «القواس» الذى تعرفه.

الباشا ـ وأين هذا «القواس» الذى لا يسمع النداء فإنى أرغب في حضوره ليتلقى أمرى فى هذا الشقى ؟

المكارى ـ يا «بوليس» ! يا «بوليس» ! الباشا (لعيسى بن هشام) ـ هلم لمساعدته فى نداء «القواس».

قال عيسى بن هشام : فقلت فى نفسى كيف أنادى البوليس. وأنا أحمد الله على سكوته، وهو بمقربة منا لا يكترث بنداء لمستغيث ! ثم التفت إلى الباشا وقلت له: إن «البوليس» هو الذى تراه أمامنا وليس يفيد فيه الآن صياح أو نداء ، فإنه مشتغل ببائع الفاكهة كما ترى.

ولما لمح المكارى «البوليس» أمامه أسرع إليه، وتبعه من تجمع حولنا من النظارة، فوجده واقفا وفى يده منديل أحمر، وقد امتلأ بأصناف متنوعة مما جمعه فى صباحه ومن باعة الأسواق فى محافظته على «النظام» ، وهولاه بصاحب الدكان، يأمره أن يضع فى داخلها ما عرضه فى خارجها من «عيدان القصب» وفى يده عود منها يهدده به ، ويهزه فى وجهه هزة

الرمح، ثم هو يضاحك من جهة أخرى طفلا على كتف امراة ويناغيه ، حتى إذا أقبلنا نحوه أقبل علينا والمنديل فى يده «وعود القصب» في الأخرى.

البوليس (للجميع» - ما هذا الصياح فى الصباح ؟ وما هذا النداء وما هذا العناء ؟ كان كل واحد من الأهالى يجب أن يكون له واحد من البوليس خاص بخدمته.

المكارى - أغثنى «يا سعادة الجاويش» فإن هذا الرجل ضربنى ولم يعطنى أجرتى، وأنت تعرفنى فى هذا «الموقف» ، وتعرف أننى لست ممن يتشاجر أو يتخاصم.

الباشا - خذ أيها «القواس» هذا السفيه وضعه فى السجن حت يأتيك أمرى فيه.

البوليس «للمكارى» من أين ركب معك هذا الرجل «يا مرسى»؟

المكارى - ركب معى من جهة «الإمام»، الباشا (للبوليس) - ما هذا الإبطاء فى تنفيذ أمرى ! أسرع به إلى السجن !

البوليس (ضحاكا هازئا) - اظنك أيها الرجل من (مجانيب الحضرة» فى الإمام»، هلم معى إلى القسم؛ فإن هيئتك تنبئ عن إفلاسك وعجزك عن دفع الأجرة.

قال عيسى بن هشام : وجذب الشرطي صاحبى من ذراعه، فكاد يغمى عليه من الدهشة، فلم يدر ما يصنع. وأودع «البوليس» ماكان فى يديه من الفاكهة وغيرها عند الرجل الذى

أودع المكارى حماره عنده، وسار صاحبى مسحوبا بذراع الشرطى. والمكارى خلفهما، والجمع على أثرهم إلى (القسم).

فلما وصلوا إليه صعدوا السلم بدأ المكارى يصرخ ويصيح، فقابله أحد عساكر «المراسلة» فضربه ليسكته؛ لأن «حضرة المعاون» غريق فى نومه. فدخلنا جميعا فى حجرة «الصول» لضبط الواقعة، فوجدناه يأكل والقلم فى أذنه، وقد نزع طربوشه وخلع نعليه وحل أزرار ثيابه ، وبجانبه اثنان من الفلاحين، أظنهما من أقربائه، يشاهدان ما يتمتع به من لذة الأمر والنهى، وسعة سلطانه على الكبير والصغير فى عاصمة القطر، وقاعدة الملك، وما فى قدرته من حبس أى شخص كائنا من كان، وشهادته عليه بما يجرى فى دعواه. فطردنا جميعا من الحجرة حتى ينتهى من طعامه، فخرجنا ننتظر. وأراد الباشا أن يستند على الجدار من شدة ما ألم به من الحزن فخانته يده فسقط فوق جندى كان يكنس الأرض هناك، فأخذ الجندى فى السب والشتم، ودخل إلى حجرة «الصول» هاجما، فقال له : إن المتهم الذى يشتكى منه المكارى تعدى على «فى أثناء تأدية وظيفتى» فضربنى بكل جسمه. فأمر «الصول» بإحضاره، ونادى كاتبه العكسرى فطلب منه أن يحرر «محضرين» : محضر مخالفة، ومحضر جنحة ، وأملى عليه كلاما مصطلحا عليه لم أفهم منه حرفا. وبعد أن شهد «البوليس»، الذى جئنا معه فى محضر المخالفة بما ينفع المكارى فى تأييد دعواه وشهد «الصول» نفسه فى محضر الجنحة بأنه شاهد المتهم يعتدى على أحد عساكر القسم فى أثناء تأدية وظيفته، ختم المحضرين، وأمر بالمتهم أن يؤخذ إلى

خشبة المقاس وتحرير «ورقة التشبيه»، فجاء العسكرى صاحب الدعوى وأخذ بيمين صاحبى، وأجرى ذلك عليه بنفسه، وأذاقه أنواعا من الأذى فى مقاسه. كل هذا والباشا كالمغشى عليه من الدهشة والذهول، حتى إذا أفاق من غشيته التفت إلى يقول :

الباشا - أنا لا أتصور فى هذه الحالة التى أنا عليها إلا أن يكون اليوم يوم حشر، أو أن أكون حالما فى المنام، أو أن يكون «الداورى» الأعظم غضب على غضبا شديدا فأمر بإهانتى على هذه الصورة الشنيعة.

عيسى بن هشام - لابد لك من التسليم والاحتمال على كل حال، حتى تخلص من هذه النازلة بسلام.

قال عيسى بن هشام : ولما وقفنا أمام الكاتب لتحرير «ورقة التشبيه» سأل الباشا : هل له من ضامن يضمنه ؟ فتقدمت نفسى لضمانته، فلم يقبلوا منى إلا بتصديق «شيخ الحارة» . فحرت فى أمرى، ومن أين أجد «شيخ الحارة فى الحال؟ فألقى بعض العساكر فى أذنى أن أخرج فإنك تجد «شيخ الحارة» بالباب، فأعطه عشرة قروش للتصديق على الضمانة. ولحقنى ذلك العسكرى فدلنى على شيخ الحارة، وتوسط بيننا فى مناولة أجرة التصديق ثم اشتغل عنى بمشاركة العساكر فى ضرب أرباب القضايا الذين علا صياحهم وعويلهم ليخرسوهم، خشية أن يوقظوا المعاون من رقاده، ثم مالبثوا أن رأيتهم قد امتنعوا عن الضرب فى أقل من لمح البصر، وتفرقوا مهرولين كأن نازلا نزل عليهم من السماء،

ووجدت من كان بينهم أشد إيذاءً لعباد الله، وأعظم حرصا على راحة المعاون فى منامه، قد هجم على باب الحجرة فدفعه بكل قواه ففتحه، وأخذ يهز السرير هزا عنيفا، فاستيقظ المعاون فزعا وعلم أن «المفتش» قد شوهد داخلا من باب القسم، فأسرع إلى ثيابه فلبسها فى لحظة وهرول إلى استقباله، فلما رآه وقف «وقفة النظام». ولكن كان من نكد طالعه أن ذهل عند لبس «الطربوش» فلم يجعل زره جهة اليمين بل تركه فوق الجبهة، وكان الشعر قد تجدد فى عارضيه لأنه لم يتمكن من حلقه فى يومه، فأخذ المفتش عليه ذلك ودخل إلى الحجرة مغضبا فاشتغل بكتابة تقرير لمحاكمة المعاون على مخالفته فى الزى «للأوامر المستديمة».

ولما رأى الباشا سكون الضرب والصياح مرة واحدة ، وما تولى العساكر من الخوف والاضطراب، وما شاهده من حركات المعاون، سألنى عن شأن هذا الداخل الذى أورث ذلك الانقلاب، فأعلمته بأنه «المفتش» جاء إلى «القسم» للتفتيش والتنقيب فى «الأحوال»، والنظر فى شكوى الشاكين، وتطبيق أعمال العمال على ما يقضى به القانون والنظام، فقال : إذا لندخل إليه لنعرض عليه ما أصابنا من الإهانة. فدخلنا فوقفنا أمامه فوجدناه يكتب فى تقريره، فالتفت إلينا وسألنا عن أمرنا، ولما بدأنا بذكر القصة أمر أحد العساكر بإخراجنا من حضرته، ثم رأيناه قد وضع التقرير فى جيبه بعد كتابته ونزل مسرعا لم يلتفت فى التفتيش والتنقيب لغير زى المعاون.

ولما انصرف عاد الضرب والصياح والضجيج فى أنحاء القسم إلى أشد مما كان عليه قبل حضوره. وصاح أحد المضروبين فى شدة ألمه بأنه لابد أن يشتكى عمال القسم إلى «النيابة» فدخل أحد العساكر إلى المعاون ليخبره بما يقول الرجل، فوضعت أذنى عند الباب فسمعت المعاون يحادث نفسه بقوله : « ما هذه الخدمة وما هذا الذل؟ ولعنة الله على ضرورة الحاجة فى المعاش. ومع ذلك فالحمد لله إذ كان هذا المفتش من الأجانب ولم يكن من «أولاد العرب» فهو خير منهم، لأن عجزه فى فهم اللغة، وجهله بالعمل، جعله يقتصر فى التفتيش على طربوشى ولحيتى، ولو كان من «أولاد العرب» لأطلع على الاختلال الواقع فى القضايا، وما يرتكبه عمال القسم من مخالفة «الأصول».

ثم التفت إلى العسكرى وسمع منه ما ينقله إليه من قول ذلك الرجل الذى عزم على الشكاية إلى «النيابة»، فازداد همه ، واشتد غضبه، فأمر بحبس المتهمين جميعا أربعا وعشرين ساعة والباشا داخل فيهم. فذهبت إلى المعاون وكلمته فيه ليطلقه بعد ضمانتى له، فأبى ذلك وقال لى بوجه معبوس : الأولى أن يبقى فى القسم إلى الغد حتى يكشف على «السوابق» ثم يرسل من هنا إلى النيابة. فدخل الباشا الحبس مع الداخلين.

النيابة

قال عيسى بن هشام. ولما تركت صاحبى فى حبسه وذهبت إلى دارى بت طول ليلتى أنى هم وأرق، وقضيت رقادى

فى اضطراب وقلق، لما أصـــاب الرجل من ضـــربات الدهر المتتالية، وهو غريق فى دهشته وحيرته لا يدرك مضى الزمن، ولا يدرى ما الحال، ولا يعلم بتغيير الأمور، وما أحدثه الدهر بعد عهده، وزوال دولته من تبدل الأحكام وانقلاب الدول.

وكنت هممت أن أكاشفه بشرح الأحوال وتفصيل الأمور عند أول مصاحبتى له لولا مادهمنا به القضاء المحتوم، فأوقعنا فيما ألم بنا.

ثم فكرت بعد ذلك فكان من حسن التدبير وسداد الرأى عندى أن يبقى الرجل جاهلا بالأمر حتى ينتهى من خطبه، ويكون جهله بتغيير الأحوال قائماً بعذره فى التخلص من محاكمته، ثم عقدت العزيمة على أنى لا أفارق صحبته بعد ذلك حتى أريه مالم ير، وأسمعه مالم يسمع،، وأشرح له ماخفى عليه وغمض من تاريخ العصر الحاضر، لأطلع على مايكون من رأيه فيه عند مقابلته بالعصر الماضى، ولأعلم أى العهدين أجل قدرا، وأعظم نفعا، وما الفضل الذى يكون لأحدهما على الاخر. فبكرت إلى القسم فى اليوم الثانى وحملت معى ما يليق بصاحبى من الثياب ليرتديها عند خروجه من حبسه، فوجدت العسكرى، يستعد به للذهاب إلى قلم (السوابق) فى دار المحافظة، فلما بصر بى نادانى بقوله:

الباشا - ما هذه الخطوب والملمات ! وقد كنت أظن أن ما وقع لى أمس كـان لسخط ولى نعمتنا «الداورى» الأعظم، وغضبه على عبده، بمكيدة كادها لى أعدائى، أو فرية افتراها حسادى، فلذلك صبرت لحكم الضرورة، وامتثلت على تلك

الصورة، حتى أتمكن من التشرف بالأعتاب، والمثول بين يدى مالك الرقاب، فأزيل الشبهة، وأنفى الريبة، وأبرأ له مما رمانى به الساعى والواشى، وأجلى له حقيقة عبوديتى، وإخلاصى، فيضاعف على رضاه لحسن ما قمت به من الطاعة فى احتمال هذا الهوان.

طال منى تحمل خلت أنى

قابض من أذاته فوق جمر

ثم إنى أعمد بعد ذلك إلى إفشاء العقاب عقاب القتل والصلب فى هؤلاء الأدنياء السفهاء والأشقياء والأغبياء جزاء ما اجترءوا عليه فى معاملتى، واقترفوه من جهل منزلتى.

ولكنى سمعت فى الحبس - ويا سوء ما سمعت وعلمت - ويا شر ما علمت ! أن الدول دالت، والأحوال حالت. وأنكم أصبحتم فى زمان غير ذلك الزمان، وفى حال من الفوضى يصح فيها قول ذلك المكارى : «إنه هو والباشا فى المنزلة سواء» وتلك التى :

تصم السميع وتعمى البصير

ويسأل من مثلها العافيه

فاللهم عفوك وصفحك، هل قدامت القيامة وحان الحشر! فانطوت المراتب وانحلت الرياسات، وتساوى العزيز بالذليل، والكبير بالصغير، والعظيم بالحقير. والعبد بالمولى، ولم يبق لقرشى على حبشى فضل، ولا لأمير منا على مصرى أمر. ذلك،

مـالا يكون، ولا تحـتـمله الظنون. ثـم أعلم أيهـا الرجل أن ذنب أولئك السفهاء فيما جنوه على لايعد فى جانب ذنبك عندى إلا كالخردلة من الصخر، والقطرة من البحر، لكتمانك على الأمر، حتى دخلت بى بلدا هذا حاله وذاك شأنه، وأعوذ بالله منك ومن شياطين الجن.

عيسى بن هشام ـ إنما أقول لك أيها الأمير أيضا ماقاله موسى للخضر عليهما السلام: «لاتؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا» ، ولقد نزل بى من الخوف والذهول عند انتشارك من القبر ما أورثنى التبلد والتحير، ومنعنى عن تبصرتك بالواقع، وتنبيهك إلى ما تغيرت به الحال من بعد عهدك، وما كدت أنتبه إلى تعريفك بها حتى ذهبنا بذلك المكارى، ودهمنا بتلك الحادثة، فلا ذنب لى فيما أتيت، والعذر مقبول لديك، فاصبر على ماتلاقيه، واحتمل ما أنت فيه. وتقبل القضاء، بوجه الرضاء، ولا تأس على مافات لتكفر عن السيئات.

العسكرى (للباشا) ـ هلم إلى «السوابق» الباشا ـ سبحان العزيز القادر، أترى قد زال عنى بؤسى، وإنقشع نحسى، ورجع إلى عزى، فجاءونى بموكبى وخيلى !!

عيسى بن هشام : ليس المقصود «بالسوابق» تلك الجياد الصافنات، والعتاق الصاهلات، وإنما هو ديوان تقيد فيه سحنة المتهم وسماه، ويكشف فيه عما جنته يداه.

العسكرى (للباشا) وهو يسحبه ـ لاتطل فى الكلام وامش معى ساكتا ساكتا.

الباشا و «هو يمتنع» - ما الحيلة فى القضاء ؟ وما العمل فى المقدور ؟ وكيف الخلاص وأين النجاة؟ ومن لى بالموت ثانية ليردنى إلى راحة القبر؟.

عيسى بن هشام (وهو يتضرع) - أقسمت عليك بدفين القلعة، ووقع سيوفك فى المعمعة، إلا ما قبلت نصيحتى، وعملت بمشورتى، فلا تعارض ولا تعاند، فإن الأمتناع لا يفيد، ولا يزيدنا فى ملمتنا إلا شدة. والعقل يرشدنا أن نسلم للأقدار حيث لاعمل، وأن نلبس لكل حالة لبوسها، إما نعيمها وإما بؤسها.

الباشا (ممتثلا) - اللهم لا رأى مع القضاء.

قال عيسى بن هشام: وسرنا مع العسكرى فوصلنا إلى «قلم السوابق وتحقيق الشخصية». فرأى الباشا هناك من الشدة ما تنخلع له القلوب، وتشيب منه النواصى، فجرده من ثيابه، وفحصوا بدنه عضوا عضوا، وقاسوا وجهه وجسده، وحدقوا فى عينيه، وصنعوا به ما صنعوا، وهو يتنفس الصعداء حتى انتهوا من عملهم. ثم سألوا عن ضمانته فلم يجدوا له ضمانة، لأن المعاون - قاتله الله - رد شيخ الحارة عن التصديق على ضمانته، ليجوز له الحبس، فارسلونا مع العسكرى إلى النيابة.

ولما دخلنا على النائب وجدنا معه قضايا جمة، وأصحابها مزدحمون ينتظرون نوبتهم، فانفردنا ناحية ننتظر نوبتنا أيضا، والتفت إلى صاحبى يسأل ويستفهم.

الباشا ـ أين نحن الآن .. ومن هذا الغلام .. وما هذا الزحام ؟

عيسى بن هشام ـ نحن أمام النيابة وهذا عضو النيابة، وهؤلاء أرباب الدعاوى.

الباشا ـ ما النيابة ؟

عيسى بن هشام ـ النيابة فى هذا النظام الجديد هى سلطة قضائية مكلفة بإقامة الدعاوى الجنائية على المجرمين بالنيابة عن الهيئة الاجتماعية ، والغرض من إنشائها ألا تبقى جريمة بلا عقوبة. ووظيفتها أن تدافع عن الحق، فتظهر ذنب المذنب، وتكشف عن براءة البرئ.

الباشا ـ وما «الهيئة الاجتماعية» التى تنوب عنها ؟

عيسى بن هشام ـ هى مجموع الأمة. الباشا ـ ومن هذا الأمير العظيم الذى اتفقت الأمة عليه لينوب عنها ؟

عيسى بن هشام ـ ليس هذا الذى تراه بأمير ولا بعظيم من عظماء الأمة، إنما هو أحد أبناد الفاحين، ارسله أبوه إلى المدارس فنال الشهادة فاستحق النيابة، فتولى فى الأمة ولاية الدماء والأعراض والأموال.

الباشا ـ نعمت المنزلة عند الله منزلة الشهادة وللشهيد فى الجنة أعلى الدرجات. ولكن كيف تتصور عقولكم ـ وأظنكم فقدتموها ـ أن تجتمع الشهادة فى سبيل الله والحياة فى الدنيا

لأحد من الناس؟ ومن الذى يفوق ذلك عجبا ويزيد العقل خبالا أن يحكم الناس فلاح، وينوب عن الأمة حراث! ويشهد الله أننى خرجت من شدة إلى شدة، وانتهيت من خطب إلى خطب، فسلمت وصبرت، ولكن لاصبر لى على هذه الخارقة، فما أعظم الفاجعة وأشق النازلة لقد فنى منى الصبر، ومن لى بفناء القبر؟

عيسى بن هشام - اعلم أن هذه الشهادة ليست بشهادة الجهاد، بل هى ورقة يأخذها التلميذ فى نهاية دروسه، ليثبت بها أنه تلقى العلوم وبرع فيها، وقيمتها لمن يريد الحصول عليها ألف وخمسمائة فرنك فى بعض الأحيان.

الباشا - مه مه كأنك تريد الإجازة التى يجيزها علماء الأزهر لمن تلقى عليهم العلوم من الطلبة وفاق فيها. غير أننا ما سمعنا فى دهرنا بهذه الأثمان، وما عهدنا أن الأزهر الشريف يعرف ما الفرنكات، أو يفقه من العملة سوى الجرايات !!

عيسى بن هشام - ما هذه العلوم بعلوم الأزهر، ولكنها علوم إفرنجية يتلقونها فى بلاد الإفرنج. والفرنك عملة تلك البلاد ويقال لتلك القيمة عندهم رسم الشهادة، وهى قيمة لاتذكر بالنسبة إلى كثرة فوائدها، لأن القاعدة فى هذا النظام «أن الشهادة بلا علم خير من العلم بلا شهادة»، وصاحب الشهادة إذا قدمها للحكومة يكون له الحق فى الاستيلاء على مرتب وظيفة يزيد على الدوام ويرقى.

الباشا : الان كدت أفهم، وأظن هذه الشهادة تعادل «أوراق الالتزام» و «سراكى» الروزنامجه» فى أيام حكومتنا.

قال عيسى بن هشام: وبينا نحن فى هذا الحديث إذا بشابين رشيقين رقيقين قد أقبلا يخطران فى مشيتهما، والطيب ينتشر فى الجو من أردانهما، وهما يصعران [٢٣] خديهما كبرا واختيالا، ولا يلتفتان إلى من حولهما تيها وإعجابا، أحدهما يشق الهواء بعصاه، والثانى تلعب «بالنظارة» يداه. فشخصت إليهما الأنظار، وتحولت نحوهما الأبصار والحاجب من امامهما يدفع الناس من طريقهما، حتى وصلا إلى باب النائب فقام لهما عن مجلسه وأمر بأرباب القضايا أن ينصرفوا من حضرته، واشتغل الحاجب بسحبهم وجرهم، وطردهم ونهرهم، واشتغل النائب بطى المحاضر ورفع المحابر، حتى خلا لصاحبيه من كل شغل وعمل.

الباشا (لعيسى بن هشام) - يظهر لى أن هذين الشابين من أكبر أولاد الأمراء، أو انهما مفتشان للنيابة كما رأينا المفتش للقسم.

عيسى بن هشام - ما أظنهما إلا زائرين من قرناء النائب فى المدرسة كما يظهر لى من شمائلهما.

الباشا - وهذا أعجب وأعجب !

قال عيسى بن هشام : وأردت أن أخبر خبرهما، وأكشف أمرهما، فانتهزت فرصة التزاحم بين الناس واشتغال الحاجب

بهم، فانزويت عقب الباب من وراء الستار بحيث أسمع وأرى، فسمعت هذه المحاورة بينهم :

الزائر الأول (بعد السلام والجلوس) لماذا تركتنا أمس أيها الخبيث من قبل أن ينتهى اللعب ؟

النائب ـ لأنه كان قد مضى من الليل أكثره، عندى من القضايا ما يضطرنى إلى التبكير.

الزائر الثانى ـ وهل سمع أحد أن القضايا تعوق الإنسان، عن مجالسه الإخوان؟ ومثل هذا العذر يعتذر به لغير الواقفين على أعمال النيابة. أو لم تعلم أن فلانا وفلانا وسواهما من أقرانك لا تستغرق منه قضايا اليوم كله أكثر من ساعة واحدة ؟ وأخص بالذكر منهم فلانا فإنه يكتفى بأن يمر عليها بلحظة منه، ويستغنى عن مطالعتها، ويرتكن على توقد ذهنه، ونباهة قريحته، وكثرة تمرنه للإحاطة بفهمها. وما دام الشقاق والنزاع قد انتهى أمره بين النيابة والبوليس فالأولى الاكتفاء بمحاضر البوليس أو إعادتها إليه لاستيفائها، ولا محل لتجديد التحقيق بعده، وتضييع الوقت سدى فيما عساه أن يولد الشقاق أو يعيد النزاع مرة أخرى.

النائب ـ ذلك ما أفعله، ولكن لابد من التسمك «بالظواهر والأصول» على قدر الإمكان .

الزائر الأول ـ أفما عندك الكاتب يقوم فى ذلك مقامك ويكفيكه ؟

النائب ـ صدقت إن الكاتب ليكفى والقول الصحيح أن السبب فى مفارقتكم أمس وفى ترك اللعب هو أننى خسرت ما كان معى من مرتب الشهر، ونحن لا نزال فى أوائله.

الزائر الأول ـ تلك هى عادتك فى ادعاء الخسارة دائما مهما ربحت ومهما كسبت، وما سمعت منك فى عمرى إلا أنك خسران. أفلم تربح منى فى «اليد الأخيرة» التى كانت بيننا خمسة جنيهات؟

النائب ـ وحق شرفى ونمتى ومستقبلى إنى قمت من عندكم أمس بالخسارة.

الزائر الثانى ـ ما علينا. ولكن قل لى : هل أنت لا تزال على وعدك معنا فى التوجه إلى صاحبنا لمشاهدة الرقص البلدى من فلانا المشهورة ؟

النائب ـ أسألك المسامحة فإنه لا يمكننى ذلك، أولا : لأن هذا الرقص الذى يعجب أولاد البلد والفلاحين لا يعجبنى، وثانيا : لأنى دعوت «مادموازيل فلانة» المشخصة فى «الأوبرا» مع فلانة وفلان المشخصين لتناول الغذاء فى الأزبكية عند «سانتى»، وسنذهب بعد ذلك إلى «خان الخليلى» وبعض الأماكن القديمة من البلد للتفكه والتسلى.

الزائر الأول ـ دعواك الآن أنه لم يبق معك من مرتب الشهر شئ، فكيف لك بما يلزم لمثل هذا من النفقات ؟

النائب ـ فاتنى أن أذكر لكما أن معنا فلانا المحامى ومعه صاحبه العمدة.

الزائر الثانى ـ وكيف يميل هذان الشخصان إلى مثل هذا المجلس الافرنجي او يستريحان له، وهما لا يعرفان شيئا من اللغات والاصطلاحات الأوربية ؟

النائب ـ ألم تعلم يا أخى أن امنية المحامى أن يكون مصاحبا لأهل القضاء، وأمنية الفلاح أن يتحكك بنا ؟ والرغبة عند أمثالها عظيمة فى حضور المجالس الأفرنجية وإن كلفهم ذلك ما كلفهم وخرجوا منها على غير فائدة لهم.

الزائر الأول (مقتضبا) ـ من أين اشتريت هذا «الكرافات» (رباط الرقبة). ؟

النائب ـ ما اشتريته يا «مونشير» (عزيزى) وإنما جاءنى مع ملابسى من عند الخياط في باريس وهو من آخر طرز

الزائر الثانى ـ هل بلغك زواج فلان بمعشوقته ؟

الزائر الأول ـ هل ركبت مع فلان فى «الأوتوموبيل» ؟

النائب ـ قد وقفت لكما على سبب انتحار ابن فلان المتمول.

الزائر الأول ـ أنا أعرفه، فهو الغرام.

النائب ـ لا.

الزائر ـ المال ؟

النائب ـ لا .

الزائر ـ المرض ؟

النائب ـ لا . وإنما هى سنة جديدة فى شبان باريس اقتدى المسكين بها.

الزائر الأول ـ وأنا وقفت لكما على سبب استعفاء فلان من وظيفته.

النائب ـ سيرته ؟

الزائر لا .

النائب ـ وظيفته ؟

الزائر ـ لا.

النائب ـ فرنسويته ؟

الزائر ـ لا . وإنما هى «إنكليزيته».

المحامى الأهلى

قال عيسى بن هشام : فسئمت من هذا الكلام الفارغ والحديث المقتضب، وانتهزت دخول الحاجب، فخرجت من مكمنى وعدت إلى الباشا صاحبى، فوجدت بجانبه أحد سماسرة المحامين قد التصق به وهو يحاوره. فوقفت عن بعد أسمع ما يدور بينهما:

السمسار ـ أعلم أن المحامى يدير القضاء فى يده بما يريد، فيعاقب من يشاء ويبرئ من يشاء، وما أعضاء النيابة

وقضاة الجلسات إلا طوع إشارته، ورهن كلمته، وكالخاتم فى أصبعه، فلا حكم إلا بقوله، ولا قضاء إلا بأمره. وأنت، على ما أراك، رجل غريب حقيق بالرحمة والشفقة، ولا يليق بالمروءة أن أدعك طعمة فى أيدى بعض المحامين من أهل الطبقة السفلى، الذين اعتادوا سلب أموال الناس بطرق الغش والاحتيال، وكاذب الوعود والآمال، ولى صاحب معروف بين طائفة المحامين بالصدق والأمانة، وله مقام سام بين القضاة والحكام، فهو صديق الناظر وجليس المستشار، ونديم القاضى، وخدين النائب، ووكيل «البرنس». لوشاهدته يا سيدى مرة واحدة فى اجتماعه معهم فى السهر والسمر، ورفع الكلفة بينه وبينهم فى ساعات الأنس وأوقات السرور، يشاربهم، ويواكلهم، ويمازحهم ويفاكههم، ويناطرهم ويقامرهم، لايقنت فى الحال أن كل طلب له يجاب، وليس لأمره من راد، فالمجرم برئ والبرئ جان على حسب المراد، فقل لى حينئذ عن مقدار ما تستطيع دفعه من «مقدم الأتعاب» فى تبرئتك من تهمتك، والانتقام لك من عدوك.

الباشا ـ أنا لا أعرف المقدم ولا المؤخر، ولم يخبرنى صاحبى عن هذا الحاكم القادر الذى تصفه لى فأذا استفهمت عنه.

السمسار (مقاطعا) ـ لا لزوم للاستفهام من أحد، فها هو ذا حضرة المحامى قد أقبل لمقابلة «النائب العمومى»، فأنا أستوقفه لحظة للنظر فى شأنك.

ويسرع السمسار لمكالمة المحامي بعد أن يوسع له في الطريق، ويسلم عليه بسلام الأمراء حتى يصل به إلى جانب الباشا.

المحامى (بصوت عال) ـ أنا لا أستطيع قبول التوكيل عن أحد فى هذه الأيام لتراكم الأعمال وتزاحم القضايا، فلم يبق عندى وقت للطعام والشراب، فكيف تكلفنى أن أقبل التوكيل عن صاحبك فى هذه القضية الصغيرة، وقد رفضت فى صباحى هذا خمس قضايا لها شأن عظيم ؟.

السمسار ـ سألتك بحق الإنسانية، وحرمة المروءة، وبما جبلت عليه من الحنو والشفقة على الضعفاء، أن تأذن لأحد عمال مكتبك بمباشرة هذه القضية، إن لم تتنازل لمباشرتها بنفسك، فإن المقصود هو تأثير اسمك وصيتك فى المحكمة.

المحامى ـ لا أرى فى ذلك باسا للعناية بك والشفقة على صاحبك . (وينصرف المحامى بعد مصافحته للباشا).

السمسار (للباشا) ـ هلم فادفع عشرين جنيها.

الباشا ـ ليس عندى الآن شئ من الدراهم .

السمسار ـ أعطنى تحويلا.

الباشا ـ أنا لا أفهم لك كلاما فاذهب عنى فقد ضقت بك ذرعا.

السمسار ـ كيف أذهب عنك وقد تم لك الاتفاق مع حضرة المحامي أمامي؟

الباشا ـ أنا لم أتفق مع أحد فاتركني وانصرف.

السمسار ـ كيف تنكر اتفاقك مع المحامي بعد أن وضعت يدك في يده!

الباشا ـ عفوك اللهم ولطفك! ومن يصبر على هذه الحال؟ أشرت بيدي في حديثي مع صاحبي، فوقعت في حادثة المكاري وصافحت المحامي، فصرت مدينا بعشرين جنيها. ففي أي العوالم أنا. وبين أي المخلوقات!

قال عيسى بن هشام: ولما رأيت لوائح الغضب بدت على وجه الباشا خشيت أن يقع مع السمسار في حادثة أخرى، فأدركته، ووبخت الرجل على احتياله، وتوعدته بالشر ورفع الأمر إلى النائب العمومي إن لم ينته عنا، فخلفنا وانصرف.

ونادى الحاجب أرباب القضايا فدخلنا فوجدنا النائب لازال لاهيا في حديثه مع زائريه، وأشار لنا بالتقدم إلى الكاتب، فتقدمت مع صاحبي، وشرعت في بسط القضية، وبيان ما قاسيناه من سوء معاملة «البوليس» وقبح افترائه، فالتفت النائب إلى الكاتب وقال له: لا تقبل كلاما في «البوليس» ولا تسمع فيه طعنا، بل خذ بأقواله واستمسك بتحقيقه. ثم نظر في الساعة فوجد الميعاد قد حل فأخذ عصاه، ولبس طربوشه، وخرج يهرول مع صاحبيه. فقلت لصاحبي: الآن وجب أن

أذهب للبحث عن أحد المحامين الصادقين من أصحابى للمدافعة عنك.

الباشا - قل لى بالله ما هو المحامى عندكم ؟ عيسى بن هشام - هو وكيل الحكم والمخاصمة، يتكلم مكانك بما تعجز عنه ويدافع عنك بما لم تعلمه، ويشهد لك بما لم يخطر ببالك، وصناعته هذه صناعة شريفة يمارسها كثير من الفضلاء اليوم بيننا، ولكن قد دخل فى الصناعة جماعة ليسوا من أهلها، فاتخذوا الخداع والاحتيال بضاعة للتكسب، مثل هذا المحامى وسمساره، وهؤلاء بعينهم هم الذين يعنيهم علاء الدين الكندى بقوله :

ما وكلاء الحكم إن خاصموا
إلا شياطين أولو باس
قوم غدا شرهم فاضلا
عنهم فباعوه على الناس

المحكمة الأهلية

قال عيسى بن هشام: ولما حل يوم الجلسة رافقت الباشا إلى المحكمة فوجدنا فى ساحتها أقواما ذوى وجوه مكفهرة، وألوان مصفرة، وأنفاس مقطوعة، وأكف مرفوعة. وشاهدها باطلا يذكر، وحقا ينكر، وشاكيا يتوعد، وجانيا يتودد. وشاهدا يتردد، وجنديا يتهدد، وحاجبا يستبد، ومحاميا يستعد، وأما

تنوح، وطفلا يصيح، وفتاة تتلهف، وشيخا يتأفف. وسمعنا ألفاظا متناقضة، وأقوالا متعارضة. ورأينا المحامين عن الخصمين يشحذ كل منهما لسانه ، ويقدح جنانه؛ استعدادا للنزاع، في ميادين المقال، وتأهبا للدفاع. في مواقف النزاع؛ ليخرج كلاهما بغنيمة البراءة في الحكم، ورفع التهمة والجرم.

فانزويت بصاحبي، ومحامينا بجانبي، يذكر لنا «أصولا مرعية»، و «مسائل فرعية»، وظروفا وأحوالا، وشروحا وأقوالا، ومواد وفقرات، في الجنح والمخالفات. ثم يتصفح محاضره، ويقلب دفاتره، ويقسم لنا بوكيد الإيمان، أن الباشا من تهمته في أمان. وأنا أجيب صاحبي عن كل سؤال، بما تقتضيه الحال، ولما سألني عن هذه الملحمة، قلت له هي المحكمة.

الباشا ـ قد كان العهد بالمحكمة الشرعية وبيت القاضي على غير ما أرى، فهل أصابها الدهر فيما أصاب بالتغيير والانقلاب؟

عيسى بن هشام ـ هذه المحكمة الأهلية لا المحكمة الشرعية.

الباشا ـ وهل للقضاء بين الناس غير المحكمة الشرعية ؟

عيسى بن هشام ـ للقضاء في هذه البلاد على ما تشتهي محاكم متعددة، ومجالس متنوعة: فمنها المحاكم الشرعية، والمحاكم الأهلية، والمحاكم المختلطة، والمجالس التأديبية والمجالس الإدارية، والمجالس العسكرية، والمجالس القنصلية، دع المحكمة المخصوصة.

الباشا ـ ما هذا الخلط وما هذا الخبط ؟ وسبحان اللّه ! هل أصبح المصريون فرقا وأحزابا، وقبائل وأفخاذا، وأجناسا مختلفة، وفئات غير مؤتلفة، وطوائف متبددة، حتى جعلوا لكل واحدة، محاكم على حدة؟ ما عهدناهم كذلك فى الأعصر الأول، مع دولات الدول.

وهل انطمست تلك الشريعة الغراء ؟ واندرست بيوت الحكم والقضاء ؟ اللهم لا كفران ولعن اللّه الشيطان!

عيسى بن هشام ـ ليس الأمر على ما تتوهم وتتخيل، فلم يتفرق المصريون فرقا، ولم يتوزعوا شعوبا، بل هم أمة واحدة، ولهم حكومة واحدة، يقضى نظام الأمور فيها بهذا النسق والترتيب فى القضاء والحكم، وأنا أشرح لك جملة الحال شيئا قليلا.

أما المحاكم الشرعية فقد جردت من النظر والحكم فى عامة المخاصمات، واقتصر العمل فيها على الأحوال الشخصية؛ أعنى مسائل الزواج والطلاق وما يدخل فى هذا الباب.

الباشا ـ تاللّه لقد فسد الحال وانحل النظام ! وكيف يعيش الناس ويستقر لهم حال بغير شرع اللّه وسنة نبيه ؟ وهل أصبحتم فى الزمن الذى يعنيه القائل بقوله :

قد نسخ الشرع فى زمانهم

فليتهم مثل شرعهم نسخوا

عيسى بن هشام ـ لم ينسخ الشرع ولم يرتفع حكمه، بل هو باق على الدهر ما بقى فى العالم إنصاف وفى الأمم عدل. لكنه كنز أهمله أهله، ودرة أغفلها تجارها، فلم يلتفتوا إلى وجوه تشييده وتمكينه، وتمسكوا بالفروع دون الأصول، واستغنوا عن اللب بالقشور، واختلفوا فى الأحكام، وعكفوا على الاشتغال بسفساف الأمور، وتعلقوا من الدين بالأغراض الحقيرة، والأقوال الضعيفة، وتركوا الحقيقة إلى الخيال، وتعدوا الممكن إلى المحال، فكان من أكبرهم العالم العلامة فيهم، والحبر الفهامة منهم، أن يبدع فى التفنن للإغماض فى الحق الأبلج [٢٤] والتعقيد فى الحنيفية السمحة، ولم ينتبهوا يوما إلى ما تجرى به أحكام الزمن فى دورته، ولم يفقهوا أن لكل زمن حكما يوجب عليهم تطبيق أحكام الشرع على ما تستقيم به المصلحة بين الناس ، بل ظلوا واقفين عند الحد الأدنى لا يتزحزحون ولا يتلحلحون، معتقدين أن الدهر دار دورته ثم وقف، وأن الزمن تحرك حركته ثم سكن، فلا أمل فيه ولا عمل، فكانوا سببا فى تهمة الشرع الشريف بخلل الحكم، ووهن [٢٥] العقد، وقلة الغناء فيه، لإنصاف الناس فى معايشهم ومرافقهم، على حسب ما تتجدد به حالات الزمن، وتتخالف عليه أشكال العصور. ومن هنا تولدت الحاجة إلى إنشاء المحاكم الأهلية بجانب المحاكم الشرعية.

الباشا ـ ما أظن إلا يكون لأهل الشرع وأصحاب التفقه فى الدين عذر واضح فى النزول إلى هذه الحالة السيئة من

معارضة معارض، ومنازعة منازع ، أو جور سلطان قاهر، وعسف حاكم قاسر، فصدهم عن سواء السبيل، وأرعاهم هذا المرعى الوبيل.

عيسى بن هشام ـ لم يكن من ذلك شئ على الإطلاق؛ فالإرادات مختارة، والأفكار مطلقة، والنفوس مطمئنة، والأوراح آمنة.

وليس الفساد ناشئا عن طوارئ الزمان، وطوارئ الحدثان، ولكنه فساد فى التربية عم أمره وانتشر، وانحطاط فى الأخلاق عظم بلاؤه واشتهر، سكنت إليه نفوسهم، وارتاحت به ضمائرهم، وقد تمكن منهم داء التحاسد والتباغض، ودبت بينهم عقارب التشاحن والتضاغن [٢٦] ، واستولى على قلوبهم الجبن والخور [٢٧] ، وعلى عقولهم الضعف والخبل، وعلى نفوسهم الفتور والكسل، فوصلوا إلى الحالة التى يرون بها السنة بدعة، والبدعة سنة، والفضيلة نقيصة، والنقيصة فضيلة، وأقاموا يتعسفون فى الحكم ولا ينصفون، ويتفكهون فى الدين ولا يتفقهون. وصرفهم حب المال، عن صالح الأعمال. وألهاهم ما يدخرونه من زخرف الحياة الدنيا ، عما يدخر لهم فى الدار الأخرى. فنحن الذين فعلنا كل هذا بأنفسنا ، منا الإثم والوزر، وعلينا الذنب والإصر [٢٨] .

وأما المحاكم الأهلية فهى القضاء الذى يقضى على الرعية اليوم فى جميع الخصومات طبقا لنص القانون.

الباشا ـ «القانونى الهمايونى» ؟

عيسى بن هشام ـ القانون «الإمبراطورى» الباشا ـ ما عهدت منك أن تعجم وتبهم !

عيسى بن هشام ـ لا إعجام ولا إبهام، فهو قانون نابليون إمبراطور الفرنسيين».

الباشا ـ وهل عاد الفرنسيين فأدخلوكم تحت حكمهم وسلطانهم مرة أخرى ؟

عيسى بن هشام ـ لا . وإنما نحن الذين أدخلنا أنفسنا فى حكمهم ؛ فاخترنا قانونهم ليقوم عندنا مقام شرعنا.

الباشا ـ وهل هذا القانون ينطبق حكمه على حكم الشرع الشريف والسنة المطهره، وإلا فإنهم يحكمون فيكم بغير ما أنزل اللّه ؟

عيسى بن هشام ـ المسألة فيها خلاف. فالاجماع تام عند علماء الشريعة فى السر والنجوى، على أنه مخالف للشرع، وأن كل من يقضى به داخل تحت نص الآية الشريفة: «ومن لم يحكم بما أنزل اللّه فأولئك هم الفاسقون». ولكن يظهر أنه مطابق عندهم للشرع، فى حالة الجهر والعلن، بدليل ما أعلنه أحد كبرائهم عند نشر هذا القانون، وهو يومئذ مفتى نظارة الحقانية، فقد أقسم الإيمان المغلظة على فتواه التى أفتاها بأن هذا القانون الفرنسى غير مخالف للشرع الإسلامى.

وإن كان لا عقاب فى هذا القانون على الفسق واللواط مع رضا المفسوق بن إن تجاوز عمره الثانية عشرة بيوم واحد، ولا عقاب فيه على من يزنى بأمه إذا هى رضيت وكانت غير متزوجة، وهو الذى يعد الأخ مجرما جانيا إذا تعرض لحماية عرض أخته والمدافعة عنه، وكذلك بقية أهلها ما عدا زوجها، وهو الذى لا يعاقب الزوج إذا سرق من امرأته، ولا المرأة من زوجها، ولا الولد من أبيه، ولا الأب من ابنه.

وأما المحاكم المختلطة - وقضاتها من الأجانب - فهى تختص بالنظر فيما يقع من الخصومات بين الأهالى والأجانب، وبين الأجانب وبعضهم فى الحقوق المدنية، وأعنى فى قضايا المال. ولما كان الأجانب هم أحق وأولى بالغنى لسعيهم وجدهم، وكان المصريون أخلق بالفقر وأجدر لإهمالهم وتوانيهم، كأن معظم القضايا التى تحكم فيها هذه المحاكم لا بد أن تنتهى بسلخ المصرى من ماله وعقاره.

وأما المجالس التأديبية، فهى تختص بالنظر فى عقاب الموظف الذى يخل بتأدية وظيفته - وهى تتألف فى الغالب من نفس الرؤساء الذين يتهمونه - وحدها فى العقاب الرفت والحرمان من المعاش؛ وما بقى من درجات العقاب، فالنظر راجع فيه إلى المحاكم الأهلية.

وأما المجالس الإدارية، فهى تختص بعقاب من يخالف اللوائح والأوامر والمنشورات، وشرح ذلك يطول.

وأما المحاكم العسكرية، فهى تختص بالنظر فى عقاب

المتهمين من الضباط والجنود وتحكم أيضا على الأهالى فى مسائل القرعة وما شاكلها.

وأما المحاكم القنصلية، فهى تختص بالنظر فى الجنح التى تقع من الأجنبى على المصرى، ومن الأجنبى على الأجنبى من جنس واحد؛ فإذا وقع جناية من أجنبى على مصرى فليس لها فى مصر من حكم أو عقاب، ولا تختص أى محكمة من هذه المحاكم التى عددتها لك بالنظر، بل يرتد الجانى بالقضية إلى وطنه ومسقط رأسه وديار قومه، فينظر قضاته هناك فى أمره، والغالب فى مثل هذه الحال عندهم أن ينتهوا بتبرئة المجرم بعلل معلومة مثل: «عدم ثقتهم بتحقيق البوليس المصرى، وضياع معالم القضية وعدم توفر الشهود».

وأما المحكمة المخصوصة، فهى تختص بمعاقبة الأهالى عند تعديهم على الجنود الأجنبية.

الباشا ـ مازلت تسمعنى الغريب، وتفهمنى غير مفهوم، ومن أعجب ما سمعت أن المصرى يتعدى على الجندى.

قال عيسى بن هشام : وبينما نحن فى هذا الحديث إذ ارتج المكان، ويتماوج الزحام ويقبل القاضى، وهو فى عنفوان شبابه، وصبا أيامه، يتألق وجهه حسنا، ويشاكل فى القد غصنا، وكأنه طائر فى مشيته، من نشاطه وخفته. ولما دخل الجلسة ذهبت أسأل عن نوبة القضية، ثم عدت إلى صاحبى، ومكثنا فى الانتظار زمنا طويلا إلى أن جاء وقتنا، ونودى الباشا، فدخل مع المحامى فى الجلسة، وقام النائب فطلب الحكم على المتهم بمقتضى مادتى ١٢٤ و ١٢٦ عقوبات لتعديه

بالضرب على أحد رجال «الضبطية القضائية» فى أثناء تأدية وظيفته، وبالمادة ٣٤٦ مخالفات لتعديه على المكارى بالإيذاء الخفيف.

القاضى «للمتهم - هل فعلت هذه التهمة؟

المتهم - لم أفعل.

قال عيسى بن هشام : وجاءوا بى شاهدا، فسألنى القاضى عما أعلمه فى هذه الواقعة فأجبته؟

عيسى بن هشام - إن لهذه الحادثة قصة عجيبة وحكاية غريبة وهى أنه.

القاضى (مقاطعاً) - لا لزوم لتفصيل القصة والحكاية، قل لى «معلوماتك» فيها .

عيسى بن هشام - «معلوماتى» هى أننى كنت أزور المقابر ذات ليلة وقت الفجر أبغى الموعظة وأنشد الاعتبار.

القاضى (مستثقلا) - لا لزوم لكثرة الكلام، أجبنى عن النقطة التى سألتك عنها فقط.

عيسى بن هشام - ذلك ما أفعله من حكاية الواقع، وهو أنى رأيت رجلا خرج من ...

القاضى (متململا) - قلت لك : إنى لا أقبل التطويل ولا الشرح فى الواقعة، ولكن هل ضرب المتهم العسكرى والحمار؟

عيسى بن هشام - ما ضرب المتهم الحمار، إنما دفعه

عنه من شدة إلحاحه، وما ضرب العسكرى، وإنما سقط عليه مما غشيه بغير عمد ولا قصد ، وهو يجهل ...

القاضى ـ يكفى ، يكفى، هلم «النيابة» النائب ـ إن هذا الباشا متهم بتعديه بالضرب على أحد رجال البوليس فى أثناء تأدية وظيفته بالقسم، ومتهم بالتعدى بالإيذاء على «مرسى» الحمار. والتهمة ثابتة من شهادة الشهود التى فى الأوراق. وإطلاع المحكمة عليها كاف، وبناء عليه النيابة تطلب الحكم على المتهم بالمادة ١٢٤ و ١٢٦ عقوبات وبالفقرة الثانية من المادة ٣٤٦ مخالفات، وتطلب من عدالة المحكمة التشديد فى العقوبة؛ لأن حالة المتهم تستدعى ذلك، فإنه يتخيل أن رتبته تجعله خارجا عن سلطة القانون، وتخوله الحق فى اعتباره بقية الناس أصغر منه شأنا، فيؤدبهم بنفسه مع عدم مراعاة حقوقهم وحرمه القانون، ولا شك أن تشديد العقوبة عليه واجب، لاعتبار أمثاله به. وللمساواة فى العدالة، وأفوض الأمر إلى المحكمة.

القاضى (المحامى) ـ المحاماة، مع الاختصار.

المحامى ـ بعد أن يتنحنح ويقلب فى أوراقه ـ إننا نتعجب من أن النيابة العمومية استحضرتنا اليوم بصفة متهمين، ونقول: إن أصل وقوع الجرائم يا حضرة القاضى فى وضع الشرائع والقوانين فى هذا العالم منذ البداوةوعصور الهمجية كان يقصد منه ..

القاضى (مشمئزا) ـ اختصر يا حضرة المحامى وادخل فى الموضوع.

المحامى ـ ... ومن المعلوم أن نظام الترتيب يا حضرة القاضى فى طبقات الهيئة الاجتماعية يقضى ..

القاضى (متضجرا) ـ اختصر يا بك .

المحامى ـ الموضوع يقتضى ذلك.

القاضى (متأففًا) ـ لا لزوم له.

المحامى (متحيرا) ـ قالت النيابة العمومية (ويسرد شيئا من أقوالها) ونحن نقول: إننا لو سمحنا جدلا ..

القاضى (مغضبا) ـ يكفى يا بك ، الموضوع المحامى (متلعثما مضطربا) ـ إن هذا المتهم يا حضرة المحكمة الواقف الآن بين يدى القضاء هو رجل عظيم، وأمير خطير من أهل العصر القديم، وله حديث منشور فى الجرائد ـ وهذه أعداد جريدة «مصباح الشرق» تطلعون عليها ـ وقد اعترضه فى طريقه أحد المكارين، فدفعه عن نفسه، والناس يعلمون إلحاح الحماره وسوء أدبهم، ومثل هذه الطبقات التى ليس فيها تربية.

القاضى (نافذا صبره) ـ قلنا اختصر يا بك.. المحامى (وهو يتصبب عرقا) ـ ولما توجه المتهم إلى القسم أغمى عليه، فسقط بدون تعمد على عسكرى كان يكنس أرض القسم بغير ملابسه الرسمية وعدالة المحكمة تقضى بعدم الالتفات إلى دعوى البوليس، ولا عقاب على المتهم البتة، لأنه كان فى عصر غير عصرنا، وفى نظام خلاف نظامنا، ولم تبلغه دعوة القانون، فهو يجهل أحكامه، وحضرة القاضى الفاضل أدرى بالأحوال . وإن ...

القاضى (منفعلا ضاربا بيده على المكتبة) ـ المحكمة تنورت يا بك، ولا لزوم للكلام مطلقا، فهلم طلباتك.

المحامى (ساخطا فى نفسه) ـ طلباتنا هى :

إننا نطلب من باب العمل : الحكم ببراءة المتهم، وإن رأيت المحكمة غير ذلك، فنرجو استعمال الرأفة بالمادة ٥٣٢ «عقوبات».

قال عيسى بن هشام ـ وبعد ذلك نطق القاضى بالحكم، فحكم على الباشا بالحبس سنة ونصفا بمقتضى المادتين المذكورتين من قانون العقوبات، وبخمسة قروش والمصاريف بالمادة المذكورة أيضا من المخالفات. فضاقت الأرض بى، وأظلمت الدنيا فى عينى، وكدت أشترك مع صاحبى فى الذهول والإغماء، لولا أن المحامى أكد لى كل التأكيد أنه لا بد من البراءة فى محكمة الاستئناف، لعدالة رجالها، ولكن يجب مع ذلك أن ترفع عريضة شكوى إلى «لجنة المراقبة»: لحسن التأثير فى القضية عند نظرها فى الاستئناف، ثم قال لى : أعلم أن السبب فى كل ما صدر عن هذا القاضى من المقاطعة والمعاكسة والاستعجال هو لأنه مدعو فى وليمة بعض رفاقه عند الظهر تماما، وأمامه فى جدول القضايا ثلاثون قضية يريد أن يأتى عليها كلها حكما قبل حلول الميعاد.

وأطعنا إشارة المحامى، فقدمنا عريضة إلى «لجنة المراقبة)، ولما طلبنا منه أن يتوجه معنا للسؤال عما تم فى أمرها، تنحى عن استصحابنا ، وقال : إنه كان يود مباشرة

ذلك بنفسه، ولكن يمنعه أن يعلم القاضى يسعيه فى التظلم منه، فيتعمد فى المستقبل أذاه، وينصرف همه إلى نكايته، بسبب شكايته، والمحامى فى حاجة دائمة إلى إجتلاب رضا القاضى، واجتناب غضبه، فقبلت عذره، ودعوت الباشا إلى التوجه والسؤال، فأعرض ونأى بجانبه، وخاطبنى وهو يشتد فى الإباء ويلج فى الامتناع بقوله:

الباشا ـ يكفينى ما قد وصلت إليه من الذل والهوان، وما قاسيته من نزول القدر وحلول الضيم بحكم القضاء من رافع السماء، وأنا أربأ بنفسى أن يجتمع عليها ذلان فى سلك واحد، ذل المتحمل للظلم المستكن للجور، وذل المشتكى الضارع والمتظلم الخاضع. فإليك عنى لأتكن عونا للخطوب ومفتاحا للكروب، وصدق ابن يعقوب : «رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه». ويعلم الله لولا عذاب النار، لفرجت عن همى بالانتحار، وبودى لو يبدل حكم الحبس بالإعدام، لأخلص من هذه الأوصاب والآلام، وقد عشت دهرى ما علمت أن السجن يكون فى عقاب الكبراء والأمراء، وإنما هو يجرى عندنا فى عقاب الغوغاء من الناس والسفلة من العامة، وللأمراء الامتياز على كل حال فإن كان ثم لنا عقاب ، فضرب الرقاب، وعندنا أن لقاء المنون، أليق بنا من ظلمة السجون.

عيسى بن هشام ـ ما كنت أعهد من مثلك هذا الجزع والفزع، ولا أتوقع منك مثل هذا الخور والهلع، أنت البطل الجرئ، والشجاع المقدام. وما الشجاعة إلا فى التصبر على

المكروه، والتجلد للخطوب، تتلقاها بوجه طلق، وصدر رحيب وتترقب الفرج منها بعد الضيق:

ربما تجـــزع النفــــوس من الأمــــر

له فـــرجـــة كـــحل العـــقـــال

وأنت عندي الحازم الأرشد، والعاقل المسد، وما العقل إلا نفاذ الرأى فى كشف الملمة، وتسديد الحيلة فى إزاحة الغمة، وأمامنا اليوم طرق مسنونة، ووسائل مشروعة، لا غضاضة علينا فى ولوجها، ولامضاضة فى سلوكها. وأعلم لن تبدل الأزمان، وتقلب الحدثان، بغير من مبانى الأمور، ويكيف فى اعتبار الأشياء، فما كان يعتبر بالأمس فضيلة يعتبر فى الغد رذيلة، وما كان يعده الناس فى الزمن الماضى نقيصة يعدونه فى الحاضر كمالا. وإن كان الشرف فيما مضى يستمد رونقه من السطوة والمنعة، ويقوم ركنه على البأس والبطش، فإن الشرف اليوم كل الشرف فى الاستكانة للأحكام، والخضوع للقانون. فهلم نسلك سبيله، ونأخذ طريقه، عسانا أن ننتهى بالخلوص والنجاة ومن القواعد المقبولة لدى العقلاء والحكماء أن تقبل الإنسان نظام الأحكام فى والبلد الذى اتخذه دلراء واختاره مقاما.

الباشا ـ لطعم الموت الزؤام (٢٩) ، اهون من هذا الكلام. وللشرب من حميم (٣٠) أن اثر من احتمال هذا الهوان.

قال عيسى بن هشام : فاعتلت على وجوه الآراء. فى صرف صاحبى عن الامتناع والإباء، وكدت أيئس من بلوغ

الغاية في باب النصيحة والهداية، لولا أن سمعنا مناديا من باعة الجرائد ينادي في طريقنا بصوت نكير دونه صوت الحمير:

المــؤيـــد والمـــقـــطــــم !! الإهـــرام

ومــــصــــــر !! الأربعـــــة بقـــــرش

الباشا ـ ماذا أسمع من الأعاجيب !

أأصبحت المساجد والجبال والآثار والبلاد

تباع في الأسواق بالمزاد ؟

قد اختل الأنام بغير شك

فجنوا في الزمان أو العبوة

عيسى بن هشام ـ ما هي بالآثار ولا بالبلاد، لكنها أسماء انتحلت أعلاما لهذه الجرائد اليومية.

الباشا ـ لعلك تعني «جرائد الصيارفة ويومياتهم» أو «جرائد الالتزام» . ولكن ما وجه هذه التعمية في التسمية ؟

عيسى بن هشام ـ ليس الأمر كما ذهبت إليه، ولكن الجرائد هي أوراق تطبع كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر، تجمع وتسرد فيها الأخبار والروايات العامة، ليطلع الناس على أحوال الناس، وهي أثر من آثار المدنية الغربية انتقل إلينا منها فيما انتقل. والأصل في وضعها انتشار الحمد للفضيلة ،

والذم للرذيلة، والنقد على ما قبح من الأعمال، والحث على ما حسن من الأفعال، والتنبيه على مواضع الخلل، والتحضيض[31] على إصلاح الزلل[32] ، وتعريف الأمة بأعمال الحكومة النائبة عنها حتى لا تجرى بها إلى غير المصلحة، وتعريف الحكومة بحاجات الأمة لتسعى فى قضائها، وبالجملة فإن أصحابها هم فى مقام الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، الذين أشارت الشريعة الإسلامية إليهم.

الباشا - قد كنا نسمع فى زماننا بشئ من هذا القبيل يقال له «غازيته» ، وكانت تصدر عندنا واحدة منها بالتركية اسمها «رزونامة وقائع». وأخرى بالعربية اسمها «الوقائع المصرية» ، تدون فيهما المدائح والتهانى ، ويذكر فيهما انتقال الركاب العالى ولكن وإن كانت الجرائد قد ارتفعت اليوم إلى ما تزعم ؛ فلا بد أن يكون قد اشتغل بها واهتم بأمرها كبراء العلماء الأعلام، وعظماء المشايخ الكرام، ولنعمت الوسيلة، وحسنت الطريقة، فى تبليغ الناس ما يصلحهم فى معاشهم، وينفعهم فى معادهم. فعلى بواحدة منها.

عيسى بن هشام - علماؤنا ومشايخنا - يغفر الله لهم - هم أبعد الناس عن اجتياز هذه الطريق، وممارسة هذه الصناعة، وهم يرون الاشتغال بها بدعة من البدع، ويعتبرونه فضولا تنهى عنه الشريعة، وتداخلا فيما لا يعنى، فلا يأبهون بها وربما اختلفوا فى كراهة الاطلاع عليها أو إباحته. وقد مارس هذه الصناعة قوم اخرون وغيرهم، فيهم الفاضل وغير

الفاضل، واتخذها بعضهم حرفة للتعيش بها، والتكفف على أية حال كانت، فلا تجد بينهم وبين أهل الحرف وباعة الأسواق، فرقا فى الغش والخداع، والكذب والنفاق، والمكر والاحتيال، للاستلاب والاغتيال.

عـــمـــروا مـــوضـع التــصنع فـــيـــهم

ومكان الإخـــــلاص منهم خــــــراب

فذهب منها الغرض المقصود، وسقط شأنها بين العامة، بعد أن سفل قدرها عند الخاصة، وأصبح ما كان يرجى فيها من النفع دون ما تجلبه من الضرر. ومن العقلاء من لا يزال يرجو من الأيام أن تدور يوما بتهذيب هذه الحال، ورفع هذه الصناعة إلى الدرجة اللائقة بها من الشرف وعلو القدر. والحكم كله للقارئين فى الاقبال على ما ينفع، والإنصراف عما يضر، » فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض.

ثم ناديت البائع فاشتريت منه أربعا وفتحت واحدة أقرأ على صاحبى نتفا من أخبارها، فوقع نظرى فيها على كلام طويل عن الحكم على أحمد سيف الدين، فأسمعته ما جاء فيه من وصف ما يقاسيه هذا الأمير من خشونة العيش فى سجنه، واستدرار الدموع لما يلاقيه هذا الغلام من ضيق السجن، وهو من سلاله الولاه والأمراء. ثم قلت له بعد أن إنتهيت من أقوال الجريدة فى استعطاف القلوب والتماس العفو.

عيسى بن هشام ـ انظر أيها الباشا كيف وصلت بنا الحال فى المساواة، وقد علمت ما أصاب «البرنس» أحمد سيف الدين من حكم المحاكم عليه، فكيف تترفع نفسك بعد ذلك، وتابى الخضوع للقانون، والامتثال لأحكامه، والتوسل بطرقه للخلاص مما وقعت فيه ؟

الباشا ـ ما «البرنس» ومن أحمد سيف الدين ؟

عيسى بن هشام ـ أما البرنس، فهو لقب أجنبى قديم كان يتلقب به رؤساء الدولة الرومانية، قبل أن يجترئوا على الأمة بانتحال لقب «إمبراطور» ثم صار يطلق بعدهم فى أوروبا على أعضاء بيت الملك، وعلى رؤساء الحكومات الصغيرة، ويطلقه اليوم على انفسهم أعضاء «العائلة الخديوية» ذكورا وإناثا ، وإن كان لاذكر له بين الألقاب الرسمية فى الدولة العليا. وأما احمد سيف الدين هذا، فهو أحمد بن ابراهيم بن أحمد ابن إبراهيم بن محمد على جد الأسرة الخديوية وعميدها، وقد ارتكب جناية فسحبوه إلى المحاكم، واستحق العقاب الذى يقضى به القانون، فحكمت عليه المحكمة الابتدائية بالسجن سبع سنين، فاستأنف يلتمس الشفقة والرأفة من قضاة الاستئناف، فانقصوا المدة إلى خمس، ثم استغاث بمحكمة النقض والإبرام، فلم تغثه. وقد انصرفت المساعى لاتفاق أعضاء الأسرة الخديوية على التماس العفو عنه، وذهبت أمه يمينا وشمالا، فلم تبق وسيلة من وسائل الاسترحام إلا سلكتها ولكن لا وسيلة مع القانون، فإن سيفه ماض فى كل

الرقاب، وسلطانه نافذ فى كل الرءوس. فهل يليق بك حينئذ أن تتكبر وتترفع عن التوسل والتظلم، وتأنف نفسك من السعى وراء «لجنة المراقبة» و «محكمة الاستئناف» ، وقد علمت من تاريخ الأمراء وأولياء النعم ما علمت ؟.

الباشا ـ نعم كيف لا تخر الجبال الشم، إذا استنزلوا منها الأراوى العصم (٣٣) !

وكيف لا تنشق القبور، وينفخ فى الصور، وقد انحل المقام، وسفل القدر، وحقت كلمة ربك على مصر : «فجعلنا عاليها سافلها»، وما دام حفيد محمد على فى السجن على ماترو،»، يخضع لحكم القانون، ويتوسل بتلك الوسائل، وتتشفع أمه بتلك الشفاعات، فما على من عار فيما تدعونى إليه، فاذهب بى إلى حيث تريد، وليتهم كانوا يقبلون منى أن أكون فداء لابن سادتى وأولياء نعمتى، فتضاف عقوبته إلى عقوبتى.

لجنة المراقبة

قال عيسى بن هشام : فسرنى من الباشا مطاوعته إباى، وقبوله لنصيحتى، ورضى بالتوجه إلى نظارة الحقانية، فسار وهو معى مختنق بدمعه، متعثر بقدمه. ولما وصلنا إليها قصدنا مكان «لجنة المراقبة»، وهممنا بالدخول فى حجرة المفتشين، فمنعنا الحاجب وطلب منا «الكارت».

الباشا «مستفهما» ـ ما معنى هذا اللفظ الأعجمى ؟.

عيسى بن هشام ـ «الكارت» بطاقة صغيرة يطبع عليها

الاسم والعمل أو الحرفة والصنعة يقدمها الزائر قبل الدخول ليكون المزور بالخيار فى قبول الزيارة أو التملص منها.

الباشا ـ لقد كانت أبواب التظلم مفتوحة فى أيامنا لكل من يطرقها. وكيف ينطبق هذا التضييق على ما تصفه لى من المساواة فى الحقوق والإنصاف فى الأحكام ؟.

عيسى بن هشام ـ لا يسلم الحال من زياة زائر بغير شغل، أو من لجاجة صاحب حاجة، فوضعت هذه الطريقة ليتفرغ الحكام لأعمالهم.

الباشا : ألم تكن هيبة الحكام وعزتهم بكافية لصد من ذكرت عن الدنو منهم والتجارة عليهم ؟.

قال عيسى بن هشام ـ وبادرت إلى القلم فكتبت وريقة باسم الباشا وسلمتها للحاجب فجاءنا بعد الانتظار بالإذن، فدخلنا فوجدنا أمامنا فتى من أجمل الفتيان، قد أرسل لحيته قبل الأوان، يتموج تحتها ماء الشباب، كما يتموج الضوء وراء السحاب. ولما اقتربنا منه بعض الاقتراب، رأيت في يده جريدة حساب، يجمع فى أرقامها ويضرب فى أعدادها، ثم يضع يده على جبهته، كمن يتذكر رقما سقط من حسبته، وعن يمينه كتاب أعجمي، وعن شماله كتاب عربي، فكتاب اليمين «لفولتير» الفرنسي الملحد، وكتاب الشمال لابن العربي المتصوف الموحد.

ولما تقدمنا نحوه سألنا عن حاجتنا، فذكرت له العريضة التي قدمناها، وقصصت عليه القصة، وشرحت له ما علمنا به

القاضى من سوء المقاطعة، فى الشهادة الواقعة والمرافعة، وهنا انبرى الباشا يخاطبه بقوله:

الباشا - وأدهى ما فى القضية وأمر ما فى الأمر أن الذى تسمونه «النائب» اعتبر رتبتى سببا لإهانتى، وما كنت أتخيل فى الأحلام أن الرتبة التى نلتها باقتحام الأخطار واحتمال المشاق تكون جريمة لا تغتفر، وبرهانا قاطعا لديه فى تشييد دعواه، يطلب به تشديد العقوبة، فقولوا لى بالله : متى كانت هذه الرتبة الشريفة تستوجب العقاب والانتقام ؟

قال عيسى بن هشام : ودخل أحد الزائرين فى هذه الأثناء، فحمدت الله على انقطاع الكلام بسبب دخوله، وإلا فقد كان الباشا اندفع فيه بما يتعذر تلافيه. وبعد أن سلم الزائر، سأل عما حدث من الأخبار، فى وجه النهار. فناوله المفتش خطبة يتفكه بقراءتها، بعد أن بالغ له فى بلاغتها. وما كاد يلتفت إلينا ثانية حتى وافاه أحد المفتشين من الأجانب، فأطلعه على رسم فى ورقة زعم أنه نقشه فى أثناء مناقشة قانونية اشتد فيها الخصام، واحتد الجدال فنظر الشاب فيه نظرة وضحك له، ثم تخلص منه للاشتغال بأمرنا، فخاطب الباشا بكلام لطيف عذب ينبئ عن كرم نسبه، وحسن أدبه، وختم كلامه بقوله:

المفتش (للباشا) - قد اطلعت على ظروف القضية كلها فى «مصباح الشرق»، فأما القاضى فقد يكون له العذر فى مقاطعة المحامى، لأن منهم من اعتاد أن يأتى فى مرافعاته بتاريخ نشأة

الخليقة، وتكوين الجمعية البشرية، وما يجرى هذا المجرى مما يطول شرحه، ويمل سماعه، ولا يكون له أقل ارتباط بجوهر القضية وأناه، ليقتنع صاحب القضية أن المحامى لم يدخر لديه كلاما يقال فى الدفاع عنه، بقطع النظر فى ربح القضية أو خسرانها، فترى أرباب القضايا يعتقدون أن المحامى لا يستحق أجره من المال، إلا بكثرة ما يقال، كالسلعة يكون تقدير ثمنها، على كمية وزنها. فقد توقف بعضهم مرة عن دفع المتأخر من الجعالة لمحاميه بعد أن ربح له القضية، بدعوى أنه لم يسمع منه كلاما مطولا فى المرافعة يستحق عليه الأجر، سواء أكان مفيدا أم مضرا بها، وليس يخفى أن وقت القاضى قصير ثمين، فلا يسعه إلا المقاطعة على المحامى المكثر فى كلامه، وكذلك تكون المقاطعة على الشاهد لتوجيهه إلى وقائع الحادثة، لئلا يفوتها بالخروج عنها، وحاصل الأمر أن القاضى لم يخالف القانون بشئ فيما أتاه معكم.

الباشا ـ ليت شعرى إذا اعتذرت عن القاضى فى مقاطعته، فما العذر فى وضعه لى فى «قفص المتهمين»، وتقييده لى بالقيام عند كل سؤال، وأنا رجل شيخ معمر، وقد قضيت عمرى فى المناصب العالية بالحكومة المصرية، وبذلت دمى فى خدمة الأسرة الخديوية، فهلا كان وقرنى لسنى، واحترمنى لقدرى! وأى قانون فى الدنيا يمنعه من ذلك؟ وتوقير السن طبيعى، واحترام المقامات أمر أصلى، والله تعالى يقول «ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات».

المفتش ـ ذلك ما يقضي به القانون أيضا، فإنه قائم على المساواة بين الناس، ولا فرق عنده في المقامات والأعمار، وهذا عين ما يأمر به الشرع الشريف، وعين ما يجري على أعضاء الأسرة الخديوية، وخاصة الحكام إذا ارتكب أحدهم ما يؤاخذه القانون عليه، ولا معرة عليك، ولا غضاضة في وقوفك أمام القاضي، فإنما تقف أمام النائب عن الحضرة الخديوية وهي أكبر الدرجات.

الباشا ـ إن كان هذا حكمكم في القاضي، فما الحكم في عضو النيابة الذي عيرني بشرف رتبتي ؟.

المفتش ـ أنا لم أطلع بعد على أوراق القضية، وتفصيل المرافعة، ولكن ما انتشر في «مصباح الشرق» من كلام «النائب» لا يؤخذ منه معنى التعبير بالرتبة، بل كان غرضه أن يثبت أن الرتبة، مهما عظم شأنها لا يكون من حقها هضم حقوق الضعفاء، والامتياز بها على الناس أمام القانون، فإنها قاصرة على صاحبها، لا تجعل له سبيلا على محروم منها. ولا بأس عليكم من كلام النائب في هذا الباب، فإنه جرى بيننا مجرى العادة في هذا العصر.

الباشا ـ إذا كان للقاضي العذر وللنائب الحق، فما فائدة تظلمي لكم، وحضوري أمامكم ؟ أفما كان من اللائق أن تزجروا القاضي وتوبخوا النائب، وتفحصوا القضية، وتتثبتوا من بطلان التهمة، وتنقضوا ذلك الحكم أمامها؟ المفتش ـ ليس ذلك من اختصاصنا. وإذا وقع من أحد رجال المحاكم ما

يخالف واجب وظيفته، فالنظر فى أمره موكول إلى «مجلس التأديب»، ولا سبيل لرئيس على مرءوس إلا بحكم من المحكمة. وأنا آسف غاية الأسف لعجزنا عن التصرف فى قضيتك، والحكم فيها راجع إلى محكمة الاستئناف وحدها.

قال عيسى بن هشام : وكنت أشاهد فى أثناء هذه المحاورة شابا آخر بجانبنا من المفتشين يسطع «طربوشه» احمرارا، ويقلب طرفه ازورارا، تلوح على وجهه مخايل الإمارة، ولا تنفك يده فى رفع وخفض «للنظارة»، وتشهد عليه سيماه بالتفنن فى التدبير، وتدل على قوة الدهاء والتفكير، فلما وصلنا إلى حيث وقف بنا الكلام، رأيناه ينادى الحاجب ويقول له :

المفتش الثانى ـ على «بدللوز» و «جارو» الباشا (لعيسى بن هشام) ـ هل هذان الإسمان يطلقان على القاضى والنائب وهل ترى هذا الشاب هب للانتصاف لى منهما ؟

عيسى بن هشام ـ هذان اسمان لكتابين فى فقه القانون بدل «ابن عابدين» و «الهداية» فى فقه الشرع.

وحضر خازن الكتب بالكتابين، فرد المفتش له أحدهما وقال له : ما طلبت «بودرى» بل طلبت «جارو». ولما جاءه به أخذ يبحث فى الكتابين طويلا، ثم نظر للخازن نظرة اليائس وقال : إئتنى «بقوستن هيلى»، فأتاه بكتاب آخر، فخرج منه بعد النظر الطويل إلى المناقشة مع زميله باللغة الفرنسية، وانتهى الأمر بينهما أن قالا للباشا معا: لعل لك عذرا فى القانون يمكنك أن تدلى به إلى الاستئناف فى قضيتك، وأما ما يختص بالقاضى

والنائب فسنضع له «نوتة» (مذكرة) ونقدمها إلى اللجنة عند انعقادها، فإذا تبين لها أقل خلل فى تصرفهما أصدرت منشورا إلى جميع المحاكم إتباع ذلك فى المستقبل.

ثم ودعانا بالاحترام والتعظيم، وخرجنا والباشا يقول:

الباشا ـ قد كتب على الا أخرج من هم إلا إلى هم ، ولا انتهى من كدر إلى كدر، حتى كاد يصفو بالى، ويخلو خاطرى؛ لكثرة ما تراكم على من الهموم والأحزان:

فإنى رأيت الحزن للحزن ماحيا

كما خط فى القرطاس على رسم

ومن البديع الغريب فى أمر هذه الحكومة الحاضرة أننى ما وضعت قدمى فى دائرة من دوائرها إلا رأيت أمامى غلمانا وفتيانا يتولون أمورها، ويتصرفون فى أعمالها، فهل خلق المصريون خلقا جديدا، أم صاروا فى الجنة استوت فيها الأعمار؟

عيسى بن هشام : لا تعجب من تقلد الشبان لمناصب الحكومة، فإن نظام هذا العصر يقضى بذلك، وهم يزعمون أنه ليس فى استطاعة الكهول والشيوخ أن يقوموا بأعباء المناصب، لخلوهم من علومها الجديدة، وجهلهم بفنونها الحديثة.

الباشا ـ كيف يدعون أن العلم ينحصر فى الشبان دون الشيب؟ وما عهدناه إلا فيمن أحنت السنون ظهورهم، وبيضت التجارب مفارقهم، فابتسم فيها بياض الرأى والأدب.

عيسى بن هشام ـ هم يقولون، إن العلم والمعرفة لا يختصان بسن دون سن، ولا عمر دون عمر، وربما كان الشاب أنفذ سهما فى حلبة العلوم، واجمع لشتات الفنون، ولمايختص به من حدة الذهن، وسرعة الإدراك، فإذا انصرف بهمته إلى الدرس كان نصيبه منها أبلغ من نصيب الكهول والشيوخ، وأغناه ذلك عن طول الممارسة، وكثرة التجارب التى يمتاز بها ذوو الأسنان والأعمار.

ليس الحداثة عن علم بمانعة

قد يوجد العلم فى الشبان والشيب

الباشا ـ ولنرجع إلى شأننا، فقد اتبعت آراءك وامتثلت نصائحك، وعرضنا أمرنا للجنة المراقبة فخرجنا منها بالخيبة كما ترى، فليس لنا بعد هذا التعب إلا الركون إلى حالة اليأس، ولم يبق لك بعد اليوم وجه فى أى احتجاج وجيه توجهنى به، وتسحبنى معك للسعى والتظلم أمام الحكام.

عيسى بن هشام ـ لا تيأس ولا تقنط فإن أمامنا محكمة الاستئناف، ولى اعتماد عظيم على إنصافها فى الأحكام، ولو خاب فيها الأمل على الفرض والتقدير، فلا يزال عندنا باب العفو مفتوحا نلتمسه بوساطة ناظر الحقانية.

الباشا ـ لا تذكر لى من الآن حاكما ولا ناظرا، فقد سئمت من وقوفى أمام هؤلاء الغلمان والشبان، مهما بالغت لى فى الوصف، واستشهدت فيهم بالشعر.

عيسى بن هشام ـ ليس ناظر الحقانية الذى أذكره لك من صف هؤلاء الشـبـان وطرازهم، بل رجل كـهل، عـاكف على العبادة، منكب على الأوراد، منصرف إلى الأذكار. يمسى ليله قائما، ويصبح نهاره صائما، فبين السبحة وأصابعه عهد وميثاق، وبين السجادة وجبهته ارتباط والتصاق. وبالجملة فهو يذكرنا فى هذا العهد الجديد بعهدكم القديم، وأبوه رجل من أكابر رجالكم اسمه حسن باشا المناسترلى.

الباشا ـ حسن المناسترلى !! ذاك خليلى وقرينى، وصاحبى وخدينى ورفيقى فى الخدمة وأخى فى الحكومة، ولماذا لم تخبرنى عن ابن أخى هذا من أول الأمر فتكون قد حقنت ماء وجهى، وأنقذتنى من كل هذه الإهانة وذلك التحقير ؟.

عيسى بن هشام ـ ما غاب عنى أن أذكرك به، فإنه لم يكن له أقل نفع يدفع عنا ما تقلبنا فيه من المصائب، وإنما نفعه يكون فى آخر الدرجات، ولا عمل نرجوه منه فى مساعدتنا إلا بعد صدور حكم الاستئناف والسعى فى التماس العفو من ولى الأمر.

محكمة الاستئناف

وآن أوان الجلسة فى الاستئناف، فسرنا فى طلب العدل والإنصاف، وكل واحد منا مشغول بحاجته، لاه بنازلته. فالباشا يفكر فى مصيبته ويتألم من بليته. والمحامى يدبر فى

أمره، ويتطلع لأجره. وأنا أسأل الله لنا النجاة، من مكايد الحياة.

ولما وصلنا إلى حى «الإسماعيلية»، ورأى الباشا دورها ومبانيها، وشاهد قصورها ومغانيها، واستطاب رياضها وحدائقها، واستنشق رياحينها وشقائقها: استوقفنا سائلا مبهوتا، واستنطقنا بعد أن كنا سكوتا. فقال ألا تخبرنى عن موضع هذه الجنة الزاهرة، من مدينة القاهرة. فقلت له هذه «الإسماعيلية»، اختطها إسماعيل، فيما اختطه لزينة وادى النيل، يسكنها اليوم جماعة من العظماء، ذوى الغنى والإثراء، وقد كانت فى أيامكم خرابا قفرا، لا تحمل بيتا ولا ترفع قصرا، ولا ترى فيها من النبات غير الطلح الضال (٣٤) ، ولا من الأزهار غير شوك القتاد أو شوك السيال (٣٥) ولا من الطير غير البوم والغربان، أو الرخم (٣٦) والعقبان، ولا تجد فيها من الإنس إلا لصا سالبا، أو مغتالا ناهبا، أو فاتكا متأهبا، أو كاهنا مترقبا.

الباشا ـ لله در المصريين، لقد ابتسم لهم الدهر، فأبدلهم من الشوك الزهر وأسكنهم هذه القصور العالية، بعد تلك الأطلال البالية.

المحامى ـ أيها الأمير، لا تغبط المصرى على نعمته، وتعال فابك معنا من نقمته، فليس له فى هذه الجنة من دار، يقر له فيها من قرار، وكل ما تراه من هذا الجانب ملك للأجانب.

الباشا ـ لله أبوك ! كيف يختص الأجنبى دون الوطنى بهذه الجنان الناضرة، ويستأثر دونه بهذه المساكن الفاخرة ؟ ولعلك تلغز فى قولك وتحاجي، وتعمى فى تعبيرك وتداجي.

المحامي ـ لا تحجيه ولا تعمية، بل هكذا قدر المصرى لنفسه، وتبدل سعده بنحسه، واقتنع من دهره بالدون وبالطفيف، ورضى بالقسم الخسيس الضعيف، فبات محروما تحت ظل إهماله وخموله، وغدا بائسا فى سباته وذهوله، وما زال الأجنبى يسعى ويكد، ويعمل ويجد، وينال ثم يطمع، ويسلب ثم يجمع، والمصرى يبذر بجانبه ويسرف، ويبدد ويتلف، ويتخسر ثم يلهو، ويعجز ثم يزهو، ويفتقر ثم يفتخر، فتساوى السيد والمسود، وتشابه الحاسد والمحسود وتعادل الرفيع والمنيع، بالحقير والوضيع، واشتركنا كلنا على السواء، فى منازل الشدة والبلاء، وأصبح نصيب القوى الكين، مثل نصيب الضعيف المستكين، وكذلك تكون عاقبة من يلقى للاجنبى بيديه، ومن أعان ظالما سلط عليه.

ومن يجعل الضرغام بازا لصيده

تصيده الضرغام فيما تصيدا

قال عيسى بن هشام . وما كاد ينتهى رفيقاى من خطابهما ويفرغان من سؤالهما وجوابهما، حتى مر بناء راكب دراجة تنساب به كالصلال (٣٧) فى بطون الرمال، ويتمايل بها تمايل النشوان مالت به نشوة الخمر، وينثنى انثناء الأغصان هزها نسيم الفجر. فامتلأ الباشا تعجبا واندهاشا، وسألنا

الشرح والبيان، عن أمر هذا «البهلوان». فقلت هذه عجلة حادثة يختارها بعض الناس، على المركبات والأفراس، ومما يرغبهم فيها أنها لا تأكل ولا تشرب، ولا تهزل ولا تتعب، وهذا لراكب من أهل القضاء، يركبها لرياضة الأعضاء، فأتبعه الباشا نظره، فوجده قد سقط فجأة من فوق دراجته، فانفرط عقد الهيئة على سطح الأرض إلى ثلاثة أقسام : الراكب والعجلة والطربوش، ثم رأيناه تماثل للقيام فلم شعثه [٣٨] وحاول أن يعلو الدراجة ثانية، فلم يقدر عليها، فسحبها بيده يجرها ويماشيها، وأخذ الباشا يخاطبنا فيه وفيها.

الباشا ـ يا حبذا لو عدنا من حيث أتينا، وكنا مطلقين لالنا ولا علينا، وكيف يكون شأن القاضى أو الحاكم إذا كان هذا منظره، وذاك مركبه أمام أعين العامة ؟ وهل حكم الناس يوما بغير أبهة الحجاب، وعظمة المناظر، وفخامة المواكب، وقد كان الحاكم أو القاضى لا يركب فى عصرنا إلا فى موكب تحف به الحشم والأعوان، وتتقدمه الجنود والفرسان، فترتجف منه القلوب رعبا، وتخر له الأعناق رهبا، وقل من يجترئ من الناس على ارتكاب ما يقفه أمامه موقف التهمة والارتياب.

عيسى بن هشام ـ ذاك عصر مضى، وحكم انقضى، ولقد تفنن أهل العصور الماضية فى وصف ما تذكره من منظر الأبهة والجلال، وهيئة العزة والوقار، حتى أدخلها الشعراء فى مخالصهم البديعة، كقول أبى الطيب فى ممدوحه مثلا :

جمع الزمان لنيذ خالص
مما يشوب ولا سرور كامل

حــتى أبو الفــــضل بن عـــبـــد الله رو

يتـــــه المنى وهـى المقـــــام الهــــائل

المحامى ـ قد ان أن نفرغ من هذا الحديث، فقد اقتربنا من المحكمة.

عيسى بن هشـام ـ ولعلنا نجـدها بإذن اللّه فى مكانها، فـقـد تعـودت التنقل من مكان إلى مكان، حـتى أشبـهت خـيـام العرب.

يومـــا بحـــزوى ويومـــا بالعــــقـــيق

وبالعـــذيب يومـــا ويومـــا بالخليـصـــاء

ثم اقتـربنا فوجدناها، وأقمنا فى ساحـتـها ننتظر نوبتنا بين أرباب القـضـايا، حتى نودى علينا، فتقدمنا للجلسة أمام ثلاثة من القضـاة فـأخذ الأجنبى منهم يقرأ «ملخص القضـية» بلهجة أعجمية، وحروف لم تستوف مـخارجها فقال : «إن هذا الرجل متـهم بالتعدى على فلان العسكرى بالضـرب فى أثناء تأدية وظيفتـه فى يوم كذا من شـهر كذا، والمتهـم أنكر، وشـهد المجنى عليـه، ودل الكشف الطبى على وجـود عـلامـات فـيـه للضـرب، والمحكمة الابتدائية حكمت عليه بالحبس سنة ونصفا بالتطبيق على مادتى ١٢٤ و ١٢٦ عقوبات، فاستـأنف المحكوم عليه».

ولما سـألت المحـامى عن هذا التلخيص الغـريب قـال لى : هكذا تجـرى العـادة هنا، فـيـأخـذ مـثل هذا القـاضـى الأجنبى

عبارة الديباجة المذكورة فى الحكم الابتدائى، فيجعلها تلخيصا للقضية، ثم يكتبها بعربيتها بحروف أجنبية، ليقرأها أمام الجلسة على نحو ما رأيت.

ثم التفت رئيس الجلسة إلى الباشا وسأله عن اسمه وسنه وصناعته ومحل إقامته، وأشار إلى النيابة بالكلام، فشرع النائب فى شرح القضية على ما يوافق هواه، ولم تسمع من الرئيس مقاطعة له فى كلامه، كما يكون فى المحاكم الابتدائية، (السر فى ذلك أن بعض القضاة الذين لم يكونوا اطلعوا على أوراق القضية فى الاستئناف هم فى حاجة إلى العلم بها من أقوال النائب، فيتركوه وشأنه فى التطويل والإسهاب)، ثم أذن الرئيس بالكلام للمحامى مع الإيجاز، فابتدأ المحامى يسرد أقواله فى أوجه الدفاع عن المتهم، وكلما وصل إلى النقطة المهمة فى دفاعه، قال له الرئيس : «الموضوع» «طلباتك» . ولما تكرر منه وقوع ذلك، رأيت أحد القضاة ينبه الرئيس إلى أن كلام المحامى فى عين «الموضوع» (وللرئيس العذر لأنه لم يطلع على تفصيل القضية ولم ينصت لأقوال النيابة)، ثم نطق الرئيس بعد ذلك بقوله : «سمعت القضية والحكم بعد المداولة» ، فانتقلت الجلسة إلى حجرة المداولة، وخرجنا ننتظر، وسألت المحامى عن المدة التى تنقضى فى المداولة فأجابنى:

المحامى ـ لا تزيد مدة المداولة فى الغالب عن ساعة واحدة.

عيسى بن هشام ـ وماهو متوسط عدد القضايا فى الجلسة؟

المحامى ـ متوسطها عشر قضايا.

عيسى بن هشام ـ وهل تكفى هذه المدة للأطلاع على ما تحتويه القضايا الجنائية من كثرة الأوراق.

المحامى ـ نعم تكفى، وطالما أطلعنا على القضايا التى تعود من عند القاضى الملخص» إلى قلم الكتاب لاطلاع المحامين فنجد عليها رمزا بأحد هذه الأحرف «ب» «ع» «ت» فالباء إشارة إلى البراء، والعين إشارة العقوبة، والتاء إشارة إلى تأييد الحكم الابتدائى، وإنما يضع القاضى هذه الرموز حتى لا ينسى رأيه فى القضية عند عرضه على زملائه فى المداولة، فإذا عرضه عليهم لم يضع الوقت سدى فى البحث والمناقشة ولكن لما كان القاضى الجنائى له الاستقلال المطلق فى الحكم مما يرتاح إليه ضميره، وتطمئن به نفسه، كان من الواجب عليه أن يسلك غير هذا الطريق، ويفحص أدلة الثبوت، وأدلة البراءة بنفسه، فيعرضها على ضميره وهو خال من كل اعتقاد خاص للبراءة، وللتهمة، حتى إذا استقامت لديه الأدلة، حكم بما يغلب عليه منها، لا أنه يجرى فى طريق التسليم لرأى غيره، ولا أن يكون الحكم مبتوتا فى القضية بأحد هذه الأحرف الثلاثة التى عنت للقاضى الملخص وهو يمر عليها فى انفراده ببيته مر السحاب.

قال عيسى بن هشام : وبينا نحن فى هذا الكلام، إذا عادت الجلسة إلى انعقادها، فدخلنا لسماع الحكم، فنطق

الرئيس ببراءة الباشا، لأن التهمة وإن كانت ثابتة عليه إلا أنه حالت دونه ودون دعوة القانون قوة قاهرة. فخرجنا مسرورين بهذه النعمة، وخرج الباشا وهو يقول:

الباشا ـ لا أنكر اليوم أن العدل موجود ولكنه بطئ، لايتحمل أعباء بطئه البرئ، وكان الأولى فى هذه المحاكمات أن تكون النهاية فى البداية، فلا يلحق من كان مثلى هذا الهوان والصغار، ويقع به ما وقع من الحبس والعار، بعد أن يقف موقف التهمة والإجرام ويحل به ما يحل من التعذيب والإيلام.

المحامى ـ إنى أهنئك بهذه البراءة، وأسأل لك دوام العافية من مصائب الاتهام، ولازلت تخرج من كل قضية خروج السهم من قوسه والسيف من غمده، وقد مضى منى الدفاع وبقى عليك الدفع.

قال عيسى بن هشام : وما زال المحامى عاكفا علينا يطالبنا بالأجر، والباشا يعده لآخر الشهر، حتى يأتيه بعض خدمه وأتباعه، بمال من عقار وضياعه، والمحامى يأبى التسويف والإمهال، وإلا الدفع فى الحال.

المحامى (للباشا) ـ أتظن أن هذه الوعود، تقوم لدينا مقام النقود، فى بلد كثر فيه الإنفاق وزادت الضرورات، وقل فيه الربح كما قلت المروءات، وصار الدرهم أعز عند الأب من بنيه، وعند الابن من أبيه، ولقد تعبت فى القضية تعبين باللسان وبالجنان، ولا أستريح منهما إلا بنقد الأصفر الرنان، وإنك لا

تصرفنى ـ وإن كنت محمود الخلق بالوعد، ولكنك تصرفنى ـ وأنا احمد ـ بالنقد، وإنى لا أريد أن أسكن فى بيت المتبنى :

أنا الغنى وأموالى المواعيد

فلا تجعل الخلاص من قضية بقضية، والفكاك من بلية ببلية و فنلك مالا يأتيه العقلاء، ولا يرتضيه الأمراء.

قال عيسى بن هشام : ولما رأيت الباشا لم يقدر على التلفظ ومن شدة الحنق والتغيظ، وقفت بينهما وقفة الأريب، وتوسطت توسط اللبيب، فنلت بلطف الالتماس والرجاء، رضاء المحامى المهلة والإرجاء، إلى أن ينتقل الباشا من العوز والعسر، إلى الغنى واليسر، وقلت له ما يقال له فى باب المروءة والهمة، ومن وجوب الحنو على من يقع فى مصيبة أو ملمة، وأن من تذكر الدهر وغيره، والزمان وعبره، لانت عريكته، وطاوعت شكيمته، وليس بين صعود المرء ونزوله، وإشراق سعده وأفوله، وبين غناه وفقره، وصفوه وكدره، إلا مسافة انقضاض القضاء من رب السماء. فنظر إلى الباشا نظرة الاحتقار والأزدراء، وخاطبنى بالأنفة والكبرياء.

الباشا ـ لبئس الخدين انت والقرين، كيف تسمنى بسمة الفقراء، وتستعطف على قلوب الضعفاء، وانا الأمير السرى، والغنى المثرى! وأين ما ادخرته فى عمرى، واكتنزته فى عصرى. من مال وعقار، وفضة ونضار، وقصور وضياع، وزخرف ومتاع؟ ولقد كان يضرب بغناى المثل، فإن كنت جاهلا

بى فسل ، اذهب فأتنى بخبر ما خلفت وأبقيت، وأثر ما جمعت واقتنيت، وكيف يخفى عليك وعلى المحامى مالى من الأموال والعقار، وما قضيت فيه العمر من الجمع والادخار فإنى يشهد الله ما تركت حيلة، ولا أغفلت وسيلة، فى الحصول على الإثراء والغنى، حتى جمعت منه كثيرا مما تفرق على الورى، فجعلته عدة لشد أزرى، وأمانا لى من مصائب دهرى، وتركته ذخيرة لأبنائى وحفدتى، وميراثا لأعقابى وذريتى، ليكونوا من ذل الحاجة فى جنة، ومن نعم العيش فى جنة وتركتهم على ذلك مطمئن القلب مستريح الفؤاد، رفيع الذكرى رفيع العماد.

المحامى - إنا لنعلم، يا معشر الأمراء والحكام، إنكم قضيتم الأعمار فى جمع الحطام، واتخذتم الحكم والسلطان تجارة من التجارات، وبضاعة من البضاعات، ترجون منها الغنى والثروة، ولم تكونوا تعلمون للحكم من مزية سوى اكتناز الأموال، واستلاب الحقوق، وابتزاز الدراهم من دماء الأرامل والأيامى، وانتزاع الأقوات من أفواه الأطفال واليتامى. وكنتم سواء عليكم أحزتم المال من حله أم من غير حله، لم تبالوا بالضعيف المسكين، ولم ترثوا للعاجز المستكين، بل ذالعتم البرئ وبراتم الظالم، فجمعتم لديكم من أثر ذلك مالا يقدر من الأموال، ورضيتم بالوزر، وطوقتم أعناقكم بالإصر، ثم حرمتم بعد ذلك على أنفسكن التمتع بما جمعتموه، وحرمتموها من كل ما حزتموه، ولم تكونوا من الذين فى أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم، ولم تودوا ما فرضه الله عليكم فيها من الحقوق، ولم تطهروها بزكاة، ولم تزكوها بإحسان، وأطربكم

رنين الدرهم فوق الدرهم، وصمت الدينار مع الدينار، وابدعتم ماشئتم فى وسائل وطرائق يأباها اللّه لعباده ويمقتها، ويستشعها الإنسان ويستفظعها، لسلب ما سلبتموه، وكنز ما كنزتموه، بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، واجترأتم على اللّه فى أوامره ونواهيه، وكلفتم العلماء بتأويلها على أهوائكم، فأولوها لكم لانحصار الأرزاق فى أيديكم، واحتياجهم إلى ما يقتاتون به من فضلات عيشكم، وفوقكم أثقل. حتى إذاانقضى العمر وحل الأجل، تركتم ما خلفتموه لغلمه من أولادكم وصبايا من جواديكم، نشأوا بينكم على الحرمان، ولم تثقفوهم بالتعليم، ولم تتركوهم للزمن يؤدبهم، وللأيام والليالى تهذبهم، فكنتم فى أعينهم كالرصد الذى يكون على باب الكنز ـ كما يقال فى الأقاصيص ـ يحتالون لنقله بقتله، فإذا استراحوا منك بالموت أو القتل، مزقوا أموالكم انتقاما منها ومنكم، وفرقوا شملها فى أدنى من لمحة، جهلا منهم بوجوه التصرف وأبواب التمتع، فما هو إلا أن يتسابق الدود والورثة فى أحشائكم المدفونة، وأحشائكم المخزونة، فيسبق الورثة الدود، فى الصدور والورود، فتذهب البدرة وراء البدرة، والضيعة بعد الضيعة، والدار عقب الدار، حتى إذا لم يبق إلا بيت السكن أتوا على ما فيه من الأثاث بيعا، وما فى أعناق الجوارى من الجواهر والقلائد رهنا، ولايزالون يخلون من البيت حجرة إثر حجرة، والدائنون يدخلون فيه خطوة إثر خطوة، إلى أن يندك بناؤه، ويعفو أثره، ويزول اسم بانيه الذى ارتكب ما ارتكب من الذنوب لتشييده ودوام بقائه، وهو يشيع منهم باللعنتين فى الحالتين

حالة الخلاص منه بالتشييع إلى القبر، وحالة أسفهم على إهماله إياهم من تثقيف العلم بما كان ينفعهم فى خشونة الفقر.

هذه أيها الأمراء عاقبة ما صارت إليه أموالكم ومقتنياتكم من بعدكم، وياليت أولادكم وأحفادكم خففوا عليكم من الإثم فى جمعها من دماء المصريين بإنفاقها بينهم، وتبذيرها فيهم، فيكون ذلك منهم كرد بعض الحق إلى أهله، ولكن البلاء كل البلاء أنها ذهبت جميعا إلى أيدى الأجانب والغرباء، وكأن الدهر سلط المماليك على المصريين ينهبون أموالهم، ويسلبون أقواتهم، ثم سلطكم اللهً عليهم لسلب ما جمعوه، ثم سلط عليكم أعقابكم فسلموا مجامع ذلك للأجانب يتمتعون به على أعين المصريين، والمصريون أولى بالقليل منه . وما دفع بأعقابكم إلى هذا الليان والتسليم إلا ما ورثوه عنكم من الاحترام لشأن الأجنبى، والاحتقار لجانب المصرى، وأنكم لم تكتفوا بأن تكونوا أربابا للمصريين، حتى أشر كتم معكم الأجنبى فى تلك الربوبية فغلبكم عليها، وأشرككم مع المصريين فى العبودية، وتشابهت الموالى بالعبيد، وقد آن أن تعلم أيها الأمير بأن جميع أقرانك وإخوانك من ذوى الثروة واليسار فى أيامكم قد أصبحت بيوتهم خاوية على عروشها، وأبصار أعقابهم عن أموالك وضياعك اليوم، فابحث عنها تحت ثقال (٣٩) تلك الرخى، وقل معى ما يقول الشاعر الحكيم :

يقول الفتى ثمرت مالى وإنما

لوارثه ما ثمر المال كاسبه

يحـاسب فـيـه نفـسـه فى حـيـاته

ويتـركـه نهـبـا لمن لا يحـاسـبـه

فيـمـا عـبث المدخـر الجـامـع، ويـاغـبن المكتنز الطامع، مـا كـان أغناكم عن الجمع والأدخار وعن الحـرمـان فى الدنيـا والخلود فى النار!

الباشـا ـ أراك قد تجاوزت أيها المرشد الواعظ حدك فى اللوم والتعنيف، وخرجت عن طورك فى العذل والتعزيز، وكان بودى أن أعطيك أجرك مضـاعـفـا، ولا أشـاهد منك هذه الجرأة علينا بسـوء التقـريع والتوبيخ، وربما قلت حـقـا فى بعض مـا تقول ، والرجاء فى غفران اللّه عظيم، وفى رحمته متسع، ولعل مـا تخلل أعـمـالنا فى أيامنا من الحـسنات، يشـفـع لنا فـيـمـا اقترفناه من السـيئات. ولكن كيف التدبير الآن فى اكتساب المعيشة، والاحتيال لالتماس الرزق، بعد أن ضاعت الأموال وذهبت من أيدينا الأحكام، على نحو ما ترى وتحكى؟ وما أرى لضيقى من الفرج إلا أن أورد نفسى حتفها وأعيد لها حمامها، فما أروح ما كنت فيه من ظلام الرمس، وما أقبح ضياء هذه الشمس !

عيسى بن هشـام ـ ليس لمثل حـالتكم غير الأسف منا، والتوجع لكم، فقد تمكن الاعتقاد فى رءوس الحكام أن ما يقع بالاتفاق لهم أحيانا من ولاية الأحكام، هو قياس مطرد، وصراط مستقيم، لا ملجأ لكم سـواه فى وجوه المساعى، وممارسة

مطالب الحياة، وقامت الولاية عندكم مقام بقية الآلات والصناعات التى يجتنى أهلها منها ثمر الارتزاق والتكسب، فإذا خلت أيديكم منها، واعتزلتم الأحكام، تقطعت بكم الأسباب، وضاقت بكم السبل فى وجوه المعايش، كما تصاب يد الصانع بالشلل، فيتعطل عن العمل، ويصبح كلا على كاهل الجميع، يرجو الموت كما رجوت، ويتمنى راحة العدم كما تمنيت، وكأنكم أيها الحكام صنف فوق أصناف الخلقة، لكم نصيب من العيش دون سائر الخلق، فلا تكونون إلا فوق ذهب العرش، أو فوق خشب النعش، وقد قال مسكين من رؤساء صناعتكم هذه، وهو فى ضيق الحبس، وضيق النفس:

ونحن أناس لا توسط عندنا

لنا الصدر دون العالمين أو القبر

ومعلوم لك ما فى هذه الصناعة، صناعة الولاية والحكم، من قلة ما يرفعه الصدر، وكثرة ما يضمه القبر، وكان الأولى بكم أن تكونوا كالناس فى معايشهم، لكل إنسان آلة بينة من صناعة أو حرفة يحسن بها التعيش والارتزاق، حتى إذا أنتم نزلتم عن تلك العروش، دخلتم فى بقية الأحياء من أفراد الجمعية تنفعون وتنتفعون.

الباشا ـ تالله إن ما قاسيته من الآلام أمام لبوليس والنيابة والمحكمتين واللجنة كان أقل هما وأدنى شجنا من مرارة هذا النصح والوعظ، وما الرأى عندكما، وقد فات وقت

التحصيل والطلب، ولم يبق وقت للصناعة والعمل، والموعظة صالحة نافعة، ولكنها لمن يجئ لا لمن يمضى.

قال عيسى بن هشام : فأحزنتني حالة الرجل، وأشفقت عليه، فأخذت أتدبر له وأتفكر في طريقة يتعيش بها، وكلما خطر لى فى ذلك خاطر خاب رجائى فيه، حتى كدت أيأس من الحيلة، والباشا ينظر إلى وأنا فى تفكيرى تارة، ويطرق للتفكير فى نفسه تارة أخرى ثم رأيته قد انتفض من مكانه وأخذ بيدى يقول لى:

الباشا ـ قد وجدت والحمد لله بابا لسد العوز وكفاف العيش.

الباشا ـ كان من عادة الحكام أمثالنا فى الأزمان السالفة أن يأتوا فيما يأتونه من أعمال الخير التى تقربهم من الله وتعتق رقابهم من النار بعمل صالح اتفقوا عليه كافة، وهو إقامة بناء لجامع أو كتاب أو «سبيل»، وكانوا يخصصون له أرضا أو ضيعة وقفا عليه؛ للإنفاق من ريعها على طول الزمان، وقد سلكت مسلكهم، واتبعت سنتهم، وخلفت لذلك وقفا عظيما لا تناله أيدى الأعقاب بالإتلاف والتبذير، فهلم معى نبحث على ماشيدته ووقفته.

الوقف

قال عيسى بن هشام : وظلت أنا والباشا نواصل الطواف بالطواف، للوقوف على تلك الأوقاف، ونسائل العابر وابن السبيل، عن المسجد و «السبيل» ، ولا سؤال المجدب عن

الروض والظمآن عن الحوض، فلم نجد من يرشد إلى ما ننشد وأخذ الباشا يتذكر الطرق وأماكنها، والأزقة ومساكنها، ويقول كان هنا وكان هنا، وجل ما يقضى به إلهنا وما زال يقاصر فى خطواته، ويطاول من آهاته، ويبكى لرسوم الأطلال والديار، بكاء صاحب عزة (٤٠) أو صاحب نوار (٤١)

فـــاســـألنهـــا واجـــعل بكاك جـــوابا

تجـــد الدمع ســـائلا ومـــجـــيـــبـــا

حتى وصلنا بعد طول التجوال والتجواب، وترداد المجئ والذهاب، إلى منعطف مضيق، فى منتهى الطريق فوقف الباشا هناك قبالة دور مهدمة، وجدران محطمة، ومسجد فى ناصية منه حانوت خمار، وفى زاوية منه دكان عطار، وبجانبهما حوانيت متباينة الأوصاف، مختلفة الأصناف فطفق الباشا يصعدنظره ويصوبه، ويخطئ حدسه تارة ويصوبه، فهداه طول النظ روالتدقيق وشدة الإمعان والتحقيق، أن رأى شيخا فانيا متربعا فى دكانه، متحيزا بمكانه، عليه علامات الانحلال والسقوط وشارات الخذلان والقنوط وسيماء الرضاء بالمقسوم، والتسليم للقضاء المحتوم، له جبهة كأنها من ورق البردى العتيق، تتلو فيها ما دونه الدهر من آيات الشدة والضيق، فخرج الباشا فى الحال من حال التحير المتردد، إلى حال الواثق المتأكد، فنادى صاحب الدكان عن بعد نداء السيد للعبد، فانتفض الرجل انتفاضا عجيبا، ، وقصده ملبيا ومجيبا، فما شككت من هيبة النداد وأدب التلبية، إلا أن ملكا ينادى

أحد الحاشية، ووقف الرجل أمامنا وقفة الممتثل الخاضع، والمطيع الخاشع فقال له الباشا: بعد أن حدد فيه نظره واستجمع فكره.

الباشا ـ ألست أنت أحمد أغا الركبدار المعدود من أهل حاشيتي، ألا تعرفني من أنا صاحب الحانوت ـ لولا أن الموت حجاب كثيف، وحجاز منيع بين ظهر الأرض وبطنها، لقلت: إنك سيدي وأميري، ويشهد الله أنني كلما أمعنت في وجهك، وسمعت لصوتك كاد يطير عقلي، ويندهش لبي، لاستحكام الشبه بينك وبين سيدي المرحوم.

الباشا ـ إني أنا سيدك، وهذه هي العلامة التي تعلمها في جسمي من أثر اللعب بالجريد على مشهد منك يوم من أيام السباق والرهان، (وكشف الباشا عن ساقه فأراه العلامة) فوقع الرجل منكبا على الأرض من شدة الدهشة، يقبل قدم الباشا ويغسلها بمنحدر الدموع، ويقول في بكائه وشهيقه:

صاحب الحانوت ـ كيف بالحياة بعد الممات ! لحق أنت إحدى المعجزات وليس ما أراه بغريب، فقد شاهدت في هذا العمر الطويل، مالا تحيط بوصفه الأقلام، ولا تتسع له بطون الدفاتر من عجائب الانتقال، وغرائب الانقلاب، فلا يبعد بعد ذلك أن تشرق الشمس من مغربها، وتخرج الأرض أمواتها من مقابرها !

قال عيسى بن هشام : فقلت للرجل لا تكثر من الدهشة والحيرة، ولا تغرب في الإستغراب والتعجب.

على أنهـــا الأيام قـــد صـــرن كلهـــا

عـــجـــائب حـــتى ليس فـــيـــهـــا عـــجـــائب

واعلم أن القدرة لا تعجز عن شئ في الوجود، ولا تحيط بها العقول، ثم قصصت عليه قصة الباشا منذ البداية، فصاح الرجل يبكي، ويتضرع ويقول: ليت أمي لم تلدني وليت القدرة التي بعثت الأمير من بعد موته نشرت معه زمنه؛ وأعادت عصره، وإلا فيكف له بالعيش في هذا الزمن ؟ وما أولاه بالعودة إلى أدراج الكفن.

ثم التفت إلى الباشا، وشرع يقص عليه ما مر به من الحوادث والكوارث وما جرى لبيت الباشا ولأهل طبقته من النوازل والخطوب.

صاحب الحانوت : ـ ولم يبق لك أيها المولى من أثر يذكر في ثروتك ومتاعك، وأموالك وضياعك، وقد عشت دهرا وأنا متمتع بريع ما وقفته أيها الأمير على حاشيتك أتباعك، وعلى هذا المسجد والسبيل والكتاب، لتخليد ذكرك، وإحياء اسمك، فما لبث الوقوف أن تهدم وتخرب بطول الترك والإهمال، فوقعنا كلنا في الفاقة والاحتياج، وانقلب الكتاب مخزنا، والسبيل خمارة، والمسجد مصبغة، كما تشاهد وترى، وأصبحت أنا بيطارا بعد أن كنت «ركبدارا»، وأخذت هذه الحانوت من الوقف لممارسة صناعتي فيها، والتعيش منها، وسبحان مقلب الأحوال ومبدل الأشكال.

البـاشــا ـ ألم يبـق من ذريتى أحـد يبـاشــر هذا الوقف بنظره ؟

البيطار ـ آخر العـهد عندى كان بواحد منهم، ذهبت إليه لأجل هذه الحـانوت. وأعلمـتـه بمكانى من أهل الحـاشـيــة، فانتـهـرنى وطردنى، وأبعدنى وزجـرنى، ولكن الحـاجة دفـعتنى إلى الإلحـاح، فـترددت عليه مـراراً فـتـخلص من ثقل الحـاحى بإحالتى على رجل أفرنجى عنده يدير له ما بقى لديه من ثروة نضبت عينها، ونزحت بئرها، فأحالنى الإفرنجى على صـاحب الخمارة، لأنه أصبح صاحب الأمر فى أرض الوقف بوضع اليد عليها، وليس يجسر أحد أن يعمل فيها شيئا بغير إرادته خوفا من الخصومة فى المحاكم، فقصدت الخمار، واتفقت معه على أجرة معينة، وأقمت فى هذا الحانوت أصرع الدهر ويصرعنى، وأطلب القـوت ويعـوزنى وأتعـجل الأجل ويمـهلنى، وتعـالى اللّه المتفرد بعزته، المبدع فى حكمته.

البـاشــا ـ وأين هذا الولد العـاق المخـالف لإرادتى ، وهو يعلم أن شرط الواقف كنص الشارع؟

البيطار وهو مقيم الآن فى «الأوتيل».

الباشا ـ وما الأوتيل ؟

البيطار ـ «الوكاندة».

الباشا ـ وما «اللوكاندة». ؟

عيسى بن هشام : ـ «الأوتيل» هو بيت معروف يعدونه لنزول من لا بيت له من الغرباء على أجر معين، وهو فى المعنى كالخان الذى تعرفونه فى زمانكم.

الباشا ـ هل وصل التدنى بهذا الخائن إلى سكنى الخان، وسبحان مصرف الأحوال ومغير الأزمان ! وكيف يطيب للمسكين عيش على هذه الحال، بعد عز النعمة ووفرة المال ! أفكان رجوعى إلى الحياة على ما لا أرغبه ولا أرضاه، تعذيبا لى على ما فرطت فى جنب اللّه ؟ أو لم يكن عنده سبحانه فى الآخرة من عذاب النار ؟ ما يغنى عن التعذيب بالعار فى هذه الدار؟ رب إن الجحيم لأهون على فى العذاب والنكال، مما ألاقيه من الرزية فى المال والعيال:

فليت وليدا مات ساعة وضعه

ولم يرتضع من أمه النفساء

عيسى بن هشام ـ ليست السكنى فى «الأوتيل» اليوم عن ذل وفقر، بل هى عن عز ويسر، فإن النفقة فيه عن بضعة أيام تكفى لنفقة شهر، على أكبر قصر، بجواريه وخدمه، وأتباعه وحشمه، وقد دعا أولادكم إلى ذلك ولوعهم بإحكام التقليد للأجانب، وإتقان الاقتداد بهم، والسعيد المنعم من أولاد الأمراء اليوم من يبيع عقاره، ويرهن ضياعه، لتتيسر له الإقامة فى هذا الخان، ومنهم من يتعذر عليه مفارقة أهله فيؤتى له بالطعام من «الأوتيل» إلى البيت وعنده الطباخ فى أسفله، والجوارى الطاهيات فى أعلاه.

الباشا (للبيطار) - أرجوك أن تصف لصاحبى مكان «الأوتيل» الذى يسكنه ذلك الغلام، فإن بى حاجة إلى لقائه.

البيطار - كيف تخاطبنى أيها الأمير بلفظ الرجاء، وأنا أنتظر فى خدمتك أن تأمرنى بما تشاء، وهل تظن أنى أفارق ركابك، إو أزايل معيتك، مهما تقلبت الأحوال، وتبدلت الأزمان؟ فهلم، منك الأمر والإشارة وعلى السمع والطاعة.

أبناء الكبراء

قال عيسى بن هشام ودعانى الباشا للسير معه، وهو يكفكف دمعه، وتبعنا البيطار من خلفنا بخطاه الثقيلة. وعصاه الثقيلة، فقد صقلها طول التوكؤ والاستعمال، وتعزى بها فى السير والانتقال، عن ظهور الخيل ومتون البغال، إلى أن وقفنا عند أحد القصور الكبيرة من الفنادق الشهيرة، فهال الباشا ما رآه من ضخامة البناء، وفخامة المنظر والرواء، وما لقيه من أدب الخدم والأعوان، ورشاقة الوصفاء والغلمان، فتخيل أننا أخطئنا الأبواب والمداخل فدخلنا بيت من بيوت الوكلاء أو القناصل، وتقدمت للسؤال والاستخبار، وقد خلفنا البيطار فى الانتظار، فدلنا أحد الخدم على المكان الذى يسكنه الأمير، بعد طول التردد والتفكير، فما وصلناه حتى دفع الباشا بيديه دفتى الباب، ولم يلفت لطلب إذن، ولا لرجع جواب، فوجدنا أمامنا جماعة من أولاد الأمراء وأعقاب الكبراء مختلفين فى الجلوس، حاسرين على الرءوس ، ففريق منهم عاكفون على لعب القمار،

وفريق ينظرون فى صور خيل الضمار، ومنهم جماعة قد استدار بأمرأة نصف لا عجوز شوهاء، ولا فتاة حسناء، تجتلب الحسن بإفراط التأنق والتفن، فى وجوه التصنع والتزين، فيكاد يضئ وجهها بسنا العقود والقلائد، ويتلألأ جنبيها بلالاء الجواهر والفرائد. وفى سط المكان مائدة عليها صنوف الراح فى الأباريق والأقداح، وبجانبها منضدة، عليها آنية منضدة، وفوقها الدواة والقرطاس، ويراعة مرصعة بالماس، وكتب أعجمية موشاة بالذهب، لا أدرى إن كانت فى اللهو أم فى الأدب، وعلى الأرض أوراق أحكام منشورة، وجرائد تحت الأقدام منثورة، ولم يفضض عنها «ظرف»، ولم يقرأ منها حرف وسمعناهم يتراطنون جميعا بلغات أجنبية، دون اللغة التركية أو العربية، إلا ما كان من أسماء الخيول العربية، بعد أن يبدلوا الكاف بالقاف وينطقوا بالحاء كالهاء، ولما رأونا ظهر منهم العبوس والقطوب، وبدأ عليهم انقباض الصدور والقلوب، وانبرى من جانب المرأة شاب فأسرع نحو الباب، فخاطبنا بعبارة فرنسية ولثغة باريسية:

الشاب : كيف ساغ لكما الدخول بغير إذن؟.

عيسى بن هشام : دعا إلى ذلك شوق الوالد إلى رؤية ذريته.

الشاب : لست أفهم لك كلاما فصرح لى وبين.

عيسى بن هشام : فلان يسأل عن فلان.

الشاب إنى أنا فلان، ولكن من فلان الذى يسأل عنى ؟

عيسى بن هشام : هو جدك الأكبر أحياه الله بعد مماته وبعثه من رقاده، وكان من أمره أننى كنت أزور المقابر، ذات يوم من الأيام ...

الشاب (مقاطعا مستهزئا) : اذهب عنى، فلست أسمع لهذا الكذب والخرف، وليس لى اليوم من جد ولا والد، ولا أنا ممن يصدق بحديث البعث فى الآخرة، فكيف برجوع الموتى إلى الدنيا، تعالوا أيها الأخوان فاعجبوا معى، واضحكوا مما أسمعه من هذا الرجل الذى يخاطبنى، وانظروا إلى هذا «الباشبورق» الغليظ الذى بجانبه، فهو يدعى أنه من آبائى وأجدادى ، بعثه الله ليطالبنى - فيما أظن - بما ورثته من الأموال وينازعنى فى نظارة الأوقاف. فهل سمعتم بأعجب مما أصبحنا فيه اليوم، ولم يكتف الدهر بتكدير عيشنا، وتعكير حياتنا، بمطالبة أرباب الديون، حتى بعث الأموات من قبورهم، ليطالبونا بمواريثهم وأموالهم، ألا ترون أيها الخلان أنها أبدع نكتة فى أواخر القرن؟

قال عيسى بن هشام : فاستغرق الجميع عند ذلك فى الضحك، واستلقوا من القهقهة، وكلما سألنى الباشا عن مكان حفيده، واستفهم منى عما يجرى معى من الكلام. استمهلته لتمام الحديث، حتى لا يقف على شئ مما يقال، ولا يحس بوقع تلك السهام والنبال، ولما انتهى الشبان من ضحكهم نادوا بالخدام ليأمروه بطردنا وإخراجنا. وحانت فى هذه الأثناء

التفاتة من الحفيد بين دورانه وحركاته، فلمح أحد أقبائه ورخوانه قد انزوى بتلك الخليلة، التى هى عندهم كالحليلة، يلاعبها وتلاعبه، ويغازلها وتداعبه، فانقض عليهما كالصقر الأجدل، فاستعر بينهم الجدال، واشتد الخصام، والتف حولهم الجمع، وسمعت الحفيد يعتب، والصاحب يعتذر، والمرأة تبكت وتونب، وتقول لعاشقها: ليس لك مثل هذا الجرأة فى العتاب والملام ولا يأتى ما تأتيه من الحدة والتهور فى الغيرة إلا من كان قائما بحاجتى، مجيبا لرغبتى، وقد طلبت منك بالأمس أن تشترى لى ذلك العقد الذى حضر لتاجر الحلى من أوروبا فى البريد الأخير، فسوفت وماطلت بعد أن أجبت ووعدت، واعتذرت بالإعسار والضيق، ثم بلغى اليوم إنك اشتريت فرسا جوادا بمقدار عظيم من المال، فكيف تقصر في حاجتي مثل هذا التقصير، وتبغي منى الاقتصار عليك، والاختصاص بك دون بقية من يبذل ماله وروحه في سبيل مرضاتى من أصحابك وإخوانك»

ثم سمعت الحفيد يجاوبها، والعرق يتساقط من جبينه، والوجد يقطع أنفاسه : «تالله ما اشتريت شيئا، ولكن بعت أشياء لأشترى لك العقد بثمنها، ولا يغرنك ما يقال لك عن ثروة هذا الصاحب الدنئ الخائن، وعن قلة أموالي، ورهن أطيانى، فأنت تعلمين بمقدار الأموال التى ستأتينى من اكتساب القضايا المعلقة لى في المحاكم كما ينبئك به المحامى فى كل حين».

وما سمع ذلك الصاحب سبه بهذين النعتين حتى اضطرم، وثارت به سورة الغضب فتقدم فلعنه وشتمه، ودفعه ولطمه، فوعده الملعون الملطوم، بالمبارزة في يوم معلوم.

ثم علا هناك صياح أيضا فى مجلس القمار بين صديق وصديق، أحدهما فى يسر والآخر فى ضيق، وأخ يبغى الاقتراض من أخيه ومفلس يطالب ميسرا بدين لا يؤديه، وانكشف الجدال كذلك عن الضرب واللكم، وانتهى النزاع بالصفع واللطم.

واشتبك خصام آخر في ركن المكان، بين أهل السبق والرهان: هذا يقول فرسي سابق، وفرسك لاحق، وذلك يقول «ركبداري» حاذق وابن حاذق، وجوادك قصير وجوادي شاهق، وأنت الآن مقر معترف، بأن الوزن بينهما مختلف، واشتدت المنافسة والمنابزة، وجرى بينهم حديث للمبارزة، كل هذا والمرأة تتسحب من حلقة إلي أخرى، تسحب الحية والأفعى، فتطفئ نار الجدال مرة على حسب بغيتها، وتشعلها طورا لخبث نيتها.

ورأيت الأجدر بنا أن نتركهم على هذه الحال، فجذبت بضبع [٤٢] الباشا وخرجنا من ذلك المكان، واسرعت به منحدرا إلى الطريق، فسألني عن تفصيل ما كان وجرى، فترجمت له شرح الحال والمآل، فاحتدم غيظه، واضطرم حنقه، فلم يطفئه إلا ما قلته له في آخر الحديث من عزم القوم على المبارزة فيما بينهم بالسلاح فقال وهو يتابع زفراته: لعل القدرة تكشف عن هذا المصاب، وتريحنى المبارزة من الأبناء

والأعقاب. فقلت في نفسي: إن عنكم أموالكم وليس عندهم من الشهامة ما يدفعون به عن الأعراض والأحساب، ولا من الشجاعة ما يؤنسهم بالطعان وبالضرائب، ولا يأبهون لكشف العار، وأخذ الثأر، والمبارزة عندهم كلمة تقال بالليل وتمحى بالنهار.

وتذكر الباشا في طريقه في طريقه شدة حاجته إلى وفاء ما عليه من الأجر للمحمي ، فالتفت إلى البيطار يسأله:

الباشا : هل بقي أحد ممن كانوا حولي من الخلطاء والأقران أهل النجدة والفتوة، وأصحاب الهمة والمروة؟.

البيطار: لم يبق منهم إلا فلان وفلان وفلان.

الباشا : ابدأ بالذهاب معنا إلي بيت الأول منهم.

قال عيسى بن هشام: فسرنا إلي حيث أشار، والهموم تفرسنا، والغموم تخرسنا، والأكدار لا تفارقنا، والأقدار لا توافقنا.

كبراء العصر الماضي

قال عيسى بن هشم: ومضينا نقصد أحد الثلاثة من قرناء الباشا ورفقائه، وبقية أخلائه وأصفيائه، فانتهى بنا طول المسير، إلى بيت ذلك الأمير، وكأنه ميدان في اتساعه، وحصن في ارتفاعه، ووقف بنا البيطار، عند باب الدار، فسلم على الخدم وحياهم، ثم سألهم عن سيدهم ومولاهم. فأجابوه

بالتهجم والعبوس أنه فى قاعة الجلوس. فخطونا فى بحبوحة الميدان، فرأينا في وسطه شجرة كثيفة الأغصان، حتى قوامها تقادم الأزمان، كأنها الثكلى حلت شعورها فى مأتم الأحزان، وفى ظلها فرس يجن من النشاط والمرج، ويجانبه كبش ضأن للنطاح، وحولهما ديكة نزال وضراب، ظنابيبها (٤٣) مسنونة كالحراب:

فحمر وسود حالكات كأنها
سوام بني السيد ازدهنه القوائم (٤٤)
يزان لديها الطعن فى حومة الوغي
إذا زينت للعاجزين الهزائم
وفيها إذا ما ضيع النكس غيرة
تصان بها المستصحبات الكرائم (٤٥).

ثم وصلنا إلى قاعة مشيدة البنيان، فسيحة الأركان، فى أحد جوانبها سلسبيل، يسيل ماؤه من أفواه التماثيل، والرزض مفروشة بالبسط الفارسية، وبجلود الضوارئ الوحشية والحيطان مستورة بأنواع السلاح، من خناجر وسيوف ورماح، وفوقها عدة صفوف، من الرفوف، تحمل الطرائف الكريمة، والأوانى الصينية القديمة، مع عيدان للتدخين، من أغصان الياسمين. فخلعنا نعالنا وتقدمنا أمامنا، فوجدنا الأمير ومن معه جلوسا متربعين منصتين مستمعين، يضئ فى وجوههم

نورالشيب والوقار، وتزدهيهم هيئة العزة والاستكبار فانقطع الحديث عند دخولنا، برد سلامنا ولكن ما لبث أن اتصل ما انقطع من الكلام بعد رجع التحية ورد السلام.

ولما استقر بنا المكان، همست في أذن البيطار أن ينبئنى بأسماء الحاضرين، فقال لى : هذا التصدر فيهم هو الأمير فلان رب الدار، وهو رفيق مولانا الباشا فى البيت الكريم الخديوى، وقد اعتزل الأعمال واعتكف في آخر عمره يتعبد ويتهجد، ويسلك طريق النسك والزهد، ويتقرب إلى اللّه بدوام القيام والقعود، وطول القنوت والسجود. وله أموال عريضة ينفق منها فيما ينفق على قعدة المشايخ وقوام أهل الطريقة، وطواف الآفاق من سكان الأماكن المقدسة؛ رجاء أن يغفر اللّه له ما تقدم من الذنوب، وأن يلحقه بالصالحين من أوليائه وأما الذى عن يمينه فهو فلان باشا كان عضوا من الأعضاء الكرام، فى «مجلس الأحكام»، والذى عن جانبه عالم من جلة العلماء الأعلام. والمشايخ العظام. أما الجالس عن شماله فهو فلان الفريق الجهادى المشهور فى الوقائع والفتوح، والذى بعده هو فلان من كبار المديرين السابقين، وأما الذى تراه فى أخريات المجلس فهو فلان التاجر من تجار خان الخليلى.

قال عيسى بن هشام : ولما وقفت من البيطار على معرفة ما عرفنيه، نظرت إلى الباشا فأدركت أنه لا يبغى المبادرة إلى كشف أمره قبل انتهاء الحاضرين من حديثهم، فأنصت مع المنصتين، فإذا الفريق الجهادى يقول فى اتصال حكايته وروايته :

الفريق : وكان «جنتمكان» محمد على باشا الكبير معجزة دهره، وآية عصره فى الدهاء وعلو الهمة، بعد الظهر، وإحكام عقدة التدبير واجتذاب القلوب، وتربية النفوس على الوفاء، والأمانة لخدمته، فكان له من الكفاة من خدموه بالصدق، واقتدوه بالأرواح. وأذكر منهم المرحوم «محمد بك لاظ أوغلى» فهو الذى دبر له قطع دابر المماليك فى ساعة واحدة. وقد حكى لى المرحوم أخى ـ وكان حاضرا فى تلك الواقعة الهائلة ـ أن المماليك لما رأوا أن المكيدة فى استئصالهم قد استحكم عقدها، واشتد رباطها، وأنهم أحيط بهم من كل مكان، تقدموا للبحث عن محمد على فى كل حجرة وزاوية من زوايا القصر للفتك به، والتخلص منه، فلم يقفوا له على أثر، وأعياهم البحث والتنقيب، لأن «لاظ أوغلى» أخفاه عنهم شديد الإخفاء، وقام له فى ذلك الوقت ـ إن جاز التشبيه والتمثيل ـ قيام على بن أبى طالب مقام الرسول عليه الصلاة والسلام ليلة الهجرة.

عضو الأحكام : نعم ، وكان المرحوم محمد على فوق ما يقال وما يتصور فى دقة سياسته، لتربية الرجال فى خدمته، فكانوا كلهم طرازا واحد فى حسن الولاء، وجميل الإخلاص، وربما كان يجذب الرجل منهم بكلمة واحدة تطبعه له على الصدق فى خدمته طول حياته.

ومن ذلك ما حكاه لى صديقنا المرحوم راغب باشا قال : «كنت أقرأ بين يدى المغفور له أوراقا، وأنا يومئذ كاتب من كتبة

معيته، فدخل علينا سامي باشا في أثناء القراءة، ووقف معنا، فسأله محمد علي عما يريده، فتلعثم تلعثم المتطلع لخروجي حتى ينفرد به، فيعرض عليه ما عنده ، فقال له : «قل ما عندك في الحال فإني لا أخفي عن «راغب» سرا من أسراري، ولا فرق عندي في المنزلة بين نسلي وذريتي، وبين كتبة معيتي».

فهل تعلمون يا قوم أنه يقوم مقام هذه الكلمة في جلب النفوس، وجذب القلوب إلى النصح والولاء في الخدمة، إنعام بضياع، أو إحسان بأموال، أو تقليد لرتبة أو نشان ؟.

وانظروا إلى ذلك الرجل العظيم كيف أتقن صناعة الألفة في تربية رجاله، وما للملوك صناعة غيرها، فإذا أتقنها أحدهم فاز بالتسليط على النفوس، واحتكر مودات القلوب فيصفوا له الملك، ويطيب له الحكم.

الشيخ العالم : أصبت وصدقت ، وقد اطلعت في التاريخ القديم على واحدة في هذا الباب للمنصور العباسي، تدل على براعته ودقته في صناعة الملك؛ وهي أنه كان يأكل ذات يوم، وبجانبه ابناه مع شيخ من قواد جيشه، ذهبت أسنانه لكبر سنه، فكان يسقط من فمه بعض الفتات وهو يأكل ، والأميران يتغامزان عليه، فالتفت إليهما الخليفة فرأى ما بينهما، فمد يده فجمع ما سقط من ذلك الفتات فأكله، فقام القائد يقول له : «لم يبق إلا ديني أقدمه لك يا أمير المؤمنين فأمرني بما تريد».

المدير السابق : وأنا أقص عليكن واحدة أخرى للمغفور له محمد علي، تشهد بلطف سياسته، وحسن عطفه على

الأهالى، وشفقته على الرعية، وهى أن أحد المديرين أراد أن يفوق إخوانه فى الخدمة، لينال مكانة عالية من أميره، فجد فى تحصيل الأموال وتغالى فى طريقته، فأخذ ما عند الأهالى من المال جملة واحدة، فضج ضجيجهم، واشتد صياحهم، حتى بلغ مسامع ولى النعم، فأمر بإحضار المدير، فلما وقف فى حضرته قال : إدن منى، فلما دنا منه، أخذ بعنقه فى قبضه يده، وصار ينتزع من رأسه شعره، ومن قفاه شعرة، ومن عارضه شعرة، ومن حاجبه شعرة، حتى جمع فى قبضته خصلة من الشعر، والمدير لا يجد لذلك من الألم إلا أثرا خفيفا، ثم إن الأمير انتقل إلى لحية الرجل، فانتزع منها خصلة دفعة واحدة من جهة بمقدار تلك الخصلة المتفرقة، فنبع من تتحها الدم، وصرخ المدير من شدة الألم، فقال له محمد على : «هكذا تختلف المعاملة مع الرعية فى جباية الأموال، إذا أنت أخذت من هاهنا درهما، ومن هاهنا درهما، أنا بعد آن، خف الوقع على الأهالى، ولم يدركوا الألم، وحصلت منهم على مثل المقدار الذى تأخذه جملة واحدة فى وقت واحد مع شدة الألم، كما رأيت الفرق بين انتزاع الشعرات متفرقات، وبين انتزاعها مجتمعات، والكمية واحدة، والألم بينهما مختلف، فإياك أن تعامل الناس بعد اليوم بما يلجئهم إلى الشكوى، ويبعثهم إلى الاستغاثة».

الشيخ العالم (منشدا):

فــلا تكثــروا ذكــر الزمــان الذى مــضــى

فــذلك عــصــر قــد تقــضــى وذا عــصــر

ورحم اللّه الماضى، وأعاذنا من الحاضر، وأجارنا من المستقبل، وإنى لأراكم أيها الأمراء، مهما أسهبتم من محاسن المغفور له وأفضاله، وأظنبتم فى حميد أخلاقه وخصاله، فلستم ببالغى حق الشك، ولا موفين بجميل الذكر، ويكفيه من الحسنات التى يغنى ذكرها عن الإجمال والتفصيل، وتحكم له بالسبق فى باب التمييز والتفضيل، إنه كان يقرب العلماء ويعظمهم ويدينهم منه ويكرمهم، ثم يقضى حاجاتهم، ويتبرك بدعواتهم، ولقد رأيت له رؤيا صالحة تحكم له فى أخراه، بأن جانبا مع اللّه، وإنه نال جزاء الإحسان، بسكنى فراديس الجنان.

وأقبل فى أثناء هذا الحديث رجل من أهل مكة، المعروفى بالمطوفين أو المزورين، فتقدم إلى رب الدار فقبل يده، وإلى الشيخ العالم، فلثم ذيله، ثم وضع عنه يده صره، فأخرج منها قطعة من الحرير الأخضر وجزءا من التمر ومشطا ومكحلة وسبحة وشيئامن الحناء، ثم قرأ الفاتحة، وخاطب الأمير بقوله:

المكى : قد جيئتك أيها الأمير بالقطعة التى أمرتنى بإحضارها من الكسوة الشريفة، وأتيتك بجزء من تمر النخلة المباركة التى غرستها الزهراء البتول بيدها الكريمة.

الشيخ العالم : بعد أن ذاق التمر واستطابه. إيه إيه صدقت أيها الرجل، ومن كان صائما فأفطر على تمر المدينة كتبت له الجنة.

قال عيسى بن هشام: فرأيت الباشا يتأفف بجانبى ويزمجر، ويتململ ويتضجر، ويهم بأن يتكلم، فالتفت صاحب الدار عند ذلك إلى البيطار يسأله عن شأن هذا المتأفف المتضجر فتقدمت له بشرح القصة على الحاضرين، وذكرت خروج الباشا من القبر ورجوعه إلى الدنيا. فمنهم من صدق، ومنهم من كذب، فتنحنح الشيخ العالم، وأشار فيهم بإشارة الاستماع، ثم اندفع يقول:

الشيخ العالم: أعلموا أنه ليس للمعجزات حد، ولا للخوارق حصر، ولا تذكروا على الرجل حياته بعد موته، فليس من حسن اليقين أن ننكر بعث الدفين، والرجوع إلى الدنيا بعد الفناء، أمر معلوم بلا امتراء، تخص القدرة به من تشاء، ببركة الأصفياء والأولياء، وأقرب ما استشهد لكم به على ذلك من كتب «مناقب تاج الأولياء»، وبرهان الأصفياء، للقطب الربانى والغوث الصمدانى، السيد عبد القادر الكيلانى ما أرويه لكم بحرفة ونصه:

ذكر فى «رسالة حقيقة الحقائق» أن امرأة غرق ولدها فى اليم، وجاءت إلى الغوث الأعظم، وقالت: إن ولدى غرق فى البحر، واعتقادى جازم بأنك تقدر على رد ولدى إلى حيا، فقال لها رضى الله عنه: ارجعى إلى بيتك، تجدى ولدك فى بيتك، فراحت ولم تجده، فجاءت ثانية وتضرعت، فقال لها الغوث أيضا: ارجعى إلى بيتك، تجدى ولدك فى بيتك، فراحت ولم

تجده؛ فجاءت ثالثة بالبكاء والتضرع، فراقب الغوث، وانحنى برأسه، ثم رفع رأسه فقال لها : ارجعى إلى بيتك، تجدى ولدك فى البيت. فراحت ووجدت ولدها فى البيت: فقال الغوث الأعظم بطريق المحبوبية: يارب لم أخجلتنى مرتين عند تلك المرأة فجاءه الخطاب من الملك الوهاب . إن كلامك حين قلت لها كان صدقا، ففى المرة الأولى جمعت الملائكة أجزاءه المتفرقة، وفي المرة الثانية أحييته ، وفى الثالثة أخرجته من أليم وأوصلته إلى دارها، فقال الغوث: يارب خلقت الأكوان بأمر «كن» ولم يسبق زمان ولا آن، وفى وقت البعث تجمع أجزاءها المتفرقة التى لا نهاية لها، وتحشرهم فى طرفة عين، وجمع أجزاء جسد واحد وإحياؤه وبعثه إلى دارها شئ جزئى، فما الحكمة فى هذا التأخير فجاء الخطاب من الرب القدير: أطلب ماتطلب فقد أعطيناك عوضا من انكسار قلبك. فتضرع الغوث ووضع وجهه فى التراب وقال: يارب أنا مخلوق فبقدر مخلوقيتى يليق بى في الطب. وأنت خالق فبقدر عظمتك وخالقيتك يليق بك العطاء . فجاءه الخطاب: كل من يراك يوم الجمعة يكون وليا مقربا إذا نظرت إلى التراب يكون ذهبا. فقال : يارب ليس لى نفع من هذين، أعطنى شيئا أعظم منهما ويبقى بعدى لينفع فى الدارين. فجاء الخطاب من الله العزيز القدير: جعلت أسماءك مثل أسمائى فى الثواب والتأثير، ومن قرأ اسما من أسمائك فهو كمن قرأ اسما من أسمائى».

وروى فيه أيضا عن السيد الشيخ الكبير أبى العباس الرفاعى رضى الله عنه قال: «توفى أحد خدام الغوث الأعظم،

وجاءت زوجته إلى الغوث، فتضرعت، والتجأت، وطلبت حياة زوجها، فتوجه الغوث إلى المراقبة، فرأى في عالم الباطن أن ملك الموت عليه السلام يصعد إلى السماء ومعه الأرواح المقبوضة فى ذلك اليوم، فقال يا ملك الموت قف وأعطنى روح خادمى (وسماه باسمه)، فقال ملك الموت : إنى أقبض الأرواح بأمر إلهى، وأؤديها إلى باب عظمته، كيف يمكننى أن أعطيك روح الذى قبضته بأمر ربى؟ فكرر الغوث عليه إعطاء روح خادمه إليه، فامتنع من إعطائه، وفى يده ظرف معنوى كهيئة الزنبيل فيه الأرواح المقبوضة فى ذلك اليوم، فبقوة المحبوبية جر الزنبيل وأخذه من يده، فتفرقت الأرواح ورجعت إلى أبدانها، فناجى ملك الموت عليه السلام ربه وقال: يارب أنت أعلم بما جرى بينى وبين محبوبك ووليك عبد القادر، فبقوة السلطنة والصولة أخذ منى ما قبضته من الأرواح فى هذا اليوم. فخاطبه الحق جل جلاله: يا ملك الموت إن الغوث الأعظم محبوبى ومطلوبى لم لا أعطيته روح خادمه، وقد راحت الأرواح الكثيرة من قبضتك بسبب روح واحد، فتندم هذا الوقت.

قال عيسى بن هشام : وما انتهى الشيخ من روايته، حتى رأيت الباشا قد انتفض قائما يقول، والغضب باد على وجهه والغيظ يتقيد فى صدره:

الباشا: اعلموا أيها الإخوان إن مغفرة الرحمن، وسكنى الجنان، لا تنال بكثرة الصوم، وأكل التمر، أو التبرك بالآثار، والتحصن بالأوراد، وما تكسب الدرجة الرفيعة عند الله إلا بالعدل والإحسان، وفعل الخير واجتناب الشر، والرحمة

بالضعفاء والمساكين من عباد الله، وقد غرني في دنياي ما يغركم الآن فكنت اسمع قبل مماتي من مثل هذا الشيخ العالم ما يهون على ارتكاب المخزيات، وفضائع الشرور في معاملة الناس، ارتكانا على نهار أصومه، وليل أقومه، وحرز أحمله، وأثر أقبله فنمت عن عمل الخير، وغفلت عن بذل المعروف، فلما توفاني القدير العليم، وسكنت في حفرة القبر، علمت ما لم أكن أعلم، فلم يغنني ذلك وحده من الله شيئا، وما خفف على أهوال القبر، وهون على سؤال الملك ، إلا حسنة واحدة كنت أتيتها في إغاثة مظلوم استجارني فأجرته، وهو في يد الجلاد بين السيف والنطع (٤٦). فعليكن بالعدل والإحسان، وتقوى الله في عباده، وإفشاء البر والمعروف في خلقه، ولا تطيعوا النفس الأمارة بالسوء، فتركنوا إلى الاغترار بالأمل، وتطلبوا المغفرة بلا عمل، بل استكثروا من الخير من قبل حلول الأجل، وتذكروا قول الله الأجل: «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره»، واعتبروا بقول علي رضي الله عنه: «كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والظمأ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر والعناء، واسمعوا لقول حكيم الشعراء :

ما الخير صوم يذوب الصائمون له

ولا صلاة ولا صوف على الجسد

وإنما هو ترك الشر مطرحا

ونفضك الصدر من غل ومن حسد

ولا يستقيم أمر المسلم إلا إذا جمع بين فرائض العبادات، وحسن المعاملات.

الشيخ العالم - إني لأخالك أيها الرجل شيطانا في زي إنسان، وزنديقا يتستر بدعوى النشور من القبر، تعسا لهذا الزمن ما أكثر أضاليله، وبؤسا له ما أعظم أباطيله، ولم يبق علينا من مدخرات عجائبه إلا أن يخرج الميت من قبره، فيخبرنا بما رأى وبما سمع.

صاحب الدار (للباشا) - سألتك بالله أن تخبرني بأية لغة كان سؤال الملكين لك أيا بالعربية، أم التركية، أم السريانية. فإن هناك اختلافا وأقوالا بين العلماء.

الشيخ العالم - ناشدتكم الله أن تقصروا عن هذا الرجل ولا تخاطبوه، فإنه فتنة من فتن إبليس اللعين، ونعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

قال عيسى بن هشام : فلم يسع الباشا إلا الخروج من هذا المجلس، وهو يهدر ويغلي، ويستعيذ ويستعدي، فانخرطت وراءه، وأنا أذكر قول عمر رضي الله عنه في مثل هذا الشيخ الغليظ البدين : «إن الله يكره الحبر السمين»وأردد قول أبي تراب كرم الله وجهه : «أشكو إلى الله من معشر يعيشون جهالاً، ويموتون ضلالاً ليس فيهم سلعة أبور من كتاب الله إذا تلي حق تلاوته، ولا سلعة أنفق بيعاً وثمناً من الكتاب إذا حرف عن مواضعه، ولا عندهم أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر».

ولحق بنا البيطار فى خروجنا ومعه التاجر الذى كان مقيماً فى المجلس يناديانا، فوقفنا لهما، فتقدم التاجر إلى الباشا، ومال على يده يقبلها ويقول له:

التاجر ـ أشهد الله أيها المولى أننى مصدق بأمرك، وليس بعد العيان من برهان، وما أخطئ نظرى فيك، فأنت سيدى الباشا بعينه وأنت صاحب اليد التى أتذكرها طول عمرى، وما بى من نعمة فمنك، وما أصبحت فيه من ثروة فبيمنك وفضلك. وليست أنسى أن أصل شهرتى، واتساع تجارتى، هو أنك جلست فى دكانى مرة عندما عثرت بك رجلك وأنت تقصد زيارة الحسين، فارتفع بتلك الجلسة قدرى، واشتهر ذكرى، وأقبل على الناس من دون التجار، لتوهمهم فى أن لى برحابك صلة، وبجانبك نسبة، فأصبحت ولله الحمد فى غنى ومال كثير وقد بلغنى من أحمد أغا هذا ما أنت فيه من الحاجة إلى الدراهم لأجرة المحامى التى جاءت بك إلى هذا المجلس، ولكنك أنفت من ذكرها عندما غضبت لله، وزنا أتضرع بخالق الخلق أن تتنازل فتقبل منى ما تسد به حاجتك وتتخلص به من مطالبة المحامين.

وأخرج التاجر كيسا مملوءًا فقدمه إلى الباشا وهو يرتعد من خيفة الرد، فأخذه الباشا وقال له:

الباشا ـ إنى أشكرك جميل الشكر لحسن صنيعك، وأسال الله لك حسن الجزاء، فهلم أكتب لك صكا بالمال لأرده إليك عند استرداد أوقافى: التاجر ـ حاشا لله أن أكون من أهل هذا الزمن الذين أصبحوا لا يثق بعضهم ببعض، فلا يأمن

الأخ أخاه، ولا الوالد ولده، ولا الصاحب صاحبه، ولا الجار جاره على درهم واحد إلا بعقود وصكوك، بل أنا لا أزال من أهل ذلك الزمن الذى لم يكن يتعامل التجار فيه بينهم بغير الثقة والائتمان، دون احتياج إلى تحرير الأرواق، وتسطير الصكوك، وما يكون الاستيثاق إلا عند توهم الخيانة والعياذ بالله.

قال عيسى بن هشام : فكرر الباشا شكره للتاجر مضاعفا، وقال لى: انصرف بنا إلى المحامى، نستنقذ رقابنا من أسره، ثم نذهب إلى المحكمة الشرعية للمطالبة بالوقف، فقلت له: لا بد لنا من محام شرعى يطالب لنا بحقنا، فما نخرج من قبضة محام، إلا إلى قبضة محام، ونسأل الله السلامة فى الختام.

المحامى الشرعى

قال عيسى بن هشام : وأخذت طريقى مع رفيقى، أنشد صاحبا أسترشده، فى محام شرعى أقصده. وبينا نحن نسير، ونسأل الله التيسير، إذا بصاحب لى عرفته، فاستوقفته، قال : ما خطبك ؟ قلت : قضية، فى المحكمة الشرعية، فما طرق الخبر سمعه، حتى أجرى دمعه، وهول الأمر وهولت، وحوقل وحوقلت. ثم قال: لقد وقعت قبلك فى هذا البلاء، ولما تتم لى النفاهة من الداء، وأنا أنصح لك أن كنت مدعيا أن تترك دعواك، وتصبر على بلواك. أما إن كانت الدعوى عليك، فليس الخيار إليك، ولامرد لحكم القضاء، بتدبير الآراء. فقلت:

للضرورة أحكام، فأرشدني لانتخاب محام، يكون مشهودا بعدالته، مشهورا بطهارته، بعيدا عن خلف الوعد، بريئاً من خلق الوغد (٤٧) ، لا يتفق مع الخصم، ولا يسرق من «الرسم».
قال: اطلب من أنواع المحال، أن يحمل النذر الجبال، ولا تطلب في محام اجتماع هذه الشروط فينتهي بك الأمر إلى الياس، والقنوط، ولمحاولة الارتقاء، فوق متن العنقاء (٤٨) أيسر من ذلك مطلبا، وأوسع مذهبا. وأقسم لك بخالص الود، أني لا أثق منهم بأحد، وكيف تكلفني أن أنتقي لك ذئباً من الذئاب وأحمل على كاهلي عبء اللوم والعتاب؟ فأعفني من هذا الاختيار والانتقاء، عافاك الله من جميع الأسواء.

ثم ما لبث أن خلفني ومضى، وتركني على مثل جمر الغضى. فسرت كئيبا حزينا، أبغي سواه مرشدا ومعينا. ولما لم أجد من أصحابي من يتكفل على عهدته، باختيار محام يوثق بذمته، قصدت أحد المعلومين عندي بكثرة الخصومات، وطول المحاكمات، فكاشفته بطلبتنا، ليكشف من مصيبتنا.

فقال : أعلم أن المحامين الشرعيين أجناس وصنوف، فمنهم المبصر، ومنهم المكفوف، وفيهم ـ كتب الله لك السلامة، صاحب «الطربوش» وصاحب العمامة، وأنا أدلك على أهونهم شرا، وأقلهم ضرا،وأخفهم رزية وبلية، وأكثرهم علما بالحيل الشرعية.

فعليك بفلان، وبيته معلوم، في منتهى «حارة الروم». فقصدنا البيت نشق طرقا معوجة، ونحترق ثنيات مزدوجة. إلى

أن انتهينا إلى باب دار، كأنها مطلية بالقار [٤٩] ، تسورت بأكوام من الأقذار، وتلفعت بتلال من الأوضار [٥٠] ، ورأينا عند مدخل الباب، صبية يلعبون بالتراب، ومن بينهم طفلة تجمع على وجهها من الذباب، مثل البقع تنقبت به قبل أوان النقاب، ولما تخطيناهم غشيتنا رائحة المرحاض، فاستندنا هناك على هضبة أنقاض، بجانبها مذود أتان ، يزاحمها عليه أوزتان وبطتان، ثم اهتدينا إلى حجرة في جهة اليمين، فرأينا أمامها فرانا ينادي : «العجين» «والأجرة»، فسألناه عن رب الدار، فأشار إلى الحجرة. فدخلنا فوجدنا فيها حصيرا تغطى بالغبار والحصباء، ومتكئا تعرى من الفراش والغطاء، وفى زاوية من زوايا المكان، سراج لا ينفذ نوره من تكاثف الدخان، وفى أعلى رفوف الرواق، أحمال كتب وأوراق، قام لها نسيج العناكب مقام الوقاية والتجليد، وألصقتها الرطوبة فحفظتها من التوزيع والتبديد، وفوق الأرض زجاجات مطروحة من المداد، وفى بياض الحائط تسويد وتخطيط من لعب الأولاد، وبصرنا برجل:

تغـــيـــر حناؤه شـــيـــبـــه

فـــهل غـــيـــر الظهـــر لما انحنى

ووجدناه جالسا على سجادة الصلاة، وعن يساره امرأة كأنها السعلاة [٥١] . فسمعناه يقول لها فى تسبيحه : «أتستكثرين ـ أدرا الله عليك خيره، وأبدلك زوجا غيره ـ ما

أخذته منك لاستنباط الحيلة في التفريق، واستخراج الحكم بالتطبيق، فأبعدت عنك زوجا تكرهينه، لتتبدلي منه زوجا تحبينه ؟ » ثم إنه أحس بدخولنا من ورائه، فارتد إلى اتصال تسبيحه ودعائه، وانتفضت المرأة فتنقبت بخمارها، وتلفحت بإزارها، وخرجت وتركتنا مع رجل يخدع الأنام بطول صلواته، ويتلو سورة الأنعام في ركعاته:

إذا رام كـيـدا بالصـلاة مـقـيـمـهـا

فـتـاركـهـا عـمـدا إلى الله أقـرب

وجلسنا مدة ننتظر خلاصة من هذا الرياء وخلاص الملكين من صحيفته السوداء، وخلاصنا من هذا الكرب والعناء، وكنا نشاهد منه في خلال ذلك نظرات مختلسات نحو الباب، كأنه هو أيضا في انتظار وارتقاب، إلى أن دخل علينا غلام يصيح به: إلى متى هذه العبادة، فقد بليت السجادة، وحاجات الناس موكولة إليك، وقضاء مصالحهم موقوف عليك ! وهذا دولة «البرنس» ينتظرك في القصر، منذ العصر، دع مدير الأوقاف، ونقيب الأشراف، فلم يعبأ المصلي بهذا الكلام، بل جهر بالآية من سورة الأنعام: «قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين»، فجلس غلام الشيخ وهو يمسح العرق واشتد بنا الضيق والقلق، فقلنا من يضمن لهذه الصلاة انتهاء، ولهذا التسبيح انقضاء. وهممنا بالقيام، فالتفت الشيخ للغلام، وأشبعه من التأنيب والملام، ثم حيانا بألطف سلام، وقال:

بارك الله فيكم وعليكن، وأنا فى الخدمة بين يديكم، فقلنا: علمنا إنك رجل عدل عف، فجئناك لقضية فى وقف، فقال الغلام: أتطلبون ريعه، أم تريدون بيعه؟ فقلت: سبحان الله! وهل تباع الأوقاف؟ قال : نعم، ويباع جبل قاف، ثم تنحنح الشيخ وسعل، وبصق وتفل، وتسعط، ثم تمخط واقترب منا ودنا، ثم قال لنا:

المحامى ـ دعونا من هذا الغلام، وقولا لى ما حقكم فى الوقف، وما شرط الواقف وكم يقدر ثمن العين لتقدر «قيمة الأتعاب» بحسبه؟

عيسى بن هشام ـ إن لصاحبى هذا وقفا عاقته عنه العوائق، فوضع سواه عليه يده، ونريد رفع الدعوى لرفع تلك اليد.

المحامى ـ سألتك ما قيمة العين ؟

عيسى بن هشام ـ لست أدرى على التحقيق، ولكنها تبلغ الألوف.

المحامى ـ لا يمكن أن يقل مقدم الأتعاب حينئذ عن المئات.

عيسى بن هشام ـ لا تشطط أيها الشيخ فى قيمة الأتعاب، وأرفق بنا، فإننا الآن فى حالة عسر وضيق.

الغلام ـ وهل ينفع فى رفع الدعاوى اعتذار بإعسار، ألم

تعلم أن هذا شغل له «اشتراكات»، وللكتبة والمحضرين «تطلعات» وإني لكما بمثل مولانا الشيخ يضمن ربح الدعوى، وكسب القضية، بما يهون معه دفع كل ما يطلبه فى قيمة أتعابه، وهل يوجد مثله أبدا فى سعة العلم بالحيلة الشرعية، ولطف الحيلة فى استمالة محامى الخصم، واستجلاب عناية القضاة ؟

عيسى بن هشام ـ دونك هذه الدراهم التى معنا فخذها الان، ونكتب لك صكا بما يبقى لحين كسب القضية، وليس يفوتك شئ من ذلك، ما دام ربحها مضمونا لديك على كل حال.

المحامى ـ «بعد أن استلم الدراهم يعدها أنا أقبل منك هذا العدد القليل الآن ابتغاء ما أدخره الله لعباده من الأجر والثواب فى خدمة المسلمين، وعليك بشاهدين للتوكيل.

عيسى بن هشام ـ وبأية طريقة يكون التوكيل.

المحامى ـ يجب عليك أن تستحضر شاهدين يشهدان أمام المحكمة «بأن فلانا بن فلان بن فلان وكل فلانا بن فلان بن فلان فى المرافعات والمدافعات والمخاصمات والمصالحات والقبض والاستلام والتسليم، وفى المطالبة والدفع والإقرار، وكل ما يصح فيه التوكيل شرعا وفى أن يوكل عنه فى الدعوى غيره، وأن يعزله، وأن يفعل ذلك مرارا وتكرارا كلما بدا له فعله المرة بعد المرة، والكرة بعد الكرة وأنا أنتظر حضوركما غدا مع الشاهدين ومستند الوقف.

عيسى بن هشام ـ ليس لدينا الآن إلا شاهد واحد يعرف أصل الباشا ونسبه.

غلام المحامى ـ هذه تكال خطوة فى تكاليف القضية ومشاقها، ولعلك تعرف قيمتها، ونحن نجد لك بتيسير الله من يعرف أصل الباشا ونسبه، ويشهد به بين يدى الحق.

عيسى بن هشام ـ وليس فى يدنا أيضا مستند للوقف.

المحامى ـ أما من جهة المستند فينبغى استخراج صورة من السجل «المصان» (كذا)، وهذه خطوة ثانية فى متاعب القضية.

قال عيسى بن هشام ـ وعند ذلك قطع الشيخ المحامى كلامه معنا، واستقبل القبلة بوجهه يتنفل ويتبتل. فقمنا للانصراف، وسرت مع صاحبى، وأنا غريق فى الأفكار، أتدبر وأعتبر، وأعجب مما رأيت من سكون الباشا وسكوته، وحسن احتماله وصبره، بعد أن كان شديد الحدة سريع الغضب، يرى القتل واجبا لأدنى هفوة وأقل سبب، فأصبح بفضل وقوعه فى هذه الخطوب المتتالية، والرزايا المتتابعة، لين العريكة، واسع الصدر، موطأ الكنف، كثير الاحتمال، حتى أنه لم يأنف ولم يتأفف من كل ما رأيناه فى يومنا هذا، بل كانت حالته حالة الفيلسوف الحكيم، الذى يجعل دأبة البحث والتأمل فى أخلاق الناس أثناء التعامل معهم، وازددت يقينا بأنه لا شئ أسرع فى تهذيب النفوس وتربيتها على التخلق بالأخلاق الفاضلة مثل

ممارسة الخطوب، ومصارعة النوائب،وأن أسوأ الناس أخلاقا، وأنكدهم عيشا، هم هؤلاء الأغمار [٥٢] ، المنعمون المترفون، الذين لم يأخذوا العيش عن تجارب الحدثان، ولم تهذبهم صروف الأزمان، ولم يزدنى الباشا فى كلامه أثناء الطريق على أن قال :

الباشا ـ قلت لى : إن المحامين الشرعيين فيهم صاحب «الطربوش» وصاحب العمامة، فهل تراهم جميعا على هذا النمط الذى شاهدناه، أم بين الفريقين فرق؟

عيسى بن هشام ـ اعلم أن الخيرة فى الواقع، والحمد للّه على كل حال. فإن فيهم تحت «الطربوش»، من هو أشد فتكا من ضوارى الوحوش. وأعرف طربوشا منهم أقسم أمامى بالطلاق ثلاثا من زوجته، ومن كل زوجة يتزوج بها حياته على إنكار كلام نطق به فى مجلس كنت حاضره، إرضاء لأحد أرباب القضايا، وإغضابا لخالق البرايا، واستهانة بحكم الشارع، واعتمادا على قول الشاعر:

وإن أحلفونى بالطلاق أتيتها
على خير ما كنا ولم نتفرق

وإن أحلفونى بالعتاق فقد درى
عبيد غلامى أنه غير معتق

قال عيسى بن هشام : ومضت علينا الأيام، ونحن نقصد

الشيخ المحامى فى كل يوم، فلا نتمكن من لقائه، فإن ذهبنا إليه فى البيت قيل لنا : إنه فى المحكمة، وإن ذهبنا إلى المحكمة قيل لنا : إنه فى القصر الفلانى أو القصر الفلانى من قصور الأمراء والكبراء، حتى حفيت الأقدام، ومللنا الاصطبار، فاخترنا أن نربط له أمام بيته عند الثلث الأخير من الليل، فنصطاده عند خروجه، وقعدنا بعيدا عن الباب حتى خرج علينا راكبا أتانه، فتقدمت إليه، فقال لى : أرجو المسامحة فى هذا التأخير، فالذنب فيه لكثرة مشاكل الأمراء ودعاويهم، فتقبلنا عذره، وتوجهنا معه إلى المحكمة، فذهب بنا إلى «كاتب الإشهادات» فوجدناه جالسا يلمع فى ثيابه. من حمرة الحذاء فى رجله، وزرقة الجبة على كتفه، وصفرة الحزام فى خصره، وبياض العمامة فوق رأسه:

تعددت ألوانه كأنه قوس قزح

وكان الشيخ المحامى قد تركنا مع الظلام والشاهد الذى اختاره لنا، فنظر الكاتب إلى الشاهد نظرة المتوقف، وقال : إنه شاب صغير السن، وإنه .. فمال عليه غلام المحامى، وألقى فى أذنه بعض القول، فقام معنا من فوره إلى قاضى الجلسة لسماع الإشهاد بعد أن قال لنا الغلام: وهذه الخطوة الثالثة فى تكاليف القضية.

ثم انتهى الإشهاد بحمد الله وحسن العناية بنا فى أثناء يوم واحد. وقال لنا الغلام عند الانصاف: يجب بعد هذا أن تقدم عريضة لحضرة القاضى بطلب الكشف من الدفترخانة

عن الوقفية فى السجل، وأن نوضح فيها نمرة الوقفية وتاريخها ومن «عملية» من هى (يعنى اسم الكاتب الذى كتبها فى زمانها)، فخرجنا نبحث عن أحمد أغا البيطار، لعله يعرف طريقة توصلنا إلى مطلوبنا، فعثرنا عليه وأعلمناه بغرضنا، فقال: إن عندى ورقة فيها نمرة الوقفية، كنت تحصلت عليها بطرق مختلفة بعد الجهاد الشديد، والزمن المديد، لإثبات حقى فى ريع الوقف، ثم ذهب إلى بيته وعاد إلينا بالورقة، فوجدناها قاصرة على ذكر النمرة والتاريخ، ولم يذكر فيها اسم الكاتب الذى عمل (العملية)، قصدنا غلام المحامى، وتوجهنا معه إلى المحكمة، فكتبنا العريضة، وقدمناها لحضرة القاضى، فوضع عليها إشارة لحضرة الباشكاتب، ليتحرى عن مسألة «الشأن»، وطلبوا منا شهودا يشترط فيهم أن يكونوا من أهل جيل الباشا ليثبتوا شخصيته، ويشهدوا بأنه صاحب الوقف، وأن سواه وضع يده عليه، فأدركنا الحيرة فى الأمر، فتكفل منا الغلام باستحضار أولئك الشهود أيضا بعد أن قال لنا : وهذه الخطوة الرابعة فى تكاليف القضية. ولما نظر الباشكاتب فى العريضة، ووجد أننا لم نبين فيها اسم الكاتب صاحب «العملية»، قال لنا : إنه لا يمكن الاهتداء فى الدفترخانة بدون ذلك، وإنه لابد لنا من انتظار السنين والأعوام، حتى يمكن العثور على صورة الوقفية فى السجل بالنمرة والتاريخ وحدهما. فعاودتنا الحيرة، فقال لنا الغلام : لا تحزنا فأنا أساعد على سرعة الإنجاز، وأتوجه معكما إلى الدفترخانة إن شاء الله، وهذه هى الخطوة الخامسة فى تكاليف القضية. وما

زال الخبيث يعد لنا الخطوات، ونعد له فى كل خطوة دريهمات، ونحن نسأل الله أن ينقذنا مما أصابنا من حكم الدهر، وأن يعجل بانقضاء القضية قبل انقضاء العمر.

الدفترخانة الشرعية

قال عيسى بن هشام : وعكفنا زمنا نشتد فى الطلب، والمحامى يشتد منا فى الهرب فلما طال علينا الأمد فى ارتياده، ويئسنا فى لحاقه واصطياده، انتقلنا للبحث عن غلامه، حتى قبضنا على زمامه، فرأينا الخبيث يصعب فى الأمور والأحوال، لنسترضيه بالعطاء والنوال، وقال لنا : أقول لكما الحق، والحق أقول: إنه ليس من المتصور المعقول، أن نهتدى فى هذه القضية، إلى صورة الوقفية، بمجرد تاريخها أو اسم صاحبها، دون الوقوف على اسم محررها وكاتبها، ولا يجول فى الخواطر والأوهام، أن يعثر عليها كاتب السجل بين تلك الأكام، من غير وحى أو إلهام، إلا بعد كر السنين ومر الأعوام، وإن اعتراكما بعض الشك أو الريب، ولم تصدقا بظهر الغيب، فهلما معى أطلعكما على ما يزول معه اللبس، وتقتنع به النفس. فقيدناه بقيود التغبيب والتأميل، وأعطيناه ما يحضرنا من كثير وقليل، فانطلق أمامنا يثب ويحجل، حتى دخلنا ببيت السجل فلما جاوزنا الباب، حيث يجلس الكتاب، ألفينا خشبا مسندة، على خشب موطدة، وهياكل تفترش الفراء، فوق الأقذار والأقذاء، لا تميز منهم وجه إنسان من إنسان، لعشوة البصر من ظلمة المكان. فتذكر الباشا عند ذلك ظلام الرمس، وكر

راجعا ينتظرنا في ضوء الشمس، ثم مال الغلام إلى أذن أحدهم يكلمه، بما لا أعيه ولا أفهمه، فبادر الرجل بالنهوض والقيام، وسار بالغلام، وأنا في عقب الغلام، فما خطونا بضع خطوات، حتى حيل بيننا وبين ضوء النهار، وتجللنا من حندس (٥٣) الليل يحجب واستار. فوقفت لا أبصر ولا أهتدى، فأخذ الغلام بيدى، وقد عميت على وجوه المسالك، فى هذه المخاوف والمهالك، وسرت فوق أرض تهش تحت القدم وتلين، كأنها مفروشة بالهشيم، تلبد فى الطين، وما زلنا نمشى فى أنحاء تلك المطمورة (٥٤) ، على هذه الصورة، حتى تخيلت أننى فى قبور قدماء المصريين، أو فى هياكل الأسرار بمعابد الرومانيين، أو فى طريق الامتحان عند أحرار البنائين، فوجب القلب (٥٥) ، من شدة الرعب، خشية أحبولة نصبت، أو مكيدة رتبت، ووجمت، ثم أحجمت وقلت للغلام: ليس بيننا ما يوجب الاحتيال أو يدعو للاغتيال، وماذا تريد منى فى هذا الغيهب (٥٦) وليس معى من فضة ولا ذهب، ولا من شئ يستلب أو ينتهب، فقهقه الفاجر ثم أقسم بالله وثنى بالطلاق، أننا نسير فى أمان، بين غرائر (٥٧) الدفاتر ولفائف الأوراق، وسترى الحقيقة بعينى رأسك .. وما كاد الشقى يتم لى هذه العبارة، حتى عثرت قدمى فى لفافة، فوقعت على غرارة، وإذا بصائح يصيح من تحتها متبرما متأففا، ويقول لى متغطرسا متعجرفا: ما هذه الغشاوة يا عديم الإبصار، ونحن لانزال فى أديم النهار، فقمت متثاقلا متساندا، وقلت فى نفسى منشدا :

دجى نتشابه الأشياء فيه

فيجهل جنسها حتى يصيحا

ثم تأملت، فإذا أنا بخيال ينفض الغبار عن رأسه ولحيته، بذيل منزره أوجبته، فتولاني الخوف والوجل، وقلت : من الرجل؟ فقال الغلام : كاتب من كتبة «السجلات» ينبش عن أوراقه فى «سجل الأيلولات»، فقلت: وكيف يهتدى لذلك، وسط الظلام الحالك ؟ فقال : أولئك قوم اعتادوا العمل مع احتجاب الضياء، فصاروا كالخفاش يبصرون فى سواد الظلماء :

ولو سار كل الورى هكذا

لما حسد العمى من يبصرون

ثم انعطفنا من ذات اليمين إلى شبه قاعة، يلوح فيها من الضوء مثل جناح براعة (٥٨) ، وإذا هو لعاب الشمس يسيل من ثقب، فى سقف الجب، وهو يتموج بأنواع الجراثيم، تموج الماء بالهشيم (٥٩) ، فخلت أن عجوز الفلك الدوار ـ أريد بها شمس النهار ـ خشيت أن تضل فى ظلمة هذه المفازة، فاتخذت لها من لعابها عكازة، تتوكأ عليها للاهتداء، وتدب بها فى هذا العماء، فمسحت على بصرى، وأحدقت بنظرى، فأبصرت وماذا أبصرت؟ ونظرت وماذا نظرت؟

ما أن سمعت ولا أرانى سامعا

أبدا بصحراء عليها باب

نعم رأيت فضاء متسعا، تراكم فيه من الأوراق الرثيثة، والدفاتر الباليه؛ مثل الربا الشاهقة، والاكمات العالية، غير أن هذه تثمر وتجني، وتلك تعث وتبلى، وهذه تكون مخضرة مخصبة، إن جادها الحيا أينعت بالغض من النبات، وتلك سوداء مجدبة، إن بللتها الرطوبة اهتزت باليابس من الحشرات:

فالأرض نبسط في خد الثرى ورقا
كما تنشر في حافاتها البسط.
والريح تبعث أنفاسا معطرة
مثل العبير بماء الورد مختلط
وهذه بسطت فوق الثرى ورقا
لكنه للبلى والعث منبسط
وريحها تورث الأسقام ناشقها
كأنه من تراب القبر يستعط (٦٠)

وما لبث أن استبان لي شخص الكاتب المرافق لنا في لحة ذلك السنا، فإذا هو قصير القامة، كبير العمامة، ذو وجه مقنع بالاصفرار، وعين مكتحلة بالاحمرار، وقد طوى من خلفه الجبة، ورفعها على ظهره كالجعبة، وفي حزامه دواة من نحاس أصفر، وبين طيات العمامة أوراق بالتواريخ و «النمر»، فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم، وقلت لذلك الغلام اللئيم:

عيسى بن هشام ـ هلم بنا أيها المراوغ إلى الباب، لنعود إلى ضياء الحياة، فقد يئست من أمرنا، وأنى لهذا الكاتب أن يهتدى للبحث فى هذا اللج القامس [٦١] ، والليل الدامس؟ [٦٢]

غلام المحامى ـ لا تتكرن على مثله الاهتداء، فى دياجى الظلماء، لا يهولنك وتشتت الدفاتر وتراكم الأوراق، فهى مرتبة فى حافظته ترتيبا انطبع فيها من طريق الوراثة عن أبيه وعن جده، فلا تخفى عليه مواقعها، كما يتوارث رؤساء «البوغاز» فى الإسكندرية هداية السفن عند دخولها، بما علموه عن آبائهم من مواقع الأرض فى قاع البحر، ولو كان معنا اسم الكاتب لسهل البحث، ولوصلنا إلى الغرض.

الشيخ الكاتب ـ نعم لاتنكر علينا ـ بارك الله فيك ـ اهتداءنا للبحث فى الأوراق، والله يعلم أن هذه الدفترخانة مرسومة فى ذهنى منذ الصغر على أحسن ترتيب وتبويب، فهى مقسمة إلى عدة سجلات. منها «سجل الباب العالى»، تسجل فيه الأعيان المبيعة غير الموروثة، ومنها «سجل الأيلولات»، تسجل فيه الأعيان المحصورة من تركة تخصص أو تباع بالمزاد، ومنها «سجل الإعلامات» تسجل فيه المواد التى تصدر فيها أحكام من المحاكم الشرعية من أى نوع كان، ومنها «سجل التقارير»، تسجل فيه تقارير النظار وقفا وغيره، ومنها «سجل الوقفيات»، وتسجل فيه نفس الوقفيات، ويدخل فيه التوكيلات والوصايا والتصادق.

عيسى بن هشام ـ سبحان الفاتح الوهاب، ومن يهتدى إلى طريق الباب !!

الشيخ الكاتب ـ ومنها «سجل الديوان العالى»، تسجل فيه الفرمانات المتعلقة بتولية القناصل وعزلهم، والإعلانات الصادرة من مجلس استئناف مصر فى الهيئة التى يحضرها القاضى الشرعى أو النائب عنه مع جملة من كبار العلماء من المذاهب، ومنها «سجل القسمة العربية»، تسجل فيه الأعيان الموروثة المختصة بالذميين.

عيسى بن هشام ـ اللهم أرفع عنا الأذى والمقت، وهلم فقد ضاق بنا الوقت.

الشيخ الكاتب (مسترسلا) ـ .. ومنها «سجل إسقاط القرى» ، يسجل فيه ما يأخذه الأمراء ويعطونه من الأطيان والقرى. وليس يخفى أنه كان فى مدينة مضر محاكم شرعية سياسية،وكانت السيطرة عليها للقاضى من قبل السلطان، وكان لكل واحدة سجل تسجل فيه جميع لأنواع وقد حفظت تلك السجلات كلها بهذه الدفترخانة)؛ وكانت مراكزها فى جهات : «باب الشعرية» و «قناطر السباع» و «جامع طولون» و «جامع قيسون»..

عيسى بن هشام ـ يكفى أيها الشيخ ، فقد وجب الرحيل، لا حاجة بنا إلى هذا التطويل والتفصيل.

الشيخ الكاتب «معددا) ـ وفى جهات «درب سعادة» و «باب الخلق» و «الصالحية» و «النجمية» و «أحمد الزاهد» و «البرشمية» و «مصر القديمة» و «بولاق» و «جامع الصالح» و «جامع الحاكم» ..

عيسى بن هشام ـ تبارك من له الأسماء الحسنى، ومن يعيدنى إلى الحياة الدنيا !!

الشيخ الكاتب ـ .. ثم «محكمة الباب العالى»، وهى المحكمة الكبرى وقاضيها هو المسيطر على الجميع، والمولى من القسطنطينية و «محكمة القسمة العسكرية»، وقاضيها يعين كل سنة من دار السعادة كقاضى المحكمة الكبرى، و «يسمى القسام» وشغله المواريث بأنواعها فقط، و ..

عيسى بن هشام (للغلام) ـ لقد مل سمعى، وضاق ذرعى، فأخرج بنا وأنقذنى من شر هذه الدار، ومن ثرثرة هذا الشيخ المهذار.

الغلام ـ لا تضجر ولاتقنط، وأنظرنى قليلا، حتى أستنير برأى الشيخ، لعلنا نجد عنده حلا لعقدة، وفرجا للكربة، (ثم مال على الشيخ منفردا به، فسمعته يقول له):

الغلام ـ مثلك لا يعجز عن استخراج الوقفية بدون الوقوف على اسم كاتبها وأنت لاتأبى الربح والكسب لنا جميعا، وأصحاب القضية من كبراء الناس أهل السماحة والكرام.

الشيخ الكاتب ـ مهلا فقد كدت أتذكر اسم كاتب الوقفية على ذكر السماحة والبذل فإن لكتابتها حكاية مشهورة فى الجودة والعطاء منذ ذلك العصر، ولا يزال للخلع التى خلعت

على كاتبها بقايا إلى اليوم عند أهله وذريته، وهو المرحوم الشيخ فلان، فدونك وأصحاب القضية فاتفق معهم لوضع هذا الاسم فى ورقة النمرة والتاريخ، وجئنى بها نافعة تشفع لنا أجمعين ، والله ينفعنا بنفع المسلمين.

الغلام (لعيسى بن هشام) ـ قد تيسرت الحال بإذن الله، ووصلنا إلى معرفة اسم الكاتب الذى تستخرج به الصورة، والرأى لك فى هذه الخطوة السادسة.

قال عيسى بن هشام ـ ثم انطلق الغلام أمامى يسحبنى واه، حتى خرجنا بحسن صنع الله من الظلمات إلى النور، فجهرت (٦٣) عينى وسدرت (٦٤) فلم ابصر فى الشمس عند الباب، إلا بعد التردد مرارا بينها وبين الظلام. ولما التقيت بالباشا فى الموضع الذى كان ينتظرنى به، وسألنى عن طول هذا الغياب، فلم أرد أن أضيف إلى مصائبه مصيبة أخرى بوصف ما كنت فيه، بل كتمته إياه، وأخبرته بتيسير الحاجة، ثم اتفقنا مع الغلام على أن يباشر وضع اسم الكاتب فى الورقة، ويعود فى اليوم الثانى إلى الشيخ الكاتب ليأتينا بصورة الوقفية، بعد أن نقدناه ما نقدناه.

ثم دارت بعد ذلك علينا الأيام وضمت الشهور، ونحن نتردد على الدفترخانة، تارة فى صحبة الغلام، وتارة بدونه، إلى أن حل الأجل، وآن الأوان، فجاءنا الغلام ذات يوم يبشرنا بالوقوف على الوقفية، ففرحنا فرح الغواص بدرة التاج، تحت

تلاطم الأمواج، ونهضنا معه إلى الدفترخانة فرأينا الشيخ الكاتب عند الباب يتيه إعجابا بمهارته فى الاهتداء عليها مع قصر الوقت، ويحمد الله على حسن الطالع وسعود الجد، فحمدناه على همته العالية وصنعه الجميل، فأخرج من تحت إبطه أوراقا بالية متخرقة متآكلة، لا تستوى منها ورقة مع أختها، فيها سطور متقطعة، وخطوط متوزعة، لا يستطيع أن يحلها إلا من كان عريقا فى كشف الرموز وفك الطلاسم، فقلت له: إن الاهتداء إلى نقل صورة مفهومة من هذه الأوراق لأعظم مشقة، وأدهى بلية، من الاهتداء على موضعها من تلك الصحراء المظلمة فقال لى : إن كثرة التعود تيسر العسير، وتهون الصعب، وقد ورثت عن المرحوم والدى أيضا قراءة هذه الـ طوط، وتلفيق مارث من أواخر السطور، والعبارة واحدة لا تت ير تقريبا فى كل باب من أبواب السجلات، ورأيته يستعد ليـ مترسل فى أبواب الشرح والوصف، وخفت أن تشتد به نوبة الهذر والإكثار، فودعناه وانصرفنا، وكلفنا غلام المحامى أن يأتى لنا بالصورة من عنده بعد انتهائها، فطلب منا أن ندفع رسمها، وأن نأتى بشاهدين يشهدان علينا باستلامها، ووعدناه بأنه ينوب عنا فى اجتلابهما، بعد أن طالبنا بالمكافأة الواسعة، على هذه الخطوة السابعة.

المحكمة الشرعية

قال عيسى بن هشام : ولما صارت فى يدنا الصورة، بعد تلك المواقف المذكورة، خطا غلامنا الثامنة من خطواته، فى

بعض روحـاته إلى المحكمـة وغـداواته، فـذهب إلى كـاتب «الطلبات» لتحديد إحدى الجلسات، ثم عاد فبشرنا بأن الكاتب اتفق مع الرئيس، على أن تكون الجلسـة يوم الخـميس، وأنه حرر «طلبا» لحضور الخصوم ، فى الوقت المعلوم.

فـأقـمنا أياما نعلل النفس بالأمل، حـتى حل هذا الأجل، وسـمح لنا الطالع بطلعـة الشـيخ المحـامى ولقـائه، بعـد طول احتجابه عنا واختفائه، ورضى أن يتوجه معنا إلى المحكمة، ليشكف عنا بيمنه كل مظلمة، فسرنا جميعا نقصد بيت القضاء الشرعى، والحكم المرضى، والعدل المقضى، بوحى الإله وسنة النبى، حيث تقام منابر الهدى، وتشاد منائر التقى، وينبلج نور الحقيقة والعدالة، وتنكشف ظلمة البدعة والضلالة، ويؤخذ من الظالم للمظلوم، وينتصف من الحـاكم للمـحكوم، ويسـار على الصراط السوى، فى الحكم بين الضـعيف والقوى، حيث تتحد المواقف والأقدام، وتستقيم الأوامر والأحكام، وتغدو فيه الثكلى ربة الأيتـام، أعـز من الفـارس رب الرمح والحـسـام، ويصـبح الأعزل الشاكى، أقوى من المدجج الشاكى (٦٥) ، ويتساوى لديه رب الشـويهـة (٦٦) والبعير، برب التاج والسرير ـ نعم حيث يكون المقـعد الموروث، عن النبى المبعوث، وحيث يعمل بالسنة وآى الكتـاب، فـينتـصـر للذليل على العـزيز، ويقـتدى فـيـه تارة بسيرة عمر بن الخطاب، وأخرى بسيرة عمر بن عبد العزيز، وحيث يكون مـقر المهابة والجـلال، ومـصـدر الوقـار والكمـال، وموضع الطهارة والأمانة، ومنبع العفة والصيانة، وقبلة القنوت والخشوع، ومقام الطاعة والخضوع.

ولما وصلنا إلى هذه المحكمة، وجدنا ساحتها مزدحمة بالمركبات، تجرها الجياد الصاهلات، ويجانبها الراقصات من البغال والحمير، عليها سرج الفضة والحرير فحسبناها مراكب للعظماء والأمراء ، في بعض مواكب الزينة والبهاء، وسألنا لمن هذي الركاب؟ فقيل لنا إنها لجماعة الكتاب، فقلنا سبحان الملك الوهاب، ومن يرزق بغير حساب ! ونحونا نحو الباب، في تلك الرحاب، فوجدنا عليه شيخا حنت ظهره السنون، فتخطته رسل المنون، وقد اجتمع عليه العمش والصمم، ولج به الخرف والسقم، وعلمنا أنه حارس بيت القضاء، من نوازل القضاء. ثم صعدنا في السلم، فوجدناه مزدحما بأناس، مختلفي الأشكال والأجناس، يتسابون ويتشاتمون، ويتلاكمون ويتلاطمون، ويبرءون ويرعدون، ويتهددون ويتوعدون، وأكثرهم آخذ بعضهم بتلابيب بعض، يتصادمون بالحيطان ويتساقطون على الأرض، ومازلنا نزاحم على الصعود في الدرج، والعمائم تتساقط فوقنا وتتدحرج، حتى من الله علينا بالفرج، ويسر لنا المخرج، في وسط هذا الجمع المتلاصق، والمأزق المتضايق. ووصلنا إلى القاعة السفلى، فوجدنا عندها امرأة حبلى، تتقلب على الأرض كالثعبان. وتستشهد بالأهل والجيران، أن بعلها، أنكر حملها، وحاولنا أن نخطو خطوة إلى الأمام، فلم نستطع من شدة الزحام، وكيف بالتقدم في عباب موج ملتطم، ومنحدر سيل مرتطم ! من نساء صائحات مولالات، ونائحات معولات، ونادبات باكيات، وصارخات شاكيات، كأنهن قائمات في مأتم على مدافن الأموات، تقرحت فيه العيون وبحت الأصوات،

وفيهن المسفرة والمتقنعة، والمضطجعة والمتربعة، والحاسرة عن الذراع والرأس، وأختها تفليها في وهج الشمس، ومنهن الكاشفة عن ثدييها، ترضع طفلا على يديها، وغيرها ترضع طفلين في حذاء، وزوجها يضرب رأسها بالحذاء، وأخرى آخذة بضفيرة ضرتها، ورضيعها يتلهف على ضرتها، ومن بينهن من يتقدمها طليقها، ويتبعها عشيقها، تشيع الأول باللعن والسباب، وتغمز الثاني بكف مزدانة بالخضاب. ورأينا العقيلة المخدرة مع «الأغا» ، لا يستطيع أن يحميها في حومة هذا الوغى، وشاهدنا في الجمع جماعة من فجار الخلعاء، وتباع النساء، يغازلون كل غانية هيفاء، ويغامزون كل غادة غيداء [٦٧] ، ويتعرضون لفض النزاع، بين ذوات القناع، وفصل العناد والشقاق، بين الطاعنات بالأحداق فتختلط غمزات الطرف، بهمزات الكف، فيزول ما هنالك من الجدال والخصام، ويصيرون جميعا إلى الحسنى والرقيق من الكلام. ورأينا فيما من غرائب البشاعة، وعجائب الشناعة، رجلا وامرأة يتسابقان في ألفاظ الفحش والهجر [٦٨] ويتباذان في أقوال البذاءة والنكر، وهما يتجاذبان في أيديهما غلاما، كأنما يحاولان له اقتساما، ليأخذ كل منهما من أعضائه بنصيب، والغلام يبكي من شدة الألم والتعذيب، فاستعذنا بالله السميع العليم، من موقف هذا الجحيم. وسمعنا من أفظع ما سمعناه امرأة تنتحب وتقول، ونقابها بماء العين مطلول : «لو كان للنساء قضاة من النساء، لما وصلنا إلى هذه الحالة التعساء، فإن الرجال يميلون لجنس الرجال، ويتناصرون لبعضهم على ذوات الجمال» ،

فاستعنا برب المثانى (٦٩) وصعدنا فى السلم الثانى، فإذا هو كالأول يتموج بالناس كبيوت النمل، أو خلايا النخل، وانتهينا منه إلى قاعة، ممتلئة بصنوف الباعة، هذا يصيح : «الخبز والجبن»، وذاك ينادى : «الدخان والبن» ، وآخر يقول : «الزبدة والعسل»، وبعضهم يردد «الفول والبصل». وبائع الضأن يفتت بسكينه جماجم الرءوس، والثلاج يصفق بأكواز «العرقسوس» .وهناك قهوة يدب فيها الشهود بالعشرات، كدبيب الحشرات، فيعرضون أنفسهم على الخصوم، للشهادة أو التزكية بأجر معلوم، وغلمان المحامين يروحون بين الجموع ويغدون، فيمكرون بهم ويكيدون، ويتقلبون بين الخصوم ويحتالون، فيخدعون ويغتالون. ودخلنا حجرة صغيرة من حجرات الكتاب، فثار فى وجهنا ما على أطباق الباعة من جيش الذباب، فرجعنا على الأعقاب، ونجونا من الأوصاب. ثم انحدرنا مع غلام المحامى إلى حجرة كبيرة الساحة، فقال : اجلسوا هنا للاستراحة: فأجلسنا فى صدر المكان ، بين الكتبة والغلمان، ولابد لكل كاتب هناك من غلام، يقوم مقامه فى تدوين الأحكام، فسمعت الكاتب الجالس على اليمين، يقسم على أقواله بكل يمين، بأنه لولا اعتراض مركبات الكهرباء وضيق الميدان. لما تأخر حماره عن حمار فلان، وسمعت صاحبه بجانبه، يحلف بجده وأعز أقاربه، أنه لولا حبسه للعنان؛ لسبق كل الحمير فى يوم الرهان، ويقول له، وهو يتلفف فى العباء : «قد بلغنا عن الأجداد والآباء، أنه إذا صحت الشعرة الخضراء، لم يتعلق بنيل الحمار والهواء» ثم التفت ذات الشمال، فوجدت كاتبا

منهم غض الشباب، عظيم التأنق فى لبس الثياب، فهو يتلألأ ويتألق في سندس وإستبرق، كأنما خاطوا له قباء من أزهار بستان مختلفة الأشكال والألوان، يفعم الأنوف بعطره، ويعبق الجو بنشره، وأمامه رجل في يده صرة ثياب ينشرها ويطويها، فيأخذها «السيد» منه ويرميها، ويقول له فى حدته وشدة سورته:

السيد - هذه ثياب لا أرضاها ولا أقبلها، وبئس المفصل مفصلها.

الخياط - كيف ترى ذلك أيها السيد وأنا أقسم لك بالقرآن المجيد، أنها أوسع من ثياب السيدين عبد العزيز وعبد الحميد ؟

السيد - كذبت ورب الكعبة؛ فإن إستدارة الكم ضيقة، والرقبة لا تنطبق على الزى الحاضر.

الخياط - وماذا أصنع، وذلك كل ما فى عرض الحرير، ولو كنا على الزى القديم لدخل مع السيد فى طى ثيابه اثنان أو ثلاثة من أصحابه.

أحد أصحاب القضايا - صبح اللّ السيد بالخير والإنعام.

أحد الكتبة الظرفاء (منكتا) - لا ، بل بالخيل والانعام.

صاحب القضية - أرجو سيدى أن يعطينى «الإعلام» .

السيد ـ اذهب حتى يأتى الغلام.

الكاتب الظريف (موريا) ـ عليك به فى شارع أم الغلام، تجده جالسا نصا تحت الأعلام.

قال عيسى بن هشام ـ وعافت «نفسى» هذه النكت الباردة، والمعانى الساقطة فأعرضت عن الإصغاء، وسرحت طرفى فى بقية الأنحاء، فرأيت الكتبة كلهم يتفاكهون ويتسامرون: هذا يلت فى يده أفيونة، وذاك يكور بين أصابعه معجونة، والغلمان مشتغلون تارة بأوراقهم، وطورا يتباحثون فى أذواقهم، وأرباب الحاجات بين أيديهم يقاسون سوء الرد، ومطل الوعد، وسمعت أحد الكتبة يخاطب صاحب قضية، بألفاظ بذية، ويقول له : كيف تعطى الغلام هذا المبلغ الزهيد ؟ أتظنه كان لك من العبيد ؟ أتريد أن يكتب لك ويتعب، وهو لا أجرة له فى المحكمة ولا مرتب، بغير ربح ولا مكسب؟ إن هذا لون أعجب العجب !» وجاء رسول القاضى يطلب أحد الكتبة الرؤساء، فوجده راقدا كالنفساء، فبعضهم أشار بتنبيهه من غفلته، وقال بعضهم : لا ، بل اتركوه فى رقدته، أنسيتم حكم عادته، بأنه لا يفيق من غفوته، قبل أن يسيل الأفيون مع الدم فى دورته، ثم اتفق معهم الرسول على أن يرجع فيقول : «إننى لم أجد الشيخ مكانه، وعلمت أنه نزل إلى الدفترخانة» ثم استيقظ الراقد بعد مدة، فتثاءب وتمطى، ثم تدثر وتغطى. ثم عاد إلى ما كان فيه من السبات، وهو ينشد للمعرى من أبيات:

وفضيلة النوم الخروج بأهله

عن عالم هو بالأذى مجبول

ثم جاءه بائع كتب وأوراق، فصاح به حتى أفاق، وقام بعون الله وحوله، يخاطب البائع بقوله :

الكاتب ـ هل أحضرت ما طلبته من الكتب؟

البائع ـ نعم جئتك بكتب قديمة، لا تقدر لها قيمة، منها كتاب «حل الرموز» : لفتح الكنوز» ، ومنها «أصول المراسم، فى فك الطلاسم» ، منها «حسن إرشاد الناس فى استخراج الذهب من النحاس» ومنها «القول المأثور، فى تأثير البخور»، ومنها .. الكاتب ـ ألم تعثر لى على كتاب فى (الاستحضار) ؟

البائع ـ نعم معى كتابان : أحدهما «قلائد اللؤلؤ والمرجان، فى استحضار الجان» والآخر «خير المواقيت، لرؤية العفاريت». الكاتب ـ بارك الله فيك وجزاك خيرا، فإن عندى نسخة محرفة من هذا الكتاب الأخير، فاصحبنى إلى البيت لنقابلها ونصححها.

قال عيسى بن هشام ـ وقام هذا الكاتب مع البائع ، وأقمت، أسخط على هذا الجهل الشائع، والعمل الضائع، وبينا أنا كذلك إذ أشار علينا غلام المحامى بالقيام، فقد آن نظر قضيتنا، فخرجنا فوقفنا عند باب الحجرة التى تنعقد فيها الجلسة، فرأينا الزحام خارجها وداخلها على أشد حالاته، سمعنا الحاجب ينادى تارة بصوت عال، وتارة بصوت منخفض، فسألت الغلام عن ذلك، فقال: إنه يخفض الصوت عن لا يسمع أرباب الدعاوى النداء، فتسقط القضية، وهو من

باب الشفقة والحنو بالمدعى عليه، وفوق ذلك فإن للحجاب أن يدخلوا الجلسة من أرادوا، ويحجبوا عنها من أرادوا.

ثم نودى علينا، فدخلنا مع شهود المعرفة الذين استحضرهم الغلام لنا، فوجدنا الجلسة مؤلفة من ثلاثة أعضاء برئيسهم، وهم جلوس كل واحد منهم بمعزل عن الآخر، وقد تعسر على أن أفهم كلام الباشا، وهو بجانبى يخاطبنى، لشدة الضوضاء، وعلو الأصوات، ثم دخل كاتب الجلسة يرقص فى مشيته، وكأنه الطاووس فى هيئته، فجلس ووقفت عنده بحيث أبصر ما يسطره، فوجدته قد تناول القلم بأطراف بنانه، يضعه في الدواة تارة ويضعه في أذنه أخري ثم يلهو بتفقد ثيابه، ويشتغل بلمس الإبر التى تتشبك بها العمامة، ثم ابتدءوا فى سماع القضية، وتقدم الباشا مع الشهود، فلم أسمع شيئا مما قالوه أو قيل لهم، لكثرة الجلبة والصياح، وإنما رأيت الكاتب يكتب فى دفتر الضبط ـ وكأنما يكتب من عنده ـ ما أنقله بحرفة وهو : «استحضر أمام الجلسة المدعى والمحامى والشهود، فتقدم المدعى وعرف أنه فلان بن فلان بن فلان، وسمى شاهدى معرفته، وهما فلان بن فلان بن فلان، وفلان بن فلان بن فلان، الساكنان بالجهة الفلانية شياخة فلان بن فلان بن فلان، وشهد كل منهما على انفراده بأنه يعرف المدعى المذكور، وأشار إليه بيده، وهو فلان بن فلان المذكور، ثم قال المدعى المذكور إن لى قبل فلان بن فلان بن فلان دعوى نظر على وقف ومعى مستند دعواى، والمدعى عليه لم يحضر مع استلامه علم الطلب المحدد له فيه الحضور فى هذه الجلسة».

ثم أمرت المحكمة بانصرافنا للمداولة والنظر فى المستند، فوقفنا ناحية من الحجرة ننتظر مع من ينتظر، ثم نودى علينا بعد مدة، فقالوا لنا : إن المحكمة تعلمنا بمضمون المادة ٧٢ من اللائحة، وهى تقضى ـ على ما أخبرنا به المحامى ـ بالإعذار إلى المدعى عليه، وقال : لابد أن نطلب ذلك من المحكمة، لأنه لا يسوغ لها أن تعذر إلا بناء على طلب المحامى، فتقرر إصدار الإعذار، والله يكفيك شر ما فى هذه الدار، من الأقضية والأقدار، وكثرة الهموم والأكدار.

قصر حفيد الباشا

قال عيسى بن هشام : ودخلنا ـ لا أدخل الله عليك طوارق النقم، ولا أخرجك من طرائق النعم ـ فى دور الإنذار يتبعه الإنذار، والإعذار يتلوه الإعذار، ومندوب المحكمة يعود إلينا بالخيبة، فى كل أوبة، زاعما أن خدم الخصم لا يقابلونه إلا بالازدراء، كغيرهم من خول أبناء الأمراء، حتى وصلنا إلى حد الإعذار الأخير، ورمينا المندوب بالإهمال والتقصى، فرأينا أن نخبر خبره، ونقتفى أثره، ونتحقق بأنفسنا كيف يتسع النزع، للاستخفاف برسول الشرع، فسرنا وراء المندوب ومعه الشاهدان، يشهدان بأنه أعذر فلان بن فلان بن فلان، وقد أمسك الواحد منهم بكتف الاخر، على هيئة تستفز كل هزئ وساخر، وكل منهم يخد الارض بحذائه، ثم يعفى (٧٠) الأثر بفضل ردائه، وهم ينتقلون فى المشى من الذميل إلى الرسيم إلى الوخيد (٧١) ، كأنهم مسرعون إلى جفنة ثريد، ونحن من

ذلقهم نخب ونهرول، ونحسبل ونحوقل، إلى أن كادوا يغيبون عن البصر، وكدنا نفقد منهم الأثر، لولا أن عثر أحدهم بقضبان مركبات الكهرباء، فطاحت العمامة وانفلت الحذاء، فانفتل يلتمسها ويلتمسه، فلم يرعه إلا السائق جرسه، فما تحرك ولا انتقل، حتى أدركته العجل، وكاد يداس ويقضى عليه، لولا أن جذبه رفيقه إليه. فحيل بين الرجل، وبين عمامته ونعله، ووقف مخبولا لا براسه ولا برجله وهو يستنجد لهما ويستغيث فلا يغاث، حتى مرت عليهما المركبات الثلاث، فأركناه وهو ممتقع اللون من اليأس والوجل، فبشرناه بسلامتهما، فاعتم بها وانتعل، وحمد اللّه على هذا اللطف فى القضاء، وحمدناه على ما أتيح من التعريق والإبطاء، إذ تمكنا من اللحاق بهم، وقدرنا على استئناف السير فى عقبهم.

وقد انتهى السير بنا إلى قصر فى سرة بستان، يزرى في الحسن بقصور بغداد وغمدان، وقد ترصع البستان بأنواع الأزاهر، كأنه محلى بصنوف اليواقيت والجواهر، والقصر فى وسطها كأنه الدرة البيضاء، أو البدر بين نجوم السماء :

كأنه جيد وبستانه

من حوله عقد بديع النظام

وما عساى أقول فى وصف روض، قد نسجته يد الأرض، لتزدان به يوم عيدها ويوم زينتها، ونمنمته [٧٢] رداء لها تختال به فى حسن رونقها وبهجتها:

موزرة من صنعة الويل والندى

بوشي ولا وشي وعصب ولا عصب (٧٣)

قد أغنى الغواني نسيمه العليل، عن المسك الأذفر (٧٤)، كفاها ريحه البليل، تعطرها بالطيب والعنبر:

بغرس كأبكار الجوارى وترية

كأن ثراها ماء ورد على مسك

ومنى العرائس أن لو اتخذت من نوار الأزهار فصوصا للخواتم، ومن أكمام الأشجار معاقد للتمائم، وودها أن لو تأزرت من سندس أرضه بأبهى إزار ومرط (٧٥)، وتحلت من جوهر نباته بأزهى شنف (٧٦) وقرط:

إذا ما الندى وافاه صبحا تمايلت

أعاليه من در نثير وجوهر

إذا قابلته الشمس رد ضياءها

عليها صقال الأقحوان المنور

وقامت فيه مثمرات الأغصان قيام الكواعب الأتراب، ساقيات بالأباريق والأكواب، ساكبات (٧٧) سؤر الطل من تلك الأقداح، مائسات من رحيق الندى ومداعبة الرياح:

شقائق يحملن الندى فكأنه

دموع التصابى فى خدود الخرائد

فمـا تخيلنا فى هذا الروض مد رأيناه إلا أننا فى حفلة عرس، جمعت أسباب اللهو وأطراف الأنس، قد نصب الغيم عليها سرادقة، ومد ملتف النبات فيها نمارقة [٧٨]، وأشـرقت فى الأغصان الأنوار، إشراق المصابيح بالأنوار، وقامت الأطيار على الأعواد، تتسابق فى الترنم، والإنشاد فهى تغرد بألحان يقطع السامع لها حبل النفس، ويأنس إليها مستنفر الوحش المفترس:

رأت زهرا غـضـا فـهـاجـمت بمزهر [٧٩]

مـثـانيـه أحـشـاء لطفن وأوصـال

وللنسيم بين الشجر نغمات بالهفيف والحفيف، من ثقيل فى الضرب أو خفيف، تصفق لها أكف الأوراق، وتقوم الأفنان للرقص على ساق، مترنحة الأعطاف من خمر الندى، مهتزة القدود بغمز الصبا، ثم تميل برشيق القوام، فتلتقط ما ينقطها به الغمام، والجدول يجرى تحت أذيالها ويتعثر، وينساب الماء فى ظلالها ويتكسر، كأن حصباءه اللؤلؤ والمرجان، فى نحور الحسان، أو قلائد العقيان، فى أجياد القيان:

الخياط ـ وأنا لا أترك هذا الباب ، حتى أمزق ما عليه من الثياب.

الإسكاف ـ ورأس أبيه وجده، لآخذن ثمن الأحذية من جلده.

الحلاق ـ أنا ابن جلا وطلاع الثنايا، وكم لصنعتى من منافع ومزايا، وليتنى كنت شوهت خلفته، ومسخت سحنته، فنتفت شاربه، وحلقت حاجبه، تالله لآخذن بناصيتى هذا الثقيل البارد، ولأسدن عليه المصادر والموارد، ولألزمنه صباح مساء، ولو حلق فى الهواء.

كل هذا والخدم يكتمون وجود صاحب الدار، ويقسمون أنه لم يبق لديه درهم ولا دينار، وإذا هم أحد الغرماء بالدخول منعوه، أو دافعهم أحدهم دفعوه، وبينما نحن نتأمل ونتعجب، ونتقلى على الجمر ونتقلب، ونقابل بين سعد المكان، ونحس السكان، إذ برجل أفرنجى قد خرج من بيت الحرم، وهو يلتهب غيظا ويضطرم، ويقول للبواب برطانته، وسوء عباته: لقد طالبته فأبان الإفلاس والعجز، فلم يبق إلا توقيع الحجز، وإليك قائمة البيان، وحذار من التلف والنقصان. وما كاد «محضر المختلطة» ينتهى ويذهب، حتى حضر «محضر الأهلية» يلهث من التعب، فسلم البواب ورقة إنذار، فأخذها وهو يدعو بالثبور والدمار ويعقب ذلك انصرف المحضر، وتبعه جميع من حضر، لاشتداد حر الظهيرة وأوارها (٨٠) ، ولفح الشمس للوجوه بنارها فانتهزنا هذه الفرصة، فتحرك مندوبنا وتقدم وخاطب البواب وهو يتلعثم؛ فقال له : أنا مندوب المحكمة الشرعية . فقال له : لم يكن ينقصنا إلا هذه البلية. ثم دفعه فى صدره فرده إلينا بظهره، بعد أن أخرجنا من الجنان، وأغلق باب البستان؛ فأخذ المندوب بيد الشاهدين، وهو يتظلم ويتضرر، ووقف بينهما ينادى فى الهواء بالنداء المقرر:

« يافلان بن فلان بن فلان إن مولانا قاضى مصر يأمرك بأن تحضر إلى المحكمة فى يوم الخميس الآتى للنظر فى دعوى اغتصاب الوقف الموجهة إليك من قبل فلان بن فلان بن فلان، وإن لم تحضر فى اليوم المذكور ينصب عنك وكيلا ويسمع الدعوى فى وجهه ويحكم عليك غيابيا ».

ثم ودعنا المندوب والشاهدين، وانصرفوا إلى سبيلهم، وبقيت أنا والباشا فى دهشة وذهول، وحزن وأسف، مما رأينا وسمعنا، ثم استند الباشا إلى سور البستان، وشرع يقول لى، وهو فى تأمله وتفكره:

الباشا ـ ما زالت بواطن الأمور، وحقائق الأشياء، تتجلى لى على وجهها، منذ غمرنى الدهر فى هذه المشكلات والخطوب، حتى تحققت اليوم بأن أمور هذه الدنيا إنماتجرى كلها على التضليل والبهتان، وتدور على التمويه والبطلان، وتنطوى على الغش والتدليس، فبالله عليك من ذا الذى يرى هذا القصر بزينته وبهجته وخدمه وحشمه، ولا يتولاه الحسد لساكنيه، والتطلع إلى حسن حظهم، وسعادة عيشهم، ثم يرجع رلى نفسه فسيخط على حظه من الدنيا، ويندب نصيبه من الحياة، سوء قسمته فى العالم !!

عيسى بن هشام ـ لا زلت ترى الحق وتقول الصدق بما يتسع لك من سبيل الهداية والحكمة، نعم إن جل من نراهم من المنعمين المترفين، والأغنياء الموسرين، لو كشفت عن باطن امرهم، وحقيقة أحوالهم، وخبايا معيشتهم من وراء الجدران،

لوقفت على ما يوجب الأسى والأسف، ويدعو إلى الرحمة والشفقة، لا مايدفع إلى الحسد والغبطة، ولا يقنت أن الرجل الأجير، الذى يستخرج قوت يومه منغمسا بعرق جبينه، هو أسعد منهم حالا وأنعم بالا. والغالب أنه كلما كان مظهر العيش زاهيا زاهرا، كان باطنه مقتما مظلما، وأشد ما يكون من البلاء على أهل هذه الطبقة أنهم يقضون أوقات حياتهم فى الظهور بين الناس على أغرب حالات التصنع، فيكون الواحد منهم غريقا فى بحو الهموم والأكدار، وتراه يسر نفسه بين الملإ على التظاهر بالسرور والانشراح، وأكثر ما يكون فى الضيق والإفلاس، تراه يتعرض للتبذير والإنفاق، فهو على الدوام يتقلب بين الضيقين: ضيق العيش، وضيق النفس، وإن كان عظيم الثروة، كثير الغنى، فإنه لاغنى مع ازدياد الحاجات، ولا مال يكفى مع تجدد الرغبات.

الباشا - قد كانت الحال فى أيامنا على العكس، إن كان لا يسرك من الرجل ظاهر حاله، فإنه يرضيك باطن أمره، وربما كان يجتهد فى التظاهر بلباس الفقر إذا بلغ حد الغنى، ويبدى الشكوى إذا أسر الرضى.

قال عيسى بن هشام : وقضينا مدة فى مثل هذا الحديث، وأنا متهلل مستبشر بما أراه ينمو ويثمر فى نفس الباشا من التعلق بالمباحث العقلية، والتعمق فى معرفة الأخلاق النفسانية حتى صار من ديدنه أن يستنبط من كل حادثة يشاهدها ما يرتقى به إلى عالم الفضيلة والحكمة، وازددت يقينا بأن الرجل

المرتفع القدر لا يزال غرا بالأمور، غافلا عن حقائق الأشياء، فإذا وقع في أشراك الخطوب استنارت بصيرته، واستضاءت قريحته، وعلم بطلان ما كان فيه بحقيقة ما وصل إليه.

ثم حانت منا التفاتة إلى ما وراء السور ، فرأينا خدم البيت وحشمه قد اجتمعوا حلقة وهم يتحاورن ويتجادلون، فسمعنا البواب يبتدئ فيقول :

البواب - ليت أمي لم تلدني، وليت أبي لم يعلمني رسم الخط. فقد كلت يدي وحفي قلمي من طول التوقيع بالاستلام على الإنذارات، والمحاضر، فقلما يمضي يوم إلا ولي فيه من التوقيعات ما ليس لرئيس قلم في ديوان، فبئست المعيشة معيشتي، وبئس الحظ حظي، وليتني كنت قادرا على الانضمام إلى صف هؤلاء المطالبين والغرماء، فأخلص بجزء من أجرة الشهور المتراكمة، ومن لي بالتباعد عن هذا البيت الذي انتشر فيه جراد الحجز، وأزعجت من فيه أصوات الغرماء ، وأزعجني تردد المحضرين على صندوق ثيابي ؟.

الكاتب - لست أدري والله ما يصنع صاحب البيت، وماذا يحتال لحالته، وكيف لنا بالمعيشة معه، ولم يبق عنده كثير ولا قليل ، وأن صدق ظني كانت عاقبته من أقبح ما تتصورونه في سوء العواقب، فقد أحسست من كثرة حركته واضطرابه في هذه الأيام انه يدبر لنفسه أسوأ تدبير للخلاص من ضيقه، ليختتم أمره بأقبح الخواتم.

ويعلم الله انه لولا ما التقطه في أشغاله من هنا ومن هناك، لما تيسر لي القيام بقوت عيالي بعد أن انقطعت عنا أجور الشهور. وقد دعاني هذا الأمير أمس وأعطاني خاتما من الياقوت لأبيعه، فذهبت به إلى الجوهري الذي كنا اشتريناه منه بأكثر من مائة جنيه، فلم يدفع لي فيه إلا خمسة وعشرين، فبعته إياه وعدت للأمير بالدراهم، فكأنما فككت الأسير من القيد، وأنقذت الغريق من اللج.

الوصيف ـ الآن انحل ما كان مشكلا، وانكشف لي ما كان غامضا، فإني رأيت معه أمس ذهبا كثيرا، لم أهتد إلى مورده، أعطاني منه عشرة جنيهات، وأمرني أن أبتاع من أخيه هذا الكلب الذي ترونه مولعا بملاعبته منذ الصباح.

الفراش ـ وأنا اشتريت له من صهره تلك الببغاء بخمسة جنيهات، وأخذت له غرفة في «تياتروا الأوبرا» بثلاثة، وزجاجة عطر باثنين.

الكاتب فعلى هذا لم يبق معه إلا خمسة جنيهات، ولابد أن أبادر في الحال لمطالبته بإنجاز الوعد الذي وعدته لصاحب الجريدة المعلومة، حتى يسكت عنه، ويكف عن التعرض له.

السائق ـ وأنا أذهب إليه أيضا لآخذ منه ثمن الريش والإسفنج الذي وعدني به، ما دام معه من الدراهم بقية.

الخصي ـ إنكم لفي نعمة وغبطة بما تناولنه من وراء هذا البيع وهذا الشراء من الربح، لكن غيركم من الخدم في الحرم

قد اقتنعوا من العيش بيسير الأكل والشرب من غير أجر، وصبرنا على هذه الحال وفاء بالعهد لأهل البيت، وياليت هذه النعمة تدوم، فقد سمعتم اليوم وعيد حضرة البك الجزار، كما سمعتم أمس بإنذار البك الخباز.

السقاء - ما أظن أن لنا حيلة نلجأ إليها فى آخر الأمر إلا أن نطلب منه إحالة أرزاقنا على ربع الوقف الذى سلم وحده من الحجز.

البواب - لقد خاب ظنك وضاع أملك، فإن هذا الوقف الذى كنا نرتكن عليه قد دخل فى دور القضايا والدعاوى، وجاء اليوم مندوب المحكمة الشرعية بالإعذار الأخير، ومن يعلم ماذ يكون من أمره.

* * *

وسمعنا الحرس يدق من جانب الحرم فتشتت الجمع نحو المطبخ لحلول وقت الغذاء، فانصرفنا من موقفنا واكتفينا بما شهدنا.

قال عيسى بن هشام : وحل اليوم الموعود لجلستنا فى المحكمة الشرعية، فتوجهنا إليها، ولم يحضر المدعى عليه كعادته. ولما فتحت الجلسة تقدمنا إليها، وشهد أمامها شهود المعرفة، ثم أطلع الأعضاء على الإعذارات الثلاثة، فوجدوها جامعة للشروط المقررة، فأمروا بأن ينصب للمدعى عليه وكيل، يكون موثوقا بأمانته، معروفا بالمحافظة على حقوق الغائبين،

فاختاروا من اختاروه، وكلفوه شرح دعواه مكان المدعى عليه، ثم أخذ محامينا ينظر فى صورة الوقفية التى استخرجناها من الدفترخانة ليعدد الأعيان، فلم يجد فيها جميع ماعددناه له، بل وجد منها جزءا قليلا لا يقوم بالتعب فى إقامة القضية، وخشى أن المحكمة لاتحكم لنا بغير المبين فى «الصورة» من العقار فتضيع علينا بقية الحقوق، فطلب من الجلسة تأجيل سماع الدعوى زمنا يتمكن فيه من البحث عن بقية تلك الأعيان الموقوفة، فوافقه الوكيل المنصوب للغائب، فتأجلت القضية إلى بعد الفسحة القضائية من العام.

وخرجنا من الجلسة مع المحامى، وقد فتح له ولغلامه باب احتيال جديد، ولما سألناه عن المظان التى تنبئنا عن بقية أعيان الوقف، تلكأ فى الجواب، ثم أحالنا على الغلام، وتركنا معه وانصرف. فقال لنا الغلام: لا مظنة عندنا غير ديوان الأوقاف، لأنه يوجد بهذا الديوان سجلات تسجل فيها مثل هذه الأعيان، وطلب منا أن نتفق معه على أجرٍ معلوم للسعى وراء هذا الغرض، فوافقنا على هذا المطلب الجديد، والله يفعل بنا ما يريد.

الطب والأطباء

قال عيسى بن هشام : ولما حال أمرنا من المحكمة إلى الأوقاف، وعلم الباشا بما هنالك من قلة الإنصاف، وأنه لابد لنا من أن نطيل الالتماس والرجاء، ونكرر الدعاء والنداء، ونكثر من الغدو والرواح، فى كل مساء وصباح، فنبلى فى هذا الديوان

جـدة الزمن، ونقف عليـه وقـوف العـاشق على الدمن، لما هو مستفيض من اختلال أعماله، واعتلال عماله، وفساد إدارته، وسوء نظارته، نزل به من الهم والغم ما أورثه الضنى والسقم، وحل به من الحـزن والكمد ما أخل بنظام الجسد فـغدا هزيلا نحيلا، ووقع مريضا عليلا، فأشرت عليه بالطبيب، قال : يخطئ ولا يصـيب، ومـاذا يجـدى العـلاج ومـا يفـيد وللآجـال توقيت وتحديد، فأقنعته بأن الاعتقاد بتحديد الأجل، لا يمنع من مدواة العلل وسـبـحـان من أرشـدنا إلى الدواء، عند حلول الداء، لالتماس الشفاء ! فقبل إشارتى بعد طول الإباء، فجئت له بأحد الأطبـاء، من ذوى الشـهـرة بالبـراعة، فى ممارسـة الصـناعـة، فجلس بجانبه يجس نبضه، ويقرع صدره، ثم استلم قلمه وولاه ظهره، وأخذ يرقم أصناف العلاج، بيد دائمة الاختلاج، ثم قال : دونكم هذا الدواء، جرعة فى الصباح وأخرى فى المسـاء، ولا تأخذوه إلا من صـيـدلية فـلان فـإنه صـادق مـؤتمن ، لا يغش فيالتركيب ولا يغلى في الثمن، ثم وقف عند المرآة يسوى مفرق شـعره، ويصقل مـا استطال من ظفره، ويرسل اللحظات تباعا نحـو البـاب، بنظر مـستراب، كـأنه يريد أن يستـشف مـا وراء الحجاب، من أنسة في الخدر أو كعاب، ولما أعوزه مـا تفقده، طلب أن يغسل يده، وقـال : إنى أرى حـالة المريض شـديدة، تقضى بعيادته أيامـا عديدة، حتى ينتهى المرض من شـدته، ويتلطف من حدته.

ومضت مدة الطبيب يذهب ويعود، ودرجة الحرارة لاتفتأ فى صـعـود، والمريض يهذى فى شـدة حـمـاه، وأنا أتضـرع

وارحماه، حتى كدت أيأس من الشفاه، وأسلم لحكم القضاء. ولكن زارنى أحد الأصدقاء، ممن يولعون بالطب والأطباء، فقال، لى وهو يبصر حالته : من الطبيب الذى يعالج علته ؟ فقلت : هو الشهير فلان ، قال لى : علمت السبب الآن، وأنا أنصحك لاتعتمد فى الطب، إلا على أطباء الغرب، وأولئك قوم قد برعوا في معرفة الأمراض، وتشخيص الأغراض، وأحاطوا بكل جليل وحقير، من البسائط والعقاقير، فالأدواء لا تستعصى فى أيديهم، وليس بين الوطنيين من يماثلهم أو يدانيهم، وأنا آتيك بمن هو فيهم أوسع معرفة وعلما، وأشهر صيتا واسما ـ وقام فعاد بأجنبى يهد الأرض بخطواته، ويكثر من إشاراته ولفتاته، فتقدم نحو المريض فجلس ولمس، ثم قطب وعبس، ووضع طرف منديله على أنفه. وقال لنا فى صلفه وعنفه : إن هواء الغرفة فاسد قتال، وداء المريض داء عضال، ولا رجاء إلا باتباع إشارته، فى تواتر زيارته، ثم هزأ بما رآه من دواء الطبيب الأول، بعد أن كتب علاجه بوصف مطول، وقال لا يحسن تركيب هذه الأجزاء، إلا صاحب «صيدلية الشفاء» . ومازال هذا الطبيب أيضا يذهب ويحضر، والعلاج يتجدد، ويتكرر، والمريض يتألم ويتضجر، والمرض باق لا يتقدم ولا يتأخر، حتى جاء فى خاطرى أن أجمع منهم جماعة للاستشارة والمداولة، فنتخلص من هذه المراوغة والمطاولة. فلما اجتمعوا وقعوا فى الحجاج واللجاج، ولم يتوافقوا على تشخيص الداء أو تقرير العلاج، وأقام كل واحد منهم منفردا برأيه، لا يهتدى إلا بهديه، وسمعت بينهم من يقول لرفيقه: لا ينبغى أن نوافق فلانا فى

تحقيقه، كما أنه لم يوافقنا على رأينا فى الاستشارة الماضية، وأنكر علينا جميع أدويتنا الشافية.

ثم خلفونى ونزلوا على الخلاف، وإن كانوا اتفقوا فى تناول الأجرة عند الانصراف، وكنت شاهدت بينهم طبيبا يظهر نفوره من طريقتهم ويجرى معهم على غير حالتهم، فأرسلت فى أثره من دعاه، وكاشفته بأننى اخترته على سواه فقال : إن علة المريض بسيطة فيما أراه، لا يجب فيها هذا الاختلاف والاشتباه، ولعلها ناشئة عن انفعالات نفسانية، من هموم فجائية، فقلت له نعم : أصبت فى النظر، ثم أخبرته بجملة الخبر، فقال. الان تبين أن معالجة الأطباء كانت بغير اهتداء، ولا يلزم لعلاجه إلا الامتناع عن هذه المركبات، والاكتفاء ببعض البسائط من النبات مع جودة الغذاء، وتبديل الهواء فأيقنا حينئذ بمهارته، وسلمنا لإشارته، فلم يمض إلا بضعة أيام حتى انتقلنا من دور السقم والاعتلال، إلى دور النفاهة والإبلال، وجلس الباشا ذات يوم إلى الطبيب يشكره على حذقه وبراعته، ويحاورنا فى الحديث على حسب عادته:

الباشا ـ كيف اهتديت أيها الطبيب إلى ما لم يهتد إليه سواك من الأطباء، فأدركت سبب علتى، وأحسنت تشخيص مرضى، وأصبت فى اختيار العلاج، فكان الشفاء ؟ لا شك عندى أنك نادرة عصرك ونابغة زمنك !

الطبيب ـ لا فضل لى يستحق كل هذا المدح والثناء، والسبب فى خطإ الأطباء، أن العدد الأعظم منهم يسيرون فى

ممارسة صناعتهم على طريقة معينة ودائرة محدودة قررتها العادة فيهم، وهم لا يتخطونها ولا يتعدونها فترى كل واحد منهم يحصر فى ذهنه عدة أمراض معلومة، وعلل معروفة، فيطبق عليها كل ما يراه من الأعراض التى تظهر له فى عامة المرضى ـ والأعراض تختلف وتشتبه ـ فيحكم بمعرفة الداء، ويأمر بالدواء المعين لذلك المرض المعين، يقطع النظر فى الفحص، والتأمل فى حالة المريض، أو البحث والتدقيق فى معرفة الأسباب المادية والأدبية التى يرجع منشأ المرض إليها، ولا يكلف ذهنه التبصر أو التصرف على حال من الأحوال، فيعيش فى أسر العادة، وقيد الطريقة، لا يعبأ بالبحث فى اختلاف الأمزجة، وتباين الغرائز، وتفاوت المعايش، وتغاير القوى فى البنى، فذلك يكثر منهم الخطأ، ويقبل للصواب.

عيسى بن هشام : كأنك تريد أنهم يكونون على مثل حال أهل الصناعات الآلية الذين يحل فيهم مجرى العادة محل إعمال الفكر، فتنطلق أيديهم على وجه واحد، وتنصرف أفكارهم عن التصرف أو التفنن فى وجوه شتى؟

الطبيب ـ نعم لقد أصبت فى التشبيه ، وغير ذلك فإن بين هؤلاء الأطباء من لا يرى فى صناعته إلا آله لا جتلاب الرزق، واصطياد الربح، واستدرار الدرهم والدينار، حتى يصلوا إلى إكتناز الأموال، ويصبحوا فى مصاف أهل الغنى والثراء، لا يبالى احدهم باب طرق ، ولا أى سبيل قصد، للتوصل إلى هذا الغرض المطلوب، فكل الوسائط لديه مقبولة، وكل الطرق عنده

مسلوكة، فهو يدخل على المريض طامعا فى ماله لا طامعا فى شفائه، فيحتال له أنواع الحيل لتطول مدته فى المرض، فيتسع نصيبه فى الأجرة، فيعطيه من أصناف الأدوية مالا ينفع ولا يضر، أستغفر الله بل ما يضر ولا ينفع، ليبقى المريض فى حاجة دائمة إلى تجدد العيادة والزيارة، وفى كل مرة يصف له نوعا حديثا وصنفا جديدا من المركبات التى يعظم ثمنها بمقدار ما يقل نفعها، وينفسح له بذلك طريق للكسب والربح فوق أجر العيادات يرصده له الصيدلى فى دفتر شركتهما، ليقاسمه أرباح تلك الأثمان الفادحة لتلك الأدوية المتكررة، فيضرب الطبيب فى صناعته بقدحين، ويصيب فى الكسب بسهمين، بعد أن يملأ جوف العليل من كل دواء ضار، ويخلى كيسه من كل فضة ونضار.

ومن أولئك الأطباء من يجعل همه منصرفا إلى الإبداع والتفنن، وفى وجوه التربى والتزين، ويسلك سبيل التصنع والتكلف، فى أبواب التظرف والتلطف، ثم يتفنن ما استطاع فى حسن المحاضرة، ويتعمد رقة الحديث والمسامرة، ويتقلب فى أساليب المؤانسة والمجاملة، وأفانين المغازلة والمغازلة، ليقيم له بين النساء بضاعة رائجة، وسوقا رابحة، فيحل من أهل الحرم محل الجليس المحبوب، والأنيس المطلوب، وينزل من ربات الخدور بمنزلة المحب المكرم، ويكون بين مقصورات القصور، أكثر زائر فى أرحب منزل، والنساء، لا يعدمن العلات، على العلات، ولا تعوزهن العلل، فى اختراع العلل، لا سيما إن كانت دعوى المرض، تدنى من نيل الغرض، فيكون للطبيب بينهن

زيارات وعيادات وروحات وغدوات، والطبيب، كما يعلم الناس، مؤتمن الجانب، يؤتمن فوق الأهل والأقارب، تفتح أمامه الأبواب، ويكشف من دونه الحجاب، فترى له زيارات بين كل صباح ومساء، تكتب له بوافر الأجر وسواء الجزاء يوم عرضه وحسابه، ومنهم من يتطلع إلى فوق ذلك، فيطمع فى ثروة البيت بأكملها، وفي حيازة الأموال بأجمعها، فيديم التردد، ويوالى العشرة، ويحكم الصلة ويلحم الخلطة، حتى إذا تاريت [٨١] عقدة الحبل، تم الاتفاق بينه وبين ربة البيت وصاحبة المتاع على التأهل بها، لا التفات هناك إلى تفاوت الأقدار، ولا عناية بوجود الكفاءة. فتصبح له حليلة، بعد أن كانت خليلة، وينتهى ما كان من أمر الداء والعلاج بما تم من أمر العقد والزواج.

عيسى بن هشام ـ الآن تبين لى ما كان على غامضا، واتضح ما كان مبهما من أمر الطبيبين اللذين كانا يعالجان الباشا في كثرة الزيارة، وقلة نفع الدواء، وشدة التدقيق فى تعيين الصيدلية، وطول استراق النظر لما وراء الحجاب.

الطبيب ـ أجل، هذا هو حال بعض الأطباء مع الأعلاء وأشباه الأعلاء، فأما حالتهم مع الأصحاء وذوى السلامة من بعض الخلق، فهو أعجب وأغرب، وما يغرب عنك أن كثيرا من المولعين بسوء التقليد للغربيين، والمتهالكين على حب التظاهر بمظهر الرقة والترف، يتغالون فى الاحتياط لأبدانهم، ويبالغون فى التوقى لأجسامهم، فينمو فيهم وسواس المرض والسقم، فتراهم يتوجسون من كل أكلة شرا، ويتوقعون من كل شربة

ضرا، ويتخيلون أن فى كل لقمة تخمة، وفى كل جرعة غصة، فلا يتناولون قدحا من الماء، أو يستنشقون نفسا من الهواء، إلا وفى اعتقادهم أنه لايخلو من كل هامة سامة، أو جرثومة ضارة، ولا يزالون على هذه الحال، حتى يمتنعوا عما فيه صلاح أبدانهم من المأكل والمشرب، ويبعدوا ما استطاعوا فى طرق الحمية من غير ولاداء، فيبدلوا بالماء الزلال الماء المعدنى، ويهجروا الأغذية المناسبة لتركيب الجسم وقوام البدن إلى الأطعمة الغريبة عن أذواقهم ، المنافرة لنسيج أبدانهم، فيضطرب نظام التركيبو وتضعف البنية، ويصيح كل واحد منهم حازما جازما بأن به داء دفينا، وما به من داء، وعلة كامنة، وما به من علة، فيشكو أمره إلى الطبيب، فيكون الطبيب حينئذ أسرع من وهمه وخياله فى اختلاق علة له، واختراع مرض، دون أن يفحص أمره، أو يبلو خيره، فينزل به ما ينزل من بوائق الخوف والفزع، ويوالى عليه الطبيب مايوالى من صنوف الخلاصات المعدنية، والجواهر السامة، والمركبات الحادة، فيترصف على مائدته من ألوان العلاج والدواء أضعاف ما يترصص عليها من ألوان الطعام والغذاء، ويتقيد المسكين بمعيشة لا تناسب غريزة البنية، ولا فطرة المولد، ولا طبيعة الإقليم، ولا توافق إلا من جمدت عروق آبائه تحت جليد لوندرة، لا من ذابت مفاصل أجداده تحت هجير القاهرة، فلا يلبث أن يأتى على مابقى فى الجسم من قوة، وما فى البدن من صحة، ويعيش - إن عاش - فى يد الطبيب حيا كميت، ويكون بين الأموات والأحياء، لا من هؤلاء ولا من هؤلاء، إلى أن يلحد

في لحده، شهيد طبيبه وقتيل يده، وهناك يخلق بأهله أن يكتبوا بنجيع الدمع لا بسواد المداد ما كتب على قبر عظيم من قدماء القواد: «لم تمتني قوة الأعداء، وإنما أهلكتني قوة الأطباء».

ولقد سرى هذا البلاء فينا مسرى العادة فأصبحنا لا نرى في جمهور من نراهم من المترفين المقلدين إلا شاكيا من ألم، أو متألما من مرض، فراجت سوق الطب، وعظم عدد الأطباء، وغدت حوانيت الصيادلة في الأسوق أكثر عددا من حوانيت الخبازين والقصابين، وصار من متاع البيت وجهاز العروس صناديق الدواء وآنية العلاج، وقل أن تجد اليوم بيتا خاليا من مريض، ولا مجلسا ليس فيه من سقيم.

عيسى بن هشام ـ كأنك تحاول أيها الطبيب الآسي أن تقنعنا بقوة البرهان، وجلي البيان، ألا فائدة من الطب ولا منفعة في الأطباء.

الطبيب ـ حاشا لمثلك أن يشتبه عليه القصد، أو أن يذهب بقولي خلاف مذهبه، وما قصدت بكلامي هذا كله إلا أن أظهر عيب بعض الأطباء في ممارسة صناعتهم، دون التعرض لصناعة الطب في ذاتها، على انه يمكنني أن أضيف إلى ما قلته ما قد قيل من قبل، وهو أن العلم علمان : علم تستنير به البصائر، وتهتدي به العقول، فهو جميل الأثر، محمود الورد والصدر، وعلم تصدأ منه الأفهام، وتضل به الأحلام، فهو وبئ المرعى، سيئ العقبى. وكذلك الطب طبان: طب يصحح الأجسام، ويشفي الأسقام، فهو عظيم النفع، جليل القدر؛ وطب

يورث الأمراض، ويولد الأدواء، فهو شديد الوطء ، عظيم الضر، ومدار الأمر كله على حسن الاهتداء للتميز بين النافع والضار، والتفريق بين الطيب، والخبيث. ولا تتوهمن أيضا أننى أتناول بكلامى جماعة الأطباء قاطبة، فإن فيهم الصالح، كما أن فيهم الطالح، ولكننى أعنى من بينهم أولئك الذين يطلبون مجرد الربح من مباشرة الصناعة مع الجهل بها، أو يتعمدون الحيل، وينصبون الأشراك، حتى يعتل جسم الصحيح، ويزمن مرض المريض، ليكون لهم من وراء ذلك ما يسد بعض شرهم فى الغنى واليسار. وما أولى سائر الناس بأن يثبتوا بينهم عادة أهل الصين فى معاملة مثل هؤلاء الأطباء، وذلك أنهم يجرون على أطبائهم العطاء ماداموا أصحاء، فإذا نزل بأحدهم المرض انقطع العطاء من الطبيب، حتى يعود المريض إلى سلامته، فيكون من مصلحة الأطباء على الدوام أن تطول مدة السلامة، وتقتصر مدة العلة، على خلاف الحال بيننا.

وما ينبغى أن ينصرف شئ مما قلته إلى بقية أهل الصناعة، من ذوى الحذق والأمانة، الذين يرعون الصناعة حقها، ويؤدون الواجب عليهم فيها حق أدائه، والذين يراعون فى ممارستها ما يكون من تفاوت الأحوال فى العلل والأمراض، وما تقضى به أحكام البلاد والعادات، واختلاف الأمزجة والطبائع، والذين يجعلون لأنفسهم من حسن تبصرتهم، وكثرة تجربتهم ، عدة حاضرة لمقاومة الأمراض، وصحة تشخيص الأدواء، ولطف تناسب العلاج، وحسن

الإرشـاد ، لرفـع الوسـواس، ودفـع الخـيـال، ومـا يجـرى هذا المجرى من استعمال ما يليق بأهل الإقليم الحار، مما لا يليق إلا بأهل الإقليم البارد، واجتناب مالا يوافق أمزجة أهل البلاد الشرقية من المركبات المجهزة لطبائع أهل البلاد الغربية. ولقد طالما سمعت عن أشياخي في الصناعة أن يجب على الطبيب في مصر أن يختار ما يكون من الأدوية وغيرها ألين قوة، حتى لا يكون على طبيعة المصريين فيها كلفة، ولا يلحق أبدانهم منها مضرة، وألا يقدم على كل الأدوية المسطرة في كتب أهل الغرب، فإن أكثرهاعملت لأبدان قوية البنية، عظيمة الأخلاط، على خلاف المعهود في أهل مصر. فيتعين على الطبيب حينئذ أن يتوقف في إعطاء هذه الأدوية للمرضى، ويختار ألينها، وينقص من مقدار تركيبها، ويبدل بكثير منها ما يقوم مقامه، ويكون ألين منه، وألا يهمل الاعتماد على الأدوية الطبيعية، وهي البسائط واللين والحمية والفصد والاستحمام والرياضة والهواء، وأن يكون على الجملة مولعا بلذة الصناعة في ذاتها لا يعادلها لديه سواها من سائر اللذات، ممتلئ النفس بجلال قدرها، وشرف منزلتها، من بين الصناعات والفنون، فتعظم عنده نفسه، ويشرف في عينه قدره. فيترفع عن سفالة الطمع، وحطة الشره، ويزيد في نيل الغنى من طريق التحليل على اقتنائه من وراء هذه الصناعة، وكيف تزدهيه لذة العالم أجمع من مال وجاه، أو زخرف ومتاع، في جانب لذة الإتقان في الصنعة والإحسان في العمل؟ وأية رتبة من مراتب الخلق تماثل رتبة الطبيب العامل، وهو القيم على قوام الأبدان،

والكفيل بصحة الأجسام، والرقيب على اعتدال الأمزجة، والمشرف على سلامة الجوارح، لا بل أية صناعة فى الوجود تفضل صناعته، وهى أمس الصناعات بخلقة الصانع الفاطر، وتكوين المبدع القادر؟ وإذا كان قد بلغ عجب الصناعة بأحد النحاتين المصورين فى الزمن السابق لما ازدهاه جمال الإتقان والأحكام فى صورة إنسان نحتها من المرمر أن استخفه الطرب، واستفزته لذة الصنعة، فعمى عليه، فانحنى على التمثال بمنحاته يثيره على نطق اللسان، بعد أن أحكمت فيه خلقة الإنسان، ويكلف الجماد، وقد أتقنت فيه الصنعة، أن يخرج من الجمود إلى الحركة، حتى أطار عنه بعض أجزائه، وبقى التمثال قائما إلى اليوم، يفصح بما فيه من التلف عن نهاية الكمال فى جمال الإتقان ، ومقدار لذة الإحسان ومقدار طربه فى صناعته إذا هو شاهد اجسام الأحياء أمامه، واستنقذها من آفات العاهات، وردها إلى سواء التكوين، وأعاد نظام الخلقة إلى أصله، وانتساق التركيب إلى شكله؟ فهل يجوز فى العقل - لمن يدرك كنة هذه الصناعة من الأطباء - أن يرغب عن تلك الدرجة الرفيعة إلى الدرجة الوضيعة، فينزل بصناعته إلى مصاف أهل التجارة والسلع، لا يفقه فيها من معنى سوى اصطياد الدرهم، ولا يعلم لها من مزية سوى، الاحتيال على اكتساب الأموال ؟ لا جرم أن الطبيب المدرك يفضل لذة صناعته فى ذاتها على كل لذة، ويسلو عندها أعظم مزية فى العالم وأعلى رتبة.

وفصل الخطاب، فى هذا الباب، أن يكون مبلغ

همته،ومجمع لذته، أن يرى المريض بعد شفائه، بوجه لا مع كالدينار، لا أن يراه في طول شقائه، بنظر طامع في درهم أو دينار.

قال عيسى بن هشام : فأعجبني من هذا الطبيب صدقه في مقالته، وحسن نظره في صناعته، وسألت الله لجماعة الأطباء، أن يهتدوا مثل هذا الاهتداء.

ثم إني ودعته بعد أن عين لنا البقعة المناسبة لتجديد الهواء، وقرر ما يناسب حال المريض من العلاج والغذاء، إلى أن يتدرج من النقاهة إلى تمام الشفاء.

الطاعون

قال عيسى بن هشام : فطاوعنا القدر، وعزمنا السفر، التماسا لبرء الداء، بتبديل الهواء، ونزلنا من ضواحي الإسكندرية قصرا ذا روضة غناء، في بقعة فيحاء، لا تسمع فيها إلا هديل الورقاء، إيقاعا على هدير الماء، فإذا بلل الموج جناح النسيم، فرفرف على ذلك الروض البسيم، نشر الماء درا على تيجان الزهر، ورقرقه دموعا في أحداق العبهر (٨٣) . هناك يتمنى العاشق لو استعار هذي الدموع لمحاجره، فيستلين بها قلب شاجيه وهاجره، وتود الغانية لو نظمت من ذلك الدر عقدا لنحرها، أو نطاقا لخصرها :

إن هذا المكان شيء عجيب

تضحك الأرض من بكاء السماء

ذهب حـــيـــثـــمــا ذهبنا، ودر

حـيث درنا، وفــضـــة فى الفـــضــاء

أوقل إنه المجرة قامت فيه زواهر الزهر مقام الكواكب الزهر، وعناقيد الكروم، مقام ثريا النجوم، وأنوار الأثمار، مقام الشموس والأقمار، فأقمنا فى ذلك الظل الوريف، مدة من أيام الخريف، ومكثنا نقطف القطوف الدانية، بين تلك الأعين الجارية، فى عيشة راضية، لا تسمع فيها لا غية، آخذين بمستن النحيزه [٨٣] ، ومجتن الغريزة، فيما يوافق صحة البدن من طعام شهى، وغذاء مرى، ورياضة للأعضاء، دون تعب أو شقاء، وتطهير للنفس من أدران الكدر، بلطف البحث وحسن النظر، وتجريد للصدر من عوامل الهواجس، وغوائل الوساوس، بالتبصر فى حقائق الوجود، والتمعن فى صنعة الخالق المعبود. وأفضت بصاحبى طيب هذه الإقامة، إلى المقصود من تمام العافية والسلامة، لولا أن راعنا شيطان من الإنس بخبر الطاعون، فقلنا : إنا لله وإنا إليه راجعون، وسبحان الله والحمد لله! مازلنا نعلل النفس، بزول النحس ومازالت تناوبنا النوائب الأحزان، وتراوحنا النوازل في كل منزل ومكان

وانبرى الباشا يسألنى عن هذا الطاعون وأخباره، وما يتوقعه من هول أفعاله وآثاره، فأجبته بأنه لا يلبث أن يصبح اثرا بعد عيت، وما أصاب إلي الوم إلا عدد أصابع اليدين وقريبا من أمامنا هذا العدو المتاجر، ونردد فى أثره قول الراجز:

قــــــــــد رفــع الـلـه رمــــــــــــاح الجـن

وأذهـب الـتــــعـــــــذيب والـتـــــجـني

كيف تدعى ذلك وتزعمه، وما عهدت منك إخفاء للحقائق، ولا تمويها للوقائع والطاعون في مصر أفاعيل تذوب لها الماقى والأحداق، وتتفطر منها القلوب والأكباد، وهو عندنا من أمراض مصر الموعضية التى تحدث عند اختلاف الفصول والمصريون يتوقعونه لكل ربيع، حتي أطلقوا عليه كلمة «الفصل» فيقولون جاء «الفصل» عند ظهور الطاعون، فترتاع النفوس، وتنخلع القلوب، وتخور القوي، وتذهل العقول، ثم يصول صولته، ويفتك فتكته، فلا يقف سيله عند حاجز، ولا يمنع اندفاعه، ولا تغبض قرارته حتي يخرب القصور ويعمر القبور، فتصبح الأطفال يتامى والنساء أيامى، ويمسى الخلق بين ثاكل ومثكول، وحامل ومحمول، هذا يبكى أباه، وذاك يندب أخاه، وهذه تولول على أهلها، وتلك تنوح على بعلها، وقد سمعت عنه فى زمانى عن أحد المعمرين يقول فى وصفه عند وقوعه فى سنة ١٢٠٥

ابتدأ الطاعون فى شهر رجب سنة ١٢٠٥، وداخل الناس منه وهم عظيم، واشتد بطشه، وقوى يأسه فى رجب وشعبان ومات به من لا يحصى من الأطفال والشبان، والجوارى والعبيد والمماليك والأجناد، والكشاف والأمراء، ومات من الصناجق أمراء الألوف اثنا عشر صنجقا، منهم اسماعيل بك الكبير، وقد أفتى عسكر القليونجية والأرنوؤط المقيمين بمصر القديمة وبولاق والجيزة، وكانوا، لكثرة الموتى، يحفرون حفرا

بالجيزة بالقرب من مسجد أبى هريرة ويلقونهم فيها، وكان يخرج من بيت الأمير فى الجنازة الواحدة الخمسة والستة والعشرة، وازدحم الناس على الحوانيت يلتمسون ما يجهزون به موتاهم، ويطلبون من يحملون النعوش فلا يجدونهم، ويقف الناس يتشاحنون ويتضاربون على ذلك، ولم يبق للناس شغل إلا الموت وأسبابه، فلا تجد إلا مريضا، أو ميتا أو عائدا، أو معزيا أو مشيعا، أو راجعا من صلاة جنازة أو دفن، أو مشغولا بتجهيز ميت، أو باكيا على نفسه موهوما، ولا تنقطع صلاة الجنازة من المساجد والمصليات، ولا تقام الصلاة إلا على اربعة أو خمسة، وندر من يصاب ولا يموت، وقل ظهور الطعن على الجسم، فيكون الإنسان جالسا فيرتعش من البرد فـ بندثر، فلا يفيق إلا مخلطا أو يموت فى غده إن لم يمت فى نـ ـاره. واستمر فتكه إلى أوائل رمضان، فمات الأغا والوالى فى اثناء ذلك، فولوا خلافهما فماتابعد ثلاثة أيام، فولوا خلافهما أيضا، واتفق أن الميراث انتقل ثلاث مرات فى سبعة أيام، وأغلق بالمفتاح بيت امير كان فيه مائة وعشرون نفسا فماتوا جميعا».

عيسى بن هشام - إنى لأظنك تصف لى موقفا شاهدته من مواقف الآخرة وأهوال القيامة.

الباشا - وما كان الأمر ليقتصر فى الطاعون بعد ذلك على فتكه، بل كان يزيد عليه من البلاء مادسه الإفرنج للولاة من وجوب إزعاج الناس بأمور تشق على نفوسهم، يزعمون أنها

تدفع الطاعون، فيفصلون بين الناس بعضهم عن بعض، ويفرقون بين الأب وابنه، والأخ وأخيه، والمرء وزوجه، ثم يهدمون الدور، ويحرقون الثياب، وينشرون البخور، كأنهم لجهلهم يظنون أن هذه الأعمال التى تؤذى النفوس، وتعطل مصالح العباد، تشتت شمل الجن، وتكسر أسنه رماحهم، فيزداد الناس ويلا على ويل، وحزنا على حزن، وخرابا فوق خراب، وقد شاهدت بعينى ما تشيب له النواصى فى سنة ١٢٦٠، وقص على أخى ما رآه منه فى سنة ١٢٢٨، وهو فى خدمة المرحوم محمد على باشا الكبير، قال:

أمر جنتمكان محمد على بعمل «كورنتيلة» بالجيزة فى اليوم العاشر من ربيع الثانى، وعزم على الإقامة بها إذ اشتد عليه الوهم من الطاعون لوقوع القليل من الإصابات بمصر، ومات به الطبيب الفرنسى وبعض من نصارى الأروام، وهم يعتقدون صحة «الكورنتيله» وأنها تمنع الطاعون، وقاضى الشريعة، الذى هو قاضى العسكر، يحقق قولهم، ويسير على مذهبهم. واتفق أن مات بالطاعون شخص بالمحكمة من أتباع القاضى، فأمر بحرق ثيابه، وغسل المكان الذى فيه، وتبخيره بالأبخرة المتنوعة، وكذلك الأوانى التى كان يمسها، وأمروا أصحاب الشرطة انهم يأمرون الناس وأصحاب الأسواق بالكنس والرش والتنظيف ونشر الثياب فى كل وقت، وإذا وردت عليهم مكاتبات خرقوها بالسكاكين ودخنوها بالبخور قبل تسليمها إليهم. ولما عزم الباشا على «كورنتيلة» الجيزة أمر فى ذلك اليوم أن ينادوا بها على سكانها بأن من كان يملك

قوته وقوت عياله ستين يوما واختار الإقامة فليمكث بالبلدة وإلا فليخرج منها ويذهب فيسكن حيث أراد، وأعطوا مهلة أربع ساعات، فانزعج سكان الجيزة، وخرج من خرج، وأقام منهم من أقام، وكان ذلك في وقت الحصاد، وللناس مزارع ومرافق مع مجاوريهم من أهل القرى، ولا يخفى احتياج الإنسان لبيته وأهله وعياله وأسباب رزقه، فيحرمون من ذلك كله، حتى لقد سدوا خروق السور والأبواب، ومنعوا مراكب المعادى من السير، وأقام الباشا في بيت الأزبكية لا يجتمع بأحد من الناس إلا يوم الجمعة، ثم قصد الجيزة وقت الفجر من ذلك اليوم وصعد إلى قصره، ووقف مركبين الأولى ببر الجيزة، والأخرى في مقابلتها ببر مصر القديمة، فإذا أرسل الكتخدا أو المعلم غالي مراسلة ناولها المرسل للمقيد بذلك في طرف مزراق بعد تبخير الورقة بالشيح واللبان والكبريت، فيتناولها منه الآخر بمزراق آخر على بعد منهما ويعود راجعا، فإذا قرب من البر تناولها المنتظر له أيضا بمزراق وغمسها، في الخل وبخرها بالبخور المذكور، ثم يوصلها إلى حضرة المشار إليه بكيفية أخرى، وأقام الباشا على ذلك أياما وسافر إلى الفيوم، ثم عاد وأرسل مماليكه ومن يخاف عليه الموت إلى أسيوطه.

عيسى بن هشام - اعلم أن ما كان يعترض عليه عامة الناس في الأزمان الغابرة - ولا يزال بيننا إلى اليوم بقية منهم - من الأخذ بأسباب التوقي، والاحتياط لدفع غائلة الطاعون، لجهلهم بحقيقته وأسباب انتشاره هو الذي يحمينا اليوم من فتكاته وسطواته التي قصصت على طرفا منها، وقد كان

جمهور الناس في أزمانكم ينكرون هذه الوقاية ويسخرون منها.

الباشا - قل لي بالله أية علاقة بين إحراق الثياب وتلك الوخزة التي تأتي بالأجل، وأي ارتباط بين هذا البخور وحمى الطاعون، اللهم إلا أن يراد به تلطيف أمزجة الجن؟

عيسى بن هشام - لا يفوتنك أن كثيرا من الحقائق كانت مكنونة في خفاء الجهل عند عامة الناس، لاختصاص بعض الأفراد بالعلم، ولبعد تناوله على بقية الطبقات، فلما انتشر العلم وأضاء برهانه، كشف للناس ما كان مكنونًا عنهم، وأظهر من العلل والأسباب ما كانت تقف دونه الأفكار حيرى؛ فإن كان الناس في زمانكم يعتقدون أن الطاعون من وخزات الجن برماحها، وألا شيء يقوى على رد تلك الرماح الخفية عن العيون، فإن البحث أوصلهم اليوم إلى اليقين بأن للطاعون جنودا لا تدركها العيون المجردة، وأن لها وخزا خفيا دونه وخز الأسنة وعوالي المران (٨٤) ولكنهم استعانوا بالعلم؛ فصنعوا آلة تجسم الأشياء الدقيقة وتعظمها، وتبرزها مرئية للعين فوقفوا بها على حقيقة تلك الجنود، واستنبطوا طرق الوقاية منها، فتدرعوا بها لدفع أذاها ورفع غائلتها.

الباشا - وماذا تجدى الوقاية والحذر، من القضاء والقدر؟

عيسى بن هشام - حفظت شيئا وغابت عنك أشياء، إن الوقاية من السنة الشريفة وأحكام الدين المبين، فقد ظاهر عليه

الصلاة والسلام فى الحرب بين درعين، وقال الله تعالى: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة». ولطرق الوقاية اليوم أنواع مختلفة لدفع هذا العدو الخفى الذى يسمونه «المكروب»، وهو دويبة دقيقة من عالم الذر ينطبق عليها أحد أوصاف الجن فى سرعة التولد وكثرة التعدد فى أيسر مدة من الزمن، وهم يتخذون البخور فى الوقاية لينحل تركيبه، ويحرقون الثياب والأمتعة حتى لا تنتقل بها عدواه.

الباشا - لقد كشفت لى معنى دقيقا فى رماح الجن المسمومة ما كنت إخال أن أحدا يدركه فى عصرنا الماضى، وهل لك فى أن تطلعنى على تلك الآلة العجيبة المجسمة للأشياء الدقيقة، لأزداد تبصرة وهدى بالنظر فى عجائب المخلوقات؟

قال عيسى بن هشام: فذهبت إلى معمل كيميائى وأريته نقطة من الماء تحت «المكرسكوب فلما رآها كأنها غدير، ورأى الوف الألوف من الهوام سابحة فيها، سجد سجدة التقديس لقدرة الخالق، والتمجيد لعظمة الصانع، وتلا قوله عز من قائل: «وما يعلم جنود ربك إلا هو». فحمدت الله إذ آمن بالبرهان الساطع، ولم يفعل ما فعله ذلك الهندى مع العالم الألمانى، حيث أراه مثل هذه النقطة وما فيها من الحيوانات، ليقنعه بأن ماء الشرب مشحون بما يحرم أهل الهند قتله وأكله من الحيوانات، فسخر الهندى منه، وكسر الآلة إصرارا على الباطل وعنادا للحق. ولما أيقن الباشا بصدق ما قلته وما رآه، وأن العلم هزم جنود الطاعون، وحطم رماحه، ولولاه لمات به اليوم مئات الألوف مكان العشرات، سألنى يقول:

الباشا ـ ومن المخترع لهذه الآلة التي تدل بغير واسطة على عظمة الخالق وقدرة الصانع من مشايخ الموحدين وعلماء الدين، وفى أية بقعة من بقاع المسلمين كان مولده لنردد الثناء عليه ونذكر اسمه بالحمد؟

عيسى بن هشام ـ أقسم لك بالله وملائكته وكتبه أن أكثر مشايخنا لا علم لهم بها، وأنهم لايزالون كالعهد بهم فى معزل عن هذه العلوم النافعة والمخترعات المفيدة، وما نشط لرؤيتها أحد منهم، وهم إلى اليوم ينفرون من الأخذ بوجوه الوقاية، ويفضلون التعرض انيران البنادق فى معارضتهم لأوامر الحكومة دون الإذعان لوجوب الاحتياط من هذه الحيوانات الدقيقة، ولا يعرفون منها إلا ما نخر كتبهم من الأرضة.

الباشا ـ ومع هذا كله فلا مقام لنا اليوم فى هذه البلدة التى أصيبت بالداء، وقد وجب علينا الفرار من قدر الله إلى قدر الله، فعد بنا إلى مصر إن شاء الله آمنين.

قال عيسى بن هشام: فأجبته إلى سؤله، وقفلنا إلى القاهرة، بعد أن ودعنا تلك المناظر الباهرة.

الوباء

قال عيسى بن هشام: وأقمنا فى مصر مدة، وقد أبل الباشا من علته وسقمه، وتمت له العافية والسلامة فى جسمه، فأخذت أهنئه ذات يوم بالشفاء والإبلال، من المرض والاعتلال وأذكر له أن صحة الأبدان، هى ملاك السعادة للإنسان، وإنك

لو جمعت نعم العالم كلها للمريض، من مال واسع وجاه عريض، لانصرفت نفسه عنها انصراف الضب عن الماء، والأرمد عن الضياء، والمعود عن شهى الغذاء، وأن خاتم الياقوت فى الاصبع التى أصيبت بدمل، لا يساوى عند صاحبه حبة من خردل، وأن ما اجتمع فى سرير الملك من العزة والبأس، ليهون عند مفقور الظهر أو مصدوع الرأس.

ومن يك ذا فم مر مريض
يجد مرا به الماء الزلالا

وكنت كلما زدته من هذه الموعظة والحكمة، أراه قد زاد فى الإعراض عن شكر تلك النعمة، فتحققت أن المرء إنما يذكر النعيم فى البؤس، ولا يذكر البؤس فى النعيم، وينسى المرض فى الصحة، ولا يذكر الصحة إلا وهو سقيم، وقل من يحمد النعماء فى لبسها، ولا يدرك سعادة الحياة إلا فى نحسها، فهذا معنى من معانى الآية الشريفة: «وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا او قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه»: فسألته عما دهاه وأذهله عن شكر الله فأجابنى يقول، فى حال الخبل والذهول:

الباشا ـ فيم الهناء بكشف البلاء والضرر، وما انتقلت من خطر إلا إلى خطر:

فإن أسلم فما أبقى ولكن
سلمت من الحمام إلى الحمام

ألم تسمع معي بخبر انتشار الوباء في مصر، بعد أن خلفنا الطاعون في الإسكندرية، فما هذه الرزايا المتساقطة، وما هذه البلايا المتلاحقة، أو كلما انتهينا من بلاء دخلنا في بلاء، وانصرفنا من شقاء إلى شقاء؟

عيسى بن هشام - أراك لاتزال كأمثالك من سائر الناس، يغلب عليك الفزع والوسواس وإن كنت جربت في هذه الحياة شدة الألم، وذقت في القبر راحة العدم، وإن ما كنت تتمناه على دهرك، من الرجوع إلى قبرك، عند اشتداد الكروب، من وقع الخطوب، لم يكن لشجاعة في النفس، تستهين بسكنى الرمس، بل كان لضعفك عن احتمال الآلام، من نوازل الأيام، وأراك لاتزال، مع صحة الدين، وقوة اليقين، ترهب الموت وتخشاه، وتعتورك الأهوال من ذكراه، وهذا داء في الناس قديم، عز شفاؤه على كل مرشد وحكيم:

وخـــــــوف الردى آوى إلى الكهف أهله
وعلم نوحـــا وابنه عـــمل الســـفن
ومـــا اســـتـــعـــذبتـــه روح مـــوسى وآدم
وقـــد وعـــدا من بعـــده جنتي عـــدن

ولكنني لا أريدك في الموعظة، ولا أخفف عنك من ويلات الهواجس والوساوس، بأحسن من أن أقرأ عليك مقالة نافعة، اطلعت عليها اليوم في بيان أحوال الناس، وتقسيم طبقاتهم في

أهوال هذا الوباء، فإن أردت تلوتها عليك، ثم ضع نفسك بعدها حيث شئت.

الباشا ـ هات أسمعنى لازلت للحق راويا، وللهدى داعيا.

عيسى بن هشام ـ (قارئا) «إنما النوازل العظيمة، والخطوب الجسيمة، محك الطباع، ومسبار [٨٥] الأخلاق، فهى لشدتها وهولها تكشف عن الناس ما يخفونه عن الناس، وتهتك سجوف [٨٦] التمويه والتزويق عن حقائق الصفات، فلا تتمالك النفوس أن تبقى على التظاهر بما ليس فيها، ولا التطاول بما هو مفقود لديها، بل تتجلى للناظر بما اشتملت عليه ضمائرها، واحتوته سرائرها، من قوة أو ضعف، ومن فضيلة أو نقيصة، ومن علم أو جهل، وهنا يتمكن الباحث فى الأخلاق من النظر فيها نظرة التثبت والتحقيق، وهى مجردة أمامه من كل غشاء، عارية من كل غطاء.

«وليس فى باب النوازل والخطوب ما يهول النفوس ويروع القلوب، وأعظم ولا أكبر من مصيبة الموت وبلاء هذا الوباء، فلذلك لا نرى بأسا من الكلام بشئ عما يجده المستقرئ لأحوال الناس من طبقات المصريين، وهم بين أيدى هذه النازلة العظمى والمحنة الكبرى.

«فطبقة العامة أناس جبلوا فى مثل هذه النوازل العامة على التسليم لأحكام القضاء، وتفويض الأمر لأقدار السماء، وهم لا يعلمون من الوباء، ما جراثيم الداء، ولا علة المرض

والشفاء، ولا سبب الهلاك والنجاة، وليس فى قدرة قادر من البشر أن يزحزحهم عن اعتقادهم، أو يحولهم عن يقينهم، ولا فى إستطاعة أحد من أبلغ الوعاظ وأفصح الخطباء أن يضع فى رءوسهم أن الوقاية تمنع من المقدور، وأن الحذر ينجي من المكتوب، وأن طب الأطباء يؤجل فى الأجل المحدود، وأن صنوف الدواء تنفع فى رد القضاء المحتوم، وهم يرون كل ما يؤمرون به من وسائل الوقاية وأسباب الحيطة أمورا تضر ولا تنفع، فلا تزيد فى عمرهم ساعة ولاتكف غرب المنون ولا تقبض دونهم يد قابض الأرواح، فهم بمعزل عن الخوف والهلع، وفى أمان من الذعر والفزع، وفى ضمان من الوسواس والهواجس، وإن كانوا مقيمين فى غفلة عما يجب عليهم لأنفسهم من المحافظة على صحة الأبدان، وتعهد الأجسام، بما يدرأ عنها الاستعداد لقبول الداء، والوقع فى مخالب البواء، لبعدهم عن فهم قوله عليه الصلاة والسلام : «اعقلها وتوكل»، لكنهم لا يزالون على كل حال فى صحة من الأرواح، وإن أعوزتهم صحة الأبدان.

«طبقة الخاصة» ونعنى بهم أهل الدين واليقين، وهم الذين يعتمدون أيضا على التسليم لأحكام القضاء، وحسن الاعتقاد بتحديد الآجال، والإيمان بأنه لن ينالهم إلا ما قدره الله لهم، ولا تفتأ تجرى السنتهم فى مثل هذه الأهوال بتلاوة الآيات البينات من كتاب الله : «ولكل اجل كتاب» ، «فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون»، «أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة» ، «قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم»، تعالى الله، أحكم القائلين. وهم الذين يعلمون علم

اليقين أن الموت أمر واقع لا مرد منه، وأن الإنسان عرضة له في كل وقت ولحظة، وأن طعمه واحد، سواء أكان بمرض الوباء، أو صواعق السماء، أو زلازل الأرض، أو كان بغصة شراب، أو عثرة قدم، أو لسعة حشرة، وإن نفس المرء خطاه إلى أجله، فعليه أن ينتظر ساعته في كل حركة وسكون، وعند كل قيام وقعود:

وما نفس إلا يباعد مولدا

ويدني المنايا للنفوس فتقرب

وهم يعتقدون حق الاعتقاد أن الحي حي للفناء، وأنه مقيم من دنياه أبدا في أرض وباء، وإن لم يكن ثم وباء.

ما خص مصرا وباء وحدها

بل كائن في كل مصر وباء

وأن من فر من المقدور، فعلى المقدور نزل ومن هرب من القضاء، فإلى القضاء رحل.

مهلا أمن وباء فررت وهل ترى

في الدهر إلا منزل موبوءا ؟

وأن من حانت منيته، لم تنفعه تقيته، ومن حل أجله، لم يحمه وجله

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه

ولو رام أسباب السماء بسلم

إلا أنهم مع ذلك كله لا يرون من مانع يمنعهم عن الأخذ بأسباب التقية والحذر، ولا في العمل بمقتضى القوانين المندوب إليها في حفظ صحة الأبدان، وما يقرره أهل صناعة الطب من سبل التوقي والتحرس، اتقاء لما نهوا عنه من الالقاء بالأيدي إلى التهلكة، واحتذاء لما ترسمه ظروف الأحوال، وتقضي به أحكام الزمان، ولا يجدون الطاعة لإشارة الأطباء في مثل هذه النوازل مما يخالف لهم سنة، أو يناقض لديهم شرعا، وإن لم يكن من ورائها فائدة، فليس في عقابها مضرة. فتراهم لذلك في أجل مقام من شجاعة القلب، وقوة النفس، وثبات الجنان، بفضل الدين واليقين. وعلى أحسن حال من سلامة الجسم، وطهارة البدن بفضل العلم، وحسن القيام بما يرشد إليه من وسائط الوقاية، لا سلطة للوساوس والهواجس عليهم، ولا محل للرعب والرهب فيهم، آمنين مطمئنين، يتمتع كل واحد منهم بالروح السليمة في الجسم السليم.

وهناك طبقة ثالثة، حديثة النشأة، حديثة التربية، لا من هؤلاء ولا من هؤلاء، لم يرسخ الإيمان في قلوبهم، ولم تتمكن التربية الدينية من نفوسهم. ولم يتأدبوا بأدب الدين، ولم يرتاحوا لحسن اليقين، بل اقتصرت بضاعتهم على ما تلقوه في المدارس من العلوم الآلية، والفنون الصناعية، دون علوم التربية النفسانية، والفضائل الروحانية، وخلت صدورهم من آيات الله والحكمة، قد أخذوا عن بعض الغربيين عادة التهاون بالشرائع، والازدراء بالإيمان، ولم يحيطوا بشيء من العلوم الموضوعة، لتقويم النفوس وتطهير الطباع، ومعرفة الحقائق،

ورياضة القلوب على التجلد والثبات، عند وقوع المكروه ونزول الملمات، فتجدهم قد ظهروا للناس فى هذه النازلة الوبائية، وانكشفوا لأهل البحث والنظر أصغر خلق الله نفوسا وأجبنهم قلوبا، وأكثرهم هوسا ووسواسا، وأشدهم قلقا واضطرابا، وأعظمهم خوفا ورعبا، وأكبرهم بلاء وكربا، يتمثل لهم الموت فى أعينهم على أفظع الصور، وأبشع المناظر، فيحاولون الفرار منه، وهو ممسك بنواصيهم، ويهابون دنوه، وهو آخذ بتلابيبهم، حل الخوف مفاصلهم، واستل الرعب نخاعهم، فهم يرون فى كل عود نعشا لهم، ويحسبون كل صيحة عليهم، أولئك لا إيمان لهم يثبت أقدامهم، ولا علم أولئك إيمان لهم يثبت أقدامهم، ولا علم لديهم يرجح أحلامهم، بل هم على مثال حال المغشى عليه من الموت، أو الممسوس من الشيطان يتوهمون طعم الموت، ومذاق الوباء، فى تنفس الهواء، وتناول الغذاء، وشرب الماء، وملامسة الأيدى، ومخاطبة الناس، فإذا رأى المسكين منهم تلك الآلة الحدباء، تحمل أحد المصابين بالوباء، جمد دمه، وسال عرقه، وخمدت أنفاسه، والتوت أعصابه، وأمسك من بجانبه يستنجد به ويستغيث، ليحميه من شر العدوى ويدفع عنه نزول البلوى، وما أشبههم فى حالهم هذه من الخور والهلع، والفزع والجزع، إلا بمثل أناس قضى عليهم بالإعدام لوقتهم، فهم وقوف بين يدى الجلاد والسياف، إذا قدم أحدهم للسيف والنطع؛ مات الذى يليه من الخوف قبل القتل، ومنهم من اعتكف على الخمر يشربها ليله ونهاره، عساها تجهله كيف اطمأنت به الحال، ومنهم من يبالغ ويغالى فى تناول العقاقير

السامة، والجواهر القتالة، مما وضعه الأطباء لقتل الجراثيم، فهو يشربها ويستعطها، ويدفن بها جسده، ويغمس فيها ثيابه، ويبلل بها فراشه، ويغسل بها آنية طعامه وشرابه، كلما سمع بزيادة العدد فى المصابين وزاد فى مقدار ما يستعمله منها يوما بعد يوم، حتى أصبحت أجسامهم مسمومة، وأبدانهم مهزولة وشفاههم متقلصة، وعيونهم غائرة، ووجوههم مغبرة، وأناملهم مصفرة، ينطبق عليهم قوله جل وعلا : «ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت» إذا رأيتهم حسبتهم فى حال المصابين بالفعل، لولا أن هؤلاء يفضلونهم بالخلاص من ألم الداء، براحة العدم والفناء، ولما كان الخوف والوسواس من أكبر وجوه العذاب فى الحياة، ومن أعظم الأسباب فى رأى الأطباء لجلب الداء، كانوا هم أعداء أنفسهم بأنفسهم، وهم أصحاب الأرواح السقيمة، فى الأجسام السقيمة، لهم النكد فى هذه الدنيا، ولهم الخزى فى الآخرة».

فأين تضع نفسك الشريفة أيها الباشا من هذه الطبقات ؟.

الباشا ـ ما أرى لى موضعا بعد إذ عاشرتنى وأرشدتنى إلا فى طبقة أهل الخاصة الذين يسلمون للقضاء والقدر، ويعملون بالحيطة والحذر، لكننى مع ذلك أفضل الابتعاد عن ضوضاء الناس فى هذا الوباء، وأرغب فى التخلص من النظر إليهم، وهم فى مثل أهوال القيامة من الفزع والهلع، وليس من الصواب أن نجمع بين أكدارنا وهمومنا ، وبين التأثر لأكدار الناس وهمومهم.

قال عيسى بن هشام : وخشيت على الباشا إن أنا تركته في هذه الحال غريق أفكاره وأسير همومه وأكداره، أن ينتوبه الانتكاس، ويعتريه الارتكاس [٨٧] ، والنكسة بعد البلة، شر أطوار العلة، فبادرت إلى طاعته وامتثال إشارته فاخترت له من ضواحي المدينة مكانا قصيا ومسكنا مرضيا.

العزلة فى العلم والأدب

قال عيسى بن هشام: واعتزلت بالباشا مدة من الدهر، نستملح العزلة، ونستعذب عليها الصبر، ونعيش فيها عيش الحكماء، من حسن الرضاء، بحسن الاكتفاء، ونستروح راحة البعد عن هذا العالم وأذاه، وإغماض الجفون على قذاه، مؤتنسين كل الائتناس، بالوحشة من الناس، بعد الذى شهدنا من أعمالهم ورأينا، وسمعنا من أقوالهم ووعينا وقاسينا من عشرتهم ما قاسينا: عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى.

وصوت إنسان فكدت أطير إن سالمتهم حاربوك، وإن وادعتهم ناصبوك وإن صادقتهم خانوك، وإن واثقتهم كادوك، وإن خالطتهم لا تأمن الاعتداء، وإذا مازحتهم لا تعدم الافتراء، وإذا طالبتهم بحق فإنك لا تسمع الصم الدعاء.

فلو خبرتهم الجوزاء خبرى

لما طلعت مخافة أن تكادا

ولو أنك لم تخالطهم إلا فى مجالس أنسهم وصفوهم، ومعاهد لعبهم ولهوهم، لم تجن منها إلا كل ما يبعد وينفر، وينغص ويكدر، تدخلها إذا دخلتها مستروحا مستبشراً، وتخرج عنها مستقبحا مستنكراً، فعيشتهم فى كلتا الحالتين قرارة معايب، ومجتمع نقائض ومثالب ومنابت أكدار، وينابيع أضرار، ولا راحة فى الدنيا إلا لمن تنسك وتزهد، ولا سلامة من الخلق إلا لمن اعتزل وتوحد، وأبعد الناس عن معاشرة البرايا، أقربهم إلى كرم السجايا:

بعـــدى عن الناس برء من ســـقـــامـــهم

وقـــربـهم للـحـــجـــا والدين أدواء

كـــالبـــيت أفـــراد لا إيطاء يدركـــه

ولا سناد ولا في اللفظ إقـــواء [88]

وعكفت مع الباشا في عزلتنا، أذهب به كل مذهب، وانتقل به من مطلب إلى مطلب، في مطالعة الأسفار والكتب، من تاريخ وأدب: ومن حكم متينة قويمة، وشتى علوم حديثة وقديمة أهديه من كل طرف بطرفة، وأتحفه من كل باب بتحفه، وأجتنب معه ما يدعو إلى الضجر والملل، ويدني من الكد والكلل، فتارة أخوض معه عباب البحار، وطوراً أجتاز به سراب القفار، فنرى من يغرق في البحر مراكبه، ليحمل على اقتحام المنايا كتائبه، ونسمع الشاعر في القفر يحدو بناقته، ويشبب بمعشوقته، ثم لا يقعد به ذل الغرام، عن التفاخر بعز الكرام، ولا ينسيه ذكر الهوى، مواقف الحتف والردى، فيخلط بالغزل الفخر، ويخاطب صاحبه من جوف القفر:

إنا مـــحـــيـــوك ياسلمى فـــحـــيـــينا

وإن ســـقـــيت كـــرام الناس فـــاســـقـــينا

وإن دعـــــوت إلـى جـلـى ومـكـرمـــــة

يومـــاً ســـراه كـــرام الناس فـــادعـــينا

إن تبتدر غاية يوماً لمكرمة

تلق السوابق منا والمصلينا [89]

وليس يهلك منا سيداً أبداً

إلا افتلينا [90] غلاماً سيداً فينا

إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا

ولو نسام بها في الأمن أغلينا

بيض مفارقنا تغلي مراجلنا

نأسو [91] بأموالنا آثار أيدينا

إني لمن معشر أفنى أوائلهم

قيل الكماة [92] ألا أين المحامونا

إذا الكماة تنحوا أن يصيبهم

حد الظبات [93] وصلناها بأيدينا

وترى الناقة تطرب تحته إلى مواطنها، وتشتاق إلى معاطنها، فتحن حنينه، وتئن أنينه، وكلما رآها تشكو مثل شكواه، وتصغى بأذنها إلى نجواه، وتردد برغائها [94] صداه، وتسعده بترجيعها في هواه، تأوه وتنهد، وترنم فأنشد:

لقد زارني طيف الخيال فهاجني

فهل زار هذي الإبل طيف خيال

لعل كـــراها قـــد أراها جـــدابهـــا

نوائب طلـع بالعـــقـــيق وضـــال [٩٥]

ومـســرحـهـا في ظل أحـوى [٩٦] كــأنهـــا

إذا أظهـــرت فـــيـــه نوات حـــجـــال

تـــلـــون زيـــوراً فـــى الحـــنـــيـــن مـــنـــزلا

عليـــهن فـــبـــه الصـــبـــر غـــيـــر حـــلال

وأنشـــدن من شـــعـــر المطايا قـــصـــيـــدة

وأودعنـهـــا فـى الشـــوق كل مـــقـــال

ثم تنتقل إلى مشاهدة المعامع المشهورة، والوقائع المذكورة، فنرى الدماء تجرى انهاراً فى الوديان، والمهج تسيل انحداراً من مسايل الأبدان، والموت واقفاً يحصد الرءوس، ويجنى نفائس النفوس، والفارس يمشى فى الصفوف مشية الخيلاء، ويطعن برمحه كل طعنة نجلاءً، ثم ينشد فى وصف اثرها، ويعد عورها:

طعنت ابن عـــبـــد القـــيس طعنة ثائر

لهـــا نفـــذ لولا الشـــعـــاع أضـــاءها

ملكت بهـا كـفى فـأنهـرت [٩٧] فـتـقـهـا

يرى قـــائم من دونهـــا مـــا وراءها

يهـــــون عنـي أن تـرد جـــــراحــــــهـــــا

عــــيــــون الأواسـى إذ جـــمــــدت بـلامها

وتذكر شعلة الحرب، فلا تنطفئ نارها، ولا يجمد أوارها، إلا وقد غادرت النساء أيامى والأطفال يتامى والأموال منهوباً، والأعلاق سلبا مسلوباً. والمدائن خاليَّة خاوية، والقصور بائدة بالية، والحرب ينخذل فيها القوى لأوهى سبب، وينتصر الضعيف من حيث لا يحتسب، فكم دالت بها الدول، ودارت الدوائر، وانثلت العروش، وسقطت الممالك بعد لواء العز المعقود وبساط المجد الممدود، وبعد نلك التناهى فى العظموت والتمادى في الجبروت، وبعد أن لم يكن يدور فى الوهم سقوطها، ويخطر فى الخيال هبوطها. كل ذلك يكون أسرع من لمح البصر، إذا نزل القضاء وحم القدر، وكل ملك مهما امتد ظله زائل وعند التناهى يقصر المتطاول.

ثم ادخل به فى مطالعتنا إلى حلقة حكيم واعظ يسلب الألباب بقوة بيانه، ويخلب العقول بضوء برهانه، ويسترق النفوس بطلاقة لسانه، ويقول فى حقارة الغنى وهوانه:

«أيها الناس، والله لدنياكم هذه أهون عندى من عراق (٩٨) كلب فى يد مجذوم».

«والمخير بين أن يستغنى عن الدنيا وبين أن يستغنى بالدنيا، كالمخير بين أن يكون مالكاً او مملوكاً.

من سـره الا يرى مـا يسـوءه

فـلا يتـخـذ شـيـئـاً يخـاف له فـقـدا»

«والحياة الطيبة هي حياة الغنى هو القنوع، لأنه إذا كان الغنى، عدم الحاجة إلى الناس، أقلهم حاجة إلى الناس، ولذلك كان الله تعالى أغنى الأغنياء:

غنى النفس مـايكفـيك من سـد خلة (٩٩)

فـإن زاد شـيـئـا عـاد ذاك الغنى فـقـرا»

ويقـول في مـحـاسن الأخـلاق: «الجود حـارث الأعـراض، والحلم فدام(١٠٠) السفيه، والعفو زكاة الظفر؛ والاستشارة عين الهداية، وأشرف الغنى ترك المنى، وكم من عقل أسير عند هوى أمير، ومن التوفيق حفظ التجربة، ومن لان عوده كثفت أغصانه، ومن لانت كلمته وجبت محبته».

ويقول في مساوئ الصفات: «الكاذب في نهاية البعد من الفضل، والمرائي أسوأ حالاً من الكاذب، لأنه يكذب فعلا، وذلك يكذب قولاً، والفعل آكد من القول فأمّا المعجب بنفسه فأسوأ حالاً منهما، لأنهما يريان نقص أنفسهما ويريدان إخفائه، والمعجب بنفسه قد عمي عن عيوب نفسه فيراها محاسن ويبديها. وإني لأعجب للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الذي إياه طلب، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء، وأعجب للمتكبر الذي

كان بالأمس نطفة وفى الغد جيفة، وأعجب لمن يغفل صبره، ويشكو إلى الناس دهرة، فإن كان عدوا سره، وإن كان صديقاً أساءه، وليس مسره العدو ولا مساءة الصديق بمحمودة:

ولا تشك إلى خلق فـتـشـمـتـه

شكوى الجـريح إلى العـقـبـان والرخم

«والعجز عجزان: أحدهما عجز التقصير وقد أمكن الأمر، والثاني الجد فى طلبه وقد فات».

ويقول فى ذكر الحياة والموت: «إنما المرء فى الدنيا عرض تنتضل (١٠١) فيه المنايا، ونهب تبادره المصائب، ومع كل جرعة شرق، وفى كل أكلة غصص، ولا ينال العبد نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يستقبل يوماً من عمره إلا بفراق آخر من أجله، فنحن أعوان المنون، وأنفسنا نصب الحتوف، فمن أين نرجو البقاء وهذا الليل والنهار لم يرفعا من شئ شرفاً إلا أسرعا الكرة فى هدم ما بنيا، وتفريق ما جمعا، وعجبت لمن نسى الموت وهو يرى من يموت».

ويقول فى وصف العلماء: «الخير من العلماء من يرى الجاهل بمنزلة الطفل الذى هو بالرحمة أحق منه بالغلظة، ويعذره بنقصه فيما فرط منه، ولايعذر نفسه فى التأخر عن هدايته ثم يختم وعظه بقوله:

الدين إنصـافك الأقـوام كلهم

وأى دين لآبى الحق إن وجـبـا

والمرء يعيبه قود النفس مصحبة

للخير وهو يقود العسكر اللجبا [١٠٢]

اللهم اكفني بوائق [١٠٣] الثقات ومكايد الأصدقاء.

ثم انتهى بصاحبي إلى مجلس محاضرات بين الأدباء ومفاكهات بين الندماء فنقرا من لطيف بوادرهم، ورقيق نوادرهم، ما ينير ظلمة الفهوم، ويجلو صدأ الهموم:

لفظ كأن معاني السكر تسكنه

فمن تحفظ شيئا منه لم يفق

جزل يشجع من وافى له أذنا

فهو الدواء لداء الجبن والقلق

إذا ترنم شاد للجبان به

لاقى المنايا بلا خوف ولا فرق

وإن تمثل صاد للصخور به

جادت عليه بعذب غير ذي رنق [١٠٤]

وهكذا قضيت مع الباشا زمناً ليس بقصير، أستخرج له نفائس الأعلاق من بطون لأوراق وأقتطف معه زهر الأدب العاطر، من حدائق الكتب والدفاتر، إلى أن قال لي ذات يوم بين ندم ولوم:

الباشا - إن أعظم ما أسف عليه اليوم تلك الأيام التى اضعتها من سالف عمرى، فيما لا يجدى ولا يفيد من مشاغل الدهر وملاهى العيش، ويالتنى كنت قصدت همى منذ صباى على مثل هذه المعيشة، مع هذا التفرغ لاجتناء فوائد العلوم، واقتناء فرائد الآداب، مغتبطاً سعيداً، لا حاسداً ولا محسوداً، أتنقل من مطالعة الكتب، إلى مذاكرة العلماء، ومن مذاكرة العلماء، إلى مسامرة الفضلاء، ومن مسامرة الفضلاء، إلى مطارحة الأدباء. والله يعلم، إن أسفى ليزيد شدة، وأن ندمى ليعظم حدة، كلما تذكرت ما كانوا يحدثوننى به فى أيام دولتى عن مجالس العلم والأدب، فما كنت آبة ولا أنتبه إليها، وكنت أظن أهلها قوماً من أهل الكسل والفراغ، يجلسون للدفاتر والكتب، كما تجلس النساء للغزل والردن (١٠٥). والحمد لله الذى أرشدنى إلى الهدى آخر الدهر، فعلمت مقدار هذه النعمة التى حببت إلى الحياة ثانية وهونت على احتمال متاعبها، وما إخالك تبخل على بعد الآن - وقد علمت نفع ذلك لى - بمداومة السير معى فى هذا الطريق الحميد وما أرى من بأس فى أن نترك هذه العزلة حينا بعد حين، للاجتماع بالناس فى مجالس الأدب ومجامع الفضل، وأندية العلم، لنتذكر ما نطالعه، ونأخذ عنهم ما يحفظونه، وقد زالت المخاوف، واطمأنت الخواطر، بزوال الاوبئه والطواعين، والحمد لله رب العالمين.

عيس بن هشام - لا تطمعن أيها الأمير - دفع الله عنك المكاره - فى مثل هذه المجالس، فقد طوتها الأيام، ورمستها الليالى، ولم يبق اليوم من يأنس إليها وينافس فيها.

الباشا - كيف يكون؟ ذلك؟ وأنا لا أزال أسمع ما تزعمونه من كثرة المدارس الآن، وانتشار العلوم والفنون، وتعدد الطالبين، وسهولة الحصول على الكتب، ووفرة المطابع، وإطلاق الأفكار من القيود، وأين هذا مما كنا عليه فى الزمن الأول من تعسر الوصول إلى الكتب وتعذر استنساخها لضن أربابها كأنها لديهم خفايا الكنوز؟ حتى لقد كان الجهلاء الذين لا ينتفعون بها، ولا يفقهون منها شيئاً، هم أول من يفاخر باقتنائها، ويعتبرونها ضرباً من ضروب الزينة والزخرفة، كأنها اليواقيت والجواهر، يعجز عنها من يروم الانتفاع بها، إن لم يكن ذا ثروة واسعة تمكنه من استنساخها أو ابتياعها، فلا بدع اليوم أن يكون فى يد كل مصرى كتاب يطالعه، وأن يكون كل واحد منهم قد أصبح فى العلوم والفنون أليف محاضرة، وحليف مذاكرة إما (تزهى به) أو (تزهى به) مجالس الفضل وتزدهى أندية الأدب؛ وكيف لا يكون ذلك، وقد ذقت من حلاوة المطالعة والمذاكرة ما أنسانى حلاوة كل لذة فى العالم؟

عيسى بن هشام - نعم شاعت العلوم فى هذا العصر، وتزفت الفنون، وكثرت المطابع، وسهل على الناس اقتناء الكتب ومطالعتها، ولكن قل بيننا عدد الراغبين فيها والمطالعين لها فكسدت سوقها، وبارت تجارتها، وأغفلها من ينتفع بها، للاشتغال بسواها من الأمور الباطلة، والأشياء التافهة، ورغب عنها من كان يقتنيها للزينة؛ لكثرة الانتشار والتبدل. والناس اليوم فى حركة لا شرقية ولا غربية، فقد اشتغل بعضهم ببعض، واكتفوا من دهرهم بحوادث يومهم، فتعطلت بينهم

مجالس العلم، واندرست مجامع الأدب، واقتصروا على مطالعة أخبارهم فى الجرائد والصحف دون الدفاتر والكتب. وأنى يكون لهم الاستقرار فى المجالس، وهم لا يستقرون فى مكان، ولا يهدءون من حركة، ولا ينفكون عن غدو ورواح، ولا ينتهون عن نقلة وسفر؟ وأكثر ما يكون جلوسهم فى المركبات: مركبات الخيول أو البخار أو الكهرباء، وأهل اليسار منهم يقضون جزءاً من شهور العام مترحلين فى بلاد الأجانب، متنقلين فى ديار الغربية للنزهة والتفكه. وقصارى العلم عندهم أن يتلقى الطالب أشتاتا منه فى المدرسة وأطرافاً، وهو بالسن التى لم يصل فيها بعد إلى تمام التعقل وكمال الإدراك، فيحفظها ويؤديها كالببغاء، فإن أسعده الحظ فى آخر الدراسة ونجح عند الامتحان، تأبط صك الشهادة، ونفض يده من تلك العلوم. وطرحها عنه طرح الثوب الخلق(١٠٦)، ونبذها نبذ القادم على أهله ما أسن من ماء(١٠٧) وماجف من زاد، انتقاماً لنفسه مما عاناه من مشقة، وقاساه من تعب فى درسها وحفظها، من غير أن يفقه لها مزية فى ذاتها، أو يذوق لها حلاوة فى طعمها فإذا هو بلغ إربته(١٠٨)، ودخل فى خدمة الحكومة أصبح كالعامل من العمال لا العالم من العلماء، وقل فيهم بعد ذلك من يصبو إلى العلم وأهله، أو يحن إلى الأدب وكتبه، ولئن مال بعضهم للمطالعة فإنها لا تتجاوز حد الكتب المتعلقة بأصول وظيفته، ولذلك أصبحت كتب العلم والأدب مملولة منبوذة، وثقل على الناس مطالعتهم لما هم فيه من كثرة الحركة والتنقل، وطول الانهماك فى الأشغال المتجددة، فلا يقوى أحدهم عل مطالعة

صحيفة من كتاب إلا وقد بالله العرق، ودهمه الكلال والملال، ونزل به الضجر والسأم، وإنك لترى مثل هذا بينًا في حديثهم، فهم لا ينصتون إلى قصة متصلة، ولا يتبعون في الكلام قضية مرتبة، ولا يعجبهم منه إلا ما كان متقطعاً مبتوراً، أو مقتضباً مجذوماً.

الباشا ـ ما أكاد أخلي؛ أيها الصديق من غلو في وصف هذه الحال وهل خلا أو يخلو زمان، في البداوة كان أو في الحضارة، من مجالس للعلم، ومجامع للفضل، وأسواق للأدب وما كان زماننا الذي كنت فيه ليخلو من آثارها حتى لقد رأينا فيه كثيراً من الكبراء والأمراء ممن لا نصيب لهم من العلم والأدب لا يغفلون مجالسهم من وجود شاعر مجيد، أو فاضل أريب، أو نديم أديب، أو محدث ظريف تتفكه به النفوس، وتستريح له القلوب، هذا والكتب بين الناس قليلة التداول، والعلم بعيد التناول، فما بالكم اليوم على هذه الحال التي تصف، والصحف منشورة، والكتب مطبوعة، وأسماء العلوم مذكورة.

عيس بن هشام ـ قد استغنى كبراؤنا وأمراؤنا اليوم عن تزيين مجالسهم بالعلم والأدب، وقصروا هممهم فيها على التفاخر بالمقتنيات المزخرفة، والأدوات المصنعة من عمل الغربيين، فترى الكبير أو العظيم يقلب في يده العصا المضيئة بالكهرباء مثلاً، أو الساعة التي ترن بعدد الثواني، وهو يعتقد انها أجل قيمة في العين، وأجمل أثرًا في النفس، من جميع

العلوم التى تستضئ العقول بممارستها، ومن جميع الكتب التى تصفو ساعات الحياة بمطالعتها، ولا تتوهن أننى أجزم لك بخلو هذا الزمن عن مجالس للعلم. ومحافل للأدب، وما كان كلامى إلا على الوجه الأعم، وقد آن أن أجيبك إلى ما طلبت، فأزور بك بعض المجالس والمحافل، لينقطع ريبك، وليطمئن قلبك.

الأعيان والتجار

قال عيسى بن هشام: واستنهضت الباشا أزور به مجلساً من تلك المجالس المعدودة، والأندية المعقودة، مجلس الوجهاء والتجار، أهل الصيت المرتفع فى الأمصار، فشهدت منه ازورارًا وانقباضاً، ووجدت فيه انحرافاً وإعراضاً ثم التفت إلى يعاتبنى عتاباً شديداً، ويوسعنى عذلاً وتفنيداً، ويقول لى: ما عهدت منك منذ صاحبتك إلا الخير لى تريده، والنفع تبدؤه وتعيده، ومازالت أشكر لك تلك اليد البيضاء، فى العزل عن الناس والتخلص من مواقف القضاء دفعا لما كنت تحذر وتخشى، من شر الخاتمة وسوء العقبى، بتزاحم الأحزان، وتراكم الأشجان وما تعقبه من السقم والاعتلال، وسوء النكسة بعد النقه والإبلال. فما بالك تستنهضنى إلى مثل هذه المجالس والمجامع، وربما كان فيها ما يؤذى العيون وينفر المسامع، وقد شاهدتنى يكاد يصيبنى التلف، من شدة الحزن والأسف فقلت: أشهد الله ما أبغى لك إلا الخير والتوفيق فى كل مذهب وطريق، وقد رأيت التجارب أوسعتك كرماً وحلماً، وصروف

الدهر أكسبتك معرفةً وعلما، بعد قلة الاختبار، وكثرة الاغترار وسوء الابتدار، في الإيراد والاصدار، وما كان فيك من خشونة الملمس، وشموخ الأنف، وضيق العطن، وصلف الرأى. وما أحب لك بعد ذلك أن ترى فى أمور الناس إلا مشهداً يسلي عن الكرب، وملعبا يفرج عن القلب، فلا يكن نظرك إلى أعمالهم فى غدوهم ورواحهم، وفى أفراحهم وأتراحهم، ونعيمهم وبؤسهم. ورجائهم ويأسهم. مثل نظر الحكيم: «هيراقليط» بل مثل نظر الحكيم «ديموقريط» كان الأول يشاهد أمور الناس فيبكي ويتحسر، وكان الثاني يراها فيضحك ويسخر فإذا أنشد أحدهما فى نصرة مذهبه.

الناس من دنياهم فى مأتم

فالسحب تبكى والرواعد تندب

أنشد الثانى فى تأييد مشربه:

هذى الحياة رواية لمشخص

فالليل ستر والنهار الملعب

ومن صواب الرأى ألا تذهب نفسك عليهم حسرات، ولا تذوق عينك من أجلهم العبرات. وهلم معى أمتعك بزيادة مجلس يونس من وحشتك، ويكشف من غمتك فاسلس مطاوعاً فى القيادة، ووافقنى على ماتبين له من الرشد والسداد، فيممت به داراً عالية الجدران، واسعة الأركان، شاهقة البنيان، لأحد

التجار والأعيان، فزاحمنا عند الباب سائس يسحب فرسا مصحبا مطيعا، ويحمل على كتفه طفلاً رضيعاً، يقول وقد أظهر الغيظ بواطنه الكامنة: «لست أدرى والله أسائس أنا أم حاضنة؟»، ومن ورائه آخر يحمل صفحة متدفقة بالمخلل، يقول وقد تلوث بمائها وتبلل: «علام أتعب فى فى هذه الدار وأشقى؟ وإلام يدوم هذا الشقاء ويبقى؟ ولست أدرى والله أسائق أنا أم سقا؟» ولما ولجنا الباب إذا بالبواب، يقول وفى يده صرة ثياب: «لا مرد للمقدور والمقضى، ولا رجاء فى العيش الرخى. والله ما أدرى أبواب أنا أم خصى؟»، ولما جاوزنا دهليز المكان، إلى باب الإيوان، وجدنا عنده غلاماً فتى السن، يتنهد ويئن، وبين يديه دخان وورق، وبجانبه كتاب مطبق، وهو يقول: «عجبا والله للوالد يشغل ابنه بسجارات يحشوها فيلهيه بها عن دروس له يتلوها، لا غرو إن فاضت العيون بسواكبها، واحترقت القلوب بلواهبها! فما أدرى والله أفراش الدار أنا أم ابن صاحبها؟»، فما أحس بنا حتى انتفض قائما وتقدم مسلماً، ثم ذهب أمامنا، لينكر قدومنا، وإذا بالوالد مقبلاً علينا يتكفا فى مشيته، ويتعثر فى جبته، فسهل بنا ورحب، وبالغ فى التحية وأسهب، ودخل على أهل مجلس مختلفى الأزياء والهيئات، متباينى الأشكال والسمات، فمن صاحب عمامة صاحب عمامة يتعهد بيده رصفها، وآخر يجدد لفها، ويحبك بالإبر طرفها، ومن صاحب طربوش قد أماله على جبينه، فإذا تحرك أسنده بيمينه، فترى يده أبداً لا تسكن ولا تستقر، كأنما هو فى تأدية سلام مستمر ووجدناهم جميعا قد كثر بينهم اللغو، واللغط، وسمعناهم يتحاورون على هذا النمط:

أحـدهم ـ نعم لابد من نلك إذا يسـر الله وتم الاتفـاق مع الخواجة فلان، فإن إقامة عمارة أخرى بجانب تلك العمارة مما يأتى بأرباحٍ لا يمكن أن تأتى بهـا الأشـغـال التـجـارية، وأنا انصحك يا أباهاشم أن تترك التجارة جانباً، فقد أصبحت الآن لا نفع يرجى منها، وتوكل على الله فى الاشـتغـال معنا بالأبنية فهى أنجح وأرجح وأربح.

الثـانى ـ ومن أين لى ـ زادك الله من النـعمة والبركـة ـ ما يسـاعـدنى على هذا التوسـع، والحـال على ما تعلم ضـعـيفـة، والحمد لله على نعمة الستر فهى الغنى الكامل؟.

الأول ـ لا تقل هذ أيها السيد، «وأما بنعمة ربك فـحـدث»، وبـ سـواك ضـعـف الحـال إن هـى إلا تواضـع منك، والله يزيدك فذ ملا على فضل

الثانى ـ استغفر الله ياسعادة البك، هذا حسن طن منك: وإلا فـالحقيقة غير مـاظننت، وقد قلت لك: إن السـتر هو الغنى الكامل، وعلى كل حال فالبركة فى التـجارة، فمنهـا كان رزق الاباء والأجداد، وربح مستور، أبرك من ربح مشهور.

ثالث ـ تالله إنكم لفى ضـلالكم القـديم، وهل بقى فى التجارة، التى زاحمكم عليها الأجانب، ربح يذكر، أو رزق يطلب فـاتركوا هذا الخـمـول، وعليكم بأشـغـال الأقطان فى البورصـة، فهى الربح المضاعف، والرزق الحاضر، يأتيك رغداً بلا كد ولا تعب، وكم رأينا من فـقـيـر ولج البـورصـة، فـخـرج بفـضـل

المضاربات غنياً كبيراً، وهذا صاحبنا الخواجة فلان اليهودى، وفيكم من أدرك والدته تبيع الخبز بالحارة، قد مارس تلك الأشغال، فأصبح أكثر الناس مالاً وأرفعهم حالا، ونحن لا نزال على ما تركه لنا الاباء والأعمام رحمة الله عليهم.

رابع - ولكن فاتك أيها السيد أن صاحبنا هذا الذى تعنيه لم يصل إلى ذلك إلا بأشغال السمسرة، وفيها من الحطة مالا يخفى عليكم، وهل تريدون أن ينزل أحد منا بنفسه إلى هذه الأشغال بعد أن عشنا مثل هذا العمر؟.

الثالث - حاشا الله أيها السيد، ليس هذا من قصدى، وإنما أردت أن أبين لكم أن هذا اليهودى دخل البورصة سمسارا لا يمتلك مالاً، فأصبح من كبار الأغنياء، فما بالك بمن يدخلها وهو صاحب ثروة؟ لاشك أنه يخرج منها بعد مدة قصيرة قارون زمانه.

خامس - ماوراء الربح الكثير إلا الخسران الكبير، وقد شاهدنا بأعيننا ما أنتجته أشغال البورصة من تخريب البيوت العامرة، وتبديد الغنى الواسع، وانحطاط العماد الرفيع، وأرى أن الإقدام على هذه المهالك من الجنون المحض «فالله خير حافظا».

سادس - أما أنا - ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين - فقد كفاني تأديبا ما تكبدته من الخسائر فى تلك المضاربات على الأقطان، ولولا فضل الله وبركة دعاء الوالدين لما نجوت من الخراب.

الثالث - لا حول ولاقوة إلا بالله «إنك لا تهدى من أحببت». كيف تخشون الخسارة فى أشغال الأقطان، وتتوقعونها والربح فيها مضمون، مع بعض الانتباه لمجرى الأخبار، وحسن التخمين فى الإحصاء، وتقدير المحصول والمطلوب للتسليم، ومع القليل من الممارسة والجراءة فى العمل.

سابع - كيف تدعى ذلك، حفظك الله، وهذا فلان المشهور قد انقطع لهذا العمل واجتمعت فيه معداته، فما زال يهوى فى بحر البورصة، حتى وصل فى الخسارة إلى القرار، وإن كان لايزال ظاهرا فى أعيننا بمظهر الغنى الواسع والمال الجم.

ثامن - سبحان الله! الا تعجبون معى من اتساع الشهرة بيننا بالغنى والثروة، ثم لا نلبث أن نكشف الحال عن القلة والضعف؟ فكم سمعنا بأن فلانا صاحب ثروة تقدر بألوف الألوف، ثم يظهر الخفى، ويتضح الباطن، فلا تبلغ الحقيقة معشار تلك الشهرة الكاذبة!

الخامس - نعم صدقت، ألم تروا إلى المرحوم فلان كيف كان يفاخرنى فى كل مجلس عندما أخذت الرتبة بأنه أكثر منى مالاً وأعظم ثروة، وأن مقامه بذلك رفيع، ومرتبته سامية، فلما توفاه الله انكشف الحال، ولم يرث عنه أولاده ما يكفى لبقاء بيته مفتوحاً، وبقاء اسمه مذكوراً، وقس على ذلك أمثاله من هذا القبيل فسبحان الغنى الدائم!

الرابع - دعونا بالله من ذكر الأولاد والمواريث، فإننى كلما تذكرت أخلاق أبائنا فى هذا الزمن، ورأيت ما وصلت إليه ثروة

فلان، وما انتهى إليه حال أولاده من الفقر والضنك، بعد أن بددوا تلك الأموال الطائلة، وأصبح ذكر أبيهم بينهم نسياً منسياً، فلا يزورون له قبراً ولا يطلبون له رحمة، هان على أن أنفق ما في حوزتى في حياتى، وأن أتمتع بأموالى في مدة عمرى.

الخامس - معاذ الله أن نفعل ذلك بأبنائنا، وما فائدتنا في هذه الدنيا إذا لم نجمع الأموال وندخر الثروة لأعقابنا، ونترك لهم مايغنيهم عن سؤال اللئيم بعدنا، ولا تجعل الذنب كله على الأولاد في تبديد المواريث، بل الذنب كل الذنب على الآباء الذين يتركون أموالهم هملاً بعد موتهم، ويغفلون عن تقييدها بالوقف فينفع الأولاد بالريع، وتبقى العين قائمة والبيت مفتوحا، والاسم مذكوراً، ولا يحتاج أحد الذرية وذرية الذرية مع وجودها إلى...

السادس - لا مؤاخذة ياسعادة البك في مقاطعة الحديث. ألم تسمع بما حصل في وقف فلان وفلان وغيرهما، وكيف اغتال النظار حقوق المستحقين، وذهب الوقف ضياعاً بين القضايا والدعاوى والديون، حتى آل النظر والاستحقاق فيها لليهود، واندثرت البيوت، وعفت الآثار، وذهبت أسماء أصحابها، كما ذهب أمس قبل اليوم.

السابع - نعم ينفع الوقف ويبقى الميراث على شرط أن يكون بمثل الشروط التى وقف بها المرحوم فلان، فإن خصص جانباً من الريع لذريته، واشترط أن يحفظ الباقى ويدخر، وكلما

تكون منه نقد عظيم يشترى به عقار، ثم يوقف ويضاف إلى الوقف الأصلى، ليكون فى نمو متواصل على توالى الأيام، وصروف الحدثان وبذلك يصير البيت فى درجة عالية من الغنى بعد وفاة صاحبة، فوق ما كان عليه فى أيام حياته، فأنعم بها من طريقة وأحسن بها من وسيلة.

الثالث - ليس ذلك من الحزم فى شئ، ولكنه الغلو فى البخل والشح ومحبة الادخار بعد مفارقة الحياة، ولقد حرم المرحوم نفسه من التمتع لما له فى حياته، وحرم أولاده منه بعد موته بابتداع هذه الطريقة الغريبة فى شروط الوقف.

الأول - أطلب منك العفو والسماح وعدم المؤاخذة، فمن يقول: إن المرحوم كان شحيحاً مقتراً؟ قد والله عاشرته الزمن الطويل فما رأيته يحرم نفسه أو يقتر عليها، وما كانت مائدته لتخلو من الظأن أو الحمام أو الدجاج - وحق جدك - وإنما كان الرجل حازماً لا ينفق ماله إلا فى الوجوه النافعة.

الثانى - لا اعتماد عندى فى هذا الباب على الوقف أو الملك، وخير ما يدخر الوالد لأبنائه وأفضل ميراث لهم أن يحسن تعليمهم وتهذيبهم فى المدارس، وألا يعودهم فى حياته الإنفاق والتبذير، بل يروضهم على التوفير والتدبير ومعرفة قدر الدرهم والدينار.

الأول - وهل جاءتنا المصائب فى أولادنا إلا من هذه المدارس وتعليمها؟ وهل زادهم ذلك التهذيب إلا ما شئت من

الفظاظة والوقاحة والكبرياء والمكابرة؟ ولقد أدهشني فلان بالأمس، وأضحكني في شكواه مر الشكوى من حال ابنه المتهذب المتعلم في المدارس والمجالس، إذا قال في حديثه: «مازال هذا الولد يزيد في تعنيبي وتكديري منذ خروجه من المدرسة، فأصبح لا يكلم أهله إلا بالرطانة، ولا يعرب عن غرضه إلا بالتعنيف، والتأنيب، ولا يرضى عن شئ في البيت، فإذا جاءوا له بالماء قال فيه المكروب، وإذا أتوه بالخبز والجبن قال عليّ بالميكروسكوب، ثم ترى الشقي يقسم الأطعمة أقساماً، فيقول: البيض واللبن غذاء كامل، والخضر غذاء ناقص لا ينفع ولا يمرى، وإن الأرز وما شابهه من «المواد النشائية» لا فائدة منها سوى أنها تحترق كالوقيد في الجسم، وما زاد منه عن الحاجة فهو شحم يغلظ به الجسد وتتورم به الأعضاء، وإن الفواكه لابد أن تؤكل من ساعتها إذا تشققت خصوصا البطيخ؛ لأنه أسرعها قبولاً لتولد الحيوانات السامة، وهلم جرا، حتى حير الخبيث أهل البيت في طعامه وشرابه، فوق ما حيرني في اختلاف ملابسه وتعدد أزيائه. وكلما عارضته في شئ شمخ بأنفه استكباراً، ولوى عنقه استحقاراً، وسخر بي لجهلي، وفخر علي بعلمه. هذا هو منتهى التأدب الذي يكتسبه أبناؤنا من علوم المدارس، يتعالون على أبنائهم ويعيرونهم، بعد أن كان الولد كالبنت البكر في الزمن الماضي، لا يرفع طرفه في وجه والده حياء ووجلا، وكان لا يجرؤ على مكالمته إلا مجيبا عن سؤال من صغره إلى كبره.

الثاني - ولكن فاتك أن تعليم أبنائنا في المدارس يفيدنا

فائدة عظيمة يغتفر لها كل ذنب، وهى دخولهم فى سلك الموظفين فى الحكومة، وارتقاؤهم المراتب والمناصب، وياليت آباءنا كانوا التفتوا فى أيامهم إلى تعلمنا فى المدارس، فكنا استغنينا عن ممارسة التجارة، وذل البيع والشراء، وكساد السوق، وترويج السلعة بالأقسام، والايمان، فما العيش إلا عيش الموظفين الذين يأخذون مرتبهم فى آخر كل شهر نقداً عيناً، وذهباً خالصاً، دفعة واحدة سالمة لأيديهم بلا مطل ولا تسويف، فى مقابل جلوسهم بالديوان ثلاث ساعات من كل يوم، يقضون الجزء الأعظم منها فى المسامرات والمفاكهات، ثم ناهيك، بما لهم بين الناس من التوقير والتعظيم، وما فى قدرتهم من مساعدة الأصحاب ونكاية الأعداء، ورأس المال فى ذلك كله الإحاطة ببضعة كتب فى المدرسة. فأخبرنى حينئذ أى ربح فى التجارة، وأى شأن لها يوازى هذا الربح، وهذا الشأن فى خدمة الحكومة؟ وسبحان من قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامة!!.

الرابع - كل هذا معلوم ومسلم به، ولكن من أين لك أن ينال ابنك الشهادة، وأنت تعلم حال القابضين على زمام التعليم، فقد خرج اكثر أبنائنا من المدارس بلا شهادة، وخسرنا عليهم الأموال فى نفقاتها، ومن صادفته العناية منهم ونال الشهادة، مثل ابنى، فإنه لم يزل يتردد على أبواب الحكومة فى تطلب الخدمة، والوظائف مشحونة، ونظار الحكومة لا يجدون سواها.

السادس - عسى الله أن يبدل الأحوال، ويسقط هذه النظارة، ويمن علينا برجوع أولئك النظار الذين يهتمون بمصالح أهل البلد وأبناء الوطن، فترى حينئذ كيف يكون تقدم أبنائنا فى المناصب.

الشامس - حقاً: إذا ذهب هؤلاء النظار، وعاد صاحبك إلى النظارة، فقد أقبل علينا السعد، وانجلت الكروب، وصفت الأوقات، وأنا أرجو ألا تنسى ابنى عند السعى لأنجالك، فقد كان معهم فى مدرسة واحدة، وهو دائماً يطالع الجرائد، ويترقب الحوادث التي يكون من ورائها سقوط هذه النظارة.

الثامن - أراكم تحبطون فى أمر أولادكم على غير هدى، والأصوب عندى أن نعلمهم العلوم ليكونوا أسوة أهل زمانهم معرفة واطلاعاً، لا لأجل التوظف فى الحكومة والخروج عن طبقاتهم، وأما من جهة حفظ المواريث فى أيديهم بعد مماتنا، فأحسن الطرق ألا نقتر عليهم فى النفقة أثناء حياتنا، وألا نتركهم بمعزل عن أشغالنا بل نخصص لهم قسماً من المال يشتغلون به على حدتهم تحت أعيننا، ليتمرنوا على العمل، ويدركوا لذة المكسب بأنفسهم، فتتربى لهم ملكة الحرص على المنافع، وينتفعوا بعلومهم فى اتساع تجارتهم، والتنفن فى أبواب المرابحة، وقد جربت ذلك فى أولادى، وأنا أرجو فيهم الخلف الصالح إن شاء الله.

السادس - هل جاءت جريدة اليوم؟

صاحب البيت منادياً لابنه: إئتنا بالجريدة واقرأها علينا.

يحضر الغلام وفى يده الجريدة ناشراً لها.

الأول - اقرأ لنا من الأول.

الغلام - قارئاً: الحرب.

السادس - هل وقعت الحرب؟

الغلام - ليس يتبين ذلك من أول المقالة.

السادس - اقرأها من آخرها.

الخامس - اتركها من أولها إلى آخرها، وإقرأ فى «المحليات» فلا فائدة لنا فى وقوع الحرب أو اجتنابها.

الغلام (قارئاً) - تأليف الشركات.

الرابع للسادس - لا يذهب عن فكرك مشروع الشركة الوطنية التى كنا تكلمنا فى تأليفها منا لمشترى الأطيان المعلومة من الحكومة.

الخامس - إن شاء الله يكون لنا نصيب معكم فى هذه الشركة.

الثالث - من أعضاؤها، ومن الرئيس؟

السادس - أعضاؤها فلان وفلان وفلان ورئيسها فلان.

الثالث - معاذ الله أن أقبل الدخول مع فلان فى شركة، وهل نسينا ما وقع منه؟

الثاني - وأنا لا أقبل الدخول فى شركة بعد تلك الشركة المشهورة بخيبة المسعى، ما لم أكن أنا الواسطة فى مقابلة الحكام والمداولة معهم.

السابع - وأنا لا أقبل الدخول فيها إلا إذا كانت «أسهمى» فى التأسيس أكثر من فلان.

الأول - وأنا لا أقبل أن يكون فلان رئيسا علىّ فى شركة أبداً.

قال عيسى بن هشام: واشتد بينهم الجدال رالخصام، فحملقت العيون، وعبست الوجوه، وتحركت الضغائن، وثارت الأحقاد، ورأينا كل واحد منهم يضمر لأخيه من الشر والأذى، مالا يضمره القرن لقرنه فى ساحة الوغى، فانصرفنا عنهم، وتركناهم يموج بعضهم فى بعض، كأنهم فى موقف الحشر ويوم العرض.

:رباب الوظائف

قال عيسى بين هشام: وسرنا إلى زيارة مجلس من أرباب الحكم والولاية، وذوى السياسة والدراية، ممن بيدهم حل الأمور وعقدها، وبملكهم شقاء الأمة وسعدها، الناشئين فى مهد المعارف والعلوم، والنابغين فى أشتات المنطوق والمفهوم، والموصوفين بدقة النظر وبعد الهمم، والواقفين على أخلاق وعادات الأمم، الذين تنكشف لضوء آرائهم غياهب الخطوب الداجية وتنقاد للطف سياستهم أزمة القلوب الآبية.

فوصلنا إلى دار يزهر بياضها، ويبهر إيماضها، قد ضربت عليها المحاسن أطنابها، وخلعت عليها الزخارف جلبابها، فسار بنا الخدم إلى حجرة فى جانب الساحة، أعدت للانتظار والاستراحة، وإذا برجل جالس فيها يتمايل بين يقظان ووسنان، فرأسه كرة والكرى صولجان، فلما أحس بقدومنا ودخولنا عليه، انتبه يزيح النعاس بأصبعه عن عينيه، فسلمنا فسلم، وهو يتثاءب ويتلعثم، فتخيلناه من ظاهر جملته، وبذاذة هيئته، أنه صانع ن الصناع، أو تبع من الأتباع، ولكن ما لبث أن ظهر لنا من مخاطبته للغلام، أنه دو رحم فى البيت وذو مقام ثم التفت إلينا يخاطبنا ويقول، بعد أن ذهب الخادم مستأذنا فى الدخول: «قبح الله الخدم، فهم نقمة من النقم، شرهم حاضر، وخيرهم نادر، والعناء بهم ليس له آخر، فكم أغضبوا حليماً، وآذوا كريماً، وكم كسروا الصحيح، وخلطوا الصريح، وكم ارتكبوا جرماً وإثماً، وجاءوا إفكاً وظلماً، وكم فتحوا الأغلاق، واختلسوا الأعلاق، وكم أحدثوا الشقاق، أذهبوا الوفاق، وكم فرقوا بين المرء وأهله، وحالوا بين الفرع وأصله، ولعنة الله عليهم فى الدارين، فقد ذقت منهم الأمرين، وكادت تصل بنا أفعالهم الشنيعة، إلى ما لا يحمد من الجفاء والقطيعة، وابنى حرسه الله ينظر ويغضى، ويتحمل منهم ما لا يرضى، وهم يتجنون علينا وينتصرون، وإذا أمرتهم بأمر لا يأتمرون. ويشهد الله أننى كلما رايت مال ابنى فى أيديهم يتبعثر ويتبدد، وثقته بهم تتضاعف وتتجدد، ذاب الفؤاد فسال من العيون، مشوباً بماء الشئون وأما وكيل البيت. وما أدراك

ما الوكيل، فحسبنا الله ونعم الوكيل، فتى لا تخطئ فى النفاق مخيلته، ولا تطيش فى البيت حيلته، دأبه المكر والخداع، وديدنه الشقاق والنزاع، يرضى طفلاً، ليسخط كهلاً، ويتملق للجارية فى الحرم، وللوصيف من بين الخدم...».

هذا ومازال الرجل يشكو ويتضجر، ويتأفف ويتحسر، فلم ينقذنا من هذه الشكوى التى تصم الآذان، إلا رجوع الغلام بجواب الاستئذان، فانتهينا من شقشقة لسانه، وحمدنا الله على كرمه وإحسانه. ثم اقتفينا أثر الغلام إلى حجرة بادية الرواء، مضيئة بالكهرباء، مفروشة بأثمن فراش، وأبدع رياش، على اختلاف فى الأجناس، والأنواع، وتباين فى الأشكال والأوضاع، فالتحفة الشرقية، تقابلها الطرفة الغربية، وآنية الذهب، يضارعها آنية الخشب، فوجدنا المجلس حافلاً بأهل الولاية والقضاء، من الرؤساء والوكلاء، فأخذنا مجلسنا نستمع ما يدور من السمر، ونجنى من أبهم ما يحلو من الثمر، ودونك بعض ما اقتطفنا وجنينا، وسمعنا ووعينا:

أحدهم - نعم حبذا نصرة حزب الجيش على بقية الأحزاب فرنسا، فإن فى ذلك لو تعلمون تحرير رقبتنا، وانقضاء محنتنا.

ثانيهم - ما أبعد ما ترمى، وما أسرع ماتحكم، فهلا نبأتنا، لله أبوك، كيف ترتيبك لهذه القضية، واستقراؤك لهذه النتيجة، وما نحن وخذلان الأحزاب الفرنسية، ونصرة حزب الجيش عليها!؟.

الأول - أراك لست بعويص الرأى فى السياسة ولا ببعيد الغور فى استخراج النتائج الا تعلم - لازلت مسدداً - أن فى انتصار حزب الجيش قلبا لهيئة الجمهورية، ورجوعاً بفرنسا إلى الملكية والإمبراطورية، أو القنصلية، فتأتينا بمثل أولئك الملوك والقواد الذين دوخوا الشرق والغرب، وقهروا الممالك، وأخضعوا الدول، وأصبحت لهم الكلمة العليا على أهل البسيطة، فلا يمانعهم فى أغراضهم ممانع، ولا يعارضهم فى مطالبهم معارض، وإنى لأعلم علم اليقين، ممن عاشرت من كبار الفرنسيين وصاحبت، أنه لولا هذه الجمهورية لما وصلنا نحن إلى هذه الحال.

ثالثهم - دعنا بالله من هذه الخيالات، واتركنا من هذا اللغو، ومثلك لا يحق له الشكوى من هذه الحال، فإنك متين العلاقة بالمستشار، وما بينك وبين الوصول إلى المنصب الذى تتطلع إليه إلا قيد شبر، وأنت مع ذلك فى غنى عن خدمة الحكومة بمالك من الغنى واليسر. ولكن ماذا تقول فيمن هو فى حاجة دائمة إلى البقاء فى أسر الحكومة وذل الخدمة، ولولا الاحتياج إلى المرتب والاضطرار إلى الرزق لما أقمت فى الخدمة يوماً واحداً؟.

رابعهم - وأنا والله لا انتظر إلا أن يتم لى نصف معاش، فأهجر خدمة الحكومة، وأنجو بنفسى من أسر الرق وذل العبودية، ثم أعتمد بعد ذلك على الاشتغال بالتجارة، فهى أهنأ عيشا، وأعظم ربحاً، وأبعد بصاحبها عن مواقف الذل والهوان.

خامسهم - ماأسخف الرأى وأضعف الفكر ومن ينكر أن خدمة الحكومة على كل حال هى أعلى قدراً وأرفع شأناً من بقية الحرف والصناعات؟ وكل أسباب المعايش لا تخلو فى هذه الدنيا من المتاعب والأكدار، ولكن خدمة الحكومة أهونها حالا وأقلها عناءً، ولا يفضل عليها الاشتغال بالتجارة إلا من كان قليل التبصر فى الأمور، ويكفيك برهاناً على ما أقول انك تستخدم التاجر وتسخره مادام درهمك فى يدك، ولكن التاجر فى حاجة أبداً إلى أصغر موظف فى الحكومة، وإن كان من أغنى الأغنياء ولو تراهم إذ يفتخرون بينهم بزيارة الكاتب ومجالسة المعاون وتحية القاضى ومخاطبة المدير؛ لعلمت أن خدمة الحكومة بلغت فى أعينهم وأعين بقية الطبقات مبلغاً عظيماً من الشرف والرفعة، بحيث لو خيرت أحدهم بين الخروج عن ماله وعقاره وتجارته وأطيانه، وبين الدخول فى صف الموظفين بالحكومة، لخرج من كل ذلك خروج السهم من قوسه، والأرقم من جلده، ولحكم بأن السعادة كل السعادة فيما تعده أنت شقاء وبلاءً، وتعتبره ذلاً وهواناً.

سادسهم - على رسلك أيها القاضى، الا تعكس القضية، ولا تقلب الحقيقة، ولا تحمل ما تراه فى أخلاق أهل التجارة والصناعة والزراعة من الاستهانة بحرفتهم، والاستعظام لأهل الحكومة، على أن حرفتهم خسيسة فى ذاتها بل ذلك حادث فيهم من جهلهم، وضعف إدراكهم، وإلا فلو تخلى أحدهم عن طبقته، ودخل فى طبقتنا يوماً، لأدرك فى الحال ما كان فيه من نعمة الاستقلال فى العمل، والحرية فى الرأى، ولعلم أن

الموظف قد باع للحكومة حريته، ووهب لها نفسه، تتصرف فيها تصرف المالك فى ملكه، مقابل مقدار من المال يعد لأجله ساعات اليوم وأيام الشهر، ويربحه الواحد من أولئك الجاهلين بأحوالنا فى يوم واحد، وهو أمير نفسه، وسيد أهله، وياليت آباءنا كانوا انتبهوا إلى تعليمنا الصنعة وتمريننا على التجارة، ولكن بئس ما صنعوا وبئس ماخلفونا له، ولو أنهم كانوا أدركوا ما انتهت إليه حال الخدمة فى الحكومة اليوم، ولم يغتروا بما كان للحكام فى الأزمان السالفة من الصول، والقوة والحول، واكتساب المال من الجاه، ولو علموا أنه سيأتى زمان على هذه الحكومة التى كانوا فى أيديها كالأيتام فى يد الوصى - يكون أرباب المناصب فيه كالأطفال فى حجر المرضع - لعضوا الأنامل ندماً، ولأرسلوا بدل الدمع دماً، على ما فرطوا فى أمرنا، وأهملوا فى شأننا.

الخامس - إنك لتتكلم بكلام العجائز اللائى يقنعن من دهرهن بالخسيس من الملبس والمطعم وأين أنت - هداك الله - من طلب المعالى، وابتناء المفاخر، وتشييد المجد، وخدمة الوطن وارتقاء المناصب للقدرة على النفع والضر، وأين أنت من قول الشاعر الحكيم؟:

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة
كفانى، ولم أطلب، قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل
وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

وإلى الله المشتكى من زمن صغرت فيه النفوس وضعفت الهمم وماتت العزائم، ورضى الناس فيه بالخمول والسكون، وبالعيش الدون.

السادس - إنى لأعجب منك أيها الفاضل كيف يغيب عنكم الصواب إلى هذا الحد، فترى أن فى خدمة الحكومة سؤدداً وعلاءً، ومجداً وسناءً، وما هى إلا الذل والشقاء، والبلاء فى أثر البلاء، وأنا أفصل لك الحال تفصيلا، لتعلم أن بقاء أمثالك فى خدمة الحكومة، مع القدرة على التنحى عنها، عجز وضعف، وجهل براحة الحياة وأى جهل فأقول:

تنقسم الرغبة فى خدمة الحكومة إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: الرغبة فيها للمال، أعنى لسد العوز وكفاف العيش. وصاحب هذا القسم يكون فى حال المضطر الذى حكم عليه الدهر باحتمال الهوان لضرورة الرزق، فهو مثلى يغبط حال كل صانع وتاجر وزارع، ويتمنى على الدوام أن يخرج من خدمة الحكومة إلى صف أهل الصناعات الحرة.

والقسم الثانى: الرغبة فيها للجاه، أعنى عزة المنصب، ونفوذ الكلمة، ومضاء الحكم. وهو ميدان بعيد الشأو، واسع الأطراف، ليس لشوطه نهاية، ولا لحدوده غاية، ولابد فيه للجواد من كبوة، وللسيف من نبوة؛ طالما كان اعتلاء المناصب، وارتقاء المراتب، داعية للرزايا والمصائب، ومجلبة للبلايا والنوائب.

والشـــــر يجلبـــــه العـــــلاء وكم شكا

نبـــــا على مـــــاشكاه قنبـــــر[109]

ولو سلمنا أن صاحب المنصب سلم من المعاطب، ونجا من الخطوب، فهو لايزال طول حياته في هم ونصب، كلما ارتقى في المنصب درجة، وجد فوقها درجة أخرى، يحسد من يليها ويحقد على من يعتليها، ولا يفتأ مستعظماً لما فوقه، طامعاً فيه، مستصغراً لما في يده، راغباً عنه، فهو في ذهول دائم عن التمتع بلذة الحياة التي يجري وراءها، غير راض عن نفسه ولا الناس عنه راضون، وهذا هو منتهى الشقاء والبلاء، وملتقى الكمد والكدر.

ذلك الخـــــائب الشـــــقي وإن كـــــا

ن يرى أنـه من الســـــعـــــداء

يحـــــســـــب الحظ كلـه في يديه

وهـو منه على مـــــدى الجـــــوزاء

وأخلق بمن كان همه أبداً التطلع إلى غير ما في يده أن يكون أنحس البرية حالاً، وأمضهم عيشاً، ولذلك زهد الراسخون في العلم من الفلاسفة والحكماء في اعتلاء المناصب ورغبوا عن اغتراب غاربها، وحذروا العقلاء من السعي وراءها، وشغل النفس بها؛ هذا كله إذا كان عظيم الجاه، نافذ الأمر، وكان الوصول إليه من طريق الفضيلة

والشرف، والحصول عليه من باب الجدارة والاستحقاق، فأما والطريق إلى المناصب كما نراه اليوم، قاصر على التوسل والتوسط وإهراق ماء الحياء والمنصب على ما تعلم لا أمر فيه ولا نهي، ولا حل ولا عقد، فالفرار منه أجدر بطالب الجاه وأحرى، والتباعد عنه أشرف بذى الفضل وأسنى. والنزول عنه نعم المنصب العالى، لطلاب المعالى.

والقسم الثالث: الرغبة فى المنصب لشغل النفس دون سواه، دفعاً للسأم والملل، وتضييعاً لأوقات الحياة وساعات العمر فى الاشتغال بحاجات الناس، والتلهى بها عن تهذيب النفس. ولا يدخل فى هذا القسم إلا من كان فارغ الفؤاد خاوى الصدر، خالياً من كل أدب، مشغول الضمير بالوساوس والهواجس، فأكره شئ لديه نفسه، وأثقل حجمل عليه حياته، ولابد له من مشاغل متجددة، ومسائل متعددة، تشغله عن الخلوة بنفسه التى صارت عنده، إذا هو خلا بها لحظة كأنها خلية من خلايا الزنابير أو وكر من وكور الأفاعى، وهيهات أن يبلغ المسكين غرضه يوماً، لأن من ضاقت عليه نفسه كان العالم عليه أضيق، ومن ثقلت عليه أخلاقه فالخليقة عليه أثقل.

والقسم الرابع: الرغبة فى خدمة الحكومة، لخدمة الوطن ونفع الأمة هذا مطلب عقيم النتيجة أيضاً، لأنه لا يتفق لنا الجمع بين المحافظة على البقاء فى المنصب، وبين الاستقلال فى الرأى الذى تقتضيه مصلحة الوطن، ومن أراد أن يخدم وطنه، فليتخلص من قيود الحكومة، ويخدمه وهو مطلق اليدين واسع التصرف.

ولا تنسى فوق هذا كله ما يعقب حلاوة الولاية من مرارة العزل، خصوصاً فى بلد ينسبون فيه إلى صاحب المنصب كل فضيلة، وينزعونها عنه إذا سقط منه، فالرجال عندنا بالمناصب لا المناصب بالرجال، على عكس ما قد قيل:

إن الأمـــــــيـــــــر هـــو الـــذى
يـضـــــحـى أمـــــيـــــراً يوم عـــــزلـه
إن زال ســـــلـــــطـــــان الـــــولا
يـة لـــم يـــزل ســـلـــطـــان فـــــــــضـــلـه

فمن ذا الذى يقبل الدخول فى خدمة الحكومة وهو يجد عنها محيصًا إلا من أضله الله على علم؟ ولذلك فإنى عاهدت نفسى أن أتخير لأولادى فى تعلمهم صناعة يتعيشون بها أحراراً، وتكون معهم أينما حلوا وشاروا، لا يسلبها منهم تقلب السياسة، وتغير الحوادث ولا يؤثر فيهم غضب زيد أو رضا عمرو.

سابعهم - لله أنت أحلى بيانك، وأجلى برهانك وأنا معك فى هذا الحكم وعلى هذا العزم.

الثانى - اتركوا هذه الخطب المكدرة والأفكار المحنة، وخذوا بنا فى حديث غير هذا يفرج عنا ويروح، ولا تجمعوا علينا بين ذل النهار وهم الليل، وهل لك يا فلان أن تقوم معى للمسابقة والرياضة بالبسكليت.

الأول ـ الأحسن من هذا أن تأتونا بالفونوغراف نستمع إليه.

ثامنهم ـ أوقو موابنا إلى عرس فلان، فقد بلغني أن فيه «بوفيها» لم يسمع بمثله حسنا ووضعاً.

الأول ـ أنا أمك.

الثامن ـ لكن على شرط أن تقيم معي هناك نستمع الغناء.

الأول ـ لست معك في هذا، بل تخرج من البوفيه إلى الأزبكية لسماع الموسيقا الإنجليزية أو الأوبرا التليانية.

الرابع ـ أنا لا أتوجه معكما لأنني ذاهب إلى «الكلوب».

السابع ـ انتظروا قليلاً حتى نقرأ جرائد المساء.

الخامس ـ عليّ بالجرائد الفرنسية منها، فهي أصح من العربية أخباراً وأغزر مادة.

الثالث ـ اقرءوا الجرائد العربية أولاً واحدةً بعد أخرى أو بعضها مع بعض.

الثاني ـ قارئنا اسيا في أوربا وأمريكا في أفريقيا».

الرابع ـ ماذا جرى لصوابك ياعزيزي؟ إقلب الصحيفة الزولي، فما لنا ولهذه المقالات الافتتاحية، وما لنا ولهذه الأفكار الصبيانية؟

الثاني ـ (قارئاً في الصحيفة الثاني) ـ «الإسكندرية

لكاتبنا: الأمة برجالها، والمناصب بأربابها، والمعارف هى التى تخرج لنا رجال المستقبل، ومن أين لنا بالرجال إذا كانت تبخل بالمال؟ فالمستقبل حينئذ مظلم، والوطن آسف ولا نهضة للأمة إن لم تنهض العواطف لإنشاء مدرسة كلية أو معارف أهلية، وبخلاف ذلك كان...»...

الرابع - حسبك أيها القارئ حسبك. أما قلنا لك لا تقرأ هذه المقالات المعلومة؟

السابع - اترك «الأسكندرية» إلى غيرها.

القارئ - «الزقازيق لكاتبنا»: يثنى العموم بلسان واحد على حضرة مأمور البندر لاهتمامه بالكنس والرش..

الثامن - أنعم به وأكرم وأكثر الله من أمثاله فى خدمة الوطن، عليك ياصاحبى بالحوادث الداخلية.

القارى - «يسافر سعادة العضو الوطنى فى السكة الحديدية إلى الإسكندرية فى هذا المساء ويحضر سعادة مدير البوسته إلى العاصمة على اكسبريس الصباح...».

الثامن - اترك قراءة هذا «المانيفستو» أيضا.

القارئ - «سبقنا فذكرنا أن مجلس النظار بحث فى الجبانات والآن نذكر نص القرار..».

الثامن - جعل الله الجنة قراره ومثواه. فدعه واقرأ لنا سواه.

القارئ ـ «وصل سعادة السردار إلى أم درمان وقد بلغنا عن ثقة أن أهم ما يشغل به الآن هو السؤال عن أحوال السودان».

الثامن ـ سبحان الله! كنت أظن أنه سيشتغل هناك بالسؤال عن أخبار اليابان وحوادث اليونان.

القارئ ـ «يسم البوليس الكلاب الضارة.

الثامن ـ نسأل الله السلامة والهداية للجميع.

القارئ ـ «كتب إلينا أحد أفاضل الأطباء بأنه اكتشف علاجا يشفى من كل داءٍ مزمن ومرض عضال ويقو ـ حفظة الله ـ فى آخر رسالته: إنه من غرامه بصدق جريدتنا صار لا يفارقها حتى ولا فى منامه على فراشه».

الثامن ـ لا نزاع فى هذه الكفاء وسبحان الموفق.

الثامن ـ لا نزاع فى هذه الكفاءة وسبحان الموفق.

القارئ ـ «رزء عظيم: قد فجع الإسلام» وانهدم ركن ولدين، وأظلم الكون؛ إذ قصفت المنون غصن نقيب الاشراف بالدير الطويل عن ست وتسعين سنة قضاها فى عمل البر والإحسان فكان لنبأ موته أسف وحزن فى قلوب أهل بلده خصوصا، والقطر المصرى عموما».

الثامن ـ لا حول ولا قوة إلا بالله. لابد أن تكون أسعار البورصة هبطت لهذا النبأ هبوطاً فاحشا فى القطر المصرى خصوصا، وفى الولايات المتحدة عموماً.

القارئ - «نفيد حضرات القراء أنه لايزال التحقيق جارياً في قضية التزييف ولم يتم فيها شئ للآن ومتى تم نبادر إلى نشره إفادة لحضراتهم كما هى عادتنا فى نشر الأخبار بأوقاتها».

الثامن - أفادكم الله ونفعنا بهذه الأخبار

القارئ - «فاتنا أن نذكر أن حضرة وكيل دائرة الهياتم كان فى مقدمة المشيعين لجنازة المأسوف عليها «وردة جعلان» فى الأسبوع الماضى. وكذالك فاتنا أن نهنئ حضرة مكاتبنا الفاضل «بنزلة واكد» حيث رزقه الله بولادة مولود جعله من أولاد السعادة».

الثامن - جل من لا يغفل ولا ينسى. ولكن فاته أن يذكر اكان ذكراً أم أنثى...؟

القارئ - «لدغت عقرب ابنة فى قسم الوايلى».

الثامن - نعوذ بالله. هذا كله ناشئ من إهمال الحكومة فى «الاحتياطات الصحية» ومن غفلة البوليس عن ضبط الوقائع الجنائية.

القارئ (للثامن) - يكفيك ياحضرة القاضى من السخرية والاستهزاء، واسمع لهذا النبأ العظيم.

الثامن - سمعاً وطاعة.

القارئ - «بلغنا اليوم أن الحكومة تبحث الآن فى مشروع

فتح شارع المرور، ونحن بلسان العموم والنيابة عن الأمة المصرية الأسيفة نحذرها من عواقب هذا المشروع الوخيمة؛ الذى يكون من ورائه رسوخ قدم الأجنبى فى البلاد، وسنشرح لحضرات القراء مضار هذا المشروع فى مقالة افتتاحية».

الأول - أن هذا الخبر لا يعلم به أحد سواى، فكيف وصل إلى الجرائد؟

الثامن - إنى لأخشى إن دام إفشاء الأسرار على هذه الحال أن يعمد أرباب الحل والعقد إلى استخدام الخرس فى مجالس الحكومة؛ رجوعاً إلى العادة القديمة فى مجالس الوكلاء بالدولة العثمانية.

الرابع (الثانى) - اقرأ بقية الأخبار المحلية.

الثانى - لم يبق فى الجرائد الثلاث إلا التلغرافات والإعلانات.

الرابع - أراك لم تقرأ إلا جريدة واحدة فما قولك «الجرائد الثلاث»؟

الثانى - هى كما تعلم نسخة واحدة فى الأخبار وإن كانت مختلفة فى الأسماء.

الرابع - اقرأ لنا التلغرافات.

الثانى (قارئاً) - «بيروط الساعة ٨ والدقيقة ٣٧ - كان

الاحتفال بتوديع حضرة النشيط معاون بوليس المركز مائلاً وتليت الخطب وأنشدت القصائد والتفصيل بالبوستة».

الرابع - ما هذه الصغائر؟

الثاني - هي التلغرافات الخصوصية.

الرابع - علينا بالعمومية.

قال عيس بن هشام: وما قرأ القارئ التلغرافات السياسية حتى استدار أهل المجلس حلقة يكثرون اللغط فى شرحها، ويرجمون الظنون فى تأويلها، وما فيهم إلا من هو على خلاف لرأى صاحبه، وإذا هم قد عادوا إلى مثل ما كانوا فيه وقت دخولنا عليهم. ولما وجدنا الجدال يحتدم بينهم اشتعالاً، خرجنا من بينهم انسلالاً، وتركناهم فى سياستهم يتيهون، وفى ضلالتهم يعمهون.

العرس

قال عيسى بن هشام: ولما فرغنا من زيادة تلك المحافل المشهودة، والمجالس المعدودة، قلت للباشا: قد آن أن نعود إلى ما كنا فيه من الانفراد والاعتزال، ونبتعد عن مثل هذا الاختلاط والابتدال. فأجابنى وهو يظهر التوقف، ويبدى التأفف: «ما بالك تقطع على الطريق، فى البحث والتحقيق؟ ومالك تحرمنى السعى والاجتماع، للأطلاع على ما فى الكتب والزوراق، لمعرفة الآداب والأخلاق؟ فنترك النظر للخبر، واللمس للبس، والممارسة

للمقايسة، وأى الطبيبين أدق صنعاً، وأكثر نفعاً: الطبيب الذى يقتصر على الكتب فى درس الأعضاء والأحشاء، أم الطبيب الذى يدرسها فى تشريح الجثث وهى تسيل بالدماء؟ على أنه قد زال عنى فى هذه المدة، ما كان يعترضنى من الغضب والحدة، وانقلب العسر من أمرى يسراً، وغدا التقطيب بحمد الله بشراً، وصرت لا أقابل عيون الخلق، بغير الحلم والرفق، وتعلمت أن أتحلم، ولا أتألم، وأتبصر ولا أتحسر، وأتدبر ولا أتضجر، فأنا اليوم أتفكه بمخالطتهم، وأتروح بمباسطتهم، فلم يبق لك من عذر وجيه، ترتضيه بعد ذلك وترتجيه». ومازال الباشا يجرى على هذا النمط فى الشرح والبيان، ويأخذنى بالبرهان فى أثر البرهان، حتى ملكنى بسلطان حجته، وأنزلنى على حكم رغبته. وكنت دعيت فيمن دعى من الناس، إلى وليمة عرس من أكبر الأعراس، فقلت له عندى اليوم حد الكفاية، فى بلوغ الغاية، فهلم إلى المحفل الذى تحتشد فيه المحافل، والمنهل الذى تتفرع عنه المناهل، وسرت به منذ أرخى الظلام من سجوفه وأستاره، وبدأ فى الطور الأول من أطواره، فما قربنا من قصدنا حتى وجدنا الليل هناك نهاراً يتألق، وفحمة الدجى جمرة تتحرق، فدخلنا ساحة كأنها مدينة، تبرجت فى يوم الزينة، فوقفنا هنيهة فى وسط المزدحم، لا نجد موضعاً للقدم، حتى أخذ بيدنا أحد المستقبلين بالباب، من ذوى العلامات فى الثياب فدسنا بين جماعة لم نعرف منهم أحداً، ولم يحسنوا لتحيتنا رداً، فجزيناهم على ذلك بغض الطرف، وأقمنا بينهم لا ننطق بحرف. ثم أخذنا نتلمس بأعيننا صاحب الدار، فلا

نهتدى له على قرار؛ كأنما صنعت الوليمة فى غيبته، وأقيم الاحتفال انتظاراً لأوبته أو أننا أخطانا العرس إلى سواه، واشتبه علينا مقره ومثواه. فهممنا بالقيام والمسير، لولا أن أشار لنا بالسلام مشير، فتبيناه صديقا لنا من الخلصاء، فى جمع من الفضلاء والأدباء، فقصدناهم، فأفسحوا لنا بينهم مكاناً رحباً، وجلسنا معهم نجتنى ثمر الحديث يانعاً ورطباً، وعلمنا منهم أن رب الدار فى ذهول لا يدرك ما يذره وما يأتيه، وأن صاحب البيت لا يدرى الليلة بالذى فيه، وأنه لا تثريب عليه ولا لوم، فهو مشغول بتحية كبار القوم، ممن لم يخالطهم قبل اليوم.

الباشا - وهل يدعو الناس إلى أعراسهم من لم يعرفوه أو يخالطوه من قبل؟

أحد الاصدقاء: نعم يدعو الناس إلى أعراسهم كل من علا له صيت، واشتهر له اسم من الأمراء والكبراء والعلماء فمنهم من يجيب الدعوة، ومنهم من لا يجيبها لعدم معرفته لصاحب العرس، وبين الكبراء جماعة اشتهروا بأنهم لا يخيبون للداعي رجاءً، ولا يتخلفون مرة عن إجابة الدعوة، حتى صاروا من عمد الزينة وأساطير الأعراس.

الباشا - وما الغرض لصاحب العرس من هذ كله؟

الصديق - الغرض منه أن يذاع بين الناس تشريف هؤلاء الكبراء والعلماء لبيته. وأكثر الذين نراهم يقيمون ولائم

الأعراس ينفقون عليها جانباً عظيماً من ثروتهم لاغراض لهم منها سوى ذلك وحده، وفيهم من وصل به حب الشهرة والفخفخة أن أنفق فى إقامة العرس جميع ماله، ثم بقى عليه من الدين ما أخل بنظام معاشه. وأعرف تاجراً من التجار أنفق الجانب الأعظم من رأس ماله فى إقامة عرس كبير، ثم قسم دفاتر تجارته إلى شطرين: شطر يحتوى على بيان ما بقى لديه من أصناف التجارة وأجناسها، وشطر يتضمن أسماء من حضر العرس من الأمراء والكبراء، وقل أن تشترى منه صنفاً إلا ويذكر لك منهم اسماً يقسم بحياته ورأسه أن الصنف جيد، والثمن فى جنبه هين.

الباشا - ما كنت أعهد أن الأعراس تكون على هذه الحال من استخذامها للشهرة والصيت، بل كنت أعهدها أنها تقام لائتناس صاحب العرس بأصحابه وأصدقائه، ومشاركتهم له فى صفوه وهنائه، ولإطعام المساكين ومساعدة الفقراء.

الصديق - ليس للفقراء اليوم ولا للمساكين نصيب فى طعام الأعراس، بل هو من نصيب مثل هذا الوفد الخارج أمامك وأضرابهم.

الباشا - إنى أعرف من هؤلاء الخارجين ثلاثة أشخاص اجتمعت بهم فى مجلس للعلماء.

الصديق - نعم هذا الوفد كله من كبار العلماء وحملة الشريعة وأئمة الدين.

الباشا - ومالى أراهم مسرعين ويهرولون فى خروجهم، وما الذى وقع لهم حتى يتركوا العرس منذ أول الليل، وليت شعرى ما الذى أزعجهم وأخرجهم، أنزل بالدين مكروه؟ أحل بالإسلام خطب؟ أحدث بين الناس حادث بدعة يستدعى قيامهم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟

الصديق - لم يحدث من كل ذلك شئ، ولم يعرض لهم عارض، وإنما هى عادة لهم ألفوها فى الولائم والمآدب، إذا انتهوا من غسل أيديهم بعد تناول الطعام بادورا إلى الخروج من العرس، فتراهم عند قول أحد الظرفاء: «يد فى الكباب، ورجل فى الركاب» والذين يعتذرون لهم يقولون لهم إنهم علماء عاملون بقوله تعالى: «فإذا طعمتم فانتشروا»: وإنهم يرون سماع الغناء مكروهاً فى الدين، فلا يجلسون فى العرس بعد الطعام خشية أن يبتدئ الغناء؛ فيحل بهم المكروه.

الباشا - ومن هذا الشيخ المتخلف عنهم القادم علينا؟

الصديق - هذا الشيخ المتخلف عالم من أفاضل العلماء ونبهائهم، وهو قادم علينا للجلوس معنا، فإن فينا من يأتنس به ويصبو إلى مجالسته.

الباشا (للشيخ بعد جلوسه) - أرجوك أن تسامحنى فى فضول القول، فلا صبر لى عن الاستعلام والاستفهام، خصوصاً إن كان فى الأمر ما يخص الدين، فقد قيل لى: إن السبب فى مغادرة وفد العلماء للعرس فى عقب الطعام هو

كراهتهم لحضور مجلس الغناء، فهل لك أن ترشدنى إلى القول الأصح فى هذا الباب، وما الذى يجب أن يؤخذ به، وكيف انفردت أنت عنهم بالبقاء والجلوس، ورضيت سماع الغناء إن كان مكروها؟

الشيخ المتخلف ـ الكلام فى هذا الباب طويل، وما أظن السبب الأعظم فى المبادرة بالخروج إلا طلب الجسم للراحة بعد الامتلاء.

الباشا ـ إنى أريد أن أهتدى بهديك فى باب سماع الغناء وتقرير كراهته أو إباحته، فلا تبخل علينا بفضلك وعلمك، والوقت وقت مسامرة، فإن أردت أن نقضى جانباً منه فيما ينفع ويفيد، فقد أديت واجباً عليك فى الدين، وجعلتنا لك من الشاكرين.

الشيخ المتخلف ـ اعلم أن طرب الغناء أمر غريزى راسخ فى طبيعة الحيوان، ومن الحيوانات العجم وضوارى الوحوش ما تسمع الغناء فتحن إليه، وتسكن به، فيضعف من قسوتها، ويكسر من حدتها، وربما ذلت به رقابها، وأمكن قيادها، وهذه الفيلة، وهى من اكبر الحيوان اجساماً، وأشدها بطشاً، إذا سمعت صوتاً مرنما، أو كلاماً منغمناً، لم يلبث هذا الجسم العظيم أن يتمايل ترنحاً ويهتز طرباً ـ ولو كان فى مواقف النيران ـ اهتزاز الحمامة المطوقة على فنن من الأفنان. وهذه الأبل المعروفة بأنها اغلظ الحيوان أكباداً نراها إذا براها السرى، وأضناها التعب، وأهلكها الظمأ فتغنى لها الحادى،

ذهلت فى الحال عما أصابها، وتعللت بالغناء، عن مناهل الماء، وهى على الخمس فى ظمئها أو العشر(١١٠)، ونشطت به تستعيد القوى لاستئناف السرى، وطالما شاهد المشاهدون هوام الأرض ودوابها تخرج من كهوف الجبال وبطون الرمال، فتجتمع جيوشا تتبع جيوش الحرب فى مسيرها، وقد ظهر لأحد الباحثين من علماء الطبيعة عن علة ذلك الاتباع أن صوت الموسيقى أمام الجيوش هو الجاذب لها، والدافع بها للخروج من أو كارها وأحجارها للمسير خلف الجيش. ومن الروايات العتيقة أن أحد الموسيقيين من الفلاسفة كان عند شاطئ بحر يبغى الشاطئ الآخر ولا يجد مايحمله إليه، فجلس يلهى نفسه بالغناء؛ وإذا بدلفين(١١١) قد شق أمواج البحر يتدنى من صاحب الصوت، فلم يزل فى تدنيه، والفيلسوف فى تغنيه، حتى حاذى الشاطئ وسكن يستمع، فأيقن الفيلسوف أنه استهواه بتأثير الغناء، وذلله بقوة الطرب، فامتطاه يسخره كيف شاء، فوق عباب الماء، كأنه مطية وجناء(١١٢) تسير فى عرض البيداء، على توقيع الحداء؛ وحكاية إبراهيم بن المهدى فى اقتياده الوحوش الضارية بسحر غنائه مستورة مذكورة.

هذا بعض ما يقال فى تأثى الغناء فى الحيوانات العجماء، مع ضعف إدراكها، وكثافة إحساسها، ونقص خلقها، فما بالك بتأثيره فى الانسان، وهو أسمى الحيوان رتبة، وأكمله خلقة، وأعظمه إدراكاً، وأصفاه جوهراً، والطفه روحاً؟

والغناء - فى تعريف قوم من الفلاسفة - فن يقصد به تحريك النفس بتنسيق الصوت وتأليفه على طريقة ترتاح لها

الأذن، فتهتز له نفوس أرباب المدارك العالية، والأمزجة الصافية، وهو القوة المساعدة لقوة النطق في التأثير في السامع. وكان القدماء يعتبرون لغة عامة لسائر الناس يفهمونها على اختلاف لغاتهم وألسنتهم، وكان لابد لطالب الفلسفة عندهم من الإحاطة بفن الموسيقى مع الرياضيات، وقد عبر عنه الحكيمان الكبيران «فيثاغورس» و«هرمز» أنه علم التنسيق لكل شيء، ولذلك أطلقوا عليه لفظة «أرمونيا»، ومعناها النظم والتنسيق ومنه الترتيل، وكلهم مجمعون على أن لا شيء في العالم يعادل تأثير الغناء في تهيئة النفوس، وتوطئة القلوب، لقبول الفضائل والكمالات، وعندهم أن الذي لا يتأثر منه لابد أن يكون به نقص في الخلقة. والغناء مغروس في طينة الإنسان منذ نشأ في حجر الطبيعة، ومنذ استهل في المهد باكياً، فلا يسكن إلا به، ولا يروح عنه إلا بتطريبه، وفضل تأثير الغناء في النفوس على تأثير الكلام، كفضل الشعر البليغ في لغته على ترجمته كلاماً غير موزون إلى لغة أخرى.

والوقائع كثيرة جمة في التاريخ، تشد بقوة تأثير الغناء: منها أن أهل مدينة اسبرطة كانوا في فتنة اشتد لهيبها، وعظم شرها، فعمد جماعة من الموسيقيين إلى مكان الزعماء القائمين بأمرها، فما زالوا يغنونهم حتى طربوا، فصفت أرواحهم، ورقت نفوسهم ولانت عريكتهم، فانتهوا من أنفسهم عن إشعال نار الثورة فخمدت، وقام صياح الطرب، مقام صياح الشغب. ومنها أن أهل سويسرا كانوا ينزلون عن رءوس الجبال للاحتشاد في الجند، فإذا انعقد جمعهم أغرى العدو بهم من

يغنى فيهم بلحن لهم معروف، يتغنى به الرعاة فى قلل الجبال، فيشتعل فى نفوسهم لهب الوجد، وتهيج فيهم ثائرة الحنين، وينزع بهم الشوق إلى منازلهم، فيلقى أسلحتهم عن أيديهم، ويذهب بهم على وجوههم. وقد تكرر وقوع ذلك فيهم، حى قرر رؤساؤهم الحكم بالاعدام على كل من يغنى بينهم بذلك الغناء. ومنها حكاية الحكيم أبى نصر الفارابى مع سيف الدولة بن حمدان، إذ أضحك أهل مجلسه وأبكاهم، ثم أنامهم وتركهم.

وقد كان خطباء الدولة الرومانية يتسابقون إلى تنسيق أصواتهم فى الخطابة وتتبع النغم لتأثير القول فى النفوس، وربما استصحب بعضهم معه أحد الموسيقيين بآلة من آلات الطرب، فيجعله بجانب المنبر، حتى إذا وجده خرج عن النغم أوشذ نبهه بصوت الآلة، فيرجع إلى الأصل. ولسنا نجد بين الأمم أمة فى بداوتها وحضارتها، وماضيها وحاضرها، إلا وعندها الغناء فى الجيش آلة من آلات الحرب؛ تعين على ممارسة الأهوال، وتثير إلى منازلة الحتوف وكان القدماء منذ عهد داود عليه السلام يعتقدون أن الغناء يشفى من الامراض والأسقام، وكان «إيسمين» فى مدينة «تيب» يزعم أنه يشفى من عرق النساء بصوت الناى. وكان «هوميروس» و«جالينوس» و«بلوتارك» من بعدهما يؤكدون أن الغناء يشفى من الطاعون، ومن داء المفاصل، ومن نهش الأفاعى. وقام اليوم جماعة من كبراء الأطباء فى أوربا يقررون - بعد كثرة التجارب - أن الغناء دواء نافع لكثير من الأمراض، وأطلقوا عليه لفظة «ملوترابيا» يعنى العلاج بالطرب، كما قرروا من قبل «الهيدروترابيا»، وهى

المعالجة بالكهرباء. وقد جرب أطباء فرنسا تأثير الغناء فى وظائف الأعضاء بآلة حاسبة، فوجدوا أنه يزيد فى دورة الدم، وفى حركة التنفس، سرعة مقبولة. وذهب بعضهم أن للأخشاب التى تتخذ منها آلات الطرب تأثيرا آخر على المريض، مثل اتخاذ الناى من خشب الكينا، فإن سماعة يشفى من الحمى. وبلغت العناية بهذا الفن فى ألمانيا أنهم جعلوه درساً من الدروس الأساسية يبتدئ به التلامذة ابتداءهم بحروف الهجاء، وينتهون منه انتهاءهم من درس الفلسفة.

وجماع القول فى هذا الباب، من جهة البحث والنظر، أن الخالق جلت عظمته قد جعل - من فضله ونعمته على الإنسان - لكل حاسة لذة. فلذة النظر فى تناسق المرئيات وترتيب أجزائها؛ وذلك هو الجمال، ولذة الذوق فى ائتلاف الطعوم؛ وذلك هو العذوبة، ولذة الشم فى لطف الرائحة؛ وذلك هو الطيب ولذة اللمس فى تناسب أجزاء الملموس؛ وذلك هو النعومة؛ ولذة السمع فى اتساق الصوت وحركة توقيعه؛ وذلك هو الغناء.

وأما القول فيه من جهة الدين، فقل أن تجد ديناً من الأديان فى أنحاء العالم إلا ويستعان فيه على العبادات بالترتيل والترنيم والتنغيم، لما ينشأ عن ذلك من صفات النفوس، وانتعاش الارواح، للتجرد والاتصال بالعالم الروحانى. وما كان الدين الإسلامى - وهو دين الأذان - لينكر سماع الغناء ويحكم بكراهته، وشأنه فى فطرة الإنسان على ما بينته لك. وناهيك بما ورد فى الخبر الصحيح أن النبى ﷺ

سمع نسوة يتغنين في وليمة عرس، فلم ينكر ذلك عليهن، وقد استقبله عليه السلام نسوة من الأنصار عند مقدمه من إحدى الغزوات، بالدفوف والمزاهر، وهن يتغنين على الإيقاع بقولهم:

طلع البــــدر علينا   من ثنيـــات الوداع

وجب الشكر علينا   مـــا دعـــا لله داع

فلم ينكر ذلك عليهن أيضاً، وهذا عمر بن الخطاب، على المعروف من غلظته وشدته في الدين، قد سمع الغناء فلم ينكره ولم يكرهه، بل استعاد ومزج. روى عن أسلم مولاه قال: مر بي عمر رضي الله عنه وأنا وعاصم نغني فوقف وقال: أعيدا عليّ، فأعدنا عليه وقلنا: أينا أحسن صنعة ياأمير المؤمنين؟ فقال: مثلكما كحماري العبادي قيل له: أي حماريك شر؟ قال: هذا ثم هذا، فقلت له: أنا الأول من الحماري؟ قال: أنت الثاني منهما. وكان عبدالله بن جعفر على قرابته من رسول الله وصحبته له كثير الجلوس لسماع الغناء عظيم الاحتفال به.

وروى أن معاوية قال لعمرو بن العاص: امض بنا إلى هذا الذي قد تشاغل باللهو، وسعى في هدم مروئته، حتى نعيب عليه فعله، يريد عبدالله بن جعفر بن أبي طالب، فدخلا إليه وعنده من المغنين «سائب خاثر» وهو يلقي الغناء على جوار لعبدالله، فأمر عبدالله بتنحية الجواري لدخول معاوية، وثبت سائب مكانه، وتنحى عبدالله عن سريره لمعاوية، فرفع معاوية عمرا فأجلسه إلى جانبه ثم قال لعبدالله: أعد ما كنت فيه،

فأمر بالكراسي فألقيت، وأخرج الجواري فتغنى سائب بقول قيس بن الخطيم:

ديار التي كـــــــادت ونحن على منى

تحل بنا لولا نجـــــاء الركـــــائب

ومـــثلك قـــد أصـــبـيت ليست بكنة (١١٣)

ولا جـــــارة ولا حليلة صـــــاحب

وردده الجواري عليه، فحرك معاوية يديه، وتحرك في مجلسه، ثم مد رجليه فجعله يضرب بهما وجه السرير، فقال له عمرو: اتئد ياأمير المؤمنين، فإن الذي جئت لتلحاه أحسن منك حالاً وأقل حركة فقال معاوية: أسكت لا أبا لك فإن كل كريم طروب!!

ودخل المغنون منزل سكينة بنت الحسين سبط رسول الله، فأذنت للناس إذناً عاماً، فغصت الدار بهم، وصعدوا فوق السطح، وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا منها، ثم إنهم سألوا «حنيناً» أن يغنيهم صوته الذي أوله: هلا بكيت على الشباب الذاهب؟ فقال لهم: ابدءوا أنتم، فقالوا: ما كنا لنتقدمك ولا نغني قبلك حتى نسمع هذا الصوت. فغناهم إياه، وكان من أحسن الناس صوتاً، فازدحم الناس على السطح وكثروا ليسمعوه، فسقط الرواق على من تحته، فسلموا جميعاً وأخرجوا أصحاء، ومات حنين تحت الهدم، فقالت سكينة عليها السلام: لقد كدر علينا حنين سرورنا.

وذكــر الدلال المغنى عند عــبــدالله بن أبى عــتــيق ابن عبدالرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهم فقال إنه كان يحسن:

لمن ربع بـــذات الجـــ يش أمسى دراساً خلقا

ثم استقبل ابن أبى عتيق القبلة يصلى، فلما كبر سلم، ثم التفت إلى أصحابه فقال: اللهم إنه كان يحسن خفيفه فأما ثقيله فلا ـ الله أكبر.

ولقى «ابن أبجر» عطاء بن أبى رياح، وهو يطوف بالبيت الحرام، فقال: اسمع صوتاً للغريض، فقال له «عطاء»: ياخبيث أفى هذا الموضع؟ فقال ابن أبجر: ورب هذه البنية لتسمعنه خفية أو لأشيدن به، فوقف له فتغنى:

عـــــوجى علـينـا ربـة الـهــــــودج
إنـك إن لا تـفـــــعلـى تحـــــــرجـى
انـى أتـيــــــحت لـى يمـانـيـــــة
إحـــــدى بنـى الحـــــارث من مـــنحج
نـلـبـث حـــــولاً كـــــامـــــلاً كلـه
لا نـلـتـــــــقـى إلا عـلـى مـنـهـج
فـى الحـج إن حـــجـت؛ ومـــــاذا مـنـى
وأهـلــه إن هــى لـم تحـــــــجـج؟

فقال له «عطاء»: الكثير الطيب ياخبيث.

وولى قضاء مكة الأوقص المخزومى، فما رأى الناس مثله فى عفافه ونبله، فإنه لنائم ليلة فى جناح له إذ مر به سكران يتغنى بصوت للغريض، فأشرف عليه، فقال: ياهذا شربت حراماً، وأيقظت نياماً، وغنيت خطأ، خذه عنى، فأصلحه له وانصرف.

وكان لأبى حيفة رحمه الله جار بالكوفة يغنى، فكان إذا انصرف وقد سكر يغنى فى غرفته، فيسمع أبو حنيفة غناءه فيعجبه، وكان كثيراً ما يغنى:

أضاعونى وأى فتىً أضاعوا

ليوم كريهة وسداد ثغر

فلقيه العسس ليلة فأخذوه وحبس، ففقد أبو حنيفة صوته تلك الليلة، فسأل عنه من غد فأخبر، فدعا بسواده وطويلته فلبسهما، وركب إلى عيسى بن موسى، فقال له: إن لى جاراً أخذه عسسك البارحة فحبس وما علمت منه إلا خيراً، فقال عيسى: سلموا إلى أبى حنيفة كل من أخذه العسس البارحة، فاطلقوا جميعاً.

فلما خرج الفتى دعا به أبو حنيفة وقال له سراً: ألست كنت تغنى كل ليلة: أضاعونى وأى فتى أضاعوا؟ فهل أضعناك؟ قال: لا والله ولكن أحسنت وتكرمت أحسن الله

جزاك، قال: فعد إلى ما كنت تغنيه، فإنى أنس به، ولم أريه بزساً، قال: أفعل إن شاء الله.

هذا جملة ما يذكر فى طرب الغناء طولت فيه وأسهبت، ليتبين لك منه القول الراجح، والوجه الصالح.

الباشا ـ

تعالى الله ما شاء وزاد الله إيمانى

ما هذا الذى أراه من بحر العلم المتدفق والفكر المتعمق؟ وما هذا الابداع والتفن فى أطراف المعقول والمنقول؟ وما هذا التضلع فى علوم الأولين والاخرين؟ وماعهدت قبل اليوم فى العلماء من اجتمع له مثل ما اجتمع للشيخ من دقة النظر وصحة القياس، وسعة الاطلاع فى تواريخ الأمم على اختلاف ألسنتها وأجناسها، ينتقل فى تقرير البرهان، وشواهد البيان، تنقل النحل على جنى الأزهار، فيخرج بنا من التاريخ اليونانى إلى الرومانى إلى الأوروبى إلى الإسلامى فعجباً له! أأعجمى وعربى؟ وشرقى وغربى؟ وكيف انفردت أيها الشيخ عن بقية إخوانك المشايخ، ولم تأخذ بنهجهم فى طريقهم فتقف عند حد العلوم الشرعية والأقوال الفقهية، ثم خالفتهم إلى التوسع فى العلوم الدنيوية والمباحث العقلية؟

الشيخ المتخلف ـ لم أخالفهم إلا لأن العلم حق شائع فى بنى الإنسان ونور ساطع يستضىء به جميع الأنام، فلا يختص به أهل إقليم دون إقليم، ولا أهل ملة دون ملة، ولا يقف الإنسان

منه عند حد، ومن طلب العلم وارتاحت له نفسه، لم يمنعه تخالف اللغات، وتفرق الأجناس عن اجتناء ثمرة من أى لسان كان، وفى أية أمة كانت، وفى أى عصر من العصور، وما فى الأديان دين يبعث أهله، ويخص بنيه على طلب العلم والتقاط الحكمه بأى وجه من الوجوه، مثل الدين الإسلامى، ولكن قد فشا فى علمائه داء الكسل، فاقتصروا فى طلبهم للعلم على نيل رتبة العلماء دون العلم فى ذاته، واعتقدوا أنهم على الهدى ومن سواهم فى ضلال.

الباشا ـ قل ماشئت فى كسل علماء الدين الأسلامى وسوء تراخيهم، واشتغالهم عن العلم لا بالعلم، ولقد بلوت مجلساً من مجالسهم ضاق منه صدرى، وعيل صبرى، ولاأزال كلما تذكرته جاش بى الهم والغم، وتملكنى الأسف والحزن وأراك أيها الشيخ الفاضل أحسنت كل الإحسان بتوسعك فى الاطلاع، وتبحرك فى طلب العلم، وتعلقك بأسباب العلوم الأوربية، ولكنى مع ذلك لا أتمنى لجميع علماء الدين مثل ما أنت فيه، خشية أن تلهيهم هذه العلوم عن علوم الشرع، وتستدرجهم إلى الخلط والخبط وقل فى الناس من يحكم نفسه للتوسط فى الأمور، والاعتدال فى المطالب، والوقوف عند الحد. ولست أدرى إلى اليوم ـ يعلم الله ـ أى العالمين أضل سبيلا وأسوأ مصيرا: العالم الذى يتخبط فى ظلمات الخرافات، ويضرب فى تيه الترهات، ويغوص فى لجج الأباطيل بلباس الدين؛ أم العالم الذى يوغل فى علوم الأوربيين، ويأتم بسنة المخالفين للدين، وغتر بتمويه المموهين، فيضله الله على علم.

الصديق - ليس هذا وقت الجدال فى تلك المباحث الدقيقة، والتفتوا بنا إلى سماع الغناء قليلاً، فقد احتشد له المغنون.

الباشا (ملتفتا) - نعم أصبت، وهل لك أن توفق لى بين حالة المغنين التى أراهم عليها الآن فى احتشادهم على منصة الغناء، وبين اسمعته آنفاً عن هذا الفن من الجلال والكمال، فانظر إليهم تجد أحدهم يمزح ويقهقه، والاخر يتثاءب ويتمطى، وهذا يبصق يميناً ويمخط شمالا، وذاك يصيح بأعلى صوته: القهوة القهوة، وتامل فى هذا الواقف منهم فوق المنصة على رجلٍ واحدة، وبيده الرجل الأخرى يخلع منها نعله فى وجوه الحاضرين، وأين ماينبغى أن يكون عليه المغنى من سكون النفس، واجتماع الخاطر، وانشراح الصدر وصفاء الروح، لحسن تأدية الغناء، واستهواء النفوس إليه؟

الصديق - لاتؤاخذهم بما هم فيه، فإنهم نشأوا فى أمة يرى السواد الأعظم فيها أن صناعة الغناء من سافل الصناعات، وأن ممارستها حطة ونقصاً، فصغرت لذلك نفوس المغنين، وهانت عليهم صناعتهم، ولم يروا فيها سوى أنها أداة للكسب والارتزاق، على مثال بقية الصناعات، فهم والحدادون أو هم والبناءون سواء بسواء، وذهلوا كل الذهول عن جمال الصنعة وجلالها، وغفلوا كل الغفلة عن لذة الفن وأدبه، وصاروا يؤدونه كما يتفق لاكما ينبغى، وكما يجئ لاكما يرضى، ولا يغيب عن فطنتك أنه لابد للمغنى من أن يثق فى نفسه بتأثير غنائه فى نفوس السامعين؛ حتى تثور فيه نشوة

الطرب، ويتبادل معهم لطف الانفعال، فتتصل القلوب، وتتجاذب الأرواح، وتصعد به نفسه في مراقي الفن، وتسمو به في صناعته إلى مدارج الكمال، وإلا كان المغني إذا غنى في غفلة السامع واشتغاله عنه كمن يقرأ للنائم كتاباً، أو يسرج للأعمى سراجاً، فيحل به من التواني والفتور، ويعتريه من الانقباض والضيق ما يذهب برونق الصنعة، ويمحو بهجة الفن، وإنك لتحقق صدق ما أقول إذا نظرت معي نظرة إلى هيئة السامعين في هذا المكان: فعن يمينك جماعة من أعيان التجار تراهم مشتغلين بمراقبة كل داخل وخارج عساهم يحظون بإشارة تحية، أو إيماءة تعطف، فهم لا ينفكون طول ليلهم في قيام وسلام، للتزلف إلى الكبراء والحكام، وحديثهم لا ينقطع عن التفاخر بمعرفتهم، والتباهي بأقدارهم. وعن شمالك خليط من القضاة والمحامين لا ينتهون أبداً من المناقشة في صنوف الدعاوى والقضايا، ولا يستريحون لحظة من تفسير المواد وشرح البنود واستنتاج الأحكام، ولا يرك المحامون القضاة إلا بعد أن يحتالوا على استنفاد ما عندهم من الأفكار والآراء في الوقائع المختلفة، والمسائل المشتبهة، لينتفعوا بها، ويستندوا عليها في مرافعتهم أمامهم، ويتأكدوا بها ربح ما لديهم من المشاكل والدعاوى. ومن قدامك طائفة من الأمراء والحكام لاهم لهم إلا أن يجتلبوا توقير الحاضرين واحترامهم بالتأنق في الجلوس، والتكلف في الشمائل، والانتفاخ في الثياب، والفتل في الشوارب، أجسامهم حاضرة، وقلوبهم غائبة، وأبصارهم شاخصة، وألبابهم ذاهلة، على هيئة التماثيل والأصنام،

فاسألوهم إن كانوا ينطقون، ولئن نطقوا بكلام فإنما يدور على أن اليوم كان شديد الحر، وأن أوان الرحيل عن مصر قد حل. ومن خلفك ثلة من الأحداث، لم تهذبهم الأحداث، وشبان لم يربهم الزمان، مرمى الغاية عندهم أن تكون ملابسهم على الزى الجديد، وأن تفرغ أجسادهم منها فى قالب من حديد، فهم لا يتحركون حركة إلا بألف حساب، خشية أن ينفرط الثياب، فإن قعدوا فكالقاعدين للمصور فى حفظ الأشكال والأوضاع. وإن هم وقفوا فكالمصلوبين على الأجذاع، ولئن تجاوز حديثهم حديث الملابس والأزياء، اشتغلت ألسنتهم بذكر النساء، ورووا عن زوج فلان أو بنت فلان، ماتنقبض منه النفوس وتقشعر الأبدان، ولم يبق غير هؤلاء من طبقات الحاضرين من يلتفت إلى سماع الغناء ويتفرغ له إلا طبقة الغوغاء من الخدم وغيرهم، فكيف يتيسر للمغنين فى هذا المقام أن يتقنوا فى عملهم أو يتفننوا فى صناعتهم. أو يحافظوا عل أدب المجلس، ويراعراعوا حرمة الفن؟

قال عيس بن هشام: وانقطع الحديث بمرور صاحب العرس أمامنا مر السحاب، فانقض على الواقفين عند الباب، كأنه بارقة شهاب، أو نازلة عذاب، يدفع بيديه عن الشمال وعن اليمين، فى صدور القاعدين والقائمين، لا يشك من رآه أنه أسير حل عنه الوثاق أوعبد من العبيد يطلب الأباق.

فالتفت الباشا يسأل الصديق: أجدار هوى فى البيت أم حريق؟

الصـديق - لا هذا ولا ذاك، وإنما جـاء الخـبـر لصـاحب البيت بقدوم جماعة من رجال الإفرنج ونسائهم.

الباشا - أتراهم يريدون إقامة ألعاب إفرنجية مع الأغانى العربية؟

الصـديق - ولا هذا أيضـا، بل هم قـوم من السـائحـين الأوربيين فـى البلاد الشرقية، يتشـوفون فى مطالعتهم الآثار المصرية إلى رؤية المحافل والأسواق، فإذا سـمعوا بحفلة عرس هرعوا إليها بنسائهم وأولادهـم؛ لتسلية الخـاطر بدرس العادات والأخلاق.

البـاشـا - قد تبين لى آنفـا أن صـاحب العـرس من أهل الصعيد، فأية صلة بينه وبين سياح الإفرنج تدعوه إلى دعوتهم فى عرسه؟ أم من عـاداتهم أن يهـجمـوا على بيوت الناس بغيـر دعوة ولا استئذان كالطفيليين؟

الصـديق - هم من المدعـوين لا من المتطفلين، ولا يلزم لدعوتهم أن يكون لصاحب العرس أدنى صلة بهم، أو أن يعرف أشخاصـهم، ويفقه لسانهم، ولكن حضـورهم فى حفلة العرس أمر مـرغوب فـيه عنده صـاحبه، ينشـرح به صـدره، ويزهو به عنده قدره، ويراه فـخراً له يعلو به ذكره، ومـجداً للبيت يرتفع به عمـاده وهو فى دعـوتهم بالخـيـار: إمـا أن يرسل إلى بـعض تراجمـة الفنادق فيعطيهم عدداً من تذاكر الدعوة بغير أسـماء مـعينة؛ ليوزعـهـا على من يكونون فى خـدمـتهم من السيـاح

فيبيعها التراجمة إليهم بقيمة معلومة من الدراهم كأنها تذاكر الملاهى العامة ويعتقد الأجانب أن تلك عادة من عادات الشرقيين أن يدخل الناس إلى أعراسهم بأثمان معينة، وإما أن يترقى صاحب العرس، فيخاطب أصحاب الفنادق الكبيرة بأن لديه حفلة عرس فى الليلة الفلانية، ويرغب أن يحضرها «كذا» عدد من السياح، فيتحف صاحب الفندق نزلاءه فيما يتحفهم به بالدعوة إلى العرس، فإذا شرفوا صاحب العرس بحضورهم، هرع إلى حسن استقبالهم، وبالغ فى التلطف والترحيب بهم، وأنزلهم فوق منازل الأمراء والكبراء، ونسى كل من فى العرس سواهم، وتفرغ طول ليلته لخدمتهم، كما تراه من صاحب هذا العرس وانظر إليه كيف يتيه عجباً، ويشمخ كبراً، وهو يتقدم نساءهم ليدخل بهن إلى بيت الحرم لمشاهدة زفاف العروسين، بعد أن أجلس رجالهن على رءوس العظماء والأمراء فى صدر المكان.

الباشا ـ وما هذا الذى أراه فى أيدى النساء يحملنه معهن كأنه الأسفاط (١١٤) فيها الحلى لهدية العروس، فهل بلغ بهن الكرم إلى تكليف أنفسهم تقديم الهدايا لعروس لا يعرفنها ولا يعرفن أهلها من قبل؟

الصديق ـ هذه آلات الرسم والتصوير يحملنها ليأخذن بها مناظر الحرم، وصور النساء فى زينتهن وتبرجهن، وما تكون عليه هيئة الزفاف؛ ليتهادين بها إذا رجعن إلى ديارهن، وربما نسخت منها ألوف النسخ، لتباع فى الأسواق الأوربية، وتنشر هناك للاستهزاء والسخرية.

قال عيس بن هشام ـ ومنذ عاد صاحب العرس من تشييع السائحات إلى الحرم، كالصاعدات إلى الهرم، تقدم إلى صدر المكان، ونظر فى الوجوه بإمعان، ثم دنا من طائفة الكبراء والأمراء، وقصد الأمير المقدم فيهم بلا مراء، فوقف أمامه وقفة الإجلال والإعظام، ودعاه لافتتاح قاعة الشراب والطعام، فقام الأمير يمشى أمام الصفوف فى خيلائه، مشية القائد يوم بلائه، وفتح له الباب ففتح المائدة، ولا فتح سعد للقادسية، والمعتصم لعمورية، ومحمد للقسطنطينية، نعم ولا فتح جده الأعلى للأقطار الحجازية، ودخلت فى أثره صفوف الجموع، وهم فى سكون وخشوع، دخول التقاة للصلاة، والعفاة للصلات، ثم مالبثوا أن هجموا على المائدة هجوم الفوارس البواسل، على الحصون والمعاقل؛ لا بل هجوم الأسود الضارية، على الأشلاء الدامية، والذئاب الخاوية، على الشياه الراعية، والنسور، على القبور، والذباب، على الشراب، واشتد الزحام، وزلت الأقدام، وضلت المذاهب، واصطكت المناكب، وشخصت الأحداق، وامتدت الأعناق، وتهدلت الشفاه، وتحلبت الأفواه، وتحركت الأشداق، وتقارعت الأطباق، وتصاولت الأيدى بالمدى، كالظبا فى الوغى، والتفت الساق بالساق، واشتد الهول وضاق الخناق، ثم انجلت المعمعة عن شهداء التخم وأسراء البشم، وقتلى الطعام، وصرعى المدام:

بأجسام يحر[115] القتل فيها

وما أقرانها إلا الطعام

ولعبت الكئوس بالرءوس، والشمول [116] بالعقول، والراح بالأرواح وذهبت العقار[117] بالوقار، والبطنة بالفطنة، فاختلط الحابل بالنابل، والعالى بالسافل، والرفيع بالوضيع، والأمير بالحقير، هذا يمزح ويقهقه، وذاك يتمتم ويتهته، والآخر يقئ طعاماً، وسواه يقئ كلاماً، ولم نسمع بينهم من قول يفهم ويعقل، أو حديث يؤثر وينقل، إلا ما سمعناه يدور بين شاب متكلف متصنع، وكهل مجرب متضلع:

الكهل ـ أليس من أسوأ الأسواء، وشر البلاء، ما تراه من حال هذا الصعيدى صاحب العرس، كيف اعتزل سنة ابائه وأجداده، وانسلخ عن مألوف العادة فى قومه ودياره، وطفر طفرة واحدة إلى العمل بعادات الغربيين، والتقليد لبدع الافرنج؛ فجرى فى الاحتفال بالعرس على نمطهم وأسلوبهم مع جهله بها، وعدم ملاءمتها لطبعه، وكيف لايرثى لحال هذا المسكين، وقد أنفق جانباً عظيماً من أمواله لإقامة المهرجان على هذا الطراز الغريب عن ذوقه؟ فهو فى حيرة وذهول، لا يدرى مايصنع، ولا يعلم مايفعل، فى وسط هذه السوق القائمة والزحام الهائل؟ وانظر الى مقدار السخط النازل فوقه والاعتراض المصبوب عليه من أكثر الذين دعاهم ليرضيهم بعمله، ويكرمهم بحسن صنعه، بعد أن تكلف لهم ما يفوق الطاقة، وارتكب ما يخالف العادة، ثم اشهد معى بأنه أساء إلى نفسه، وجنى على أهله.

الشاب ـ ما أراه إلا انه أحسن صنعاً، وأجاد عملاً، وأخذ بالسنن الأرشد فى التحل بشعار المدينة، والتعلق

بالحضارة، وقد آن أن يستوى أهل الأرياف بأهل المدن فى السير على المنهج الغربى، لهوا كان ذلك أو جداً، وأن يخلعوا عن رقابهم أغلال العادات العتيقة، وربقة الأفكار القديمة، فترتفع الأمة، وتنتفع البلاد.

الكهل - أى نفع يرتجى لأهل البلاد بخراب البيوت ودمار الدور، ولئن امتد الزمن قليلاً على عمد الأرياف وأعيانها، وهم يرسلون بأبنائهم إلى البلاد الأوربية، ثم يهجرون مساكنهم ومساكن آبائهم، ويتركون مزارعهم ومرافقهم ومساكنهم؛ ليسكنوا معهم عاصمة البلاد بعد عودتهم، ويتخلقون بأخلاق الغربيين، ويتبرءوا من كل ما كانوا فيه من قديم وعتيق، ولم تلبث الأموال أن تذهب ضياعاً، والدور أن تمسى خراباً، وأن تصبح المزارع بأيدى الأجانب الذين يقلدونهم فى امتلاك الأطيان وزراعة الأراضى كما يقلدونهم هم فى باطل المدنية وزخرف معيشتها.

الشاب - أظنك كنت تريد أن يقام الاحتفال بزواج هذا الشاب المتمدين بين الأحواض والمستنقعات من قرية أبيه و بين الأوباش والهمج من فلاحيه ومزارعيه، فيبدل الخيام بالمقاصير، والمشاعل بالكهرباء، والسماط «بالبوفيه»، والقصاع بالصحاف، والجرار بالأباريق، والدفين «بالديند» والعصيد «بالمايونيز»، والفول «بالهليون»، والحلبة «بعش الغراب»، والمش «بالموستاردا»، والرطب «بالمربى»، والدوم «بالمانجو»، والجميز «بالكريز»، والمزهر «بالشمبانيا»، والحليب «بالكاب»، وعرق

البلح «بالكنياك»، والمزمار «بالموسيقى»، والأذكار «بالأوتار»، والأرغول «بالبيانو»، والرباب «بالأوركستر» والسحجة «بالبللو»، وبنت أم شنب «بمس أوستن»، ولعب الهوارة بموكب الزفاف، ثم يدعو مشايخ العربان بدل القناصل العظام، ونظار الزراعة بدل نظار الحكومة، وكتبة المراكز والصيارف، بدل أمراء البورصة والمصارف، ويضع على رءوسهم سعف النخيل والعراجين، بدل أكاليل الأزهار والرياحين.

الكهل - يكفيك فقد أسهبت فى الشرح والوصف. وأنا أقول لك: نعم يعجبنى أن يكون الأمر على مثل ما تسخر منه ما دام من عاقبته عمران البيوت، وحفظ لأموال وبقاء الأحساب وإطعام المساكين، وبر الأقارب، وإسداء الخير للأصحاب والجيران، وإدخال السرور على النفوس بما يرضيها ويلائم أذواقها، بهذا ينتفع أهل البلاد، ويرضى الناس بعضهم عن بعض، ولا أرضى أبداً أن ينقلب الحال كما أراه، ما دام من ورائه عواقب الخراب، وسخط الناس، وعقوق الأهل، ولصوق العار، ووقوع الفضيحة، وسوء المصير، ومن الذى يعارض فيما أقول من أهل العقول الصائبة؟ وهو يرى هذا الرجل العريق النسب فى أهل الصعيد، أهل الشهامة والحمية، وذوى الغيرة والأنفة، ومن حوله الخصيان على ما نشاهده الآن يطالبونه أن يأمر الخدم بحمل صناديق الخمر لشرب النساء فى الحرم، وهو يعرف حكاية الأعرابى الذى سقوه الخمر فى أحد الأعراس ولم يكن ذاقها من قبل، فلما ثارت سورتها قال لمن حوله من أهل البيت: «إن كان نساؤكم يشربنها فقد زنين ورب

الكعبة». ولست أدرى على كل حال ما الغرض الدافع لصاحب هذا العرس إلى احتمال كل هذه الفضائح والمعايب؟ فإن كان غرضه إرضاء أهل العاصمة بإنفاق تلك الأموال الطائلة فى إقامة الاحتفال، فقد أغضبهم وأسخطهم جميعاً على ما نسمعه ونراه، وليس فيهم إلا كل منتقد لعمله، معترض على فعله، ويرميه بعضهم بالتبذير، ويرميه بعضهم بالتقصير؛ وإن كان الغرض من هذا التوسع فى الانفاق إذاعة الشهرة بعظم الثروة والغنى بين الناس، وانتشار ذكره بالكرم والجود، فلهذه الشهرة وجوه أخرى تفيده وتفيد الناس، ولابتناء المحامد سبل شتى ترضى النفوس وتسر القلوب، ولو كان اقتصر فى إقامة الوليمة على نصف ما أنفقه فيها، وبذل النصف الاخر فى باب من أبواب البر والإحسان، مثل مساعدة الفقراء وإنشاء الملاجئ وإقامة المستشفيات وإعانة ذوى الصناعات، لخلد ذكرة بين قومه بالعمل الصالح، ولأقاموا لمجده صروحا من طيب الأحدوثه وجميل الثناء.

قال عيسى بن هشام ـ وما نشعر إلا وقد انقطع علينا سماع بقية الحديث بصياح جماعة من خدم المائدة؛ يدعون المدعوين للخروج من القاعة حيث لم يبق على المائدة من طعام ولا شراب، ويعدونهم بالعودة إليها بعد غسل الآنية وتجديد الألوان. فلم يسمع لهم أحد، ولم يلتفت إلى صياحهم، فأخذوا فى التصفيق بالأكف، تنفيراً لهم كتنفير الدجاج، فلم ينتقلوا ولم يتحركوا، فعمد الخدم إلى اخر حيلة يضطرونهم بها للخروج، فاطفأوا الأضواء، وتركوهم يتخبطون فى الظلمات،

ويتساندون على الجدران يطلبون الأبواب، فسبقناهم إلى الخروج، والتقينا فى خروجنا عند الباب بصاحبين يتنازعان فى هذه الحال، ويتخاصمان فى شدة السكر، فلطم أحدهما صاحبة فسقط على الأرض يتخبط فى قيئه. وينشد هذه الأبيات فى هذره وهزئه:

شربت الخمر حتى يقال صحبى:

ألست عن السفاه بمستفيق؟

وحتى ما أوسد فى مبيت

أنام به سوى الترب السحيق

وحتى أغلق «البوفيه» دونى

وآنست الهوان من الصديق

وسمعنا الآخر ينشد وهو ينتفخ تيها

وعجباً، ويصعر خده صلفاً وكبراً:

شربت الخمر حتى خلت أنى

أبو قابوس أو عبد المدان

وسمعنا فى الخارج عزف الموسيقى تتقدم العروس لزفافه عند دخوله الحرم، فسكت المغنون، وضج المكان، واضطرب الحاضرون، ووقف الجالسون، وصعد بعضهم فوق الكراسى

يتطاولون لمشاهدة العروس، وهو فى زمرة من إخوانه وأترابه يخطر بينهم ويرفل، حتى إذا توسطوا ساحة الدار وقفوا به وقفة، فقام أحد الحاضرين فصعد على منصة المغنين صعود الخطيب على المنبر، فشخصت نحوه الأبصار، ومالت إليه الأسماع، وإذا هو يخطب بخطبة هذه نسختها: «أيها الحاضرون والغائبون، هذه ليلة قامت فيها أعواد السرور، على منابر الحبور، وأشرقت فيها أهلة المسرة والبدور، من سماء القلوب وأرض الصدور، وطلعت فيها كواكب السعود من أفق العيون، فانجلت عن بصائرنا غمائم الأحزان ووبل الشجون، ولو أنى لست من فرسان هذا الميدان، الراكبين لحيازة قصب الرهان، ولا من المجردين لسيوف الخطب وخطب السيوف، بحروف الرماح ورماح الحروف، ولا من الممتطين فى شروح البلاغة متون الضوامر، ولا من السابحين فى بحور النظم والنثر على كل كامل ووافر، ولا من الساحبين فى حلة سحبان، ولا من المتداعين فى حصون المعانى والبيان، وقد حيل بين العير والنزوان، ولا أن ما إعرفه فى هذا العروس من العلم والإقدام، وماله فى مستعمرات التربية من وطأة الاحتلال ورسوخ الأقدام، وما أعتقده فيه من محبة الأوطان ومصادقة الإخوان، كما أن ما أعمله وأتحققه فى العروس، التى تزف إليه هذه الليلة، من عملها بتدبير المنزل وفروض العيلة، وما هو مشهور عنها لدى كل قاص ودان، مما يوجب حسن القبول والامتنان، وما شهد لها به معلمو المكاتب ومدرسو المدارس، بأنها أنس المحافل وبهجة المجالس، وما أراه على وجوه

الحاضرين من الكرم والسماح، وأتوسمه فى جباههم من الفرح والانشراح، كل ذلك هو الذى جرانى على الوقوف فى هذا الموقف الحرج، وسط بحر هذا العرس المتموج، وإنى أتوجه إليكم بوجهى لتضربوا عن تقصيرى صفحاً، وأتقدم لكم بنفسى لتطووا عن هفواتها كشحاً، وأطلب منكم أن تشربوا معى نخب الكئوس، فى نخب العروس، وتقولا معى فليحى هذا الشاب فى هناء وسرور، ورخاء وحبور، ممتعاً بنشأة الرفاء والبنين، وناشئة الأولاد الناجحين، ما ناح القمرى فى رياض البساتين، وصاح الأخذرى (١١٨) بين الأعشاب، آمين آمين».

ثم نزل الخطيب، فقابلته الأكف بالتصفيق والأفواه بالتهليل، والصدور بالتبجيل وصدحت له الموسيقى ثلاثاً بالسلام. ثم أعقبه على المنبر شاعر من المشهورين بين الخاص والعام، فأنشد هذه القصيدة النادرة، والمدحة الباهرة:

بأوقات الهناء الصافيات
تجلى الأنس من كل الجهات

لقد قام البشير بها ينادى
على أهل العروسين الهداة

وفى تلك الصدور الفرح يجرى
كما تجرى خيول الصافنات

فبشرى أيها الشهم المفدى

بخبير الغانيات الآنسات

ظفرت بدرة فى عقد ماس

من المتأنبات الراقيات

وقد زفوا بهذا الأفق بدراً

إلى شمس الهدى والمكرمات

تغنت بالمعارف والمعالى

فحازت زينة المتعلمات

يرجى أن يكون كذا بنوها

لدى أيامنا المستقبلات

بهم تزهو الشبيبة فى المرامى

وتغدو للحمى أقوى الحماة

بهم ترقى الموطن مرتقاها

وتصبح قدوة المتربيات

كجيش فى البلاد عرمرمى

وجند فى الحروب مبرزات

وتمشى التيه فى أوج المراقى

وترفل منه فى حلل الثبات

فتصبح أنت خير أب كريم
وتصبح تلك خير الأمهات
ويمتم بعد ذاك بألف خير
ونعمى بالبنين وبالبنات
ولولا الاختصار وضيق وقت
لجئت بألف بيت شاهقات

ثم انتهينا بحمد الله من الشاعر بعد الخطيب، وعاد المغنون إلى اللحن والتطريب، فأخذت أجيل النظر وأقلب الطرف، من ركن إلى ركن، ومن صف إلى صف، فلم أجد فى الحاضرين بلا استثناء، من هو ملتفت إلى سماع الغناء، رأيتهم يوجهون النظر إلى السماء، ويكثرون من الإشارة والإيماء، كمن يتضرع بالدعاء، لكشف المحنة والبلاء، فرفعت مثلهم نحو السماء بصرى، فدهيت من حيث أدرى ولا أدرى، إذ رأيت نوافذ الدار، مهتوكة الأستار، وفى كل نافذة هيفاء مسفرة النقاب، كالدمية فى المحراب أو كالصورة تتألق فى إطارها كالشهاب، أو كالبدر بدا مسفرا من خلل السحاب، تنفذ منها مثل خيوط الغزالة للمغازلة، وتجرد من اللحظات مثل سيوف الكماة للمنازلة، فتصيد طيور القلوب الحوائم، وتفتك بمهج النفوس الروائم (١١٩)، ثم تراها تومئ بكأس الصهباء، إلى شفتها الحمراء، وتلمس واسطة العقدبزهرة من الورد، فيشتبه على الرائى وجة الأمر، باختلاف اليواقيت كالجمر،

ياقوتة الخمر، بياقوتة الثغر، وياقوتة الزهر بياقوتة النحر، ثم لاتفتأ ترسل الإشارة تلو الإشارة، تارة بالمروحة وأخرى «بالسجارة»، مع ابتسامات توضح عن مكنون الصدور وتفصح إفصاح المعانى فى السطور، والرجال من تحتهن يحاربونهن على أعين النظار، طوراً بإشارات الأيدى، وطورا بلغة الأزهار، وكل مغازل فيهم يعتقد أنه امتاز على سواه، وتغلب على أهل النوافذ بهواه، وأضرم فيهن نار العشق وجواه، وخلع قلوبهن بدعواه، وما بالنوافذ سوى أزواجهم وبناتهم، أو أخواتهم وبنات أخواتهم، والمغنى يستقبل وجوههن فى هذه الأثناء، بوجه ليس فيه أدنى حياء، فيغنيهن من الأصوات والألحان، ما يثير من الغرام ويهيج من الأشجان، والخصيان يصعدون إلى الحرم بأوراق، وينزلون منه بأوراق، يتخيرون فيها الأدوار السائرة على ألسنة العشاق، فى وصف حرارة الأشواق، ومرارة البعد والفراق.

وما زالت الحال تتزايد قحة ووقاحة، وتتضاعف هتكا وفضاحة، حتى قام فى وسط المكان جماعة من الأصحاب، يتقاذفون بألفاظ القذف والسباب، ثم إنهم انتقلوا من التلاعن والتشاتم، إلى التضارب والتلاكم، فقام الحاضرون على الأقدام، لمشاهدة ميدان النزال والخصام، ثم توسط رجال الشرطة بينهم لفض المخاصمة، وسوقهم إلى المحاكمة، بعد أن تمزقت الثياب تمزق الأوراق، وتخضبت الوجوه بالدم المهراق، فصارت الأفراح أتراحاً، وانقلب الغناء نواحاً، وقلت لصاحبى: هلم بنا إلى الفرار من مواقف التهمة والعار، وخرجت به أسوقه

أمامى، وأقول له فى بعض كلامى: لقد حق لك بعد الذى رأينا ونظرنا، وبلونا وخبرنا، أن تلتهب بالغضب والحنق التهاباً، أو يذهلك الدهش والعجب فلا تعى جواباً، وهل بقى بعد ذلك فرق بين سرور الدنيا وحزنها، أو فضل لظهر الأرض على بطنها؟ فأجابنى بلسان الحكيم المدرب، والحليم المهذب، وهو يتبسم استهزاء، ويهز كتفيه ازدراء: لم يبق فى بفضل الحكمة فضل للسخط والغضب، وعجبى اليوم مما أرى يكون من العجب.

العمدة فى الحديقة

قال عيسى بن هشام - وتمكن من الباشا حب الاستكشاف والاستطلاع لدرس الأخلاق وسبر الطباع، وتبدلت الوحشة عنده بالائتناس فى مخالطة الناس، فصار يلح على ويلج فى الطلب، أن أذهب به فى هذا السبيل كل مذهب، وأنا أداوره وأحاوله، وأماطله وأطاوله، وهو لا ينفك يستنجزنى ويستقضينى، وإذا استعفيته لا يعفينى. فقلت له: لم يبق أمامنا من المجالس والمنتديات، إلا ما استملت عليه الأزبكية من المخجلات المنديات، وماتضمنته من صنوف الرجس والنكر، وفنون الفسق والسكر، وأنا أجلك أن أسلك بك مسالك الظنة والتهمة، وأن أحلك محال الريبة والشبهة، وأربأ بسنك وقدرك أن تختلط بتلك الزمر، وتدخل معهم فى تلك الغمر، وتقسر نفسك الشريفة على ما لم تألفه من مثل ما يعملون، وشروى ما يفعلون (١٢٠)، فلا نأمن حينئذ نقد الناقدين، وطعن الطاعنين، وقاسمته إنى لك لمن الناصحين. فقال: إلى تقول ذلك، أوقد

آتيتني من دروس الحكمة العالية، وضروب الفلسفة السامية، ما أزدري معه عذل العاذلين، وأحتقر به لوم الجاهلين؟ ولن يضير النفس الشريفة الطاهرة، أن تجاور النفس الخبيثة الفاجرة وقل أن يعدى المريض الطبيب، وتذهب رائحة الدفر(١٢١) برائحة الطيب، والإمعان في رؤية النقيصة والرذيلة، يزيد النفس الفاضلة تمسكاً بالفضيلة، ولا يعرف قدر الرشد والهداية، إلا من نظر في أعقاب الضلالة والغواية، وبالظلمة يعرف فضل الضياء، وبضدها تتبين الأشياء، ذلك من فضل ما علمتني مما علمت رشدا، ولقد كان من أدب الحكام في أيام دولتنا، وزمن صولتنا أن يغيروا من هيئاتهم، ويستروا من سماتهم، ويبدلوا من أزيائهم المعروفة، بأزياء غير مألوفة، ليتمكنوا من مخالطة الناس على اختلاف أشكالهم، ويقفوا على جلية أمرهم وحقيقة أحوالهم، فلم يكن ذلك مما يضر بسمعتهم، أو يحط من رتبتهم عند ظهور أمرهم، ووضوح سرهم، فلا عليك إذا أن تسلك بي ما شئت من المسالك، ولا تخش علي شيئا من تلك المعاطب والمهالك.

قال عيسى بن هشام: ولما لم يبق لي بد من امتثال حكمه، وتنفيذ عزمه. قصدت به من الأزبكية روضتها الغناء، وحديقتها الفيحاء؛ فلما وصلنا إلى بابها، ووقفنا عند «دولابها» وضعت فيه أجرة العبور، كما توضع النذور في صندوق النذور، ودرت فيه دورتي، ودار الباشا دورته؛ فقال لي وهو يدافع الغضب وسورته: هل كتب على الداخلين في هذه الجنة الزاهية، أن يدور الإنسان دورة الثور في الساقية؟ فقلت له: نعم شاع

التخوين بين الناس فى جميع الأشياء، فاخترعوا لهم مثل هذه الآلة الصماء، لتكون رقيباً عتيداً، لا يستطيعون معها اختلاساً ولا تبديداً، فهى ترقم من الداخل عند كل دورة، ما ينقده الداخل فيها من الأجرة، فلا يضيع منه مثقال ذرة. ولما جاوزنا الباب أعجب الباشا حسن المنظر وازدهاه، وراقه بهاء المكان واستهواه، وتملكه الابتهاج وتولاه؛ فقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله! لمن هذه الجنة من كبراء البلد؟ قلت: هى ملك كل واحد وليست بملك أحد، أنشأتها الحكومة من «المنافع العامة»، لنزهة الخاصة والعامة. ثم سرنا نطوف فى أنحاء الحديقة، بين أشجارها الوريقة، والباشا يهتز طرباً، ويميل عجبا، لحسن هذا المنظر العجيب، والمنبت الخصيب، ثم وقف بنا وقفة بين برد الظلال وخرير الماء، ورفع ببصره يقدس باسط الأرض ورافع السماء، ثم رأيته ينحنى للركوع انحناء القوس، بعد أن أنشد قول حبيب بن أوس:

أرض إذا جـــــــردت فى حــــــــسنهــــــــا

فــكــرك دلــتــك عــلــى الــصــــــــــــــانــع

وسمعته يتلو فى الركوع والسجود، قول صانع الوجود: «ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال أيضا عز من قائل: «تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم».

ثم انثنيت به فى طلب الراحة، فجلسنا على أريكة من أرائك تلك الساحة، ودارت بيننا هذه المخاطبة، بما اقتضته المناسبة:

الباشا - كيف لا يكون هذا المكان بالناس غاصاً، وبالمرتاضين مزدحماً يشاهدون جماله، ويتفيئون ظلاله، مادامت الحكومة قد أباحته لكل رائح وغاد كما تزعمه؟ ومالى لا أرى فيه غير هؤلاء الأجانب فى أزيائهم، بأبنائهم ونسائهم، فهل وقفته الحكومة على الغربيين، وحرمته على المصريين فإننى لم أجد فيه أحداً منهم منذ دخولنا إلى هذه الساعة؟

عيسى بن هشام - لم تؤثر به الحكومة قوماً دون قوم، ولكن المصريين كأنهم ألفوا التهاون باللذات الروحانية وتغافلوا عنها، وأخصها معرفة ما حسن فى الأشياء، وتمييز الجمال والكمال ومواضع الإحسان والإتقان فى صنعة الوجود ورياضة الفكر والنظر فى مطالعة كتاب الكائنات ونظام المخلوقات التى تسبح بحمد خالقها، أى تدل عليه بصنعته فيها، وكان الواحد منهم قد حبس نفسه وقيد فكره فى الوجود على الماديات، فلا يكاد ينظر فى دهره نظرة المشاهدة والإمعان فى خلق السموات وما يتألق فيها من الشموس والأقمار والنجوم والكواكب، ولا فى خلق الأرض وما ينبت فيها من النبات ويدب من الحيوان ويجرى من البحار ويرسو من الجبال، وهى بجمال صنعها وكمال وضعها.

تصـــــــيح بمن يمـــــــر: ألا تـرانـي

فـــتـــفـــهم حكمـــة الخلق العـــجـــيب

الباشا - جل الخالق الصانع، ولكن لأى سبب ألف المصريون غفلتهم عن التمتع بهذه النعمة، نعمة المشاهدة ولذة المطالعة، وصار الأجانب يتعلقون بها دونهم ويمتازون بها عنهم؟

عيسى بن هشام - لا سبب فيما أعلم إلا التمادى فى التهاون، والتراخى عن إيقاظ هذا الشعور الغريزى الكامن فى النفس، وتنميته بالرياضة والتفكير، ومعاودة الإمعان والتدقيق، وقد اعتنى الأجانب به عناية خاصة، فاجتهدوا فى تنميته وترقيته، حتى صار لديهم ملكة من الملكات، وفنا جميلا من أرقى الفنون، فدربوا عليه، ومرنوا فيه، وسرى فى دمائهم يتوارثه الأبناء عن الآباء، فترى الطفل فيهم إذا شب ودرج، وأراد أن يتحف أهله يوما بادر إلى الروض فاقتطف منه أول زهرة من الربيع، وتسابق بها إليهم كأنما عثر لهم على كنز لحسن الوقع عندهم، ولقد برعوا فى الصناعة بفضل هذا الشعور ودوام نموه، ولم يقتصر الحال فيه عندهم على المرئيات الصناعية، ففيهم من يبذل الألوف من الدنانير والملايين من الدراهم لاقتناء صورة من الصور، ورسم من الرسوم، يحسن تمثيل زهرة من الزهور، أو دائرة من الشفق، أو راع من الرعاة، أو حيوان من الحيوانات، بما لا مناسبة بين قيمته فى الأصل الطبيعى، وبين قيمته فى الشكل الصناعى، وقل أن

تدخل دار ميسور بألواح التصاوير والتهاويل مما يحاكى المناظر الطبيعية فلا يفوت صاحب الدار أن يتمتع منهم إلا ونجد أنحاء الجدران مزدانة بحسن المنظر فى داخلها، إن حجبته عن مشاهدة جمال الطبيعة فى خارجها، ولقد جرهم ذلك إلى شدة الولوع بمشاهدة الآثار القديمة، والتنافس فى اقتنائها، والغلو فى التحفظ عليها، والضن بها، فكم رأينا من قطعه من الحجر أو غيره تزدريها الأعين بيننا، ولا يعبأ بها المصرى فيطرحها فى كناسة منزله، فلا تزال كذلك، حتى يلتقطها الأجنبى فى بحثه وتنقيبه، فتصير عنده فى قيمة فريدة التاج أو يتيمة العقد، وكم رأينا من السياح من يتكبدون مشاق الأسفار، ويتحملون أهوال البحار وأخطار القفار مع إنفاق الألوف المؤلفة من الذهب والفضة لمشاهدة آثار الدمن، وما عفا من الرسوم فى هذه الديار، وربما رأينا المصرى ساكن القاهرة يشب ويشيب ويكتهل ويشيخ، ويعمر ويهرم، ولم ير من الأهرام القائمة فى جواره غير صورتها المرسومة على ورق البريد، وربما يلتفت إلى رؤية ذلك أيضا حتى يدركه الموت.

الباشا - تالله إن ذا لمن العجب! ولو كان الأمر يجرى على القياس، لكان المصريون فى مقدمة الأمم التى ينمو فيها الشعور بلذة التأمل فى بدائع الكائنات، ومحاسن الموجودات، لرقة طباعهم، ولطافة شيمهم، وسرعة التأثر والانفعال فى نفوسهم، ولما ميزهم الله به من حسن الإقليم، واعتدال الجو، وفيض الماء، وخصب التربة، ولانحصار موارد أرزاقهم ومعاشهم فى استنبات الأرض، وطول ممارستهم للفلح

والحرث والزرع والحصد، وكل من رأى الإقليم المصرى كالزبرجدة الخضراء فى وسط رمال الصحراء، لابد أن يحسد أهله على التحلى بهذه الفريدة من عق الطبيعة، ويغبطهم على دوام تمتعهم باجتلاء هذا المنظر الذى يجلو البصر، ويثلج الفؤاد، وينعش القلب، ويلطف من هواجس النفس وبلابل الصدر، فتصفو الروح، فتخف من قيود العالم، السفلى إلى الاتصال بمعارج العالم العلوى، فترتاح هناك هنيهة مما تقاسيه فى مصارعة العيش من ضروب الأكدار والآلام، وتفر من وجهها إلى وجه ربك ذى الإجلال والإكرام واعلم - وهذه لفظة طالما أفادنى تكرارها على لسانك، فاسمح لى بها مرة من لسانى وما أعلمك إلا عن خبرة وتجريب - أن الفرق بين الإنسان والحيوان لا ينحصر فى الخلقة، ففى الخلقة ما يشبهه، ولا فى النطق، ففى الحيوان ما ينطق، ولا فى الذكاء، ففى هوام الأرض ما يفوقه ذكاءً، وإنما المزية التى تميزه عن سائر الحيوانات والخصلة التى يفضلها بها، هى إدراك حقيقة الوجود بالإمعان والمشاهدة، وطول الفكر والنظر فى خلق السموات والأرض؛ للاهتداء إلى معرفة خالقها وعبادة صانعها، قال جل وعز فى محكم بيانه: «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنما أنت مذكر». هذه هى اللذة الروحانية التى أسعد الله بها الإنسان دون سائر المخلوقات، وهى أشرف اللذات وأصفاها، وأفضلها وأبقاها وما يتقرب العبد إلى الله زلفى فى عبادته بأجل من النظر

والتفكير في حسن صنعه، وكمال خلقه. قال وهو أحكم القائلين: «إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب؛ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ربنا ماخلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار»، ولا يقف على مقدار هذه اللذة الروحانية تمام الوقوف إلا من تجرد مثلي يوماً من عالم الأجسام والفناء، إلى عالم الأرواح والبقاء، ولا ينبئك مثل خبير.

ولو كانت الأمور تجرى على القياس أيضا، لا شتغل المصريون بلذة هذه المشاهدة، وسعوا في نموها فيهم، إن لم يكن من جهة لطف الاحساس والشعور، فمن جهة انصرافهم إلى تقليد الغربيين، والعمل على نمطهم في مختلف أحوالهم، كما شاهدته منهم عياناً في جميع حركاتهم وسكناتهم، ولكن لعل هناك من خفي الأسباب ما حرمهم اطراد التقليد في هذا الباب.

عيس بن هشام - لم يكن هناك من سبب بمنعهم غير ميلهم إلى الفتور والانقباض سواء أكان في الماديات أم الأدبيات، وهم على شدة ولعهم بتقليد الأجانب، لايقلدونهم إلا فيما خف وهان من الزخرف المموه، والبهرج الكاذب، والملاذ الشهوانية، مما لا ينتج عنه إلا سقم الأجسام، ونفاذ الأموال، وماعدا ذلك من أمور المدنية النافعة، فمجهول عندهم، بل مرذول لديهم. وإجمال القول في هذا الباب أن مثل المصري في

أخذه بالمدنية الغربية، كمثل المنخل يحفظ الغث التافه ويفرط فى الثمين النافع.

الباشا ـ يا أسفاعليهم كأنهم تخلو عن فضائل مدنيتهم القديمة، ولم يتحلوا بفضائل المدنية الحديثة، فأصبحوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً.

قال عيس بن هشام ـ ومازال الحديث يجرى بنا على هذا النحو، حتى وصلنا إلى المغارة المصنوعة فى بعض أنحاء الحديقة، فرأينا صنعاً جميلاً وشكلاً بديعاً، وأعجبنا تدفق الماء من ثنايا الأحجار، فجلسنا على سرر هناك أعدت للزائرين، وإذا بجانبنا ثلاثة أشخاص من المصريين، شغلهم اتصال الحديث بينهم عن الالتفات إلينا، فأقمنا نسترق السمع ونلتقط اللفظ فتبين لنا من سياق كلامهم أن أحدهم عمدة من عمد الأرياف، وثانيهم تاجر من تجار الثغور، وثالثهم فتى من أهل البطالة والخلاعة. ومما التقطناه من قول العمدة للخليع فى مجرى حديثه:

العمدة ـ وأين الآن مادخلنا الحديقة من أجله، فقد طال بنا الجلوس ولم نر شيئا؟ وهل كان جل القصد ومنتهى الجهد أن نجلس هنا فى وخامة الأشجار، ورطوبة الهواء، وعفونة الماء؟ وتالله ما أجد فرقا بين هذا المنظر وبين منظر ذلك المستنقع الذى خلفته خلف بلدتنا، ولعمرى إن الأوز الذى يسبح فيه هناك أكثر عدداً وأعظم سمناً من الأوز الذى يسبح أمامنا! وما الفائدة فى طول جلوسنا أمام هذه الأشجار

العقيمة التى لا تثمر ولا تغنى من جوع؟ وأين نحن من ذلك الثمر الشهى والصيد الطرى الذى وعدتنا وأطمعتنا فيه؟

الخليع - مهلاً فلن يفوتك من هذا شئ، وإن كنا أخطانا الغرض هنا؛ لأننى كنت أظن الحديقة على عهدى القديم بها، وما كنت أتخيل أن الأمر وصل بها إلى مثل هذا الخراب من الظباء والغزلان، إلا منذ أخبرنى أحد الأصحاب بعد دخولنا بأن الحكومة اشتغلت بأمر هذه الحديقة لخلو يدها من الأشغال، فباشرت الإصلاح فيها بمنع ذوات البراقع والمآزر من دخولها، والتجوال فى أنحائها، ولا أقول فى هذه النازلة إلا قول الجرائد فى التأفف من أعمال الحكومة حسبنا الله ونعم الوكيل».

التاجر - وعلى هذا فقد ذهبت تلك الليالى والأيام التى كانت فيها الحديقة مرتعاً للحسان، وملعباً للقيان، ولطالما دخلت هنا وحيداً فريداً، فما أكاد أنصب الحبالة، وأضع الحب، حتى أقتنص من آرامها مثنى وثلاث ورباع.

العمدة - يعلم الله أن العاصمة أصبحت على حال لا تصح معها الإقامة إلا مدة قضاء الحاجة، والرجوع إلى البلد فوراً، وإلا فقد عرض الواحد منا دراهمة للضياع، وصدره للانقباض، وإلى الآن ترانى فى غاية الأسف والحزن على ماجرى لى أمس فى سهرتى مع فلان الموظف، إذ جرنى للنزهة معه، فطاوعته على هواه، أملاً فى إنجاز حاجتى عنده، فسحبنى من مكان إلى مكان، ومن حان إلى حان، يشرب هو

وأصحابه على حسابي وكأنما أجوافهم دنان متخرقة، فلا تمتلئ أبداً من الخمر، وكأنما كيسي كنز لا يفنى بالإنفاق، وما كدنا ننتهي من حانات الخمر، حتى اندفعوا بي إلى بيوت القمار، فأصبحت مصدع الرأس من الخمر، فارغ الكيس من الثمر.

التاجر - ولم تطاوعه على أغراضه، وتنقاد إليه مع أصحابه، وتنفق مثل هذا الإنفاق من غير حظ ولا لذة؟ وإن كانت لك حاجة ترجو قضاءها منه كما تزعم، فيكفي في ذلك أن تضع «المبلغ المناسب» في يده، وتتخلص منه ومن أصحابه، فلا تسايرهم، ولا تعرض نفسك للتورط معهم كما فعلت.

العمدة - يحق لك أن تعترض وتلوم، فقد أراحكم الله معاشر التجار في المدن من متاعبنا ومصائبنا مع الحكام، فإن أشغالكم لا تتعلق بهم كما تتعلق أشغال الفلاحة في الأرياف، فنحن في اضطرار دائم إلى استرضائهم، «والمبلغ المناسب» الذي تقول عنه لا يكفي وحده في قضاء الحاجة، بل يلزم الانفاق عليهم في كل زمان ومكان، علاوة على تلك المبالغ، وإن لم يكن لك عندهم حاجة في الحال، وكم من كلمة واحدة من موظف صغير كانت سبباً في تعطيل عمل كبير، وما يدريك أن الذي تغضي عنه الليلة، ولا تلتفت بنظرك إليه في حانات الأزبكية، يصبح غداً قاضياً في المحكمة، أو حاكماً في المديرية؟

الخليع (مقاطعاً) - إذا كانت الليلة الماضية قد انقضت على غير هواك، فلنا عنها عوض من ليلتنا هذه إن شاء الله.

العمدة - انصدقك في وجود العوص، وقد اخلفت وعدك معنا في هذه الحديقة، وآذن الليل بالدخول، وليس في اليد شئ من الصيد؟.

الخليع - صدقني بالله، فإني ما كنت أعلم بما أصاب الحديقة من أمر الحكومة، لأنني كنت مقيما بحلوان مدة طويلة، وجئت وأنا أحسبها على حالها الأول. ولكنني قد رتبت لك الآن سهرة مضت، فإني أعرف صاحبا لي أخبرني عن بيضة خدر من بيت فلان باشا، فقوموا بنا، وأنا أذهب للحصول عليها هذه الليلة بما يمكن من الحيل، وسأكتم عنها أمركما إلى أن تصير معي في الموضع الذي أختاره ثم أرسل إليكما من هناك بمن يأتيني بكما، فيكون دخولكما على حين غفلة، فلا تستطيع الاختفاء، ثم تضطر إلى البقاء في مكانها، وحينئذ يدور بنا المجلس معها دورة الأنس. ولكن لا اخفي عنكما ان مقدار ما معي من الدراهم الآن لا يكفي لإعتداد معدات هذا المجلس، وأخشى إن أنا ذهبت إلى البيت لآخذ دراهم أخرى أن يمنعني أهلي من الخروج ثانية، كما هي العادة عند النساء في التضييق على الرجال.

العمدة - لا عليك، فعندي من الدراهم ما يكفي وزيادة.

قال عيسى بن هشام - وقاموا في الحال للسعي وراء اللهو والمجون، وقام الباشا يسحبني وراءهم للعلم بما سيكون.

قال عيسى بن هشام : وخرجنا فى أثر الخليع والعمدة والتاجر، وقد ألقت ذكاء يمينها فى كافر[١٢٢] ثم أضيئت بعد ذلك شموع الكهرباء، فعادت الشمس متوزعة فى مصابيح الضياء كالنجوم تتلألأ فى أفق السماء، وتقشع دياجى الظلماء. لما توسطنا ساحة «الأوبرا» و«الأوبرابار»، وقف الباشا وقفة الإعظام والإكبار، يكفكف غرب الدمع والاستعبار، ويقول: سلام على إبراهيم وآل إبراهيم فى النار! كيف لا يضطرم القلب استعاراً، ويجرى الدمع مدراراً، فما أستطيع أوارى ولا أستطيع أدارى، وقد تمثل أمامى فى هذه البقعة، وهى موسومة بسوء السمعة، بطل مصر، ورافع بنود النصر، وقائد جيوش الحرب وهاديها، فى مفاوز الأرض وبواديها، وموقد نيران الوقائع وصاليها، وخائض غمرات المعامع وجاليها:

فى كل منبت شعرة من جسمه
أسد يمد إلى الفريسة مخلباً

وكيف جاز لهم أن يضعوا عنوان البأس والجد، فى مواضع الهزل والدد[١٢٣] ويقيموا لإبراهيم صنما على صورته، وفى وسط سوق الفسوق وسرته، مشيراً بيمناه إلى مواطن اللهو والفجور، وأماكن الفحش والعهور، ودينه ينهاهم عن تشييد الأصنام وإقامتها، ويأمرهم بكسرها وإبادتها؟ ويابؤس قوم جعلوا اليد التى كانت تشير للكماة والفرسان، فى ميدان

الضرب والطعان، بمصافحة المنايا ومقارعة الأقران، تشير اليوم وسط هذا الميدان، بمغازلة البغايا ومعاقرة الدنان، فسبحان محوِّل الأحوال ومبدِّل الأزمان! فقلت له: ما هذه الأفكار المحزنة، أحنينا إلى تلك الأزمنة، وقد انقضت بخيرها وشرها، وذهبت بحلوها ومرها؟ وأين أنت من طريقك في الحكمة والسداد، ومن سبيلك في الهداية والرشاد؟ فخفض عليك من حزنك وهمك، واترك تلك الهواجس فأنت ابن يومك، ولا تجعل لهواك القديم عليك سلطاناً مطاعاً، فيذهب ما استفدناه من العلم ريحاً مضاعاً. أما إقامة التماثيل في الميادين، ومخالفتها للشرع والدين، فقد أقامها حكامنا تقليداً للغربيين، ولم ينكرها أحد من طلبة العلم وعلماء المسلمين، فاستنامت إليها الأفكار ولم يوقظها التحريم والإنكار. وأما وضع التمثال في هذا المكان دون سواه، وإشارته فوق الحصان بيمناه، فلعل الأمر بوضعه أراد أن يذكر هؤلاء الغافلين الذاهبين، بما كان لآبائهم الأولين، من الشأن الرفيع، والركن المنيع، أيام إمارته، وينبههم على ما انتشر ذكره في الآفاق، وخلدته لهم بطون الأوراق، من اقتحام المهالك، وافتتاح الممالك، تحت قيادته، وهو يشير اليوم بتلك اليد، لستفزهم إلى مواقف العز والمجد، ويستنفرهم عن بواطن الخلاعة والبطالة، إلى مواطن الشجاعة والبسالة فتبسم الباشا من قولي ضاحكاً، وقال: ما عهدتك في الجواب محاولاً مماحكاً. فقلت له: دع هذا وانظر إلى هذه البنيـة الإيوانيـة، ذات الأرائك الخسروانية. فقال: أعظم به من بناء، بين بيوت الكبراء. فقلت:

هو بيت لهو رفع إسماعيل قواعده، وبوأ الناس مقاعده، يشاهدون فيه صنوف الألاعيب، وضروب الأعاجيب، مما يؤخذ عن أساطير الأولين، وأقاصيص الراوين، وما تفتن فيه كل غادة حسناء، من جمال الزينة وحسن الرواء، وتفتن به كل قينة هيفاء، من فنون الرقص والغناء، اقتداء بالغربيين فى ديارهم، واحتذاء لآثارهم، وقد بقى من بعده تنفق عليه الحكومة من عيش الصانع والفلاح، لتفكهة النزلاء والسياح. ثم انظر أمامك إلى هذا المجتمع الملتحم، والموقف المزدحم، فالتفت وقال: ما هذه الضوضاء العظيمة، أمأتم ما أرى أم وليمة؟ قلت له: لا بل هو مجتمع عام تتزاحم فيه المناكب والأقدام، لمسامرة الأصحاب ومعاقرة الشراب. وبينما نحن كذلك إذ وقف بأصحابنا المسير، عند باب هذا الحان الشهير فسرنا فى عقبهم ولحقنا بهم، فسمعنا الخليع يقول لصاحبيه: كونا هنا فى الانتظار، حتى أعود إليكما بالأخبار، إنجازاً لوعدى، وإيفاء بعهدى، فأجاباه بالقبول، وتقدما للدخول، فقال العمدة للتاجر: ما أحوجنى إلى تضييع الزمن، ورياضة البدن، بشرب كأس من العقار، ولعب دور من «البليار». وقال التاجر: وما أحوج يدى إلى ملامسة ورق القمار وأذنى إلى رنين الدرهم والدينار! ثم صعدنا وراءهما إلى قاعدة بأعلى المكان، أعدت للعب والرهان، فتقدم العمدة وهو يهز أعطافه وأردانه، فتسلم كرة «البليار» وصولجانه. وقعد التاجر وهو يرتعد من الفرق، فى مجلس اللاعبين بالورق. وجلسنا نحن للنظر والسمع، فى غمار ذلك الجمع، فسمعت عن يمينى أحد السماسرة المعروفين بالدهاء، يقول فى مناقشته لأحد أرباب الثروة والغناء.

السمسار ـ لا نزاع ولا جدال في أن ينابيع الثروة قد نضبت بذهاب تلك الأيام الماضية، التي يغتني الرجل فيها بكلمة، ويثرى بإشارة، فيصبح بها أغنى الأغنياء، بعد أن كان معدوداً من الفقراء، ولقد وصل المصريون الآن إلى زمن كله ضيق وعسر، ولم يبق من حكامهم من يقطع الاقطاع، ويهب الضياع، ويقى الغنى الحازم فيهم على حال الخمول والانكماش لا يستثمر أمواله، ولا يستربح ثروته، وقد زادت الحاجات وتعددت وجوه المطالب يوماً بعد يوم، فاصبح مضطراً إلى الانفاق من تليده، فسرى النقصان إلى رأس المال، حتى إذا مضى لسبيله لم يترك لأهله وذريته إلا ما يقوم بالكفاف وحده بعد توزعه بينهم، وكن على يقين أنه لا يمضى جيل واحد على هذه الحال إلا وينذر بين المصريين ما بقي من بيوت المجد والغنى، واعلم أنه لم يبق أمامنا اليوم سوى بيت واحد، وهو منبع المنابع في الثروة والمال، وكنز الكنوز في الغنى واليسار، يقوم للمصريين مقام أعظم بيت من بيوت الحكام الذين كانوا ينعمون عليهم بالسيب والعطاء، ويدفعون عنهم الضراء بالسراء، وما يخفى عليك أنه بيت البورصة.

الغنى ـ اسكت ولا تذكر لي اسم البورصة، فقد سمعنا في هذه الأيام عن فعلها بفلان وفلان ما فيه عبرة للمعتبر. وموعظة للمتدبر.

السمسار ـ ألتمس من سعادتكم غض النظر عن الاستشهاد بفلان وفلان، فإن الخسارة لحقتهما من سوء

رأيهما، وشدة جهلهما، أما أحدهما فإنه كان يعتمد في المضاربة بأمواله على التفاؤل والتطير، وكان لا يأخذ إلا بكلام إحدى العرافتين: العرافة السودانية أو العرافة الإفرنجية، تلك بودعها، وهذه بورقها، ومن نوادره في الأخذ بالتفاؤل أنه سمع رجلا مجذوباً يصيح في الطريق بقوله: «اذهب يايزيد»، وكان لايزال متردداً بين البيع والشراء، لا يرجح بين الهبوط والصعود. فتفاءل بالكلمة واعتمد عليها، وسار من توه إلى سمسار، فأمره أن يشترى له عشرين ألف قنطار، فنصحه وحاول أن يحوله عن رأية فلم ينتصح ولم يتحول، وهبطت الأسعار في اليوم الثاني، وتوالى هبوطها، فكان ما كان من خسارته؛ وأما الثاني فكان جل اعتماده على الأخذ بأفكار أرباب الجرائد، والثقة بالأخبار الكاذبة من الموظفين، ولم يعمل برأى السماسرة الذين هم أدى الناس بوجوه المضاربة، وأعلمهم بطرق الصواب فيها.

الغني - لن تزيدني والله براعتك في البيان والبرهان إلا ابتعاداً عن مضاربة البورصة وعن أهوالها، ولا أعتبرها في نظرى إلا أكبر باب المقامرة، والمقامرة هى عين المخاطرة.

السمسار - أما المخاطرة فهى لاصقة بالإنسان في كل حركة وسكون، وملازمة لعمله في كل زمان ومكان، ومن أراد أن يتوقى الأخطار، ويسلم من المخاوف له أن يترك هذا العالم إلى سواه، واسمح لى بآخر قول أقوله لك في هذا الباب، وهو أنك أخبرتنى بمقدار محصولك في هذا العام وهو ثلاثة آلاف

قنطار مخزونة عندك إلى اليوم، ولم تبعها تربصاً لصعود الأسعار، ولم تبال بما يلحق القطن فى طول خزنه من نقص الوزن، وما يتهدده من بقية الأخطار كالسرقة والحريق، فإذا كنت فضلت الانتظار، لصعود الأسعار، على هذه الحال فى ثلاثة آلاف قنطار، فما الذى يمنعك عن مثل هذا العمل فى ثلاثين ألفا من «الكونتراتات»، دون كلفة ولا مشقة كالتى احتملتها فى استخراج المحصول؟ فإنك لا تدفع هنا ثمن أرض، ولا تنفق على حرث، ولا تؤدى ضريبة، ولا تبذل ماء وجهك لرى الأطيان، ولا تحنى ظهرك لا صاغر الحكام، وما دخلت فى قضية، ولا وقعت فى مناعة، ولا تخوفت شيئا من الآفات، سماوية كانت أو أرضية، بل هو ربح يأتيك عفواً صفواً، ولا رأس ماله له سوى أربعة حروف أو خمسة تخطها بيمينك فى التوقيع.

الغنى - يجوز أن يكون فى قولك هذا بعض ما يقنع. ولكنى لا أجد نفسى تطمئن يوماً إلى ولوج هذا الباب.

السمسار - أنا أكلفك أمراً وما عليك إلا أن تجرب صدق نصيحتى، فتشترى ألفين من «الكونترايات»، فتنتظر بها صعود الأسعار مع أقطانك المخزونة، وأنا أضمن لك الربح، مادمت آخذاً برأيى، ولا تستمر فى هذا الانكماش والحذر اللذين هما علة تأخر المصريين وخذ فى النشاط والأقدام اللذين هما سبب تقدم الغربيين، واعلم أن الفرق فى سرعة الربح بين ما يشغل به الناس من التجارة والصناعة والزراعة وبين أشغال

البورصة، و«الكنتراتات» كالفرق ما بين السفر على ظهور الجمال والطيران على أجنحة البخار، أو ما بين نسخ الكتب بالخط ونسخها بالطبع ولكل زمان ما يقتضيه من العمل ويحكم به من السير، وأنت المخير مع ذلك فيما ترضاه لنفسك.

الغني - وكيف حال الأسعار اليوم؟.

السمسار - كما كانت أمس وهي فرصة ثمينة للشراء.

الغني - خذ لي اليوم خمسمائة قنطار للتجربة.

قال عيسى بن هشام: وتركنا هذا العصفور وقد وقع في يد الصائد المحتال، والتفتنا إلى ذات الشمال، لسماع ما يدور من الجدال، بين رجل فرغ كيسه من المال، وامتلأ رأسه من الآمال، وبين تبيع محامٍ من الأجانب، يلتقط القضايا من كل جانب:

التبيع - لا أشير عليك أبداً برفع هذه القضية أمام المحاكم الأهلية، وهي معروفة بجبنها وخوفها من الحكم على الحكومة في مثل هذه القضايا، ولئن حكمت مرة فقلما تبادر إلى التنفيذ، أما المحاكم المختلطة فإنها لا تحسب لغير الحق حساباً، وسواء لديها الحكومة والأهالي، والتنفيذ فيها أسرع من نفاذ السهم عن القوس، كما أن المحاكم الأهلية لا تعرف قدر هذه القضية ومنزلتها من التاريخ، ولا تقدر لك الفائدة من عهد وضع اليد عليها إلى الآن، فلا مندوحة لك عن المحاكم المختلطة، ولكن أخبرني قبل كل شيء عن تلك الشجرة هل لها

ذكر فى الحجة باسمها التاريخى المعلوم، وهل يمكنك إثبات نسبك متصلاً إلى الواقف؟

صاحب القضية ـ أما الشجرة فمذكورة فى حجة الوقفية أنها «شجرة العذراء»، وهى قائمة على أرض سواد، وأما نسبى فهو متصل بأحد عتقاء الواقف فى المحاكم المختلطة وأنا رجل من رعايا الحكومة؟ ومن لى بمحام أجنبى

وأنت تعلم ما يلزم لمثله من المبلغ الجسيم فى «مقدم الأتعاب» الجمالة؟.

التبيع ـ هون عليك الأمر، أما رفع القضية إلى المحاكم المختلطة، فإنه سهل هين، يكون بالتنازل عن القضية لأحد الأجانب، وأما المحامى لأجنبى فأنا أتكفل لك باقناع المحامى الذى أشتغل معه ليقبل القضية؛ من غير أن يلتفت إلى «مقدم الأتعاب»، وإنما يتفق معك على مناصفتك فيما تأتى به القضية من الأموال، وأما الأجنبى الذى تتنازل له عن القضية، فهو حاضر فى مكتبنا تحت يدنا، لتسخيره فى مثل هذه القضايا، وما عليك الآن سوى النفقات والرسوم القضائية.

صاحب القضية ـ لا بأس بما تقول، ولكن ليس عندى ما أستغنى عنه اليوم لتلك النفقات، ولو كنت واثقاً بعض الوثوق بكسب القضية، لبادرت إلى بيع الحصة التى بقيت لى من العقار،ولكننى أخشى أن تذهب الحصة وأخسر القضية، فأصبح بلا مال ولا أمل.

التبيع - لو كنت تعلم بمهارة معلمى، وما له من علو الشأن فى المحاكم المختلطة، ومن الاتصال بقناصل الدول، لا ستخرت الله فى بيع الحصة ورفع القضية.

صاحب القضية - استخرت الله واعتمدت على هذا الرأى.

التبيع - فقد أذنتنى حينئذ بالكلام مع المعلم، ولك أن تحضر غداً لعقد الشروط.

صاحب القضية - أمهلنى أياماً، حتى أجد من يشترى الحصة بالثمن المناسب.

التبيع - أنت فى سعة من الوقت لبيع الحصة إنما يجب أن تبادر بإحضار الأوراق والمستندات من الغد للاطلاع عليها ودرسها.

صاحب القضية - بينى وبينك مساء الغد فى هذا المكان.

قال عيسى بن هشام: وتركنا أيضا هذه السمكة، تتخبط فى الشبكة، ثم حولنا النظر إلى العمدة فى لعبة البليار، فما راعنا منه إلا أن ضرب الكرة بصولجانه ضربة أفقية؛ فأطارها إلى وجه أحد الجالسين من الأجانب، فاستشاط غضباً واحتدم غيظا، وقام هاجما على العمدة يريد به شراً، وهو يدمدم ويطمطم والعمدة يجمجم ويغمغم، وكاد يقع ما تسود عقباه لولا أن أسرع التاجر فحال بينهما، وأخذ بيد الأجنبى يستعطفه ويبالغ فى العتذار إليه، حتى لانت شكيمته بافتتاح زجاجتين

من «الشمانيا» لعقد الصلح على حساب العمدة. ثم عمد العمدة إلى الجلوس، فلم يمهله الذى كان يلاعبه، وطلب منه استكمال اللعب، فقام إليه مكرها وقلبه يرتجف، ويده ترتعش، فما هى إلا الضربة الثانية حتى أخطأ الكرة بصولجانه فأصاب غشاء البليار فخرقه، وشقه، فذهب الخادم مسرعاً وعاد بصاحب «البار» ومن ورائه بقية الخدم، وهو يقول لهم بصوت عال: كيف تسلمون عصا البليار لهذا الفلاح الأخرق، فيخرقه ويتلفه؟ ثم وقف للعمدة يطالبه بثمن ما أتلف وتعويض ما عطل، وقدره له بخمسة عشر جنيها لا يتجاوز عن درهم واحد منها، فأخرج العمدة كيسه فأحصى ما فيه عداً فإذا هو لا يزيد عن ثلاثة عشر جنيهاً، فلم يقبل منه. فتوسط إليه بعض الحاضرين فقبلها متكرها، وجلس العمدة متكدراً، ولقد كان اللعب بالأفعوان أقرب إلى السلامة من هذا الصولجان. ثم استمر جالسا ينتظر انتهاء التاجر من لعبه، حتى قام عنه زاعما أنه خسر فيه ثلاثة جنيهات، وقعد بجانبه يظهر التأسف والتندم، فقال له العمدة: دع عنك الأسف والكدر، فالضائع ضائع، ومصيبتك على كل حال أخف وقعاً من مصيبتى. وبينما هما على هذه الحال إذا بالخليع قد حضر من غيبته يقول لهما هاشا باشا وفرحا مرحا:

الخليع - أشرق أنسنا، وسعدت ليلتنا، وطاب وقتنا، وانقضت حاجتنا، وأسأل الله أن يطيل لنا ليلنا، ويبعد عنا نهارنا، فقد تم مرادنا وهلم بنا.

العمدة ـ ونحن نسأل الله أن يقصر ليلنا ويدنى منا نهارنا، فاقعد معنا نقصص عليك ما دهانا فى غيابك.

الخليع (بعد سماع القصة) ـ ويلى ثم ويلى فأنا الملوم إذ تركتكما. فوقع لكما ما وقع ولكن قدر الله لكما ولطف بكما، أما مصيبتى الآن فهى أعظم من مصيبتكما وأبلغ، فماذا أقول وماذا أفعل؟ وكيف أدفع وبأى عذر أعتذر، وقد أخرجت البيضة من خدرها والظبية من كناسها. واستعد المجلس لحضورنا وأنسنا؟.

التاجر ـ الأمر أيسر مما تخشاه، فما يفوتنا الليلة ندركه غداً.

الخليع ـ ذاك الشئ لا يدرك فى كل وقت وحين، وهذه المرة هى بيضة الديك لبيضة الخدر، وكيف يمكن فض هذا المجلس وتأجيله وقد مضى قطع من الليل وتعذرت سبل الرجوع

كيف الرجوع بها وحول قبابها

سمر الرماح يملن للإصغاء؟

فخلصانى ناشدتكما الله مما وقعت فيه، وأنقذانى من هذا البلاء العظيم.

التاجر ـ وما وجه الخلوص، وقد علمت بتفصيل الحال؟.

العمدة ـ تالله إن الحرمان من هذا المجلس النادر لأعظم

مصاباً من كل ما نابنا، ولو كان الوقت نهاراً لأسرعت إلى «البنك» فأخذت ما يلزم لنا من الدراهم.

التاجر - إذا كانت الرغبة انتهت بك إلى هذا الحد فالأمر يسير، ومعى الآن ما يكفى، وأنا أقوم لك مقام «البنك»، فكم تطلب ولأى ميعاد تكتب؟.

الخليع - هكذا يكون الصديق، فى وقت العسر والضيق، فحياك الله وأبقاك.

العمدة (التاجر) - اعطنى عشرين جنيها تكون معى على سبيل الاحتياط.

التاجر - ولك الفضل هاك سبعة عشر جنيها تبلغ العشرين المطلوبة بالثلاثة التى خسرتها هنا أمامك، وألتمس منك كتابة ورقة على سبيل التقييد.

قال عيس بن هشام: فما كان أسرع من الخليع فى استحضار الدواة والقرطاس، لإجابة هذا الالتماس، فطلب العمدة منه، أن يكتب الصك عنه، ثم خرجوا والعمدة يجرر أذياله، ويحك قذاله [١٢٤]، وخرجنا خلفهم فى الحال، نتبعهم متابعة الظلال.

العمدة فى المطعم

قالى عيسى بن هشام: ولما صرنا فى الطريق أخذ الباشا يطيل من فكرته، ويقصر من مشيته ويقول: ما هذا الذى أرى،

من فساد هذا الورى؟ كأن نافعاً نقعهم فى خابية، جمعت أخلاط الكبائر، أو غامساً غمسهم فى جابية، وعت أمشاج [١٢٥] الجرائر، أو كلما خطونا خطوة رأينا من الغش والمكر أصنافاً وأضراباً، أو حضرنا ندوة شهدنا من الخداع والنفاق فصولاً وأبواباً، فما أتعس من يعاشرهم! وما أنحس من يحيا فيهم! وما أشقى من يجاورهم! وما أسعد من يجافيهم! واغوثاه من الإنسان فى هذا الزمان؛ فقلت له: قدك [١٢٦] بل فى كل زمان:

لن تستقيم أمور الناس فى عصر
ولا استقامت، فذا أمنا وذا رعبا
ولا يقوم على حق بنو زمن
من عهد آدم كانوا فى الهوى شعبا

هكذا كا بنو آدم، تأخر عهدهم أو تقادم، فهم على ما هم فيه أبداً، أمس واليوم وغداً، وما عساك تقول فى ذرية الشيخ آدم وزوجه حواء، وقد قالت من قبل فيهم ملائكة السماء: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء»، وما عساك تقول فى قوم ترى الصغير منهم قبل الكبير، والمولى قبل الأمير، يهون عليه أن يفتدى ما اسف من الدنايا، وسفل من المطالب، بمنطقة البروج ومجرة الكواكب؟ وما عساك تصف خلقا أفضل ما فى أعضائه، أكبر سبب لشقاء الخلق وشقائه؟

أفـــضل مـــا في النفس يغـــتـــالهـــا

فنســـتـــعـــيـــذ الله من جنده

هذه المضغة، ويقال: إنها أفضل ما فيه، لو نسجت مضغة علي قدرها، حمات [١٢٧] العقارب ـ حماك الله ـ لحمتها، ولعاب الأفاعي ـ عافاك الله ـ صبغتها، لكانت في جانب هذا اللسان أخف ضررا، وأهون شرا، وما عساك تنعت نوعاً نعت الله واحداً منهم في آية من الآيات، بتسع صفات: «حلاف مهين هماز مشاء بنميم، مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم».

فـــأف لعـــصـــريهم نهـــار وحندس

وجنسي رجـــال منهم ونســـاء

وليت وليـــداً مـــات ســـاعـــة وضـــعـــه

ولم يرتضع من أمـــه النفـــســـاء

وما يدريك أن ما رأيته من أخلاق هذا النفر أفضل من أخلاق من علاهم من سادة البشر؟ ولعل ما أدركته من طمع الغني، ومكر السمسار وخداع التبيع، وما تبينته من غش التاجر وغفلة العمدة، واحتيال الخليع، هو دون ما تكنه صدور الكبراء، وتجنه قلوب الأمراء تحت حجاب التكلف والتطبع، ويسترونه عن أعين الناس بستار التمويه والتصنع، وكلما اعتلى الإنسان درجة في المقام، وخطا فيها خطوة إلى الأمام، تقنع لها بقناع، وتلثم بلثام؛ فتجد حقائق الخلائق مرسومة

تحت صفائح الدهاء، مضروحة بين جنادل الرياء، بل ربما كان احلاهم أخلاقاً حسانا، أبلعم، فى التظاهر بها زوراً وبهتاناً.

كان لى صاحب تراه من لسانه غضنفرا رئبالاً، يحمى عرينا ويحرس أشبالا، تتقيه القياصرة، وتخشاه الاكاسرة، فإذا كشفت عن قلبه، وحسرت عن لبه، وجدته شاة تعطف على سخلها (١٢٨)، وظئراً تحنو على طفلها (١٢٩)، وأعرف آخر قد ضجت أحرف الفضيلة من ذكرها بقلمه، ولوكها فى فمه، وهو مع ذلك يخمش وجهه ويدمى جفونه، إن سمع أن مختلسا اختلس دانقاً دونه؛ وفيهم من يملك من وجهه التغير بالإنفعالات المتناقضة، والتلون بالألوان المتعارضة،فتكون دموعه طوع إرادته، وابتساماته عند حاجته. قال حكيم لآخر: ما أكثر ما تتحول رقعة الشطرنج وتتقلب! قال له: تقلب وجه الإنسان أعجب وأغرب، وقد تبقى الأخلاق الدميمة، أعجب وأغرب، وقد تبقى الأخلاق الذميمة، والصفات اللئيمة، مطوية عن النظر، محجوبة عن البصر، حتى يتاح لها كاشف من الحوادث، فينزع عنها الفدام، ويحسر اللثام، فيظهر الطبع السقيم، ويبدو الخلق الذميم. ومن عوامل التبيين والبيان، فى أخلاق الإنسان، الغضب والجبن أو السكر والحزن، ونحن الآن فى ساحة السكر، فهلم بنا، نلحق بأصحابنا فأدركناهم وهم وقوف يتشاورون، وسمعناهم وهم يتحاورون.

العمدة - دعونى من هذا كله،فقد صاحت عصافير بطنى، ولم يدخل جوفى فى اليوم شئ من الطعام سوى لقمة الصباح

التى أكلتها مستعجلاً، فهيا بنا إلى «السكة الجديدة» نعطف على «العطفى»، فإن طعامه دسم وسمنه زبدة، ولحمه سمين.

التاجر - ما هذا «العطفى» الذى تذكره، وأين أنت من كباب «الحاتى»، وحمام «لوكه»، أو طواجن «الفار»، وأرز «العجمى»؟

الخليع - ما هذا الخلط ونحن فى وسط الأزبكية بين «النيوبار» و«سان جيمس بار» و«اسبلندد بار»، وفيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين؟ وناهيك بهذه الأماكن ونظافتها، وحسن خدمتها، وعلو قدر الواردين عليها.

العمدة - دعنا من هذه الأماكن، فإن طعامها لا يسمن ولا يغنى من جوع، خصوصاً وأنا على هذا الخلو من بطنى.

الخليع - وأنا لا يمكنننى على كل حال أن أترك هذه الأماكن وأذهب معكما إلى الحوانيت التى تشيران بها، وأخشى أن يرانى بها أحد ممن يعرفنى فأصغر فى عينه.

التاجر - إذا كان الأمر كذلك، فأنا على رأيك.

الخليع (العمدة) - لا مناص لك حينئذ، فضعيفان يغلبان قوياً، فادخل بنا «النيوبار».

قال عيسى بن هشام: فدخلو ودخلنا معهم وجلسوا وجلسنا على مقربة منهم وما خلع الخليع طربوشه، حتى نزع العمدة عمامته، وما ضرب الخليع بيده على المائدة، حتى صفق العمدة بيديه، فحضر الخادم ومعه قائمة الألوان، فتناولها

العمدة ونظر فيها نظر المريض إلى وجوه العود، ثم ناولها للخليع ليقرأها، فأخذها، وتأمل فيها، وشرع يسرد الألوان حتى انتهى منها، والعمدة لاه عنه، والتاجر منضت إليه.

الخليع (للعمدة) - ماذا تحب وتختار؟

العمدة - أختار المرق، ومن بعده لحم الفرن أو الكبما.

التاجر - وأنا أطلب كباباً وقرعاً وأرزاً.

الخليع - وأنا أختار «فاتحة الطعام» أولاً. ثم خلاصـ اللحم بالبيض، وأرزاً بفاكهة البحر، ودجاجة بعش الغراب،وسمانا بالكمأة وهليوناً بالزبدة.

العمدة - ماهذه الأسماء الغريبة؟

الخليع - هي أطعمة خفيفة لا تقوى معدتي على هضم غيرها.

التاجر - كل ما يعجبك والبس ما يعجب الناس.

قال عيسى بن هشام: فيذهب الخادم ويجئ للخليع بفاتحة الطعام من زيتون وفجل وسمك وملح وزبدة؛ فيتأمل العمدة فيها، ثم يميل على قطعة الزبدة فيبتلعها وهو يقول: أزبدة وسمك؟ فيطلب الخليع سواها، ثم يأتي الخادم بصحن المرق للعمدة فيجده قد أكل ما كان وضعه أمامه من الخبز، وعطف على خبز الخليع يأكل منه، فيأتيه الخادم بنصيب آخر، فيتناوله العمدة ويفته في صحن المرق حتى يمتلئ ويفيض على المائدة. ثم إنه انحنى فانحنى عليه، وصفق يطلب صحنا آخر

وخبزا آخر، وهو يميل فى هذه الأثناء على طعام الخليع، فيأخذ قطعة من الدجاجة ويضعها أمامه ويحاول قطعها بالشوكة والسكين، فتفلت منه إلى الأرض فيقوم فيلتقطها ويأكلها باليد، ثم يأخذ جزءًا من عش الغراب فيقضم منه فلا يألفه، فيمجه ثم يرده إلى صحن الخليع ثانية، ويقول ما هذه القشور التى يطبخونها هنا، وهى عندنا شائعة على الجسور نفحص عنها الخنازير فى الأرض بأرجلها؛ فتستخرجها ولا تأكلها، فتبقى ملقاة على ظهر الطريق لا يمسها إنسان ولا حيوان، ثم يأتى الخادم بالمرق فيطلب منه خبزاً آخر فلا يكفى لامتلاء الصحن فيعاود الطلب، فيمل الخادم ويقول له: إنما أنت هنا ياسيدى فى مطعم لا فى مخبز.

الخليع (للخادم) - ما هذا الكلام البارد «ياجورج» أليس لكل شئ ثمن هنا؟ ونحن نأكل بدراهمنا مانشتهى ونطلب مانريد.

الخادم (للخليع) - لا مؤاخذة فإن كلامى ليس موجها إليك.

الخليع إن لم يكن الكلام لى فهو لصاحبى وصاحبى هذا أعز على من نفسي.

العمدة - دعة يأت لنا بخير ولو بالثمن ولا تشغل نفسك بما يقول، مع أنه يقال: أن هذه المطاعم العالية تبذل الخبز للآكلين مجانا.

التاجر (للخادم) ـ أعطنى أيضاً لوناً من الخضر.

العمدة (للخليع) ـ قل للخادم يحضر لى مع لحم الفرن فحل بصل.

الخليع ـ كل شئ يجوز إلا أكل البصل فى هذه الليلة.

التاجر (الخادم) إئت لى بشئ من الحلوى والفاكهة.

العمدة ـ لا مؤاخذة فإن النفس الملعونة ذهبت إليه من غير ترو.

العمدة ـ إذا كان فى الفاكهة برتقال أو بلح فأعطنى منه.

الخليع ـ ولا تنس «ياجورج» أن يكون في نصيبي من الفاكهة «مانجو» وقشطة خضراء» و «موز و «أناناس».

العمدة (للخليع ممازحاً) ـ ومن قال إنك لست من الناس؟

الخليع (للخادم) ـ هات زجاجة نبيذ أخرى بغبارها.

قال عيسى بن هشام: ولما حضر الخادم بالفاكهة وانصرف، واسرع العمدة بيده إليها فانتقى من كل فاكهة زوجين ودسها فى جيبه وهو يقول: هذه تنفعنا للتنقل بها على الشراب فيما بعد، ثم حض الخادم بآنية من البلور الملون فيها ماء وقشر ليمون فوضع أمام كل واحد منهم إناء، فهم العمدة بشرب إنائه فى الحال، فبادره الخليع ونزعه بيده عن فمه.

العمدة لماذا تمنعني عن شرب هذا «الخشاف» وقد أنعشتني منه رائحة الزهر؟

الخليع ـ هذا ياسيدى ماء لغسل أطراف الأصابع بعد الاكل

التاجر ـ من عاش رأى.!!

العمدة (للخادم) ـ الحساب «ياخواجا».

التاجر ـ القهوة.

الخليع ـ الخلال مع كأس من «الكونياك» بجانب القهوة. ويأتى الخادم بجميع هذا فيتناول العمدة ريش الخلال فيتخلل بريشة ثم يعيدها إلى مكانها، ويأخذ أخرى فينكش بها أذنه، ثم يمسح ما علق بها فى غطاء المائدة، ثم يلتفت إلى الخليع ويطلب منه أن يقرأ قائمة الحساب ويخبره بكميته.

الخليع ـ اربعون فرنكاً.

العمدة ـ اقرأ جيداً فإن هذا غلط فاحش.

الخليع ـ قد قرأت وحسبت وأعرف أنهم لا يغالطون هنا.

العمدة ـ ما هذا النهب والسلب،وما هذا الإسراف والتبذير؟ لو كنا ذهبنا إلى مكان من الأماكن التى عددناها قبل دخولنا هنا لكنا ملأنا البطون، وتمتعنا بالطعام الكثير مع الثمن القليل، ولو كنا توجهنا إلى المحل الذى أبيت فيه لكنا وجدنا من

الاكل ما يكفينا بغير ثمن، لأن في غرفتي برمة أرز بحمام مما أحضرته معي من البلد، ولا شك في أن الخادم يريد أن يستغفلنا فزاد في الحساب ما أراد، وأنا رجل لا أقبل الغفلة على نفسي، ولا أدفع هذا الحساب، وسأكشف لكما هذا الغش بكل طريقة، فإنه يهون على أن أبدد عشرة حنيهات في الهباء، ولا يهون على أن أدفع قرشاً واحداً بطريق الغش والاختلاس.

ثم إنه رفع كأس النبيذ وهو في حدته فصك به قدحاً آخر ممتلئاً لاستدعاء الخادم فانقلب الكأس وأهرق النبيذ على غطاء المائدة، فحضر الخادم فعز عليه مارأى.

الخادم - ماهذه اللية السوداء؟

العمدة - هذا ما أقوله أنا أيضا، فقل لى ما هذا الغلط فى الحساب، وهل تريدون ألا يدخل محلكم بعد اليوم أحد؟

الخليع - هل في الحساب غلط «ياجورج»؟

الخادم - وأى غلط يكون في الحساب بعد الذى حصل، وهذا هو بيان الثمن أمام كل صنف؟

العمدة - أى حساب وأى بيان! ولكنك أنت الكاتب له.

الخادم - نعم أنا الكاتب له، ولكنك أنت الآكل له.

العمدة - وهل أكلنا أربعين صحنا، حتى ندفع أربعين فرنكا؟

الخادم (الخليع) أرجوك أن تقنعه.

العمدة - وهل أنا جاهل حتى يقنعنى.؟

الخليع (وهو قائم) - حاشا لله ياسيدى؟

التاجر (للخليع) - وإلى أين؟

الخليع - أراهم وضعوا فى لوح التلغرافات السياسية تلغرافاً جديداً أريد أن أقرأه.

الخادم (العمدة) - أعطنى الحساب ولا تعطلنى عن الشغل.

المدة - هنا عشرين فرنكاً لا أدفع سواها.

الخادم - ليس هنا محل المساومة فى ثمن الطعام بعد أكله.

التاجر - زده فرنكين.

الخادم - لقد كان الأولى بكم أن تأكلوا فى غير هذا المكان ما دمتم بذه الصفة.

التاجر - لا تغلط «ياخواجه» حضرته يأكل فى مثل هذا المكان وفى أعظم منه، ولكنه يحب الأمانة ويكره الاستغفال.

الخادم - وهل أنا خائن؟ وأنا صاحب شرف مثلك ومثل أعظم منك.

التاجر (العمدة) ـ حقيقة إنه لقليل الحياء.

العمدة ـ وحياتك لا أخاف منه ولا يأخذ منى غير هذا المبلغ.

صاحب المحل ـ (وقد حضر مع الخليع) ـ ماذا جرى؟

العمدة ـ خادمك يسرقنا ويشتمنا.

صاحب المحل ـ هذا كلام لايقال عن محلنا.

التاجر ـ وذاك كلام لا يقال لنا.

صاحب المحل (للخليع) ـ عهدى بك لا تصاحب إلا الكبراء والظرفاء، فما هذا الشيخ الذى جئتنا به هذه الليلة، وقد شاهدته من مكانى يفعل أفاعيل انتقدها جميع الحاضرين، فإنه كان يبلع الزبدة، ويطوى الخبز ويمد يده إلى صحن سواه، ويعيد إليه فضلة ما يأكله، ويتناول قطعة الدجاجة من الأرض فيلتهمها، ويلوث المائدة بالمرق والنبيذ، ويمسح يده فى الغطاء، ويكسر الكأس، ويختلس الفاكهة فيضعها فى جيبه ويهم بشرب ماء الغسل، وينكش أذنه بريشة الخلال، ولم يكتف بهذا كله حتى أخذ يغازل السيدات ويغامزهن، فقمن مستقبحات مستنكرات، وقام كثير من المترددين على المحل إشمئزازاً من هذه الأفاعيل، ولا أشك فى أنه إذا حضر عندنا شيخ آخر مثل هذا أن يبتعد الناس ويتعطل المحل.

الخليع - لا تلقبه بلقب شيخ. فإن سعادته من الحائزين للرتبة الثانية، وله سعي في رتبة التمايز، ولا تستصغر قدره فهو من كبار الأغنياء في الأرياف.

صاحب المحل (العمدة) - لا تؤاخذ الخادم ياسعادة البك فهو على كل حالٍ خادمك والمحل محلك.

العمدة (للخادم) - يجب عليك أن تعرف الناس وتتعلم حسن المعاملة من حضرة الخواجا صاحب المحل، ووالله لولا حسن ذوقه ولطفه لما زدت عن العشرين فرنكاً، ولكني أعطى الآن ماتطلبه مراعاةً لخاطره عن طيب خاطر وحسن رضاء.

صاحب المحل (للخادم) - أسأل حضراتهم ماذا يشربون على حساب المحل لتأكيد المعرفة والمسامحة فيما حصل.

قال عيسى بن هشام: ثم مال الخليع على العمدة يشير عليه بأن يطلب دورين من الشرب لإكرام صاحب المحل في مقابلة إكرامه لهم، فطلب العمدة ثم طلب، وشرب ثم شرب، وقام العمدة ثم طلب، وشرب ثم شرب، وقام بعد الدفع يتمايل ويتثنى، ويتثاءب ويتمطى، ويشكو للخليع فعل الكاس، وهجوم النعاس. فيقول له: هذه عادة تكون عند الامتلاء، ولا يصرفها إلا كئوس الصهباء، فهيا بنا الآن، نذهب إلى الحان. فخرجوا وخرجنا من ورائهم، نستقصي بقية أنبائهم.

العمدة في الحان

قال عيسى بن هشام: وأخذوا طريقهم إلى الحان المقصود، والحوض المورود، وفيما نحن نسير، بين تقدير وتفكير، إذ التفت الباشا[1] إلى ذلك الفندق الكبير، بل الخورنق (١٣٠) والسدير فرأى فيه شموس الكهرباء مشرقة، وينابيع الضياء متدفقة، يلوح فيها زنجى الليل بقميص أبيض، ويبدو فيها أديمة كمالآبنوس المفضض، وعمد المصابيح كأنها أغصان الأشجار، أزهرت بالأنوار، مكان الأنوار، فصار كل عمود فجر، يفجر ثغرة الدجنة أى فجر، وكان منثور الشموع فى ظلمة الحلك، منثور النجوم فى قبة الفلك، ورأى تحتها صفوفاً من الرجال، بين صفوف من ذوات الحجال، على سرور متقابلين، وأرائك متكئين، يسعدهم الجد المقيم، ويرفرف عليهم الرفة والنعيم، فطفق يسألنى: أتراه محفلا ليوم أنس، أم زماقاً فى بيت عرس؟ تراها ليلة مهرجان لقبيل من الجان، نسوا تفاوت الجنس، فأنسوا إلى الإنس، وهجروا جوف الأرض لظهرها، ودرجوا من بطنها إلى حجرها؟ فقلت له: نعم هؤلاء شياطين الإنس يطوون البر والبحر، ويقطعون الحزن (١٣١) والوعر، ويطيرون فى السماء ويمشون على الماء، ويخرقون الجبال، وينسفون القلال، ويقلبون الآكام وهاداً ويبسطون الربا مهاداً، ويجعلون القفار بحاراً، ويحيلون البحار بخاراً، ويسمعون من بالمشرقين، أصوات من بالمغربين، ويستنزلون لبصرك أناى الكواكب، ويعظمون فى عينك أو هى العناكب، ويجمدون الهواء، ويذيبون الحصباء، ويستحدثون الأنواء ويزينون لضياء وتتسنون خبايا الأحشاء، ويكشفون خفايا

الأعضاء، فقال لي: أنتك لتحدث عن جن سليمان، في هذا الزمان. قلت: هؤلاء سياح الغربيين أهل المدنية والحضارة، الناظرون إلى الشرقيين بعين المهانة والحقارة فإن نظروا إليهم من جهة العزة فنظرة العقاب من شماريخ (١٣٢) رضوى وثبير إلى جنادب (١٣٣) ، الرمل وضفادع الغدير، وإن نظروا إليهم من طريق العلم، فنظرة معلم الاسكندر عالم العلماء، إلى صبي يتهجى في العين والياء، وإن نظروا إليهم من باب الصناعة فنظرة «فيدياس» صانع التماثيل والدمى إلى بناء يقيم أكواخ القرى، وإن نظروا إليهم من جهة الغنى، فنظرة صاحب المفاتيح التي تنوء بالعصبة، إلى اجير ينضح عرقاً تحت القربة، وإن نظروا إليهم من جهة الفضائل النفسانية فنظرة الحكيم «سقراط» شارب السم غراماً بالفضيلة، إلى الشرير «أرسطراط» حارق المعبد ولعاً بالرذيلة، تلك دعواهم في نفوسهم، وقولهم بأفواههم.

وهم في رحلتهم إلى الشرق على ضربين: أهل الفراغ والجدة، الذين أبطرهم الغنى، وألهاهم الاستمتاع ببدع المدنية، لم يبق في أعينهم جديد، فانتقمت منهم الطبيعة في خروجهم عن سننها فسلطت عليهم، داء الملل والسأم، فأصبحوا هائمين على وجوههم في الأقطار والبلدان، وحطتهم القدرة إلى الاستشفاء من ذلك الداء بالتنقل في البلاد المنحطة عنهم في درجات المدنية، والإقامة في الأقطار الباقية دونهم على الفطرة الغريزية.

والضرب الثاني: منهم أرباب العلم والسياسة وأهل الاستعمار والاستنفاض [١٣٤]، يستعملون علومهم، ويعملون أفكارهم في احتلال البلدان، وامتلاك البقاع ومنازعة الناس في موارد أرزاقهم، ومزاحمة الخلق أرضهم وديارهم، فهم طلائع الجيوش في الحرب.

قال عيسى بن هشام: وانقطع الحديث بدخول أصحابنا في الحان، واصطفافهم حول الدنان، فأخذنا مجلسنا بقربهم، ننظر مايصنع بهم، وإذا الخليع يتلفت عن اليمين والشمال، ويبادر الخادم بالسؤال:

الخليع (للخادم) - ألم يشرف دولة «البرنس» هنا في هذه الليلة؟

الخادم: - هو في داخل المكان وسيعود إلى مجلسه في الحال.

العمدة (مدهوشاً) - هل يجئ هنا البرنسات وهل يليق بنا أن نجلس للشرب في مكان يحضروننا فيه؟ فلم اخترت هذا المحل، ولم لا نذهب إلى محل سواه؟

الخليع - لا بأس علينا هنا، وسترى كيف أفعل حتى لا تخرج من هنا إلا والبرنس مصافحك ومجالسك.

التاجر (للعمدة) لا تستبعد ذلك، فإن لبعض البرنسات أخلاقاً واسعة ونفوسا ترابية ومن رأيهم الاختلاط بالناس والتساوي بهم في مجتمعاتهم ومعاملاتهم.

العمدة (للخليع) - وهل لك معرفة سابقة به

الخليع - كيف لا أعرفه ولى معه جلسة فى كل ليلة؟ وكثيرا ما أوصلته آخر الليل إلى قصره.

العمدة - إنك لتبالغ!

الخليع - لا مبالغة ودونك البرهان.

قال عيسى بن هشام: ويقوم الخليع واقفاً عند عودة البرنس إلى مجلسه، فيومئ البرنس إليه بالسلام، فيتبعه إلى مائدة عليها صنوف وألوان من الخمر والنقل، فيجلس بجانبه مع الجالسين حوله، يخاطبه بصوت يسمعه العمدة من مكانه.

الخليع - لازال أفندينا فى أسعد حال وأنعم بال.

البرنس - وأين أنت؟ فقد سألت عنك مراراً.

الخليع - أنا فى الخدمة تحت أمر أفندينا وعند طلبه، وما منعنى عن المبادرة إلى مجلسكم العالى إلا اصطحابى بصاحبين أحدهما من عمد الأرياف والآخر من تجار الثغور، لصقا بى للبقاء معهما وألحا على أن أصحبهما أحد الجلساء (ممازجاً) - لابل تسحبهما.

البرنس (منكتاً) - وهل هنا «زريبة» يابك جميع الجلساء (ضاحكين) - لله در أفندينا فى هذه النكتة! فما ألطفها وأرقها!

البرنس - أنا لم أتعلم التنكيت، ولكن يصادفنى منه بعض كلمات فى بعض الأوقات.

أحد الجلساء (لآخر) ـ أنظر بالله ياأخى حدة البرنس فى لطافته، وشدته فى رقته، وقوة إدماجه فى ألفاظه.

الجليس ـ وأنت ماشاء الله ما أفصحك الليلة فى تعبيرك! وما أبلغك فى كلامك!

ألنت تأخذ هذه الجمل عن الجرائد.

البرنس (للخليع) ـ ماذا تشرب؟

الخليع ـ العفو يامولاى، فلا بد من الرجوع إلى صاحبى أولا حتى اتخلص منهما.

البرنس ـ وهل هما من الأغنياء المعتبرين؟

الخليع ـ أما العمدة فإنه يمتلك ألف فدان، وللتاجر فى بلده أعظم خان، وللعمدة عشرة وابورات للرى وعنده الرتبة الثانية، وللتاجر وابور للحليج وعنده وعد بالثالثة.

البرنس ـ لا تحرمنا من وجودك، ولا بأس من استدعائهما للجلوس معنا.

أحد الجلساء (لآخر) ـ قم نفسح لهما.

الجليس ـ انتظر قليلا حتى يأتى «الدور» المطلوب مع صحن بلح البحر الذى أوصى عليه البرنس آنفاً.

قال عيسى بن هشام: وينصرف الخليع إلى صاحبيه لإحضارهما، فينهض له العمدة واقفاً لتبجيلة وتعظيمه، فيسقط من يده «فم السجارة» على الرخام فينكسر فينحنى إلى الأرض

يجمع شظاياه، ويظهر عليه من الأسف والكدر مالا يقدر، فيجره الخليع إليه ويقول له.

الخليع - لايليق بنا أن نكون على هذه الحال من الأسف لأجل هذا «الفم»، فإن البرنس. ينظر إلينا وقد جئت لك بدعوة منه للجلوس معه.

العمدة - ليس أسفى على «الفم» فى ذاته، بل لأنه تذكار عندى من حضرة مأمور المركز، كنت أهديته فرساً فأهدانى إياه، فهو ثمين عندى من هذه الجهة، ولكن قل لى: كيف يدعونى دولة البرنس إليه، وكيف ذكرتنى له؟

التاجر - أى نعم قل لنا كيف كان ذلك، وهل جرى لى ذكر عنده أيضا؟

الخليع - قد قلت ما قلت وذكرت ما ذكرت، ويقال فى المثل: «أرسل حكيماً ولا توصه».

العمدة - أحب أن أسمع تفصيل ما دار من الكلام بشأنى، فإنى رأيته يضحك كثيراً وأنت تكلمه.

الخليع - أخبرته بقصتك مع سمسار القطن ولطف حيلتك معه حتى حرمته أجره.

التاجر - وعلى ذكر السمسار، هل تعلم أن دولة البرنس باع قطنه فى هذا العام؟

قال عيسى بن هشام: فكان جواب الخليع أن أخذ بيد العمدة وتبعهما التاجر حتى صاروا أمام مائدة البرنس، فطأطأ

العمدة إلى ركبة دولته، فدفعه بيده، فاستلمها العمدة وقبلها مراراً بطناً وظهراً، فتبسم له البرنس وأشار إليه بالجلوس، فامتنع واستمر واقفاً ويداه إلى صدره، حتى أقعده الخليع مع التاجر بجانبه بعد شدة الإلحاح.

البرنس (لأحد جلسائه) - لا تنس أن تذكرنى غداً بتصوير الفرس «سيرين» فإن (الدوق روف برك) أرسل إلى صاحبنا المستشار يطلب منى صورتها ليعرضها فى معرض السباق بلوندرة.

الجليس - الأوفق أن يكون ذلك بحضور المستشار فى اليوم الذى عينه أفندينا له للغداء مع مفتش الرى.

البرنس (للعمدة) - ماذا تشرب ياحضرة الشيخ... يابك.

العمدة ·واقفاً على قدم التاجر) - التمس السماح يامولاى فإنى لا أشرب شيأً.

التاجر (متململاً من الألم) - العفو ياأفندينا أستغفر الله فإن ذلك لا يليق فى حضوركم.

البرنس - لماذا جئتما هنا إن لم تشربا؟

الخليع - يشربان حسب أمر دولتكم فالإمتثال فوق الأدب.

قال عيسى بن هشام: ويتناول الخليع «علبة السجارات» من أمام البرنس فيعطى للعمدة واحدة وللتاجر واحدة، فيتحاشى العمدة إشعالها فى حضرة البرنس ظاهراً - وربما

كان غرضه الباطن إبقاءها لديه أثرا عن البرنس يفتخر به عند أقرانه ـ ثم يأتى أحد باعة الزهور فيهمس فى أذن البرنس بكلام يقهقه له، ويأمر الخادم أن يعطيه كأسا فيشربه وينصرف، ثم يلتمس الخليع من البرنس أن يسمح للعمدة بطلب زجاجة من «الشمبانيا» فيسمح له، ويلتفت إلى العمدة يخاطب بقوله:

البرنس (العمدة) ـ كيف حال المحصول عندكم، كم رمى الفدان من القطن؟

العمدة ـ رمى الفدان عندى سبعة بأنفاس دولتكم.

التاجر ـ المحصول جيد، ولكن الأثمان فى هبوط وهل باع دولة أفندينا أقطانه أم هى باقية.

البرنس (لأحد جلسائه) ـ أنا لا أدفع فى ثمن الخنجر الذى رأيناه اليوم أكثر من عشرين جنيهاً، ولو كان عليه تاريخ صنعه لدفعت مايطلبه صاحبك فيه.

الجليس ـ لابأس به إلى الثلاثين.

البرنس ـ ما الذى تراه فى مسابقة الخيل غداً.

الجليس ـ أرى فرس البرنس سابقاً بغير شك.

قال عيسى بن هشام: ولما جاءت الزجاجة المطلوبة بادر العمدة إلى جيبه فأخرج منه ذلك الموز فمسح واحدة منه

وتعمها إلى البرنس ووزع البقية على الحاضرين، فيجد أخدهم صوفاً متلبداً فى الموز فيعافه ويتركه على المائدة.

أحد الجلساء (العمدة) ـ هل هذا الموز من زراعتكم وهل تنضجونه فى الصوف عندكم؟

العمدة ـ كلا ياسيدى بل هو موز «النيوبار» ولم يمكث فى جيبى غير مسافة الطريق، ومعى أيضا برتقال أحمر وبلح أصفر وقشطة خضراء.

أحد الجلساء ـ أظن أن لكم شركة مع حسن بك عيد فى تجارة الفاكهة؟

التاجر ـ حضرته لا يشغل بالتجارة، وليس كل الناس من يقدم عليها فهى ربح محفوف بالخطر.

العمدة (للخادم) ـ أحضر لنا أيضا زجاجة شمبانيا انكليزى.

أحد للجلساء (لاخر) ـ يظهر أن الفدان رمى بعشرة.

الجليس ـ فى البنك العقارى.

البرنس ـ وما معنى انكليزى؟.

الجليس ـ يعنى أنها من جنس الجنيه.

قال عيسى بن هشام: وفى هذه الأثناء يعود بائع الزهور فيلقى فى أذن البرنس كلاماً، فيقوم البرنس فى الحال ويخرج

والبائع أثره، ثم يتسلل الجلساء من بعده واحداً واحداً، فلا يبقى منهم أحد، وتخلو المائدة للعمدة، فيشرب سؤر الكأس التي تركها البرنس، ويميل على ما بقى في آنية النقل فيأتي عليه أكلاً.

التاجر (العمدة) - ينبغي أن تطلب من الخادم غيرها قبل حضور دولة البرنس.

العمدة - أنا لا أطلب شيئاً إلا فى حضور دولته.

الخليع - أظن أن دولته لا يعود فى هذه الليلة، وهذه عادته إذا هو قام مع أحد الباعة عند تمام نشوته.

العمدة - ولكننى لم أره دفع شيئا من الحساب.

التاجر - لعل له هنا حساب جاريا.

الخليع - نسأل الخادم.

العمدة (الخادم) - ألم يدفع دولة البرنس شيئا؟

الخادم - لم يدفع شيئا قبل خروجه.

الخليع - وكم الحساب؟

الخادم : مائه وواحد وعشرون فرنكا.

العمدة - أنا لا أصدق أن أفندينا يخرج من غير أن يدفع ما عليه من الحساب، ومع ذلك فلننتظر عودته.

الخادم - إذا قام البرنس على هذه الصورة فإنه لا يعود، وإن أردت ألا تدفع ثمن ما شربه البرنس فإنا أقيده في حسابه.

العمدة - وأنا إذا كنت أدفع شيئا فلا أدفع إلا ثمن ما شربه دولة البرنس وحده.

وفيما هم على هذا النزاع إذ دخل أحد وكلاء المديريات، فينهض العمدة لمقابلته، ويلح عليه في الجلوس معه، ثم يلتفت إلى الخادم بصوت عال.

العمدة - علي بتفصيل الحساب وبين لي فيه ما شربه دولة البرنس، وما أكله دولة البرنس، وبكم شرب أصحاب البرنس، وكم شربنا مع البرنس وكم شرب قبلنا البرنس، واسأل سعادة البك الوكيل ماذا يشرب، وعد لأدفع لك كل الثمن المطلوب.

الوكيل - أنا لا أشرب شيئا.

العمدة - كيف لا تتفضل علينا بالشرب معنا، كما تفضل دولة البرنس إرضاء لخاطرنا؟

الوكيل - لا بأس أن أشرب كأس واحد من «الكنياك».

العمدة - لا والله لا تشرب إلا «شمبانيا»، كما شرب معنا دولة البرنس.

الخليع (العمدة) - لماذا لم تقدمنا للتعارف بسعادة البك؟

العمدة - سعادته وكيل مديريتنا، وحضرته (مشيرا إلى التاجر) من أكابر التجار، وحضرته (مشيراً إلى الخليع) من ظرفاء مصر.

الخليع (الوكيل) - تشرفنا بهذه المعرفة، وكيف حال سعادة المدير فهو من أعز أصحابى وطالما قضينا معه أوقات أنس وسرور.

العمدة (للوكيل) - أظن أن سعادتكم حضرتم إلى مصر فى عقب كشف الرتب القدم إلى الداخلية.

الوكيل - نعم كنت اليوم فى الداخلية وسينتهى الأمر إن شاء الله على ما تحب.

العمدة (للخادم) - زجاجة شمبانيا أخرى.

الوكيل - يكفى فإنى أريد أن أنتقل إلى داخل المكان فى مجلس إخواننا القضاة ووكلا النيابة.

الخليع - لا لزوم لانتقال سعادتكم فإنا ندعوهم للجلوس معنا وفيهم فلان وفلان من أعز أصدقائى.

الوكيل - لا تكلف خاطرك بذلك فإن الأليق أن أذهب للجلوس معهم.

العمدة ، الوكيل) - إذا كان الأمر كذلك فكلنا نقوم مع سعادتكم ويأتينا الخادم بزجاجة الشمبانيا هناك.

الوكيل - إن أردت ذلك فلا بأس.

قال عيس بن هشام: فيقومون فيجلسون مع أهل نلك المجلس، ويحضر الخادم بزجاجة الشمبانيا، فيرجوهم العمدة الشرب منها فيمتنعون، فيشدد فيمتنعون، فيقسم عليهم بالطلاق وهو يتلعثم سكراً إلا شربوا معه، ثم يتناول الكأس ويقوم متساندا على الخليع ليشرب معهم، فما يكاد يضع الكأس فى فيه حتى تأخذه غصة فلا يملك نفسه عن رد الفعل فتتلوث ثيابه، ويبادر الخليع مع الخادم إلى سحبه داخل المكان ليصلح ما فسد من أمره.

ثم لبثنا مدة ننتظر العمدة، ونترقب له الرجعة والعودة، حتى أقبل يتهادى فى مشيته، بعد أن أفاق من غشيته، وعمد إلى الخروج والخليع عن يمينه يناجيه، والتاجر عن شماله يرائيه ويداجيه.

العمدة فى المرقص

قال عيسى بن هشام: ولما خرجوا من نلك المحفل، ونحن أتبع لهم من الظل، سمعنا العمدة يشكو للخليع فى طريقه، وما يجده من انقباض الصدر وضيقه، ويسأل التفريج لكربه، والترويح عن قلبه، ويذكره بما كان من الوعود، ويطالبه بزيارة نلك المجلس المعدود، ويقول له: تالله لقد أنصبتنا وأجهدتنا فهلم بنا الآن إلى ما وعدتنا، لنريأ عنا الهم بربيئات الخدود، ونكشف عنا الغم بكاسفات البدور، ونجلو أعيننا بنجل العيون، وننعش أنفسنا بناعسات الجفون، ونستصبح جيش الصباح، فيقطع عليه الخليع كلامه، ويدفع عن نفسه ملامه، بأن طول

الانتظار، يذهب بحسن الاصطبار، ولا صبر لذوات الدلال، على خلف الوعود من الرجال، وقد جاءني رسولها في غفوتك برسالة، تشكو فيها مات لحقها من السأمة والملآلة، وتنحى على بالعتاب المر، وأن مافعلته معها ليس بفعل الحر؛ إذ اخترقت من أجلنا ما اخترقته من السجوف والكلل (١٣٥) ، وتحملت في مجيئها ما تحملته من الخوف والوجل، حذر الوشاة والرقباء، وخشية الأهل والقرباء. ثم إنه أقامت طويلاً في انتظار اللقاء، وهي على مثل حر الرمضاء، فإذا الوعد بلا وفاء، وإذا الدين بلا قضاء، وكأنما كانت تنتظر غائبا لا يئوب، وتستمطر سحاباً لا يسح ولا يصوب، فذهبت بحسرتها، ومضت لطيتها (١٣٦) وفاتنا ما كنا نبتيغه، وأيئسنا ما كنا نرتجيه، وتلك فرصة أضعناها لنزعة شيطان أطعناها. فيقول التاجر: إذاً ما الذي اكتسبناه؛ بعد الذي احتسبناه؟ وماذا أفدناه، بعد الذي فقدناه؟ وأين منا ما نجمع به شملنا، ونبدد به ليلنا؟ فيقول له الخليع لم يبق أمامنا في هذه الساعة، سوى ملاعب الرقص والخلاعة، عسانا نجد فيها بديلاً، مما لم نجد إليه سبيلا فيخرج العمدة دراهمه فيعدها، ثم يخشخش بها ويردها. فيقول له التاجر: لا تهم فدرهم الأنس ميسر. ويقول للخليع: تقدم، فما من شئ عليك معسر. فيعطف بهما الخليع من غير إبطاء، إلى حان للرقص والغناء. فدخلوه ودخلنا من خلفهم، وجلسوا وجلسنا في صفهم، فرأينا المكان حومة وغى احتدم وطيسه، وميدان حرب اصطدام خميسه (١٣٧) ؛ عجاجته الدخان، ومتارسه الدنان، وسلاحه الأباريق والأقداح، ودروعه

الغلالة والوشاح، ونباله أصمة القوارير[١٣٨] وطبوله توقيع العيدان والمزامير، ومغافره العصائب والأكاليل[١٣٩] . وأعلامه المآزر والمناديل، وقواده وشجعانه، قواده وغلمانه وكأن منصة الرقص هي حصنه الحصين، وصاحب الحان هو قائد الكمين، وكأن المغنين هم الكماة والأقران، والراقصات الحماة والفرسان.

أولات الظلم [١٤٠] جئن بشر ظلم

وقد واجهننا متظلمات

فوارس فتنة أعلام غى

لقينك بالأساور معلمات

وترى كل ذات ثدى حاسر بارز تنادى: هل من منازل أو مبارز؟ ثم تتبختر وتجول، وتخطر وتصول، فترمى كل طالع فى وصالها بسهام اللحاظ ونصالها، ثم ترشق بها الدنان تارة فتسيل بدم العقار، وتشق بها الجيوب أخرى فتسيل بدم النضار:

وقد أغمدن فى أزر ولكن

سيوف لحاظهن مجردات

قدحن زناد شوق من زنود

بنار حليها متوقدات

وترى فى وسط تلك المعركة، من كل هلوك مـهلكة [١٤١]، تنساب فى حلة رقصها وتسعى، كأنها حية فى قميصها أو أفعى، لعاب الأفاعى القاتلات لعابها، وأنياب الأسود الضاريات أنيابها تنفث السم رائحة، وتنتهش غادية، وإن رأيتها شادنة، وسمعتها شادية، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

قال عيسى بن هشام: ولما طال جلوسنا وضاقت أنفاسنا، وكاد يغمى علينا من كريه الروائح المنعبثة من أرجاء المكان، المتصاعدة من أكنافه: رائحة عكر الخمور، ورائحة عرق الأبدان، ورائحة زيت المصابيح، ورائحة الدخان والحشيش، ورائحة أنفاس المخمورين، ورائحة تلك المراحيض التى لم يدخلها ماء، ورائحة الأرض التى تسقى بالأقذار ولم تسطع فيها شمس ولم يتغير عليها هواء، فإذا امتزجت هذه الروائح بعضها ببعض، انعقدت منها فى جو المكان سحابة سوداء، تمطر الأدواء، وتساقط الأوباء، فتستنشقها الأنوف، وتمتصها الرئات، وتضوى بها الأجسام وتتضاءل منها ذبالات المصابيح، تضاءلها فى أجواف المناجم وبطون الكهوف. وكاد الباشا يختنق، وهم به الغثيان، فهم بالقيام فأمسكت به وقلت له:

عيسى بن هشام - أيصبر مثلى على هذا المقام، ولم أشهد فى عمرى معركة، ولم أحضر معمعة، ثم يجزع منه مثلك، وقد مارست الحروب، وشاهدت الوقائع تحت سحب العجاج، وفوق جثث القتلى وأشلاء الجرحى لا تبالى برائحة الجيفة، ولا برائحة الدم ممزوجاً بصدا الحديد؟

الباشا - لقد كان ذلك ولكن فى الخلوات والفلوات حيث تسطع الشمس وتجرى الرياح ولم أستنشق تلك الروائح منحصرة كانحصارها فى هذا المكان، ومع ذلك أتجلد مثلك للبقاء به كيلا يفوتنا شئ مما نحن بصدده من بداية الامر إلى نهايته.

وبينا نحن كذلك إذا بصديق لى دنا منى فسلم على وأظهر لى تعجبه من دخولى هذا المحل، فاظهرت له تعجبى من دخوله أيضا، فاجابنى بقوله:

الصديق - إن السبب فى دخولى هنا هو البحث عن رجل احتال على فى بعض الشئون ثم غاب عن نظرى، وأنا أعلم أنه يأوى إلى مثل هذا المكان، فدخلته على كره منى بعد أن حرمت على نفسى التردد عليه منذ زمان بعيد، وحكم الضرورة مطاع، ولكن قل أنت ما الذى جاء بك إلى هذا الوكر، وكر الأفاعى، وأدخلك فى هذا العش، عش الشيطان؟

عيسى بن هشام - أدخلنا فيه حب الاستطلاع والاستكشاف عن الأخلاق والعادات، ولكننى فيه غريب لا أفقه كثيرا مما أرى، والحمد لله الذى سخرك لنا فى هذه الساعة، لتبين لنا ماغمض وتبدى لنا ما يخفى.

الصديق: لك ذلك منى وفوق ماتريد.

قال عيسى بن هشام: وجلس الصديق معنا يحدثنا ويرشدنا، ويسرد علينا من غرائب الوقائع وعجائب النوادر فى

هذا الباب ماأدهشنا به. ثم انقطع الحديث بيننا بدخول رجل يتمايل سكراً، فاخترق صفوف الجالسين، وقد سكنت ضوضاؤهم، وهدأت حركاتهم، لسماع الغناء من إحدى القيان البارعات فيه، فاعناقهم نحوها مشرئبة، وأبصارهم إليها شاخصة، كأنهم جالسون تحت المنبر يستمعون أحسن الحديث من وعظ الخطيب. واستمر السكران في سيره يقع بينهم مرة ويقوم أخرى، حتى وصل إلى منصة الرقص والغناء، فضرب عليها مراراً بعصا في يده، ونادى على من فيها بأعلى صوته يطلب العدول عن الغناء إلى الرقص، فلم يسمعوا لندائه، فالتفت إلى زمرة من الجالسين، وطلب منهم مساعدته على عرضه فنادوا معه: الرقص الرقص، ونادى الراغبون في السماع: الغناء الغناء، فانبرى لهم السكران يهزأ بذوقهم، ويسفههم في سوء اختيارهم، فأجابه سفيه منهم على سفاهته، فهجم عليه السكران بعصاه، فقفز صاحب الحان من مكمنه إلى السكران؛ فأخذ بتلابيبه. ويقوم طالب الغناء حينئذ من مكانه، فيشبع السكران ضربا وصفعا، فيتعلق السكران بخناقه وينادي: «البوليس البوليس»، فيجتمع غلمان الحان يجرونه إلى الخارج، وهو ممسك بعنق الضارب له لايخليه، حتى إذا صاروا إلى الباب أدركهم جندي «البوليس»، وقبض على المتضاربين، فيتعرض له صاحب الحان، ويمنعه من القبض على الضارب، ويقول له: ليس لك إلا أن تأخذ هذا السكران وحده، فقد جاءنا بعد أن امتلا سكراً من الخارج يعربد في محلنا، وكأنه مأجور من أرباب الحانات الأخرى

للإضرار بنا، وإحداث الفشل في محلنا، فيأبى الجندى إلا أن يسوق المتضاربين معا، فيغمره صاحب الحان ليلين له، فيبتدره أحد غلمانه قائلا له: لا لزوم لما تأتيه مع هذا الجندى من المصانعة وغرضنا يقضى بدونه، فإن حضرة معاون القسم جالس عندنا داخل «البار» مع صاحبته.

صاحب الحان (للجندى) ـ لم يبق لك من وجه لسحبهما إلى القسم، وتعالوا ندخل جميعاً عند حضرة المعاون فى «البار».

الجندى ـ هذه حيلة غير خافية تريد بها تهريب صاحبك، وكيف يكون حضرة المعاون موجوداً الآن فى «البار» والنوبة عليه الليلة فى القسم؟.

صاحب الحان ـ ما عليك إلا أن تدخل وهما فى قبضتك لتراه بعينك، فيجيب الجندى صاحب الحان إلى ذلك، فيدخل فيرى المعاون جالسا بجانب صاحبته خالعا رداءه على كتفها، وطربوشه على رأسها، وهو يسقيها من كأسه وتعاطيه من كأسها.

صاحب الحان (للمعاون) ـ لقد تعطل المحل يا حضرة الأفندى فى هذه الليلة، وتعطيله لايرضيك، فإن هذا الرجل دخل علينا سكران ولم يشرب من محلى شيئا، فعربد بين الجالسين وأخل بنظام الاجتماع، ثم تعدى على هذا البك بالشتم والضرب، وهو من أجل المترددين على المحل، والغريب أن جندى البوليس هذا لم يسمع لقولى فيه بل صمم على سحبه

مع ذلك المتعدى إلى القسم، وهو من أبناء الكرام، ولا يليق بكرامته أن يساق مع هذا السكران إلى المحاكمة.

المعاون (للجندى بعد أن يلبس طربوشه) - ما هذا الذى أسمعه؟

الجندى (رافعا يده بسلام التعظيم)

- لم أعلم بوجود حضرتكم هنا، والأمر إليكم.

المعاون (للجندى) - إذا كان الرجل السكران فى حالة سكر بين، فخذه وحده إلى القسم، وما دام حضرة البك لم يحصل منه اعتداء بشهادة حضرة الخواجه، فلا لزوم لذهابه معك، ويكفى أن حضرته يعطينا وعدا بالحضور غدا إلى القسم لأخذ شهادته على هذا السكران .

(وعند ذلك يدفع صاحب الحان بالسكران إلى الخارج مع الجندى).

الجندى - إذا كنت تطاوع غلامك كل مرة يشير به عليك يا حضرة الخواجة فليس يكون حضرة المعاون عندك فى كل ليلة، والأيام بيننا .

صاحب الحان - أوصيك بهذا السكران شراً، ولا يكن عندك شك فى دوام الرعاية بك.

قال عيسى بن هشام: وخرج السكران أمام الجندى مدفوعا فى ظهره، يقع ويقوم ، ويستعدى ويستنجد. وعدنا إلى داخل الحان ننظر ما يجرى فيه، فإذا صاحب الحان ومعه البك

خصيم السكران قد جلسا مع حضرة المعاون والكئوس تغدو عليهم وتروح، فجلسنا ناحية نستمع لهم، ونؤثر ما يجرى من حديثهم على نحو ما ترى.

صاحب الحان (للمعاون) - لماذا أوعزت إلى صاحبتك بالقيام عند جلوسنا معك؟

المعاون - أنا لم أوعز إليها بشئ ، ولكنها هى التى قامت مغضبة.

صاحب الحان - ولأى سبب أغضبتها؟

المعاون - لم آت سببا يغضبها، بل هى التى انتحلت سببا كدرتنى به وكدرت نفسها أيضا.

صاحب الحان - لاشك أن ماحصل هو من باب الدلال دون سواه، وسأعودها فى الحال لعقد لصلح بينكما.

المعاون - لادخل للدلال هنا، ولكن جرى فى أمر حضرة البك والسكران ما هو على خلاف هواها، فإنها كانت ترغب فى التضيق على الأول والتفريج عن الثانى، لأن حضرة البك هو من أكبر أصحاب المغنية، والمغنية من ألد أعدائها.

صاحب الحان - لقد حرت فى أمر هذه الفتاة، فإن ضروب حماقتها لاحد لها، وفى كل ليلة تأتينى بنوع من المشاكل جديد؛ ينتج عنه مالا يعوض من خسارتى، ولولا منزلتك عندى ومنزلتها عندك لما أبقيتها فى المحل يوماً واحداً، ولاكابدت اعطاءها فى كل شهر مقدار ما يأخذ وكيل المديرية مرتبا من

الحكومة ولو شاهدت منها ما أشاهده كل ليلة من تسافهها على الرجال، وتخاصمها مع النساء اعتمادا على سلطتك، واتكالا على مساعدتك لعلمت مقدار حماقتها وجنونها.

المعاون - نعم إن حماقتها عظيمة، وطالما شددت عليها لتجتنب المنازعات والمشاجرات، حتى لايقال: إن علاقتها بى هى التى تجرئها على ارتكاب ذلك، ولكنها على كل حال سليمة القلب، خفيفة الروح.

صاحب الحان - صدقت وهى مع ذلك تحبك حبا صادقا.

وهنا تدخل المغنية فى البار بعد انتهائها من الغناء، فتتقدم نحو هذا المجلس لتسأل من حضرة البك صاحبها عما تم عليه أمر المخاصمة مع السكران، فيقول لها:

البك - أنا فى غاية التشكر لحضرة المعاون الذى أنصفنى، وفى غاية التكدر لما وقع له من فلانة بسببى، فإنها اهتاجت غضبا لما علمت بمساعدته لى، وهى تبغضنى لعلاقتى بك، فبحياتى عليك إلا ما قبلت التوسط فى الصلح بينكما، وإزالة ما فى النفوس، فتعود راضية على حضرة المعاون، ويتم الصفو لنا جميعا.

صاحب الحان - أنا أوافق على هذا الرأى المعاون - وأنا لا أرفضه.

البك - وأنا أرسل فى طلبها.

قال عيسى بن هشام: وتحضر الفتاة فيقع نظرها على

المغنية جالسة مع المعاون وأصحابه فتشتعل جذوة نار من الغضب، وتنقلب لبؤة هاجت لفقد أشبالها، فتشتم وتسب، وتقذف وتعلن، وتتفل وتبثق، وتنقض على المغنية فتأخذ ببرقعها فتزيلها من مكانها، وتلتفت إلى المعـ ون فتتوعده بالشكاية والطعن فيه لدى رؤسائه، ثم إلى صاحب الحان فتتهدده بأنها لاترقص فى ليلتها، فلا يسمع صاحب الحان إلا أن يتلافى الفضيحة، فيجرها إلى خارج البار بالقوة ليتمكن المعاون أن يتسلل هاربا، ثم أخذ ينصحها ويحذرها، ويقول لها: إن المعاون قد ذهب إلى القسم الآن، وقلبه مملوء منك حقدا وغيظا، فإذا أنت لم ترجعى عن حماقتك، وتصعدى إلى المنصة للرقص، أوعزت إلى المغنية أن تمسك بك وتذهب مع إلى القسم، والحاضرون يشهدون أنك تعديت عليها بالضرب والمعاون هناك ينتظرك للتشفى منك.

قال عيسى بن هشام: فوقع هذا القول منها وقع الماء فى النار، وإنذار الحجز على أهل الدار، فهدأ جأشها، وسكن طيشها، وصعدت للرقص على منصتها، تتأوه من حسرتها وغصتها، وعدنا للجلوس أمام الميدان، ننظر ما يكون من الغلبة والخسران.

قال عيسى بن هشام: وجاء دور الرقص، فضجت الغوغاء، واشتدت الضوضاء، وامتدت الأعناق بالصفير والنعيق، واشتعلت الأكف بالتصفيق ترحيبا وتأهيلا، وتكبيرا وتهليلا، إذ قامت على المنصة هلوك ورهاء (١٤٢) .

عمشاء مرهاء (١٤٣) فطساء فوها، عجفاء شوهاء(١٤٤) مزججة الحاجبين، محمرة الخدين، مبيضة الساعدين، مخضبة اليدين، قد ألبست وجهها من الطلاء نقابا، وأسدلت على أطرافها من الدهان ثيابا، بأصباغ شتى وألوان: بين أبيض ناصع، وأسود فاحم، وأحمر قان، نتلون تلون الحرباء، في هجير البيداء، وقد وارت ما تعرض من جسمها، وتعرى من لحمها، بانواع العقود والقلائد، والاساور والمعاضد، والدمالج والجلاجل، والمناطق والخلاخل ، فاخذت في الرقص والحجلان، على توقيع الضروب والالحان، وبجانبها خادم ماشككنا من قبح هيئته، أنه إبليس اللعين في طلعته، ركبت منه أقبح هامة (١٤٥)، على أسوإ قامة، بوجه قد من الصخر، وعين كعين الصقر، وأنف كمنسر النسر، وفم يرمي بالزبد كالبحر، وشفة مهدولة، وعمامة مجدولة، وفي يمينه قدح وإبريق، يسقيها منه بكاس من حريق، لابكاس من رحيق، ويعاطيها من غسلين او قطران(١٤٦)، ويجرعها من حميم آن، وكلما أترع لها كاسا، همست في أذنه همسا، ثم تشير بطرف الكف، إلى بعض الجلوس في أول صف، فيصيح اللعين صيحة الاسد في عريسته(١٤٧)، وقع بصره على فريسته، فيجيبه غلام الحان جذلا وابتهاجا، ويأتيه بالزجاجات أزواجا، فيفض عنها الفدام، ويصففها أمامها تحت الاقدام، ولا يزال خادمها يملأ لها ويسكب، وهي تشرب وتطلب، لا تكتفي ولاتقنع، ولا تروى ولا تنقع، كانما يمتح لها من قليت(١٤٨)، ويصب في واد جديب، أو يملأ من ماء منبثق، ويفرغ في دن منخرق، فإذا دبت في

عروقها نمال الخمر، واشتعلت في جوفها اشتعال الجمر، جدت في لعبها ودورانها، واشتدت في قفزهاوجولانها، وتلوت كالحية في طرقها، ولعبت كالسلحفاة بعنقها، والخادم أمامها ينازلها وتنازله ويغازلها وتغازله، ويراقصها وتراقصه ويقارصها وتقارصه، وهي ترسل على الحاضرين أقوالا بذيئة، وتخاطبهم بألفاظ قبيحة رديئة، فتفتر لها الثغور، وتنشرح الصدور، ليس فيهم إلا كل مستحسن مستزيد، ومستملح مستعيد، إلى أن تخور قواها، وتغور عيناها، وتتقلص شفتاها، ويكلح شدقاها، وينصح العرق من أطرافها وتراقيها، وينعقد الزبد بنحرها وفيها، فتضطر إلى إزالته، وتعمد لإزاحته، فتتناول المنديل تمسح به من وجهها ونراعها، فيتلون باشكال الصبغة وأنواعها، فيغدوا المنديل كأنه قوس قزح، بما تصبب من أديمها وارتشح، وينكشف التمويه والتلبيس، ويفتضح التلفيق والتدليس، فيظهر ما بطن، ويبرز ما كمن، وتنقلب إلى صورة سعلاة، تتراءى في سراب فلاة ، أوغول، تكشر وتصول، أو دب، يهتز ويدب، فحولنا عنها الوجوه استنكافا واستنكار، ولوينا الأعناق استقباحا واستقذارا، ومال الباشا على الصديق يسائله في دهشته، ويقول له في نفرته: أعلى مثل هذه تنوب القلوب، وتنشق المرائر والجيوب؟ وهل وصل العمى بالناس إلى هذا الحد، ولم يبق فيهم تميز للغزال من القرد؟

الصديق - نعم إن هذه - التي يهرب منها الوحوش لفظاعتها، ويتعوذ منها الشيطان لدمامتها - هي عند هؤلاء الحاضرين دمية االقصر، وفريدة العصر، كم ذهبت بأموال،

وأودت بأرواح، وكم أضاعت شرفا، وأزالت مجدا، وأذلت رقابا، وأفسدت حكاما، وكم فرقت بين المرء وزوجه، وولدت العقوق بين الوالد وولده، وألهبت العدواة بين الأخ وأخيه، وكم خربت بيوتا عامرة، ودنست أنسابا طاهرة، وكم بذرت للشر أسبابا، وفتحت للسجون أبوابا، وهؤلاء الذين تراهم جلوسا فى هذا المستنقع الوبئ والمرعى الوبيل، يقضون فيه ليالى الشهر تباعا، وشهور العام ردافا، لاتتوهمنهم من أسافل القوم، ولا من أدنياء الناس بل فيهم الكبير والأمير، والسرى والوجيه، وانظر عن يمينك إلى هذا الجالس بين إخوانه جلسة الكبرياء، فهو أحد أبناء الأمراء، مات أبوه وترك له أموالا جمة، فالتف حوله قرناء السوء من أهل البطالة والفراغ فبدأ فى تبديد تلك الأموال باقتناء الخيول المسومة، والمركبات المطهمة، ثم ثنى بالإسراف الفاحش فى مهرجان زواجه، ثم ثلث بتسلم ما بقى منها لأيدى العواهر والفواجر، وأخصهن هذه اللخناء [١٤٩] التى لم يبق له منها إلا التمتع بالنظر، وهى لاتنظر إليه، ولا تسأل عنه، بعد أن أستفرغت أمواله. وانظر عن شمالك إلى هذا الجالس الذى يفتل شاربيه، ويحملق بعينيه، ويغمز بحاجبيه، فهو من أبناء الكبراء أيضا، ماتت أمه فورث عنها أموالا طائلة، ولم يمض على موتها بضعة أيام حتى أوقعه سوء طالعه فى مخالب هذه الخداعة الغرارة، فهو لايصبر عنها، ولايقطع المجئ إليها فى كل ليلة، وهى تسلبه كل ماتصل إليه يده من خفيف وثقيل، وما كان لأمه من حلى وجواهر، غير ماينثره من الذهب والفضة فى أرض هذا المكان. وانظر أمامك

إلى هذا الجالس معظما بين جلسائه مبجلا، فهو من كبار الحكام في الأرياف، وقع في أشراك هذه المرأة فكادت لفظاعة أعمالها معه أن تسلخه من شرفه، وتسقطه عن منصبه، وهو مع ذلك لايسلوها، ولايلهو عنها، وليس له في مدة إقامته بالقاهرة غير بيتها مأوى، ومرقصها ملهى، فإذا هو عاد إلى مقر وظيفته عاد بغير لبه، فيسعى في استغواء العمد والأعيان لإقامة الولائم والحفلات، واستئجار هذه الراقصة لإحياء لياليها. وانظر إلى هذا الشيخ الجالس منفردا منزويا، ويده مرتشقة بين صدغه وعمامته، فهو من أعيان البلد، لم يمنعه وقار السن وهيبة المشيب من الوقوع في أسر هذه الغاوية، فأخذ يبدد عندها في شيخوخته، ما كان جمعه في شبيبته.

الباشا - لو أنه كان لهذه المرأة مزية ظاهرة من مزايا النساء، لقلنا الهوى في الناس داء قديم، والولوع بالحسان أمر بديه، والعذر غير معدوم، ولكن ما بالهم والمرأة في القبح والدمامة بمنزلة الشيطان، والهروب منها مندوب إليه، فهل تعلم لذلك من سبب خفي؟

الصديق - السبب فيه حب التباهي والتفاخر والأثرة والاختصاص، وقد اشتهرت هذه البغي بإتقان الرقص والتفرد فيه، وأنفس الجهلاء مولعة بالشهرة الباطلة والصيت الكاذب يتشبثون به عمي النواظر عمه البصائر، فهم يرون أن الاختصاص بمثل هذه الشهيرة في فنها، وإن قبح منظرها، وساء مخبرها، وهو الفخر كل الفخر والسبق كل السبق. وهم

مجبولون على الحكاية والتقليد، فلذلك نفذ فيهم سهمها، وسرى فى عروقهم سمها.

الباشا - إن كان لايوجد فى هؤلاء بينهم واعظ يرشدهم، أفلا كان من سلطان يزعهم، وحكم يكف الأذى عنهم؟

الصديق - لاواعظ ولاناصح، ولاسلطان ولا وازع، وقل بيننا من يشتغل للناس فى نفع الناس.

قال عيسى بن هشام: وانتهت الراقصة من رقصها، فدخلت حجرة لتغير لباسها، وإصلاح مافسد من حالها ، ثم نزلت منها وقد جددت ألوانها، وسارت تتكسر فى مشيتها بين الجموع وهم يرمقونها رمق الشهوة، ويتطلعون إليها تطلع البهيمية، فتزحزحت لها المجالس، وحلت لها الحبا (١٥٠)، وأعد لها كل فريق كرسيا بجانبه، وتناثرت عليها الإشارات بالتفضل بالجلوس، فلم تعبأ بشئ من ذلك ولم تلتفت إليه، واستمرت فى تكسرها وتهاديها، حتى وصلت إلى مقام صاحب الحان، فوقفت معه ملاعبة مداعبة، وممازحة مضاحكة، وجاء خادمها فى عقبها، فاستوقفه إليه ذلك الحاكم من حكام الأرياف، فوقف بجانبه يهزل معه ويمزح، ثم شاهدنا الحاكم يخرج من جيبه بعض الدراهم فوضعها فى يده، فانصرف الخادم إلى الراقصة فكلمها وأشار بيده إلى الحاكم يستعطفها له، ويستدعيها إلى الجلوس معه، فأبانت عن أمارات، الإباء والرفض فى أول الأمر، ثم انتهت بها لجاجة الخادم إلى الرضاء والقبول، فقصدت مجلس الحاكم وقصد الخادم غلام

الحان، فما جلست حتى كان الغلام بجانبها يحمل في يده أربع زجاجات من الشمبانيا، فبزلها كلها بمبزله [151] ففارت وفاضت، وانتشرت كلها حببا، والغلام متلاه عنها لايسرع الإملا منها، حتى إذا لم يبق بها مقدار صبابة [152] صبها الخبيث في الاقداح وقدمها للفاجرة، فبادرت إلى لمس كل كأس لمسة بيدها وفيها، ثم يعود الغلام بعد هنيهة لأخذ الزجاجات الفارغة، فتأمره بإحضار سواها. وهكذا يتوالى الحال في طلب الأدوار، حتى يبلغ إلى الدور الخامس في مدة يسيرة، وجميع الجالسين لايتحولون بنظرهم عنها، يراقبون حركاتهم وسكناتها، كأنما يرصدون نجما، أو يرقبون هلالا، ولما انقطع ورود الزجاجات، التفتت العاهرة إلى خادمها وهو على بعد منها، فرأته يشير إليها بحاجبيه تارة، ويطرف لسانه أخرى، فهمت بالقيام، فأمسك الحاكم بأذيالها، فصفعته صفعة مزاح على قفاه، بعد أنت لعنت أمه وأباه، استرضاء له عن تركها إياه، فهش وبش اعتقادا منه أنها لاتعامله بهذه المعاملة إلا لسقوط الكلفة، وتمكن الألفة، وتنسل من حضرته إلى حيث أشار الخادم، فتهبط على الفئة التي يميننا، وفيها ذلك الشاب الذي أفنى في حبها ماله، وأضاع في هواها شرفه، فخاطبته بلسان اللوم والعذل، تسأله لأي سبب دعاها، ولأجل أية علة أقلقها من مكانها، فيتلعثم المسكين، ثم يجيبها بأنه دعاها لمصلحاتها وقضاء حاجتها، فإن المحامي أخبره بنجاح قضيتها، فتتبسم له قليلا، ثم تلتفت عنه إلى سواه، فيستحلفها بالود القديم، والعهد العتيق، أن تجلس معه لمحة ليقص عليها

تفصيل الخبر، فتنفر منه، فيرميها بسوء الوفاء، وخيانة العشرة، ويبكتها مذكرا لها بما كان بينهما من الصفاء والهناء، وما أتلفه في معاشرتها من نضار وعقار، فتلطمه على وجهه لطمة المودب المعلم، وتجلس إلى جانبه، وتسأله أن يدع عنه ذكر تلك الليالي، والأيام الخوالي، وأن يحفظ عنها «قصة الأضراس» في باب الاعتبار. وروت له هذه القصة التي هي عندهن عماد الصنعة وأساس الفن «زعموا أن فتى كان يهوى فتاة وتهوا فعاشا تحت جناح الحب زمنا سعيدا، ثم طرأ على الفتي سفر يبعده عنها في طلب المال، وجاءت ساعة الوداع، فانهملت العبرات، وتوالت الزفرات، وأقسمت له بأن العيش لايطيب لها من بعده، وأن الموت أهون عليها من بعده، وسألته أن يبقي عندها أثرا منه تتعلل به في غيابه ساعة الحنين، أو تشم منه ريحة وقت هيام الذكرى، فقال لها سأترك لك بضعة مني، وأنتزعلك أثرا من بين لحمي ودمي، ثم عمد بيده إلى فيه فاقتلع لها ضرسا من اضراسه غير مبال بألم الانتزاع، ووجع الأقتلاع، وناولها إياه يقطر بالدم، فأخذته منه وأشبعته لثما وتقبيلا، ووضعته في حقة نفيسة، وسافر الفتي سفره ومضت عليه الأيام والليالي ثم آب من سفره خائبا لم يظفر بحاجته ولم يفز بطلبته، رقيق الحال ضعيف الركن، فذهب إلى دار صاحبته، وقد أضناه الشوق، وبراه النوى، فلما طرق الباب ولحته من النافذة تنكرت له وأنكرته، فناداها أنا فلان فاسمحي لي بالدخول، قالت له: ومن فلان فإني لا أعرفه؟ قال لها: خليلك وحبيبك، صاحب العهد الوثيق والعشرة الطويلة، قالت له: كل

الناس عاشر وفارق، فأيهم أنت؟ قال لها: أنا صاحب الضرس، قالت: أولك ضرس عندي؟ قال نعم، قالت: فادخل، فأجلسته وأحضرت أمامه حقة كبيرة وأمرته ففتحها فوجدها مملوءة بكمية عظيمة من الضروس، وقالت له: دونك، إنك كنت تعرف ضرسك من بين هذه الأضراس، فأنا أعرفك اليوم من بين الناس،. ولما أتمت الواعظة وعظها انصرفت عن هذا المجلس إلى مجلس ذاك الشيخ الوجيه، فيقوم لتحيتها واقفا، ويبدى لها نواجذه متهللا، فتجلس معه، وغلام الحان فوق رأسها ينتظر طلب الزجاجات، فلا تلتفت إليه، فيديم الوقوف، فتأمره بالانصراف، فيعود خائبا، وتقول لليشخ: إنها لاتريد أن تحمله فى حبها مغرما، ولاتقيسه عندها ببقية الحاضرين الذين تسلبهم لصاحب الحان، فيخرج الوجيه من حزامه عقدا يتلألأفيضعه بين يديها، فتبسم له وتنعطف إليه، وتقيم عنده مدة مضاحكة ومغازلة، ثم تقوم لتنصب على سواه شباكها، وترمي لصيد القلوب أشراكها.

تحي وجوه الشرب فعل مسالم [١٥٣].

يضاحكه والكيد كيد محارب

قال عيسى بن هشام: وأقمنا نتأمل فى أفعال هذه البغى الفاجرة، ونفكر فى أعمال هذه الخداعة الماكرة، ونعجب كيف يقتدر مثلها على ختل الرجال، فترميهم فى مهاوى الغواية والضلال، وهى عارية من ثوب الجمال مجردة عن جميع المزايا والخصال، مفرغة فى قالب الوقاحة، معجونة من حماة الدمامة

والقباحة، ومازالت الفاجرة تتقلب بين الجالسين وتتنقل، وتتجول بين الصفوف وتتحول، وتروح إلى صاحب الحان وتغدو وتخفى أونة ثم تبدو ، منطلقة اللسان بالسب والسلب، منبسطة اليد بالنهب والسلب، ممتدة الكف باللطم والضرب، دائبة فى السكب والشرب، وهى فى تنقلها تقطب تارة وتتجهم، وتفتر تارة وتبتسم، وتنبسط حينا وتنقبض، وترضى ساعة ثم تمتعض، وتعامل كل إنسان بما يلائمه، وتجرى معه على ما يوائمه، فتضل الألباب والنهى، ويقع الجميع فى أسر الهوى، وآية حبها وميلها، أن تصفع الصب بنعلها، فإذا أضافت إلى الضرب بالنعال، شق القباء ونتف السبال[١٥٤] كان فى ذلك بلوغ الآمال، بدنو ساعة الوصال، واستوى المضروب يفاخر أصحابه وخلانه، ويباهى أنداده وأقرانه، كالظافر فى ساحة الطعان والضراب. والفائز بالغنائم والأسلاب فيغالى فى إظهار الابتهاج والانتناس، وتنبسط يده فى الكيس ويدها فى الكاس، والغلام على رأسه بالآنية، يصب لها زجاجة كل ثانية، وهى تصب الكئوس فى الهاوية، كأن حلقها قناة، وكأن الساقى ساقية، وحانت منها التفاتة إلى الخليع وصاحبيه، فإذا العمدة يشير بيديه، ويغمز بحاجبيه، ويقول للخليع فى اشتعاله والتهابه، ويخاطبه فى ارتباكه واضطرابه.!

العمدة (للخليع) ـ لقد أسعدنا الجد[١٥٥]، وحلت لدينا عاقبة الصبر، ولئن فاتنا الأنس بالغائب، فما أكمل أنسنا بالحاضر، وهذه الراقصة التى اجتمعت على محبتها القلوب، وافتتنت بها العقول، هى عندى الضالة المنشودة والأمنية المطلوبة، ومن يبلغنا إياها سواك، ويمن علينا بها غيرك؟

الخليع ـ هذه هى الفتانة المشهورة بكثرة العشاق والطلاب، ولاعيب فيها غير المزاحمة عليها، والمورد العذب كثير الزحام، والوصول إليها من دونه أهوال.

وإنك إن أرسلت طرفك رائدا

لقلبك يوما، أتعبتك المناظر

رأيت الذى لاكله انت قادر

عليه ولا عن بعضه أنت صابر

التاجر ـ نعم هذه هى البضاعة الثمينة والسلعة الرائجة، فاز من حازها، وخسر من فاتها، ولو كانت لأيام أيام ربح ورخاء ، لصبا إليها القلب وولعت بها النفس، ولكن لرب العيال ما يشغله عنها ويبعده منها.

العمدة ـ ليس يفوتنا على كل حال أن نتمنع بها الليلة بالمجالسة والمغازلة ونروى بمحادثتها الغليل، ونشفى بكلامها الهيام.

الخليع ـ حبذا لو جلست معنا ساعة ولكنك ترى من المزاحمة فيها، والمنافسة بين الحاضرين فى الغرام بها، والغرم عليها، ما يجعل نيل الغرض متعسرا ودرك الطلب متعذرا.

العمدة ـ أما المزاحمة عليها، فإن لنا من مهارتك ونباهتك ما يقرب الأمل بالوصول إليها، وأما المنافسة فى الغرم عليها فالامر مستدرك والدراهم موجودة.

التاجر - ما أشك بعد هذا في نيل الغرض وقضاء الوطر، وستنتهي ليلتنا بمسك الختام.

قال عيسى بن هشام: ويدعو الخليع خادم المرأة ويهم بإعطائه شيئا من الدراهم، فيسابقه التاجر، فيمنعهما العمدة ويقوم مقامها، فيلقي الخليع في أذن الخادم قولا، ويطول الخطاب بينهما همسا، ثم يذهب الخادم، فيعود بمولاته تتيه دلالا، وتتثنى اختيالا، وتبدى الرضا من خلال التمنع، فتسلم على أهل المجلس، وتخص الخليع بابتسامة، وتجلس بجانبه، وتسأله عما جرى في المجلس بعد انصرافها عنه بالأمس،فيقطع عليها هذا الحديث بالقهقهة، ثم يبدأ بعقد التعارف بينها وبين العمدة، ويطنب لها في علو شأنه ورفعة مقامة، فترحب به، فيرفع العمدة يده إلى رأسه مرارا تشكرا لها، فتلمح فص الخاتم يتألق في إصبعه ويتوهج، فتضع يمينها في يمينه وتجرها إليها ترصد الحجر، فيسيل الرجل طربا وابتهاجا، ويعتقد أنها كلفت به حبا وغراما، فلا يروعه إلا أصوات ينزعها الغلام عن الزجاجات تباع، وكلما أفرغ أربعا عاد بأربع، حتى هال التاجر من ذلك ما هاله، فمال إلى الخليع يناجيه، فسكن الخليع من روعه، وأزال الهواجس عنه، فيميل التاجر إلى الأقداح يكسب ويشرب، وإلى المرأة يهازل ويغازل، ويعاطي وينازل، والعمدة على حاله باهت شاخص، وموله مولع، والخليع مسرور مبتهج، لايرسل الكاس عن فيه، إلا ممسكا بأخيه، والمرأة تخدع وتكيد وتقول للغلام: هل من مزيد؟ ثم يخرج العمدة ساعته من جيبه ويتشاغل عن النظر

إليها بالحديث، فتقبض المرأة عليها تتمعن فيها وتقول له: قد آن أوان الانصراف، وحانت ساعة الختام . وتقوم مودعة، فيتلهف العمدة ويتحسر، ويسألها أن تتم جميلها بالبقاء معه بعد الانصراف فى مجلس آخر، فتضحك له ضحكة القبول، وتلطم الخليع بالمروحة على خده وتغادرهم إلى صاحب الحان فتجلس معه؛ ويأخذ الناس فى الانصراف، والخدم فى رفع الكراسى، وإغلاق بعض الأبواب، ولا يبقى فى المكان غير أصحاب الوعد من العاهرة: ذلك الحاكم الوامق، وذلك الغلام الوارث، بتاجره وخليعه، فإذا طال عليهم الانتظار، ويئس الواحد بعد الآخر من صدق الوعد عمدوا إلى الانصراف، يصحبهم الهم، ويرافقهم الكدر، إلا العمدة فإنه يلح فى الانتظار لشدة ما بها من سكر الهوى وسكر الخمر.

سكران: سكر هوى وسكر مدامة

ومتى يفيق فتى به سكران

ويقصد المرأة فى مكانها عند صاحب الحان، وهو يتعثر فى مشيته، ويجرر فى عباءته، فيقف بين يديها يستنجزها الوعد، فتتغضى عنه، فيلح عليها، فتلج فى الإعراض، فيخرج من جيبه كيس الدراهم ويبسط به راحته راجيا متضرعا، فتظهر له الجفوة، فتشتد به الصبوة، فيترامى عليها، فتدفعه برجلها عنها، فيقع على الأرض، فينثر مافى الكيس، فيعمد الخليع لالتقاطه، فيسبقه إليه صاحب الحان، ويتماثل العمدة واقفا، فيمد يده إلى المرأة فيأخذ بضفيرتيها يجذبها نحوه، فتسبه

وتلعنه، وتمسك بصاحب الحان. ويستمر العمدة في الشد والجذب، فتخونه الضفيرتان، فيرتمي على ظهره طريحا وهما في يده، والمرأة باقية في مكانها تصيح وتستغيث، فينقض من أقصى المكان رجل رث الهيئة، قبيح الطلعة، وسخ العمامة، يرفع في يمينه هراوة، ويتأبط في شماله صرة ثياب، فيقع على العمدة ضربا بالهرواة، ويدفع العمدة عن نفسه ضربا بالضفيرتين، ويتوسط بينهما التاجر، فيسأل الرجل عما يعنيه في الأمر، فيقول له: إنه زوج المرأة، وإنه يدافع عن حريمه، ولايرجع عن غريمه، فيتعرض له التاجر يمنعه عن الفتك بصاحبه، فينصحه الخليع بالرجوع عنه، لأن الرجل من أهل «الحماية»، وفي التعرض له إلقاء باليد إلى التهلكة. فإنه فوق القانون يجني ولاعقوبة عليه، فما يسمع العمدة هذا القول حتى يستنجد بالخليع لينقذه من بلائه، فيتقدم الخليع، فيكلم الزوج طورا، والحليلة تارة، وصاحب الحان أخرى، فينتهي النزاع بينهم على أن يترك العمدة ما التقطه صاحب الحان من دراهمه، مرضاة للمرأة عن إهانتها، وعوضا لها عن خسارة الضفيرتين. ثم يقوم صاحب الحان وينادي غلامه وهو مشتغل بإطفاء الأنوار، فيسأله عن حساب العمدة فيكونه له، فيلتفت إلى العمدة قائلا:

صاحب الحان (العمدة) ـ والآن فادفع لنا ثلاثة عشر جنيها ثمن المشروب، وانظر ماذا تعطينا من العوض في تعطيل المحل بهذه الأفعال الصبيانية.

العمدة ـ ما هذه الحسبة، وما هذا الكلام؟

صاحب الحان ـ أما الحسبة فصحيحة، وأما ما أتيته فإنه لا يليق بمقامك، وأنت رجل من أهل الوجاهه والرفعة ولكنها الخمرأم الشرور، وإن خالها الشارب أم السرور، وما كان لك أن نتعلق بهذه المرأة المشهورة بتمنعها عن أهل التنافس فيها، والنساء غيرها كثيرات فى المحل، وإن كان لابد لك منها، فأنا أسعى فى الصلح بينكما عند تشريفك المحل فى الليلة الآتية، وأرجو ألا تتوقف فى دفع هذه الحسبة الصغيرة، فإنى لاأرضى لك الإهانة ، ولا ترضى لنفسك الفضيحة.

العمدة (التاجر) ـ هل عندك ما نسدد به هذا المبلغ؟

التاجر ـ لاوحق العشرة وحرمة الصحبة فلم يبق معى من الدراهم لاقليل ولاكثير.

العمدة ـ (للخليع) ـ دبرنى يا صديقى فى أمرى، وانظر لى طريقة فى الخلاص.

الخليع ـ يعز على والله ما نحن فيه، ولكن عزت الحيلة، ولو كان صاحب الحان يقبل منى ساعتى هذه رهنا على هذا المبلغ لرهنتها عنده، ولكنه ربما استضعف قيمتها عن قيمة المطلوب ولو كان فى الوقت سعة لذهبت لاستحضار النقود بأية طريقة كانت.

العمدة ـ إن كان الأمر ينقضى بالرهن فهذه ساعتى أثمن من ساعتك، وهى عندى أعز على من روحى، لأنى أخذتها هدية

من دائرة «البرنسيس» يوم بعت لها أطيانها، وعليها حروف اسمها منقوشة، وقد قدرها لى الجوهرى بخمسين جنيها.

الخليع - إن كان الأمر كذلك فلا يليق رهنها، وعندك الخاتم ترهنه مكانها.

العمدة - هذا هو الاصوب، وإن كان الخاتم أغلى من الساعة قيمة، فخذه ياحضرة الخواجة رهنا عندك، حتى أسدد لك المطلوب فى الغد.

صاحب الحان - أنا لا آمن لهذه الفصوص اللماعة، فقد غشونى فيها مرارا بإحكام التقليد فى صناعتها، وليس هنا الآن من أثق به من أهل الصناعة، ليكشف لى عن حقيقة هذا الفص.

التاجر (بعد أن يمعن فى الفص) - كيف تقول ذلك وهو من الماس القديم وقيمته لاتنقص عن مائة جنيه، وأنا مستعد لرهنه عندي على خمسين جنيها، فانتظرونى ريثما أذهب إلى محل مبيتى وأرجع إليكم بالمبلغ.

صاحب الحان (مكفهرا) - ليس عندى وقت للانتظار، فقد مضى الميعاد المقرر لإغلاق المحل، وهذا جندى «البوليس» واقف أمامنا يتعجلننى فى مطاوعة أوامر الحكومة.

الجندى - نعم مضى الميعاد، ولابد من الاغلاق حالا، فانظروا معكم شيئا آخر للرهن يفض به هذا المشكل.

الخليع (العمدة) - أعطه الساعة، فلاحول ولا.. وليس هناك ما تخشاه عليها فإننا نستخلصها غدا بعد أن تقابلنى فى الصباح بقهوة الموسكى.

صاحب الحان (بعد التأمل فى الساعة) - هذه الساعة لاتوفى قيمة المطلوب وحدها، فاترك الخاتم معها أيضا.

العمدة - هذا لا يصح مطلقا، فإن المبلغ المطلوب لايزيد عن ثلاث عشر جنيها، على فرض صحته.

الخليع - مادام العزم أكيدا على فك الرهن غدا فسيان رهن قطعة أو رهن قطعتين، وأنا أرجو الخواجة أن يتجاوز لنا عما يطلبه من العوض فى تعطل المحل.

صاحب الحان - إنى أتجاوز عنه لأجلك.

قال عيسى بن هشام: ويشدد جندى البوليس فى طلب الإغلاق فى الحال، فلا يسع العمدة إلا التسليم فى الخاتم والساعة، وبينا الجميع يتأهبون للخروج، والمرأة واقفة تهزأ وتسخر، إذ دخل رجل قبيح الخلقة، جهم الوجه، عريض القفا، جاحظ العينين، واسع المنخرين أهرت[١٥٦] الشدقين، فأخذ يجيل فى الحاضرين نظرة يمينا وشمالا، ثم تقدم إلى المرأة فسبها ولعنها ولطمها ولكمها، وقال لها: قد فات الوقت ومضى الميعاد، وأغلقت الحانات، وأنا قاعد فى انتظارك بالبيت، وأنت واقفة هنا تلعبين وتسخرين، فأين هذا الصيد الذى ألهاك عنى وأنساك أمرى ياعاهرة؟ فتجيبه مع الذل والانكسار بأنها أخطأت، ولكن لها العذر، فقد وقعت حادثة مع بعض العمد

يشـهد بهـا الحـاضـرون. وتذكـر له مـا كـان من هـجـوم العمـدة عليها ونـزع ضفيريتيها فيشـهد زوجها مع خدامـها بتفصيل الواقـعة، فـيزمـجـر الرجل ويتوعد، ويعمد للحـاق بالعمدة وهو يعدو نحو الباب، فتستعطفه الفاجرة، وتطلب منه ألا يكدر على نفسـه صـفاء الليلة بالوقوع فى مـخـاصـمة أخرى، وتطلب منه الإسراع إلى البيت فى صحبتها.

وخرجنا مع الباشـا نتعوذ من كيد النساء، ونتـأسف على وقوع الرجال فى أشراك المكر والدهاء، وكيف نزل العمى بهم والجـهل، حتى يستسلموا لهذا الخداع والختل، ويخرجوا عن مـثل هذا المكان الدنئ والموطن الردئ، وقـد خرجـوا من الثـروة والشـرف، ودخلوا فى البؤس والتلف، ونزلت بهم أنواع المرض والسقم، وصب عليهم سوط الأحزان والنقم، ثم التفت البـاشـا إلى الصديق يسائله فى أثناء الطريق:

الباشا ـ ألا تخبرنى أيها الناقد الخبير، كيف يصبر مثل هؤلاء الناس على الإقامة فى هذا المكان، وكيف يترددون عليه ليالى متتابعات، ولا يدركون ما يدركهم فيه من الهلاك والوبال، وقد كـاد يقضى على للإقـامة فيه بضـع سـاعـات، فمـا وجـار الضـبع ومـا وكـر الظربان [١٥٧] ، ومـاقبـر الميت ـ يرحمـا الله وإياك ـ بأنتن رائحة، ولا أقدر مكانا، ولا أسوا مقـامـا من هذا الذى كنافيه.

الصـديق ـ يصـبـر الناس على الإقـامـة فى هذا المكان، ويكثرون من التـردد عليـه، بحكم التـدرج وإلف العـادة وقـوة

التمادى، وكأنما أبدانهم تتلقح شيئا فشيئا بسمه، فلا تحس بضرره وألمه، كالمريض يذهله المرقد عن ألم الداء، وبتر الأعضاء، وإن شئت فكالهندى يتدرج ويرتقى فى تناول الأفيون، وهو سم قاتل، حتى ينتهى بجسمه إلى حال لو لسعته معها عقرب أو لسبته [١٥٨] حية لم يؤثر سمها فيه.

الباشا ـ أفدت بما شرحت، وقد بقى عليك أن تفسر لى ما أشكل على من أمر الرجلين مع العاهرة، أحدهما الذى يقول إنه زوجها، والثانى الذى أخذت بيده أمامه إلى بيتها.

الصديق ـ أما الزوج ـ فإنه رجل من سفلة المغاربة المنتمين إلى دولة أجنبية، تحميه من سلطة القوانين المصرية أن تناله عند مخالفتها، وهذه المزية هى التى تؤهله عند العاهرة للتأهل به، فتدخل حينئذ فى حمايته، وتخرج ببركته عن دائرة المحاكمة والعقوبة إذا أتت فى فسقها وفجورها ما يخالف أوامر الحكومة، ويعيش الرجل معها زوجا بالاسم، وديوثا بالفعل، وذلك فى مقابلة شئ من الدراهم يتناوله منها فى كل ليلة، وهذه الطريقة قد تألفها الناس، ولم تقتصر على العواهر، بل تعدتهن إلى أرباب القضايا وأصحاب الجرائد. فترى صاحب القضية يتنازل فى الظاهر عن قضيته إلى أحد أولئك المسخرين من رعايا الدول الأجنبية، ليتخرج بها من نظام المحاكم الأهلية إلى نظام المحاكم المختلطة، إن ترجح لديه نجاح قضيته فيها وترى صاحب الجريدة، الذى يزعم أنه الواعظ المرشد بين الناس إلى محاسن الأخلاق وغرر الفضائل، يضع

على جريدته اسم الواحد منهم بأنه هو المسئول عما ينتشر فيها ويطبع، يملؤها بما تسوله له نفسه من الطعن على أولياء الأمو، وأرباب الحكومة وأشراف الناس، ويسود صحيفته لكل فاحش من القول وبذئ من الكلام، فإذا عول أحد الناس على محاكمته يوما من الأيام وارى وجهه عن المحاكم بوجه الأجنبى، وقال لك: مانم الأمراء ولاهجا الأشراف، ولا طعن فى الناس إلا صاحب الاسم المسئول، فعليك به، فإذا التمسته وجدته بائع نعال يصفق بها فى عرض الطريق، وينتسب إلى دولة من أكبر الدول الأجنبية يمتنع بحمايتها من سلطة المحاكم والقوانين المصرية، ولا سبيل إلى محاكمته إلا فى بيت القنصل.

وأما الرجل الذى سحبته العاهرة بيدهاإلى بيتها، فهو صاحب ودها، وحبيب قلبها تفضله فى آخر ليلها على كل رجل يتعلق بهواها، ويبذل نفسه فى سبيل رضاها، ولا تعجب من سوء معاملته لها، وسوء غطرسته عليها، فذلك مما يزيدها فيه حبا، ويولعها به شغفا، والنفس الدنيئة الحقيرة لا تميل إلا لمن يبادرها بالإهانة والتحقير، ولا تنقاد إلا لمن يتناولها بالإهانة والتحقير، ولا تنقاد إلا لمن يتناولها بالضر والأذى، فهو يضربها ويؤذيها على ما شهدت ورأيت، ثم يتمتع بها دون المتهالكين عليها، وينتفع بما تجعله له من أموالهم لفضل هذا الوحش الضارى عندها على تلك الدواجن التى تدب حولها.

الباشا ـ لا شك أن فى هذا نوعا من الجزاء لهذه البغى على بغيها فى الناس، وسلبها للأموال، وفتكها بالأرواح، وقل

لمثل هذا الجزاء المعجل فى الدنيا قبل العذاب المؤجل ما فى الآخرة.

الصديق ـ لا تستهين أيها الأمير الجليل بما ينال مثل هذه العاهرة فى دنياها من الجزاء، فإنهن جميعا فى معيشة كلها هموم وأدواء، ومن تأمل فى حقيقة أحوالهن، خفف من سخطه عليهن، ووجدهن أحق بالشفقة من القسوة، فإن هذه الأموال التى ينهبنها، والأسلاب التى يسلبنها، لا تلبث فى أيديهن إلا ريثما ينفقنها فى الحلى والحلل، والعاهرة لا تنتهى حاجاتها من الزينة، ولا تخلو من حبيب تكفله، وخليل تقوم عليه، فهى على الدوام فى عسر شديد ودين ثقيل، وإن جميع ما عليها من الحلى والجواهر، وما يتألق فى عنقها من القلائد، وفى معصمها من الأساور، وفى رجليها من الخلاخل، إنما هى كلها فى الحقيقة أغلال وقيود يسحبها بها الصائغ، والجوهرى فى أسر لافكاك لها منه طول الحياة، وهى كما رأيت تقضى ليلها إلى الصباح فى شرب السموم من الخمور، وفى تحريك الأعضاء والأحشاء بتلك الحركات المنهكة لقوى الأبدان، وفى اشتغال الفكر بمراقبة الناس، وتكلف التحبب إليهم، وفى التفنن للتحايل عليهم، ثم التعرض لسوء المنازعات والمخاصمات مع دوام التذلل والخضوع لصاحب الحان، فإذا انتهت من ذلك كله وصلت إلى بيتها منحلة الأعضاء مفككة المفاصل، فترتمى على فراشها كالرمة فى مكان هو أقذر من ذلك الحان، وأفسد منه هواء، وربما لم تذق فى يومها طعاما، ولم تتناول فى ليلها غذاء، فإذا قامت من نومها بعد نصف

النهار، كالذى يتخبطه الشيطان، مصدعة مخمورة لا تشتهى طعاما، ولا تسيغ شرابا، حتى إذا تماسكت قليلا بادرت إلى إصلاح الفاسد منها، ومداراة القبيح فيها بأنواع الزينة واللباس، وقعدت لمقابلة زائريها إلى أن يدخل عليها المساء فتعود لما كانت عليه. ولا تزال المسكينة هكذا دائرة فى حلقة من التعب والوصب، ولا خلاص لها منها إلا بحلول الأمراض والأوجاع، ثم يقضى عليها وهى فى المعصية بعيدة عن ذوى الحنو والإشفاق من الأهل والأقارب، وذلك هو البلاء العظيم والعذاب الأليم.

قال عيسى بن هشام : وما راعنا فى طريقنا إلا صوت الديك يؤذن بالصباح، وصوت المؤذن يؤذن حى على الفلاح، فأسرعنا نطلب مأوانا، وندرك أم مثوانا، ونحن نسأل رب الأرض والسموات، أن يغفر من ذنوب المسلمين والمسلمات.

العمدة فى الرهن

قال عيسى بن هشام : ولما ارتفع وجه النهار أو كاد، ومسحنا عن النواظر كحل الرقاد، بادرنا كل الإبدار، بالخروج من الدار، لنلحق بأولئك الرفقاء، فى المكان المعين للقاء، فقصدنا «قهوة القزاز بالموسكى»، فوجدناها تتموج بالداخلين وتضطرب اضطرابا بالواقفين والقاعدين، فوقفنا هنيهة نرسل النظر إرسالا، ونتصفح الوجوه يمينا وشمالا، حتى اهتدينا إلى الصديق جالسا فجلسنا عن جانبيه، ورأينا العمدة جالسا بجانبنا مع صاحبيه، فإذا العمدة يئن تحت الهموم المتقاطرة

من سواء ليلته الغابرة، حيث ناله فيها من الهوان ماناله، وأضاع تحت أقدام الراقصات شرفه وماله، ورهن مارهن من حلية ومتاع، من غير لذة ولا استمتاع، فهو متخاذل متضائل، «له شق مائل، ولون حائل، ولعاب سائل»، وسحنه مغبرة ، وأنامل مصفرة، وجفون محمرة، وأحداق جامدة، وأعضاء هامدة ورأس متصدع، ونفس متقطع، يفتح تارة فاه، ويحك طورا فى قفاه، فيخاله كل من يراه، نضو [159] سفر أضناه السرى وبراه، أو حلف تسخير أدمته العصا وألهبه السوط، ليبلغ من جهد «السخرة» منتهى الشوط، وإذا التاجر بجانبه يقلب حدقتيه، ويتحلب بشفتيه، ويصعد أنفاسا كالحريق، فى ميزاب [160] من الريق؛ كأنه ذئب يهم بالعتيان، ويخشى صولة الرعيان، أو صائد يخاف أن يخونه كيده، ويفلت منه صيده، والخليع بينهما يطرق برأسه، ويكتم ما فى نفسه متفكرا ينكت الأرض بعصاه، ويحاول أن يبلغ من الغرض أقصاه دائما يبرم الخديعة ويهيئ العدة، ليسقطها على رأس التاجر ودماغ العمدة، ورأينا هنالك من دونهم نفرا، لا يحولون عنهم نظرا، كأنهم الطيور الجارحة تترقب حمامة سانحة، فاستخبرنا من الصديق، عن شأن هذا الفريق فقال: هم جماعة من الفئة الباغية الماكرة، والطائفة الرابحة الخاسرة، طائفة الوسطاء والسماسرة؛ وشاهدنا الخليع يوحى إليهم باللحظ والنظر ، كأنه يعاهدهم على النجح، والظفر، ثم سمعناه يقول للعمدة تهوينا لأمره، وتيسيرا عليه من عسره:

الخليع ـ لا تهتم يامولاى ولاتغتم، فالخطب أهون مما تظن، والأمور بأمر الله ميسرة، والحاجات بإذنه مقضية.

التاجر ـ إن كان التيسير من جهة الاقتراض فإنا لا أتصور أن أرباب الأموال يقرضون اليوم أحدا بدون التوثق من الرهن، لزوال الثقة بين الناس فى هذا العهد عهد المماكسة والمضاربة، وفى هذه الحال أرانى أولى الناس بتأدية هذه الخدمة لصاحبى، فإنى له ارجح جانبا وأربح معاملة وأنقص فى قدر «الفائدة» من سواى.

العمدة ـ لا أرى فى ذلك من بأس لو كان فى الوقت سعة وفى الحالة مهلة تسمح بما يقتضيه إجراء الرهن من الكشف والمعاينة، والتحديد والتقويم والتقدير والتحرير والتقييد والتسجيل، إلى غير ذلك.

الخليع ـ ولا تنس ما يكون وراء ذلك من سوء السمعة وقبح الشنعة بين الأهل والجيران وصدق من قال : «بيع الشئ خير من رهنه، والرهن بيع وغبن» وأنت بحمد الله لك صيت بالغنى وشهرة بالثروة، وأنا أضمن أن توقيعك وحده يكفيك مؤونة الرهن عند الاقتراض.

التاجر (للخليع) ـ ما أحسن هذا لو أنه يتم ولكن لا تنس أنت أيضا ما قيل : «إن الذى يقرضك على الشهرة والسمعة، لابد أن يأخذ فائدة شهر فى جمعة»، ولن يخاطر أحد من أرباب الأموال بماله من غير رهن، إلا من ضمن الفائدة الجسيمة والربح الطائل.

الخليع (للتاجر ـ ما بالك تعسر علينا فى الأمور مع إمكان تيسيرها، ولا يأخذك شك فيما اقول، فأنا أضمن

الحصول على القرض، فى هذه الساعة فى هذه القهوة، وفى هذه الجلسة ولا محل للتخوف من جسامة الفائدة، ما دام وقت الحصاد قريبا، والتسديد عتيدا.

العمدة (للخليع) ـ هكذا يكون التسهيل والتيسير بين الأصحاب والأصدقاء، وهكذا تكون محاسن الشيم، يا أبا المكارم والهمم.

التاجر ـ قد قلت ما عندي، وكل إنسان حر فى عمله.

الخليع (للعمدة) ـ قل لى كم تريد أن يكون مبلغ القرض؟

العمدة ـ يكفينى على ما أظن مقدار مائة جنيه لسداد الحاجة فى الحالة الراهنة.

الخليع ـ هذا التقدير ضعيف، وماذا ينفع مثل هذا القدر القليل وبماذا يفيد ؟ وعليك قبل كل شئ تسديد ما لصاحبنا هذا فى ذمتك من الدين، ثم يتبعه ما لصاحب الحان لفك رهن الساعة والخاتم، وأضف إلى ذلك ما يلزم لك من المال لتأجير البيت الذى تريد سكناه فى حلوان، وما يتبعه من أثمان الفرش والأثاث، هذا غير ما يجب أن يكون فى يدك للبذل والإتفاق فى أوقات الأنس والطرب، وأنت بلا شك فى حاجة عظيمة إليها بعد كل هذا الكدر والتعب، فلابد لك حينئذ من اقتراض مبلغ خمسمائة جنيه على الأقل، ولا سيما أن أرباب الأموال الذين أعرفهم لا يقرضون أقل من هذا المقدار إن كانت مدته قصيرة.

(وهنا يومئ الخليع إلى جماعة السماسرة بالحضور، فيتقاطرون عليه، فيهمس فى أذن أحدهم كلاما، ثم يجهر بالخطاب فيقول):

الخليع ـ أعلموا أن سعادة البك هو العمدة فلان الفلانى من كبار المزارعين الذين يمتلكون من الأطيان والعقار ماهو معروف مشهور، ولم يسبق له اقتراض مال قط، وليس عليه دين وأطيانه وأملاكه خالصة له بلا منازع ولا مشارك، وقد حلت به ظروف استنفدت جميع ما كان يحمله معه للإنفاق فى مدة وجوده بالقاهرة وهو الآن في حاجة إلى اقتراض خمسمائة جنيه يقوم بتسديدها فى أوان الحصاد الآتى، ولست أرضى له أن يقترض مثل هذا المبلغ الزهيد بالرهن من أرباب المصارف الكبيرة؛ لما يجرى عندهم من طول التحر والتنقيب، وتضييع الوقت جهلا منهم بحالة أعيان البلاد.

أحد السماسمرة ـ مرحبا بسعادته مرحبا، وما هو بالمجهول عندنا، فإننا نعرفه كلنا، وبما وصفته من شرف البيت وسعه المال زاده الله منه، كان للمرحوم والدى مع المرحوم والده معاملة قديمة وصحبة أكيده، وطالما سمعت من والدى وأنا صغير السن أنه لا يوجد بين أعيان القطر مثل المرحوم فى الصدق والأمانة، وكرم الخلق وسماحة النفس، ولكنك تعلم أن الدراهم عزيزة المثال فى هذه الايام، وقل من يخاطر بقرض هذا المبلغ من غير رهن يوازيه أضعافا مضاعفة ولو كان الأمر لى وحدى لما تأخرت عن إجابة الطلب بدون ميثاق بين والدينا،

وتوثيقا لعرى المحبة بيننا، ولكل شريكى فى الأشغال رجل متفرنج من أبناء هذا العصر، لا يعرف حقوق المودة القديمة، ولا يرضى بقرض المال إلا إذا كان مستجمعا للشروط القانونية، ومع ذلك فأنا أعمل معه جهدى وأترضاه بضمانتى أولا، و «بتشريف» مقدار الفائدة ثانيا، فإن اتفقتم معى على أن تكون الخمسمائة بثمانمائة إلى وقت الحصاد باشرت معه الأمر، وقمت بالخدمة الواجبة على لسعادة البك.

التاجر ـ سلام قولا من رب رحيم، أيكون مقدار الربا فوق مقدار نصف القرض .. ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين؟

السمسار (للتاجر) ـ لعل مولانا من المجاورين بالأزهر الشريف، فإنه لا يستعظم مثل هذه الفائدة فى الأحوال الحاضرة إلا من يعتقد بتحريمها، على أن الربا محرم عندنا أيضا، كما هو محرم عندكم، ولكن «الضرورات تبيح المحظورات».

العمدة ـ حضرته ليس من المجاورين، بل هو من التجار المشهورين.

السمسار ـ إذا كان حضرته من التجار، فلا بد أن يكون واقفا على ضيق الحال، وقلة المال، وكساد السوق، وعالما بمقدار «الفائدة» فى قرض من غير رهن، ثم إنه لا يجهل فى الأشغال ، تكاليف المشاركة .... والمساهمة ... والمقاسمة ... إن شاء الله.

التاجر ـ نعم نعم، ولكن يجب إنقاص مقدار «الفائدة» على كل حال، فإن أنت رضيت بأن يكون مبلغ الخمسمائة بسبعمائة وخمسين رضيت أنا لسعادة العمدة بالاقتراض منك وحكمت بذلك عليه.

السمسار ـ ما أصعب المعاملة مع التجار وما دمت حكمت حكمك فلا مرد له عندنا، وما علينا إلا الطاعة والقبول إكراما لسعادة البك، فتفضلوا بالذهاب معي إلى المحل على بركة الله لإتمام الأمر مع شريكي.

الخليع ـ لا حاجة إلى ذهابنا جميعا، ويكفي أن يذهب معك سعادة البك وحده فإن المسألة صارت بسيطة ، ونحن نمكث هنا في الانتظار.

قال عيسى بن هشام : وقام العمدة مع السمسار وأقمنا جالسين في مكاننا نتشاغل بالحديث مع الصديق، ونستفيد من واسع علمه أمورا شتى مدة من الزمن، وإذا بالعمدة عائدا وحده مقطب الوجه منقبض النفس، فأسرع الخليع والتاجر إلى لقائه واستخباره عما جرى له. واستخباره عما جرى له.

العمدة ـ لعن الله الحاجة والاضطرار، وما كان أغنانا عن هذا الخراب والدمار.

الخليع ـ وماذا وقع بك ودهمك، هل خاب الأمل في عقد القرض، أم عقدته وسرقت منك الدراهم ؟

العمدة ـ لم تسرق كلها بل نصفها.

التاجر (شاهقا والخليع محملقا) ـ وكيف كان ذلك ؟

العمدة ـ ركبت مع الرجل وذهبنا إلى محل شريكه، فأجاسني هناك ناحية، وكتب الصك وختمته، ثم إنه انفرد بشريكه يناقشه ويجادله ثم عاد إلى عابس الوجه يقول لى : إن الأمر متعذر متعسر، وإنه بذل كل ما فى وسعه من طرق الإقناع والرجاء ليقبل شريكه بقرض المبلغ، فلم يقبل ولم يتحول عن رأيه، ثم أخذ يظهر لى أنواع التأسف والتوجع لخيبة مسعاه، ويشير على بالصبر اياما حتى تنفرج الشدة وتنقضى الأزمة، فأريته شدة ما بى من الحاجة إلى الدراهم فى هذاالوقت، وليس فى الاستطاعة، تأجيل الاقتراض، وهممت بالرجوع إليكما لترشدانى إلى باب آخر يأتى بالتيسير المطلوب، فدنا منى شريكه عند ذلك، وقال لى : يعز على والله أن أردك خائبا، وأرفض رجاء شريكى، ولكنك تعلم مقدار العسر والضيق الذى لحق بهذا القطر فى هذا العام من كساد الموسم وانخفاض النيل، وانتشار الدودة، وكثرة المضاربات، وظهور الأوبئة والطواعين، وأنا أقسم لك بشرفى وذمتى وأولادى انه لا يوجد فى محلنا من الدراهم الآن سوى أربعمائة جنيه هى أمانة عندى لطفل يتيم من أقاربنا نشتغل له فى استثمارها بكل احتراس واحتياط، وأنا أضن بها وأحرص عليها أشد من حرصى على أموالك، ومع ذلك فقد فكرت طويلا، وعولت على أن أضعها بين يديك، لشرف مكانتك عندنا

وحسن سيرتك، وجعلتها أول خدمة جليلة نقدمها إليك، فأسرعت إلى قبولها مع الشكر والامتنان، فأخرج صرة ووزن ما فيها من الذهب ، ثم سلمه إلى فعددته فوجدته أربعمائة تماما، ثم وضعتها في جيبي، وطلبت منه تغيير الصك لأن المبلغ المسمى فيه يزيد مائة جنيه عما قبضته من الذهب فتلكأ في الإجابة، واعتذر إلى بأن فرق ما بين المبلغين يبقى عنده، بعضه لربح اليتيم، وبعضه لنفقات القضية من رسوم وأتعاب محاماة، إن وقع مني تقصير في التسديد عند الميعاد لاسمح الله، كما هي العادة السائرة اليوم، فهالني الأمر ونبذت الدراهم، وطلبت منه أن يرد لي الصك في الحال، فلم يلتفت لقولي واشتغل عني بالكلام مع بعض الوافدين إليه، وأنا مقيم على مثل الجمر، وكلما أشرت إليه بإشارة من بعيد ليكلمني لوى وجهه عني، وأظهر الاشمئزاز مني، فتفقدت السمسار الشريك داخل المكان وخارجه، فلم أجد له أثرا، فاشتد بي الكرب، وحرقني الغيظ فلم أتمالك نفسي وهجمت على صاحب المحل، فأمسكت بتلابيبه أطالبه برد الصك، فأظهر لي حينئذ من الملاينة والملاطفة ما حل خناقة من يدي، وقال لي : إنه لا يمنعه عن إجابة طلب إلا غياب الشريك، فإن الصك كتب بحضوره ولا يجوز أن يسلمه إلى دون علمه، فعلى أن أنتظر أوبته.

وبينما نحن على هذه الحال، وإذا بسعادة عمر بك صبهر مديرنا قد دخل علينا، فما وقع بصري عليه حتى تراخت مافصلي خجلا منه وحياء أن يسمع ما يجري بيننا ويراني في

مثل هذا الموقف، فتسقط منزلتي في عينه وعين صهره فتقدمت إليه وسلمت فرد على التحية بالتكريم، والتعظيم، فلحظ اللئيم صاحب المحل ما أنا فيه، فانتهز الفرصة وقص على سعادة البك قصتنا على حسب هواه، وطلب حكمة في الأمر، فقال له سعادة البك: لا يليق بك أن تتنازع مع حضرة العمدة فإنا أعرفه رجلا من عيون المديرية التي يديرها صهري وله شهرة عظيمة بحسن السيرة وسعة الثروة، ثم التفت إلي وقال: وأنت لا يجدر بك أن تخالف حضرة الخواجة، وهو رجل مشهور بالأمانة وحسن المعاملة. وإذا كانت نقطة الخلاف في المائة جنيه التي حجزها عنده لنفقات القضية، فأنا لا أشك في أنه سيردها إليك بتمامها عند إيفاء الدين في ميعاده، وأنت بحمد الله في ثروة لا يتصور معها التأخر عن التسديد، وإن كنت لم تتعامل مع الخواجة إلا في هذه الدفعة، ولم تجرب مقدار أمانته، وحسن عهده، فإني أكفل لك صدقه ووفاءه، فاضطررت من كل الوجوه إلى التسليم والإذعان، وأخذت الدراهم، وسلمت على سعادة البك، وقلت له عند خروجه: لايظنن سيدي أنني اقترضت هذه الدراهم للضرورة والعسر، فإن الأمور ميسرة بفضل الله، ونعمة الله وافرة علي، كما يعلمه سعادة صهركم المدير، ولكني وجدت فرصة لا تعوض في أثناء إقامتي بالعاصمة وهي مشترى أطيان من أحد أولاد الذوات، وهو في حاجة الليلة إلى استلام العربون، ولا يمكنه أن يمهلني ريثما استحضر له المبلغ من البلد، فاضطررت للاقتراض على هذه الصورة، فقال لي : نعم ماتفعل، وبارك الله لك في البيع

والشراء، ثم إنه حملنى سلاماوكلاما لسعادة المدير، وانصرفت وخلفته مقيما مع الخواجة، وحضرت إليكما ولم يدخل فى يدى من مبلغ الدين المسمى بسبعمائة وخمسين جنيها إلا أربعمائة جنيه فقط فهذا معنى قولى لكما لم تسرق منى الدراهم كلها ولكن سرق نصفها.

قال عيسى بن هشام : وكنا نشاهد فى أثناء هذا الحديث رجلا واقفا على رأس العمدة ينتظر انتهاءه من الكلام، وهو يمد إليه يديه ويحرك شفتيه، فتبينا من هيئته أنه سائق المركبة يطالب العمدة بالزيادة فى قيمة الأجرة، ولما فرغ العمدة من كلامه بادره السائق بقوله :

السائق ـ خلصنا من فضلك يا سيدنا السيد، فقد طال وقوفى وعطلتنى عن شغلى.

العمدة ـ أنا لا أعطيك شيئا زيادة عما دفعته إليك ففيه الكفاية.

السائق ـ من يقول يا حضرة الشيخ إن خمسة قروش تكفى فى أجرة المركبة مدة ساعتين تنقلت فى أثنائها من مكان إلى مكان ثم عدت بك إلى هذه القهوة ؟ وأنا لا أبرح مكانى حتى تعطينى الأجرة اللائقة بهذه المدة، وإن كان الذنب من جهتى لأننى قبلت أن تركب معى ورفضت ركوب الخواجة الذى استوقفنى قبل ركوبك ظنا منى أنك من كبار العمد، الذين لهم تردد كثير على العاصمة ويعرفون مقدار أجرة المركبات، ولكن

ظهر لى الآن أن هذه أول مرة لك فى زيارة العاصمة وفى ركوب المركبات، وجعلتنى أفضل «برنيطة» الخواجة على عمامة السيادة، فلا حول ولا قوة إلا بالله، خلصنا يا سيدى.

الخليع (للسائق» - اسكت عن هذا الكلام البارد، وهاك قرشا سادسا خذه وانصرف.

السائق - كن محضر خير يا حضرة الأفندى، وأعلم أننى لا أقبل زيادة قرش أو قرشين مطلقا فإما الأجرة اللائقة، وإما الذهاب معى إلى صاحب المركبة.

العمدة - دونك قرشا آخر فاتركنا واذهب لحالك.

السائق - كيف أذهب وكيف أقبل سبعة قروش فى أجرة هذه المسافات الطويلة مع طول الانتظار؟ فهل تحسبها أجرة ركوبك من هنا إلى محل الخواجة، أو أجرة انتظارى هناك زيادة عن الساعة ، أو أجرة ركوبك من محل الخواجة إلى دكان الكوارع، وانتظارك مدة الأكل ، أو أجرة رجوعك إلى هنا ووقوفك فى الطريق عند بائع الفاكهة؟

التاجر - دكان الكوارع ...!! وبائع الفاكهة ...!!

«واحر قلباه ممن قلبه شبم (١٦١)» أهكذا يكون شرط الصحبة والوفاء تتركنا على وتنفرد دوننا بالأكل، ونحن معك لم نذق منذ أمس طعام ؟

العمدة - ما الجانى إلى ذلك وحق الصحبة إلا الجوع

المفرط، واحتياج الجسم إلى ما يقيمه، فإنى أحسست بالنور ظلاما فى عينى من خلو البطن وأشهد أن الجوع كافر.

السائق ـ أدركونى برحمتكم، فهذا جندى البوليس يأخذ نمرة المركبة ليكتبها فى المخالفات حيث خلفتها واشتغلت عنها بكم.

الخليع ـ لقد صدعتنا وشغلتنا فخذ هذا القرش أيضا وأنا أخلصك من جندى البوليس، وإلا فإنى أقوم إلى «القسم» وأرفع الشكوى لاجترائك علينا، ولا تجد فى «القسم» من يرحمك.

السائق ـ ما باليد حيلة، أعطنى ما تريد وقم أشهد عند جندى البوليس بأننى فى انتظاركم حتى أخلص من المخالفات. والله يعوضنى خيرا ولا يحكم على بركوب أمثالكم مرة ثانية.

الخليع (للعمدة عائدا) قد انتهينا والحمد لله من جميع العقبات ، فلننظر الآن فى تدبير شئوننا، وهلم فادفع أولا مبلغ الصك المطلوب منك لصاحبنا هذا، ثم نثنى بصاحب الحان لفك الرهن، ثم نثلث بمشترى المقتنيات اللازمة لك.

العمدة ـ نعم لك ذلك، وهذا هو المبلغ المطلوب لصاحبنا جزاه الله خيرا.

التاجر (بعد استلام المبلغ) ـ أستغفر الله فالفضل والشكر لك على كل حال، ولكن يتعذر على أن أرد إليك الصك

فى الحال لأننى تركته بالمنزل، فالأليق أن تبقى المبلغ حتى آتيك به غدا.

الخليع ـ سبحان الله ! ما هذه المعاملة التجارية بين الأصدقاء الأوفياء، هل يجوز بينهم ذكر الصكوك والخطوط فى معاملتهم؟ فتقديم الصك وبقاؤه عندك سيان مادام المبلغ تسدد لك ودخل جيبك.

العمدة ـ صدقت صدقت، فليس بين الإخوان ما يدعو للتوقى والتحرز فى مثل هذه الأمور، وقوموا بنا إلى صاحب الحان.

الخليع (للتاجر ضاحكا) ـ انظر إليه فلا يزال قلبه يحن، وهو يميل إلى سكان تلك المعاهد والديار.

العمدة ـ أقول لك الحق، إن غيظى من معاملة تلك المرأة القاسية شديد، وحنقى عظيم ولست أنسى ضروب تفننها فى التدلل على والتمنع منى، ولا أغفل عن تلك النظرات التى كانت ترسلها إلى بالتعطف وأنا أسحبها من شعرها، وبودى لو أراها مرة ثانية فأوسعها عتابا، وأشبعها تأنيبا.

الخليع (مبتسما) ـ أنا فهمت غرضك وعرفت نيتك، تريد من العتاب أن ينتهى بك إلى العتبى، وتخرج بها من التعنيف إلى التلطيف، وما ألذ الرضا بعد الغضب، وما أمتن الصداقة بعد العداوة لكنى أقول لك قول المشفق الناصح: إنك مهما حاولت مع هذه المرأة، فلا يمكن أن يخلو لك وجهها بالليل

مطلقا لكثرة شغلها وازدحام الحائمين عليها وإنما الرأى لك أن تلتمسها نهارا وتدعوها للغداء معك فى بعض جهات النزهة، وأنا أفضل نزهة الأهرام على سواها، فإنها تكون هناك خالصة لك من دون الناس بمعزل عن العذال والرقباء.

التاجر - ما أدق الحيلة، ومالطف الرأى العمدة (للخليع) - لله درك، فما حار من أنت حاديه، ولا ضل من أنت هاديه، وهيا بنا إلى الحان أولا لفك الرهن.

الخليع - ولعلنا نصيب خادم المرأة هناك فنرسله إليها بعرض التماسنا، ولا شك عندى فى إجابة سؤلنا.

العمدة - نعم نعم، وليكن الاجماع بها غدا فخير البر عاجله.

الخليع - لك ذلك بكل تأكيد إن شاء الله قال عيسى بن هشام: وقاموا ونحن نعجب من كيد الإنسان، بما لا يأتيه حيوان مع حيوان ثم بادرنا نحن أيضا إلى القيام، على أن يكون الاجتماع غدا فى الأهرام.

العمدة فى الأهرام

قال عيسى بن هشام: ولما وقفت بنا الركاب فى ساحة الأهرام، وقفنا هناك موقف الإجلال والإعظام، قبالة ذلك العلم الذى يطاول الروابى والأعلام، والهضبة التى تعلو الهضاب والآكام، والبنية التى تشرف على رضوى وشمام[١٦٢]، وتبلى ببقائها جدة الليالى والأيام ، وتطوى تحت ظلالها أقواما بعد أقوام، وتفنى بدوامها أعمار السنين والأعوام خلقت ثياب

الدهر وهى لاتزال فى ثوبها القشيب وشابت القرون وأخطأ قرنها وخط المشيب، مابرحت ثابتة تناطح مواقع النجوم، وتسخر بثواقب الشهب والرجوم، وتحدث حديث المشاهدة والعيان، ما تعاقب الفتيان[١٦٣]، وتناوب الملوان، عن قدرة هذا الإنسان، فى بدائع الصنع والإتقان، وتنبئ عن قوة هذا الضعيف الضئيل، فى إقامة هذا الأثر الجليل، وكيف جاز لهذا الفانى البائد، أن يصدر عنه مثل هذا الباقى الخالد، وجل صنع القدير الخالق فى تصوير هذا الحيوان الناطق، حيث جعله مصدرا للأعمال المتناقضة، والأفعال المتغايرة المتعارضة، فبينا تراه يصعد إلى أجرام السماء وعوالمها، ويبحث بفكره فى رسومها ومعالمها، ويسير أقمارها وكواكبها، إذ نراه يعثر عثرة برجله، فيكون فيها منتهى أجله، أو يكبو فى طريقه، فيغص بريقه، ويهوى بإذن الله إلى مكامن الخلد[١٦٤]، وهو طامع فى شجرة الخلد، فهو ذاك الذى كبر وصغر، وعظم وحقر، وعز وذل وكثر وقل، وصعد وهبط، وعلا وسقط، وصلح وفسد، وعرف وجحد، وسعد وشقى، وفنى وبقى، وسبحان القاهر فوق عباده.

ثم انتقلنا من التفكير إلى التفسير، وانبرى الباشا يكشف عن ضميره، ويقول لنا فى تعبيره:

الباشا ـ كنت أعتقد، وأنا فى سالف الأوان، أن هذه البنية لمصر تاجها الذى تفاخر به التيجان، وأعجوبتها التى تباهى بها الأقطار والبلدان، وشاهدها الذى يشهد لها بالمدنية والعمران، ولكنى أراها اليوم، بعد أن استضاءت بنور العلم،

واهتديت بهدى العقل، وبحثت فى حقائق الأمور، ألا مزية فيها ولا خير منها، سوى أنها أحجار مرصوفة، وجنادل مصفوفة، تمتاز عن جبل من الجبال، أوتل من التلال فهل تعلمان لها من معنى غامض التوى على فهمه، أوسر خفى على علمه؟

الصديق ـ ليس لها على الحقيقة من سر خفى، ولا فائدة بادية، سوى أن بعض القدماء من أغبياء الملوك وطغاة الولاة كانوا يعتقدون بالرجعة فى هذه الدنيا بعد الممات، وأن أرواحهم تعود ثانية إلى أجسادهم بعد أن تتنقل مدة من الدهر فى أجسام أخرى، فكان همهم فى حياتهم مصروفا إلى حفظ أجسادهم من البلى بعد موتهم فى قبور مشيدة قائمة على الدهر، لتعود إليها الأرواح بعد طول التنقل والتطور مثل هذه الأهرام وخلافها. والناظر فى الآثار المصرية يحكم قاطعا أن التقدم والتفنن فى البنيان والتصوير عند المصريين ينتهى أغلبه إلى المعابد والمقابر، وكانت قصورها وبيوت ملكهم مبنية بلبن الطين كأدنى الأكواخ، قانعين بذلك فى جانب تسخير الأمة بأسرها فى نقل الصخور ورفع الأثقال؛ لابتناء مثل هذا البنيان واتخاذه قبرا لهم تحفظ فى جوفه أجسادهم بعد تحنيطها سالمة من البلى إلى الرجعة ولكن إلى المتحف متحف الجيزة ـ فتسخير الأمة المصرية، وتعطيل أعمالها، وتمزيق أبدانها، وإهراق دمائها، وإزهاق أرواحها، فى بناء هذه الصخور إنما كان لفكر ساقط واعتقاد سخيف، من ملك جاهل، لفائدة له موهومة، أو من عمل كاهن ماكر، لمنفعة له معلومة ومثل هذا لا يكون فيه فخر لمفتخر ولا من عزة لمعتز، وما هو إلا الظلم

والغشم، والضلال والجهل، وما لهذين الهرمين من معنى اليوم غير أنهما قائمان على الدهر شاهدى عدل على سابق الشقاء فى الأمة المصرية، وما كانت تقاسيه من فظاعة الظلم والهوان، ومران الاسترقاق والاستعباد، ولو كان لأولئك الملوك أدنى لمحة فى ارتقاء المدنية والعمران، لكانت هذه الأحجار والصخور، مرتفعة فى بناء القناطر والجسور.

وتالله لبانى القناطر الخيرية مثلا، فى نظر الباحث المدقق، أحق بالعزة والفخر من أولئك الملوك عباد الأوهام، مستعبدى الأنام.

وما أعلم لهذا الهرم من معنى آخر يذكر، سوى أنه صار يوما من الأيام منبرا من المنابر اعتلاه جبار آخر فرنسى اسمه نابليون، فخطب من فوقه على جنوده بكلام يهز فيهم أريحية التفاخر والتباهى، ويخدعهم به ليظلوا على العمى فى طاعته يمارسون الحروب، ويعانون أهوال الوقائع، ويصبرون على الموت والقتل فى هواه. وما لهذا البنيان اليوم من فائدة حاضرة إلا كونه صار مورد رزق لجماعة من العربان التهوا به عن الرزق من قطع الطريق على السابلة.

ومما يحضرنى الآن من كلام بعض المؤرخين فى شأنه: إن الملك الذى شيده أمر أن يكتب على جدرانه عقب الفراغ منه هذه العبارة عن لسانه على جهة التحدى: «إنى ابتنيت هذا البناء فى ثلاثين عاما، فإن جاء بعدى من الملوك من يدعى القوة والقدرة فليهدمه فى ثالثمائة عام، ولو عقل المسكين أنه سيأتى

عصر من العصور يمكن فيه لأحقر صعلوك أن ينسف هذا البناء فى لمحة واحدة، فيجعله كالعهن[١٦٥] المنقوش، والهباء المنثور. بمقدار قبضة اليد من بعض الأجزاء الكيميائية، لما اغتر بسعة القوة والسلطان، ولما تحدى بشئ سلمه ليد الحدثان، وليس لحدثان من أمان، اللهم إنك تعلم أنه عمل ضائع، من جهل شائع، لا ينبغى للمصرى أن يراه إلا بدمع منهمر، وقلب منفطر، لأنه الشاهد الأكبر على كبرياء كبرائه، وهوان أجداده وآبائه.

قال عيسى بن هشام: وهنا رأينا أصحابنا قد أقبلوا، وبينهم تلك العاهرة الفاجرة، فأشارت عليهم بالجلوس، فاتخذوا لهم مجلسا فى ظل من ظلال الأهرام، وانبسطوا على بساط الشرب والنقل، فقطعنا من بيننا حديثنا، وانتهينا إلى جوارهم، لنسمع ونرى من أخبارهم وأحوالهم، فإذا العمدة يقول للتاجر، متظاهرا أمام المرأة بمظهر الباحث المدقق والعالم المحقق:

العمدة - هل لك علم أيها الصاحب بشئ عن صل هذه الأهرام، وسبب وضعها وتاريخ تشييدها؟

التاجر - كيف لا يكون لى علم بذلك وقد وقفت على قصتها تماما، وقرأتها مرارا فى كتاب «قصص الأنبياء» عند الكلام عن سيدنا نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، بحيث يمكننى أن أقصها عليك حرفا بحرف «ذلك أن الملك « سودون كان ملكا على مصر قبل الطوفان، فرأى فى منامه رؤيا أفزعته،

فاستدعى السحرة والكهنة والمنجمين وقص عليهم أنه رأى النجوم تناثرت والقمر هاويا إلى الأرض، فقالوا له: إن هذه الرؤيا تدل على حدوث طوفان عظيم يغمر الأرض قريبا ولا يبقى على شئ فيها فارتاع الملك، واستشارهم ماذا يفعل للنجاة من هذا الحادث العظيم، فأشاروا عليه بابتناء هذه الأهرام، حتى إذا حل الخطب انتقل إليها واستعصم بها مع أهله وحاشيته وذخائره وكنوزه، فحشد الملك الألوف المؤلفة من الخلق وسخرهم لهذا العمل، فأتموا له هذا البناء فى مائتين وخمسين عاماً، ثم كساها بالديباج وفرشها بالحرير، ونقل إليها من نفائس الجواهر وذخائر الكنوز ما تعب الناس فى حمله ونقله شهورا كثيرة، ثم إنه جمع السحرة فحصنوها له بالأرصاد والطلاسم، ولما قرب وقت الطوفان لجأ إليها بأهله وحاشيته، وطغى الطفوان فلم ينجح منه إلا أهل السفينة وعوج ابن عنق، وهذه الأهرام، وعوج بن عنق هذا هو حفيد آدم عليه السلام، ولد فى زمن جده وأدرك موسى صلوات الله عليه وذكروا أن ذلك الطوفان الذى علا الهضاب والجبال لم يلغ حد ركبتيه، فكان يخوض فيه مع السفينة فإذا أحس بالجوع مد يده إلى قاع البحر فأخذ الواحدة من السمك، فيدنيها من عين الشمس ويأكلها مشوية! ولما انقضى الطوفان وعاد العمران إلى الدنيا أخذ يعيث فى الأرض فسادا دهرا طويلا، حتى بعث الله موسى عليه السلام فشكا الناس إليه ما يفعله عوج بن عنق، فدعا الله أن يكفيهم شره وكان عوج بن عنق قد حمل صخرة فوق رأسه ليلقيها على أهل بلدة حل بهم غضبة،

فأرسل الله تعالى طيرا له منقار من الفولاذ، فمازال ينقر الصخرة من وسطها حتى ثقبها، فسقطت فى رقبة حاملها، وصارت غلاله يمنعه من الحركة والانتقال، فجاة موسى بعصاه، وكان طوله عليه السلام أربعين ذراعا وطول العصا أربعين ذراعا، ثم إنه وثب فى الهواء أربعين ذراعا، وضرب عوج بن عنق ضربة فلم تتجاوز كعبيه، ولكن قوة سيدنا موسى ألقته إلى الأرض، لأنه من أولى العزم، فوقع عوج بن عنق فى النيل فحسرة عن أرض مصر سنة كاملة، ووقعت الوحوش الضارية تنهش من رجليه فكان إذا مر عليه مار عند رأسه قال له: «إذا وصلت بسلامة الله إلى قدمى فامنع عنى ما يؤلمنى من هذا النباب» يعنى الوحوش المفترسة، وبقى على هذه الحال إلى أن مات، فاتخذوا من أضلاعه قناطر للنيل، واتخذت الوحوش من عينيه وأذنيه ومنخريه كهوفا ومغائر تسكنها، وكفى بالله العباد شره وفساده.

العمدة - سبحان الخلاق العظيم، أرجوك بالله يا أخى أن تشترى لى نسخة من هذا الكتاب أحملها معى إلى البلد، ليقرأها لنا أمام المسجد أو مأذون الناحية عند خلونا من الأشغال.

قال عيسى بن هشام: وكان الخليع فى هذه الأثناء مشتغلا بمحادثة المرأة متفرغا لها، يضاحكها، ويشاربها وتشاربه، فلما انتهى التاجر من قصته، اقبل الخليع على العمدة يلاطفه ويؤانسه، ويقول له:

الخليع - هل رأيت بالله عليك يوما أعظم أنسا، وأتم سرورا، وأجمع لأسباب الهناء والصفاء من يومنا هذا.

العمد - حقا أنه يوم سعد وأنس، غير أنى كنت أود أن يكون هذا المجلس فى البيت لا فى الخلاء، وتحت السقف لا تحت السماء، فإنك ترى كثرة السياح والعربان من حولنا، وفى ذلك من التضييق على حريتنا ما لا يخفى عليك.

الخليع - لا تخش الناس، ولا تشغل نفسك بالخلق، واغتنم اللذات بكل جسارة وإقدام، وليس للإنسان سوى ساعة الصفوى، إن لم يغتنمها ترك الدنيا بصفقة المغبون، وأنا أقترح عليك الآن أن نعمل مثل عمل السياح فى الصعود إلى الأهرام، حتى لا يفوتنا شئ من أسباب التنزه.

التاجر - دعنا من هذا الاقتراح، فليس هو من شأننا، وأية لذة بالله عندك فى صعود الجبل، واحتمال المشقة والتعب، مع التعرض للخطر فى كل خطوة؟

الخليع - هذا أمر سهل جدا، وقل من يزور الأهرام إلا يصعد فيها مسافة على قدر جهده. وانظر إلى هذه النسوة الأمريكيات الصاعدات النازلات فى أيدى العربان أمام عينك، هل تراها تخشى خطرا أو ترهب تعبا، وهل يليق بنا معشر الفحول من الرجال أن نكون أدنى من النساء جرأة وإقدام؟ وعلى كل حال فلابد لنا من الصعود قليلا ليعلم من حولنا أننا جئنا مثلهم لزيارة الآثار لاللهو والخلاعة، والسيدة توافقنى على هذا الرأى.

العمدة - وأنا أوافق عليه أيضا، أرجو الله أن نعثر فى صعودنا على فص من الفصوص العتيقة التى طالما عثرت على مثلها فى التل الكفرى بناحية بلدتنا، ولكن كيف نترك سيدتنا وحدها؟

التاجر - أنا أنتظركما معها.

الخليع - لا بل تصعد هى معنا أيضا اقتداء بهؤلاء السيدات.

قال عيسى بن هشام: ويقومون للصعود، ويتلكأ التاجر فى أخرياتهم، ويحاول التخلف عنهم، فيدفعه العمدة بكل قواه ممازحا له، وساخرا منه لشدة تخوفه وحذره، والخليع والمرأة يغريانه به، ويضحكان لضحكه، وما كادوا يصعدون قليلا، حتى حانت من العمدة التفاتة إلى الأرض فهاله ما بينه وبينها من الفضاء، فامتقع لونه، وارتعدت فرائصه ومال على الدليل البدوى مستعينا به أن ينزله إلى الأرض، معتذرا أن الصفراء لعبت برأسه فلا يقوى على متابعة الصعود، فيدركه الخليع فيسنده مع البدوى، فيسقط من أيديهما، فيحمله البدوى على ظهره وينزل به، فما يبلغ الأرض إلا ونسمع من المرأة صياحا وعويلا من فوق الهرم، وهى تناديهم جميعا أن يبحثوا لها عن فص الخاتم الذى وقع من إصبعها، فيلحق بها الخليع، فيبحث فلا يجد شيئا، فينزل معها فيتلقاها العمدة بالتخفيض والتهوين عندما تتلقاه بالبكاء والعويل، ويغلب على ظن التاجر أن الفص ربما لم يسقط فى حال الصعود بل فى حال

الجلوس، ويطلب من العريان أن يدركوه بغربال به الرمل عساه يجده فيه، هذا والمرأة لا ينخفض لها صوت، ولا يرقأ لها دمع، ولا تنتهى لها شكوى، والخليع يصيب من خاطرها تارة، ويميل على العمدة طورا يظهر له الأسف من الحادث الذى كدر عليهم الصفو وأبدلهم بالأنس حزنا وأن هذه شيمة الدهر قلما يتم فيه صفاء، أو يكمل فيه سرور، وما من لذة إلا وهى مشوبة بالألم.

فسد الزمان فما لذيذ خالص

مما يشوب ولا سرور كامل

على أن المصيبة هينة، ما دامت فى المال دون النفس، ومن ذا الذى يدرى مما هو مخبأ له فى الغيب، والحمد لله على اللطف فى القضاء. ولا يزال الخليع بالعمدة حتى يتقدم إلى المرأة ويقسم لها أنها لا تبيت الليلة إلا ولديها فص مثل الفص الضائع، فتشكره وتقول له: أنى لها بمثل ذلك الفص، وهو من الياقوت النادر المثال فى لونه وصفائه، فيعيد عليها القسم بأنه سيأتيها فى الغد بفص أثمن منه وأجمل. ثم إنه يشد على يدها توثيقا للوعد، فتشد على يده للتقبيل، فيعز عليه حينئذ خاتمة الذى استخلصه من الرهن ويلبسها إياه حتى يأتينها بغيره، ويعودون إلى مجالسهم، ويأخذون فيما كانوا عليه من المسامرة والأنس، ويقول العمدة بعد استقرار المجلس بهم:

العمدة ـ ما أحسن المجلس!، وما أضيق الوقت!، وحبذا لو واصلنا الليل بالنهار!

التاجر ـ لعلك نريد أن نقضى ليتنا مثل تلك اللية الماضية فى ذلك الحان المنحوس.

الخليع ـ وهل تظن أنه يمكن لنا التمتع بصاحبتنا في الحان، مثل ما نتمتع بها الآن، وقد شاهدنا بأعيننا ما حولها هناك من المزاحمة والمخاصمة؟

العمدة ـ وما العمل حينئذ؟

الخليع ـ العمل أني أكلفها أن تتمارض هذه اللية وترسل إلى صاحب الحان بتعذر حضورها عنده.

العمدة ـ نعم الرأى ما ترى.

قال عيسى بن هشام: ويأخذ الخليع في استعطاف المرأة لقبول هذا الطلب، فتمتنع أولاً معتذرة بما بينها وبين صاحب الحان من الشروط التي تقضي عليها بدفع عشرة جنيهات إليه تعويضا عن كل ليلة تتأخر عن الحضور فيها، فيلتفت الخليع إلى العمدة ينتظر رأيه، فيميل العمدة على المرأة متعهدا لها بدفع هذا التعويض، ثم يتساءلون فيما بينهم كيف يقضون ليلتهم في الأنس والسرور، فيرى العمدة قضاءها في البيت، ويرى التاجر قضاءها في التنقل بالمرأة في «البارات»، ويرى الخليع قضاء جانب منها أولا في مشاهدة الرواية البديعة التي تمثل في «التياترو» العربي، فيقع اتفاقهم على هذا الرأى الأخير فيسرعون بالقيام ليدركوا فسحة الجزيرة أولا، وينصرفون على هذا العزم المؤكد، والميعاد المحدد، بعن «للصديق» أن نتخلف عنهم، ريثما تنقضي فسحة الجزيرة بهم، وأن نقضي هذه المدة الوجيزة، في زيارة قصر الجيزة، ثم نلحق بهم عند المساء في دار التمثيل والتشخيص، وديوان الروايات والأقاصيص.

قصر الجيزة والمتحف

قال عيس بن هشام: ووصلنا إلى قصر الجيزة ومتحف الآثار، ومتلقى السيارة من سائر الأقطار، فدخلنا روضة تجرى الأنهار من بينها، كأنها الجنة بعينها، ولما رأى الباشا مسالك الروض منضدة، وطرقة مرصعة مزردة، حسبها أرضا مفروشة، ببسطه منقوشة، وأشكل الأمر عليه، فهم بخلع نعليه، فقلت: طريق معبد، لا فرش منجد، وحصباء ومرو[١٦٦]، لا بساط وفرو؛ ثم شاهدنا قصرا يكل عنه الطرف، ويقصر دونه الوصف، فسرنا نرتاد خلاله، ونتفيأ ظلاله، فإذا الأسود مقصورات فى المقاصير، والأساود[١٦٧] مكفوفات فى القوارير، ورأينا فى النمور فى الخدور والرئال[١٦٨] فى الحجال، والذئاب فى القباب، والظباء، فقال الباشا: لمن هذه الجنان، وكيف يسكنها الحيوان؟ وما عملت من قبل أن الليوث الضوارى، تسكن مغانى الجوارى، وأن أوابد[١٦٩] البيد تتحجب فى خدور الغيد؛ فقلت له: سبحان القادر العظيم! هذا بيت إسماعيل بن ابراهيم، طالما كانت حجراته مطامع للأقمار، ودرجاته منازل للأقدار، كان إذا نادى صاحبة فيه «يا غلام»، شقيت أقوام وسعدت أقوام، ولبى نداءه البوس والندى بأسرع من رجع الصدى، وكان من احتمى بظل هذا الجدار، تحامته غوائل الأزمان والأدهار. هنا كان يفصل الأمر ويحكم، وينقض الحكم ويبرم. هنا كانت تنفرط فرائد القلائد، من أجياد الخرائد، فتختلط بمنثور أزهاره، وترصع لجين أنهاره هنا كانت تتناثر الحلى من قدود الحسان، فتشتبه بأثمار الأغصان. هنا كانت

تصدح القيان على المزاهر والأعواد، فتجيبها ذوات الأطواق فوق الأفنان والأعواد.. فأصبح اليوم حديقة مبتذلة عامة، وموطنا لأقدام الخاصة والعامة، وأصبحت أرضه تكترى، وجنى أشجاره يباع ويشترى، ودوى فيه صياح النسور وزئير الأسود، وامتلأت أرجاؤه بعواء الذئاب وهمهمة الفهود، وزال ما كان فيه من عزوطول، ومجد وصول، وأيد[١٧٠] وحول وصدق الكتاب فحق عليه القول.

في هذه الدار، في هذا المكان على

هذا السرير، رأيت الملك قدسقطا

وذكرت للباشا ما كان لصاحب هذا القصر، ومليك ذلك العصر، من الجد الصاعد، والبخت المساعد وما صار إليه بعد ذلك من أفول السعد، وما دهاه في الغربة إلى أن سكن اللحد.

نالوا قليلا من اللذات وارتحلو

برغمهم فإذا النعماء بأساء ثم وقف الباشا هنية فكر فيها واعتبر، وتلا: «ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر، حكمة بالغة فما تغني النذر».

ثم إننا سرنا في وسط الحديقة، حتى انتهينا إلى دار التحف العتيقة، فدخلنا نشاهد ما أبرزته يد البحث من الخفاء إلى الظهور، وما أعادتها قوة التنقيب من البلى إلى النشور، وما صانته ألحاد القبور من يد الفناء والدثور، وجمعته أحشاء الرموس من العفاء والدروس، وما أجنته أرحام المعابد

والهياكل، من بقايا المراضى وخفايا الأوائل، وما انسدلت عليه سجوف الأحقاب ، من ودائع الأسلاف للأعقاب، وما انشقت عنه الأرض من مكنون الدفائن، ومكنوز الخزائن، وعجائب الفن الدقيق، وبدائع الصنع الأنيق، بليت فى اصطحابها جدة الأيام والليالى وانحنت على احتضانها ظهور العصور الخوالى، ومضت دول بعد دول، وذهبت أول فى إثر أول، واندثرت مدائن ونشأت مدائن، وبادت مواطن وقامت مواطن، وانقلبت الأغوال أنجادا، والأبحار أطوادا، وغدا العمر خرابا، والغمار[171] سرابا، والسراب غمارا، والخراب عمار، وهى هى مصونة شكلها، كما تركها أهلها، لسان صادق، وخبر ناطق، وتنطق بالعبر وتحدث عمن غبر:

مضت غبرات العيش وهى غوابر[172].

على الدهر مكتوب عليها حبائس

وأقمنا هناك نتنقل بين الأصنام والتمثال، ونتأمل فى التصاوير والتهاويل[173]، ونتفكر فى هذه العظام المنشرة، والرفات المنظرة، بما عليها من الحلى والزينة، وتلك الأحجار الثمينة، كيف كانت ملوكا للأمم، ثم بقيت على بلى الرمم، وتوالى لقدم، فى حال الوجود مع العدم.

ورأينا بجانبنا رجلا من ذوى العمائم، مع فتى من الطرز المتحاذق المتعالم ظهر لنا من أمرهما، وتبين من شكلهما، أن الرجل عين من أعيان المدينة، وأن الفتى ابن له وزينة، وإذا هما يتناظران ويتحاوران، فيما يريان ويبصران، فدنونا منهما وأنصتنا إليهما.

الابن ـ أشهدت مشاهد عزنا ورأيت معاهد فخرنا، وعلمت كيف كان مقدار مجدنا ، وإلى أية رتبة بلغت بنا صناعة اجدادنا؟ فلله درهم، ما كان أرقاهم فى الفكر،وأبدعهم فى العمل! ولو أن نوابغ الأمم اجتمعوا اليوم اجتماع مفاخرة، ونزلوا إلى ميدان المناضلة والمناظرة، لما سبق المصرى منهم سابق، ولا تعلق بأثره لا حق، ولكان له من بينهم الكعب الأعلى، والقدح المعلى، وهذه الاثار فى يده يفاضل بها ويفاخر، وينشد عليهم قول الشاعر:

هذه آثارنا تدل علينا

فانظروا بعدنا إلى الآثار

الوالد ـ ما أرى شيئا فى هذه الآثار االتى تماجد بها وتفاخر، يفوق ما يكون فى السوق من البضاعة الكاسدة والسلع البائرة، وما يتخرج عن بيوت الناس من الأعراض الواهية، والأمتعة البالية.

الابن ـ كيف يكون منك هذا القول؟ وهى بشهادة العالم أجمع أثمن من كل ثمين، وأنفس من كل نفيس، لا تقويم لها ولا تقدير إلا بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وكيف غاب عنك تهافت هؤلاء الغربيين أهل المدينة الحاضرة على اقتناء شئ منها بالمال الجم، تنافسهم فى التمتع بمشاهدتها، يتحملون لذلك الأسفار البعيدة، والمتاعب الشديدة، ولا يعقل ـ وهم هم أهل الهدى والعلم ـ أن يشتغلوا بباطل، أو يجهدوا أنفسهم على غير طائل؟

الوالد ـ لكم دينكم ولى دين، وما أزال أكرر القول لك بأننى لا أجد فى نفسى شيئا مما تشعرون به فى هذا الباب، وما أراه من هذه الأحجار والتماثيل لا يساوى فى نظرى إلا انقاض بيوت عفت، أو طلول درست وإن صح ما يقال عن هذه التماثيل إنها أشخاص قديمة نزل بها السخط والمسخ، كان التعلق بها والتمجيد لها مما يغضب الخالق ولا يرضى المخلوق وأما قولك: إن فيها منتهى فخرنا ومجدنا، لأنها من صنع آبائنا وأجدادنا، وإن آباءنا وأجدادنا هم من نسل هذه الرمم الفرعونية، فإنه إثم ونكر أستعيذ بالله منه «كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا» ما كان أجدادنا وآباؤنا إلا أولئك العرب الكرام، أهل الدين والإسلام، لانفاخر إلا مفاخرهم، ولا ننتسب لغير أصلهم، وأما من جهة الصنعة فى كل ما أراه هنا مثل هذه الآثار والأحجار، ويتفننون فى تقليدها، فتخرج من أيديهم، وهم بين الروث والطين، أتقن صنعا من هذه المحجبة فى القصور، المصونة فى البلور.

الابن ـ علم الله لو كان فى لغتنا العربية من الكتب المؤلفة فى مزايا هذه الاثار، مثل ما فى اللغات الأجنبية، لعلمت منها ما لم تكن تعلم. على أن مجرد النظر يكفى وحده لإثبات هذه الآيات والمعجزات فى حسن الصنعة والدقة، أفلا تنظر إلى هذا التمثال البديع، تمثال شيخ البلد، وهو قطعة واحدة من خشب الجميزة؟ فما أدق الصنع، وأتقن العمل، وما أكمل الشبه، وأجمل الصورة!

الوالد ـ نحن فى كل يوم نشاهد مائة شيخ بلد من لحم ودم لا من خشب وحجر فدعنى على غباوتى وجهلى، وبارك الله لك فى علمك وعقلك.

الابن (بصوت خفى) ـ «واغفر لأنى إنه كان من الضالين» ـ (ثم يجهر بالقول) ـ لالزوم حينئذ لطول إقامتنا هنا، وهلم بنا فقد حل الميعاد المضروب بينى وبين ذلك السائح الذى زارنا بالأمس لتناول العشاء معه فى «أوتيل شبرد».

الباشا (للصديق بعد انصرافهما) ـ ماذا تقول فى هذه المناقشة، وما دار من الكلام بين الولد والوالد؟

الصديق ـ ما عساى أن أقول غير ما قاله الله عز وجل: «فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا»، وماذا نرى هنا غير الذى رآه هذا الوالد الساذج: قبور مقلوبة، ورموس معكوسة، وأجداث منبوشة؛ فإن كان الغرض من عرضها العبرة أو الموعظة، فإن فيما هو أمامنا كل يوم من هبوط الملوك عن ذهب العرش إلى خشب النعش؛ ومن وسائد الحبر، إلى مساند الحجر، ومن ظهور الصافنات الجياد، إلى بطون الديدان فى الأكفان والألحاد، لنعم الموعظة الحاضرة للنظر والحس، والحكمة البالغة للعقل والنفس.

الباشا ـ هذه هى الحقيقة بعينها فى نظرى الآن، وقد كنت أحسب أن لهذه الآثار شأنا عظيما فيما مضى من دهرى عندما كنت أرى تهافت الغربيين عليها فى زمن الولاة السابقين، ولكن لعل شأنها عندهم وعلو قيمتها لديهم، هو

لأجل توغلها في البلى والقدم، ومحلها من التاريخ، وما تحمله منقوشا عليها من أساطير الأولين.

الصديق - نعم إن كان من وراء هذه الآثار والأشلاء قيمة عند الغربيين فإنما هي كما تقول، لتعلقها بمباحثهم في أخبار الأوائل وفلسفة التاريخ، وزد على ذلك حبهم للاقتناء وولوعهم بالاختصاص بالنادر، ولذلك علت قيمتها عندهم، وارتفع قدرها بينهم، وليس للمصريين منها أقل فائدة سوى الشهرة بأن في مصر آثارا تفوق في القدم مثلها من بقية المتاحف، ولو أنك عرضت أهل مصر على هذه الآثار واحدا واحدا، لما استفادوا منها شيئا، ولا أفادوك عنها شيئا، ولما وجدوا لها قيمة تذكر، سوى النزر اليسير من المقلدين للغربيين ولم تجد بين عشرة الملايين اليوم سوى شخص واحد يفقه لغة «الهيروغليف»، أعني لغة آبائهم وأجدادهم كما يزعم الزاعمون، مع كثرة الخبيرين بها من الأمم الغربية، والله أعلم بمقدار علمه بها. ولو تمنيت الأماني لقلت: عسى الله أن يخفف بقيمتها العالية بعض ما على الحكومة المصرية من أثقال الديون، وما على المصريين من أعباء الضرائب والمكوس، ويا ليت المصريين يخرجون عنها لا عليهم ولا لهم، فإنها تكلف الأمة المصرية نفقات على البحث عنها في خبايا الأرض، وجمعها والتحفظ عليها ونقلها من أماكنها إلى المتحف، وناهيك بنفقات المتحف التي أنفقتها الحكومة أولا على متحف بولاق، وثانيا على متحف الجيزة، وما تنفقه ثالثا على المتحف بقصر النيل، فإنها تعد بالملايين.

الباشا - كنت أرى رأيك هذا وأتمنى أمنيتك، لولا أن يقال: إن المحافظة على هذه الآثار، والحرص على بقائها بمصر، مزية أدبية لها قدر عظيم، يعرفه من عرف مقدار حرص أهل الممالك الأخرى على الآثار والتحف وشدة ضنهم بها، فلا يرغبون البتة فى بيعها والتخلى عنها، ويرون فيها فخرهم ومجدهم فلا يليق بمصر أن تشذ عن هذا السبيل.

الصديق - إن حرص أهل الممالك على ما فى متاحفهم من الآثار، وتفاخرهم بها، هو لأنها عندهم علامة من علامات التغلب والانتصار وإشارة إلى المجد القديم والعز التليد. ولكن اين علامة التغلب والانتصار عند المصريين؟ وما هى إشارة المجد والشرف فى هذه الرمم البالية؟ رمم أهل الجهل والظلم من أغبياء الملوك الأقدمين، ولأن الغربيين فى غير حاجة إلى قيمة أثمانها، فهى عندهم من الكماليات، أما عندنا فالأمر بالعكس، ولم تأتنا هذه الآثار من جهة الفتح والنصر، وإنما جاءتنا من طريق النبش والحفر، والمصريون فى حاجة إلى المال لإنفاقه فى ضروريات المعايش، وقلما يمر عام إلا ويكشف المكشفون فى مصر من هذه الآثار الشئ الكثير، بحيث يوجد لكل نوع منها أشباه كثيرة، فما ضر المصريين لو تخلوا عن بعض هذا الكثير الزائد، وعن تلك الأشباه المتعددة، وانتفعوا بقيمة أثمانها فى بعض شئونهم العامة، ويبقى فى المتحف مع ذلك من الآثار ما يكفى للفخفخة والمباهاة، ومباراة الأمم فى تشييد المتاحف، وإن كان قد جاز لحكام مصر السابقين أن يهادوا ملوك أوروبا وأميركا بالجانب العظيم، والقدر الجليل،

من هذه الآثار القائمة اليوم فى الأنحاء المختلفة من أقطارهم، وأن يغضوا النظر عن الوافدين على الديار المصرية لسلبها أو ابتياعها من أيدى الفلاحين بدرهم أو دينار فلم لا يجوز التخلى عن بعضها للانتفاع بأثمانها وهى على ما تراه - ما لا يباع فإنه يتقسم.

وجملة القول: أن الانتفاع بها اليوم قاصر على الأجانب وحدهم، إما بمشاهدتهم لها فى ديارنا، أو بانتقالها مسلوبة إلى ديارهم، وأى عار على الأمة المصرية أن تتصرف فى بعض الآثار المتشابهة التى تنبتها لها الكهوف والتلال فى كل يوم، لتنتفع بأثمانها فى ترقية شأن المعارف، وبث الأدب بطبع تلك الكتب المخزونة للأرضة بدار الكتب المصرية فى المطبعة الأميرية التى طالما أفادت الناس بطبع الكتب النافعة فى أيام الحكومة السابقة، حكومة الجهل والظلم، وخبرونى، ناشدتكم الله، أى نفع وفائدة للأمة المصرية الإسلامية فى أن تنتشر بين يديها رمم الفراعنة فى «الأنتكخانة» وتقبر أرواح العلماء والحكماء فى «الكتب خانة» وأى الأمرين أعظم نفعا وأكثر ربحا، أن يعرض على أعيننا تمثال «إيبيس» وصورة «إيزيس» وذراع «رعمسيس» وفخذ «أمينوفيس»، أو أن تتداول الأيدى كتابا للرازى، ومقالة للفارابى، وفصلا لابن رشد، ورسالة للجاحظ وقصيدة لابن الرومى؟ ما تجرى الأمور عندنا - شهد الله - إلا على التناقض وما تسير إلا على خلاف المصلحة.

قال عيسى بن هشام: وجاء أوان الخروج، فقمنا نسعى، لنلحق بأصحابنا فى الملهى، ونشاهد ما يتم عليه حالهم، وينتهى إليه مالهم.

العمدة فى الملهى

قال عيسى بن هشام: وعدنا إلى المدينة، وقد مد الغروب حبالته، ليقتنص من الأصيل غزالته، فطارت نفسها شعاعا[174]، واضمحل قرصها شعاعا، وجدت نافرة إلى كناسها[175]، وهى تصعد الشفق من أنفاسها، ثم اختفت سقائق الشفق، تحت أكمام الأفق، ولما اخضر من الليل جانبه، وطر شاربه وتوقدت مصابيح السماء، فى قباب الظلماء، قصدنا دار التشخيص والتمثيل، وبيت التصوير والتخييل، فدخلنا مع الداخلين، نساء ورجالا، أجناسا وأشكالا، واخترنا لجلوسنا الكراسى دون الغرف، لتتيسر لنا المشاهدة من كل طرف، ثم جلسنا نحدد النظر، فيمن حضر، وإذا نحن بين أخلاط من الطبقات اختلفت أزيارهم، واتفقت أنواقهم وأهواؤهم، وعلا ضجيجهم وصياحهم، وكثر لعبهم ومزاحهم، سبا وشتما، ولكزا ولكما، ثم يتمايل بعضهم على بعض، ويضربون بعصيهم وأرجلهم ظهر الأرض، رجالا وغلمانا، شيبا وولدانا، متظاهرين بملل، ومطالبين برفع الستار، ثم حولنا النظر إلى أعالى الشرف، وجوانب الغرف، فرأينا من بينها مقاصير عليها رقائق الستائر: تشف عن لوامع اللآلئ والجواهر، فى نحور، من مكنونات القصور، وبيضات الخدور، ولولا التأدب لتخيلناها من بنات الفجور، فهن يزحزحن من الوشى والحبر، ويكشفن عن الطرر، تضئ بالغرر، ضوء الليل تحت القمر، ويتراءين ترائى الكواكب والنجوم، ومن خلل السحب والغيوم:

وتنقبت بخفيف غيم أبيض

هى فيه بين تخفر وتبرج

كتنفيس الحسناء فى مرآتها

كملت محاسنها ولم تتزوج والرجال من تحتها ينظرون ويتشوفون، ويتشوقون ويتلهفون، لاتثنى أبصارهم عن وجهتها، ولا يحولون الوجوه عن قبلتها، فهم قائمون على عبادتها عاكفون، لا ينفكون عنها ولا هم يستنكفون، وهن يوالين الضحكات، وتتالين الحركات، ويتبادلن معهم الغمز ويتبادلون معهن الرمز، ويتراسلون بمرواح تثير مكنون الهوى والغرام، ويشيرون بمناديل تغنى عن فصيح اللفظ والكلام، وقد خرقت الأصابع نسيج الأستار، لتنفذ منها رسل الأزهار، وتقابلت بينهم المناظير بالمناظير، تدنى البعيد وتكبر الصغير، وكل فتى يرى أنه المرمى دون سواه بالنظرات، وأنه المعنى بتلك الإشارات، فيتصنع التجمل والتظرف، ويتكلف التألق والتلطف، وفوق أعلى الشرفات أقوام وأى أقوام، متزحمين أكواما على أكوام، كأنهم فى سوق من أسواق الأنعام، لا ينتهون فيه عن الشجار والخصام، وتفقدنا أصحابنا فى أنحاء الملهى، فوجدناهم فى غرفة والعاهرة فى أخرى، وقد تزيت بزى الأجنبيات، فنبذت الخمار والإزار، وتبدت فى القبعة والزنار، وهى تغامز العمدة بيعنيها، وتشير إليه بيديها، والخليع يكون تارة فى الغرفة عندها، وأخرى يظهر فى غرفة بعدها، إلى أن دق الجرس بالدخول، وارتفع عن الملعب ستره المسدول، وظهر

فيه أمامنا طائفة من الممثلات والممثلين، ما بين ملحنين ومرتلين، على طريقة يمجها السمع، ويعافها الطبع، وبكلام مبهم، وألفاظ لاتفهم، كأنهم حداة فى مفازة، أوسعاة فى جنازة، وهم فى أزياء متعاكسة، وأشكال غير متجانسة، وثياب تنافرت ألوانها، على أشخاص تباينت أوطانها، وظلوا يعبثون بالأناشيد والتلاحين، ثم انصرفوا عنا بعد حين، ثم ظهر من بعدهم رجل مكتهل، مزجج الحواجب مكتحل، مصبغ الخد والجبين، بأحمر كالورد وأبيض كالياسمين، فأخذ يخطر ويتثنى، ويهتف ويتغنى، وبجانبه امرأة نصف، تتمايل وتنعطف، لاتقل عنه شيئا فى باب التصبغ والتدهن، والتصنع والتلون، يقول لها فى شكوى الغرام، وشرح الوجد بها والهيام:

« يا حبيبة الفؤاد، وغاية المراد، ما ألطف هذا الشكل! فهيا بنا نغتنم االوصل».

فتجيبه: «قد يكون ذلك أيها الخل الوسيم، إذا ساعدتنا أمى نسيم، فدبر أنت ما عليك، وها أنا ذاهبة لأرسلها إليك».

ثم تنصرف الفتاة، ويبقى الفتى فى انتظار حضور الأم، فتدخل عليه، وإذا هى عجوز شوهاء، وجلبانة ورهاء [١٧٦]، فيتصل بينهما الكلام، وينتهى بالقبول والاتفاق، ويضع الفتى فى يدها كيسا من الدراهم عند مفارقتها إياه، ثم ينفرد متجولا ينشد ويغنى مدة من الزمن، ثم يذهب لسبيله، وتأتى الأم ومعها زوجها، وإذا هو رجل أثقلت ظهره السنون، ولم تفده التجارب شيئا، فتحتال عليه ليقبل زيارة الفتى وتردده على ابنته فى بيته. فيمتنع ويتعلل بقوله: «حقا: إن ذلك الشاب، هو ألح من

النباب، وهو عندى أفسق من الشياطين وأخبث من البرانين، لا يترك من النساء الدون، ولا العجوز الحيزبون».

فتجيبه بقولها: لاتخف أيها الزوج الأفضل، فما كل الطيور توكل، وابنتنا العاقلة الحلوة، لا يخشى عليها منه فى الاجتماع ولا فى الخلوة، ثم يطول الكلام بينهما، وينتهى بقبول الوالد ما دبره له كيد الوالدة؛ ثم يذهبان ويجتمع العاشق بالفتاة فيتعانقان ويتلاثمان، وتقول له فى حديثها: «الحمد لله أيها الشاب الأنيق، على التيسسير والتوفيق، فقد سهلت أمى لنا الطريق، ولم يبق أمامنا إلا استرضاء الخادمة، حتى تكون لأسرارنا كاتمة». فيجيبها: «نعم، وإن لم تطاوعنا فإنها تصبح نادمة حزينة نادمة، لأنى أقسم يابنت الكرام، بما بيننا من الحب والغرام، أنى أذيقها كأس الحمام، بحد هذا الصمصام، إن امتنعت عن تسهيل الأرب، بقبول ما فى هذا الكيس من النهب فتقول له: «آه يا حبيبى، ما أطرب الجلوة، وما أطيب الخلوة حيث نصبح فى بحر النشوة، وهيا بنا أيها الهمام، فإنى أسمع صوت أقدام، وعندى الآن أن أحسن طريقة، أن نتنشق نسيم الصبا فى زوايا الحديقة»، فيقول: «حفظت يا سيدتى، ومولاتى ومنبع حياتى ومماتى، فالآن قد بزغت شمس سعودى، وعطر الاكوان عرف ندى عودى».

ثم يذهبان ويحضر بعدهما غيرهما، فيتداول الكلام بينهم مرة من سرقة واحتيال، وخيانة واغتيال، وأخرى عن احترام واقتراف، واختلاس واختطاف، ثم يعلو بينهم الضجيج، ويصيحون بغناء كأنه ندب وعويل.

وعلى هذا ينتهي الفصل الأول ويرخي عليه الستار، ويجد الحاضرون حينئذ في الصفير والتصفيق، والتأوه والشهيق، كأنهم جميعا في نوبة من الصرع أو المس، ثم إنهم يتناثرون إلى الخروج لشرب الخمر والتدخين ونقيم نحن جلوسا في مكاننا، فيلتفت إلى الباشا ويقول:

الباشا - لقد سئمت - علم الله - ومللت من منظر هذه المراقص والملاعب، فما أشبه بعضها ببعض، وما أجمعها لأشتات النقائص والرذائل على اختلاف أوضاعها!

عيسى بن هشام - ليس هذا المكان في أصل وضعه بمرقص ولا بملعب، هذا هو «التياترو» المعروف عند الغربيين بأنه أصل التثقيف والتأديب، ومنبع الفضائل ومحاسن الأخلاق، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهو عندهم توأم الجرائد، هذه تعظ بالخبر، وهذا يعظ بالنظر، فيغرس في النفوس صورة الفضيلة مجسمة للأبصار، مما يعرضه على الناظرين والسامعين من تاريخ أهل الفضائل في الأزمان العابرة أو الحاضرة، ويفعل في النفوس مالا تفعله الرواية والخبر. وهي في بطون القصص والسير، فيمثل لك محاسن الفعال، ومحامد الخصال، وما تأتي به عواقبها من الظفر بالمرغوب والحصول على المقصود، وإن اعترضتك معها المصاعب، وبالتك المتاعب؛ ويشرح لك شناعة الرذيلة، ويصور فظاعة النقيض، وما يكون في عاقبتها من السوء، وفي أثرها من المكروه، وإن خلبتك بمنظرها ساعة، وخدعتك ببهرجها لحظة. فيجتمع لديك من الموعظة والعبرة ماعساه يردعك عن

القبيح إن هممت به، ويردك إلى الحسن إن تقاعدت عنه، ويهديك إلى الطريقة المثلى ويخرجها لك من الغيبة إلى الشهود، ومن القول إلى الفعل، فتنجذب نفسك إلى أنواع الفضيلة من شجاعة وشهامة، وكرم ومروءة، وأمانة ووفاء، وسماحة وسجاحة، وصبر وحلم، وينفر طبعك عما تجمعه الرزيلة، من دناءة وجبن، وخيانة وغدر ، وجهل وحمق، وفحش وفسق.

الباشا - إن كان الأمر كما تقول، فكيف تسنى للمصريين أن يقبلوا وضعه، ويشينوا شكله، ويجعلوا هذا المكان على مثل حال الحان، فلا فرق عندى فيما أنظره هنا الآن، وما رأيته فى الحانات الأخرى، من الرقص والعزف، ومعاقرة الخمر، ومغازلة النساء وتمثيل أحوال العشق بأعظم شكل يغرى به، ويهيج من شهوات النفوس إليه؟ فإذا كان التشخيص على على هذا النمط معدودا بينهم بابا من أبواب الآداب، وهم يحضرونه ويشاهدونه على هذا الاعتقاد، فإن شره عندى أعظم من شر الملاعب والمراقص الأخرى لأن الداخل إليه لا يرى على نفسه من لائمة يتقيها فى دخوله، ولا ينكر عل أدبه منكر فيه، ولا يخشى انتقادا عنده، فتسترسل النفس فى غيها، ولاتجد منها لها وادعا، ولاوازعا بخلاف الحال فى الداخل إلى تلك الحانات، فإنه يدخلها وهو واثق بأنه قادم على مايلام عليه ويعاب، فيأتيه وفى نفسه من الخجل والحياء ماعساه يصرفه يوما عن غيه وجهله، والإقدام على المحرم الصراح، فيه من تأنيب النفس مايزجر وينهى، لكن الإقدام على تحليل الحرام وإباحة المنكر هو الداهية الدهياء، والمصيبة العامة، فلا وازع من الخجل والحياء، ولازاجر من خوف الهلاك والعقاب.

عيسى بن هشام - لا تأخذن ما تراه هنا من التقصير دليلا على أن هذا الفن غير مفيد للآداب، فقد قدمت لك أنه فن عربي ووصفته لك بمقدار ما وصل إليه من الإتقان لدى الغربيين، وهو لايزال هنا على حال القصور والانحطاط لم يلتفت المصريون إلى إتقانه وحسن وضعه، وجهل الناس أصل الغرض المقصود منه، فحسبوه نوعا من أنواع اللهو والخلاعة على ما نرى، وعذر الذين يشتغلون بهذا الفن في تقصيرهم أنه لابد من مساعدة أهله بالمال، ليتمكنوا من السعي في ارتقائه وإتقانه، وهم يلومون الحكومة المصرية في كل يوم حيث تبذل المال لمعاونة الممارسين له من جماعة الغربيين أسوة ببقية الحكومات الغربية، ثم إنها تحرم أهل بلادها كل مساعدة من هذا القبيل.

الصديق - قد سمعت مقالك، وعندي أنه يجب على الباحث في الأمور المتعلقة بتربية الأخلاق وتهذيب الطباع أن ينظر أولا إلى تأثير التربية والإقليم، وإلى تركيب الغرائز والفطر، وإلى العادة والعرف، ولا يتحتم أن ما يكون ذانفع عند الغربيين يكون له نفع عند الشرقيين، لاختلاف ذلك كله فيهم وتفاوته بينهم، والشواهد كثيرة جمة على أن يكون في باريس حسنا يكون في برلين قبيحا. وأن ما يكون في لوندرة حميدا يكون في الخرطوم ذميما، وما يكون في رومية حقا يكون في مكة باطلا، وما يكون عند الغربيين جدا، يكون عند الشرقيين هزلا، ولست أرى أن هذا الفن، لوتم لأصحابه ما يبغونه من وفرة المال، ومعاونة الحكومة، أن يصلوا به إلى حد الإتقان المطلوب، وأن

يكون له النفع المقصود فى تربية الأخلاق وحسن الآداب، لما فيه من المنافرة البينة لطبائع أهل المشرق، وأخص بالذكر منهم أهل الإسلام، لا، بل ربما كان منه الضرر البحت. ولا يغيب عنك أن هذا التشخيص والتمثيل قائم على أساس العشق يدور فيه بكل أدوار، ولا تخلو قصة من قصصهم التى يمثلونها عن ذكر العشق والغرام، وما من رواية لهم إلا والعاشقان يكونان فيها كالفاتحة والخاتمة لها وهو وإن كان مقبولا عند الغربيين، مسموحا به لموافقة العادة عندهم، ولكونه شيئا لاعيب فيه، يجهز به فتيانهم، بل هو أصل من أصول التزاوج بينهم، لكنه غير مقبول عند الشرقيين، ولا مسموح به فى عاداتهم ولايدخلونه فى أبواب الفضيلة ومحاسن الآداب ولذلك كان شأنه الكتمان والتستر، لا التجاهر به والتظاهر. ولقد جرى العشق فى بعض البلاد الشرقية مجرى العيب المحض، والعار الفاضح، وكان عند بعض قبائل العرب إذا اشتهر أحد فتيانهم بعشق فتاة منهم منعوه عن التزوج بها لهذا السبب، وربما رفعوا أمره إلى السلطان، إن شهر بها فى شعره فيهدر دمه فهذا العشق الذى هو الركن الأكبر والسبب الأعظم فى حصول التزاوج عند الغربيين، هو من أكبر الموانع فى التزاوج لدى الشرقيين، ثم إن تهذيب الأخلاق بهذا الفن لا يأتى إلى من الطريق المألوف والمسلك المعروف عند أهل كل بلد، فتشخيص هذه الأقاصيص والروايات الغربية الموضوعة على أخلاق أمة بذاتها لايؤثر فى أمة أخرى، ولابد أن يكون التشخيص والتمثيل بين الشرقيين مطابقا لأحوالهم وظروفهم، جاريا على

مقتضى عرفهم وتاريخهم، وليس من المقبول عندهم حصول هذا التشهير والتمثيل فى معيشة الأهل والولد، وما تنسدل عليه الحجب والستور، فى البيوت والدور، وليس فى الدين الإسلامى ما يسمح باشتراك النساء مع الرجال فى تأدية هذا الفف،، لأنه ينهى النساء عن التبرج بالزينة، فضلا عن الاختلاط بالرجال، ويأمرهن بغض البصر،فضلا عن طموحه، ولامن أدب المسلمين أن يمثل بينهم تاريخ الإسلام وتاريخ خلفائه وصلحائه على أسلوب يبتدئ بالعشق والغناء، وماذا ترى فى أبى جعفر عاشقا وأبى مسلم مغنيا، وأبى الفوارس راقصا، كما يجترئ عليه الآن أهل هذا الفن، وذلك أكبر إهانة للأسلاف، وأعظم خرف فى التاريخ، وإن أردت أن أكاشفك بكل مايجول فى خاطرى قلت لك: إن هذا الفن الذى تغالى الغربيون فى إتقانه وارتقائه لم يفدهم أدنى فائدة فى باب الآداب، وضرره بينهم اليوم ظاهر ونفعه غير غبرياء لأن المعول عليه عندهم فى هذا الفن أن تمثيل يظهروا الفضيلة من خلل تمثيل الرذيلة، ويبينوا عن العفاف بتصوير الشهوات إلى حد المبالغة التى يذهب إليها خيال الشاعر فتوضيح الرذائل، وتبيين الشهوات، وعرضها على أصحاب الرذائل فى القوالب المختلفة بما تنطوى عليه من وجوه الحيل والمكر والخداع والختل، مدرجة إلى تعمق صاحب الرذيلة فى رذيلته، واقتناعه فيها بتلك الوجوه المنوعة، فلا يسبقه إليها سابق. وكم تدرب اللصوص ومهرة الأشقياء، وبرز أهل الفسق والفجور بحضورهم تمثيل الروايات، فاكتسبوا منها ما كان ينقصهم،

وأخذوا عنها ما كان يعجزهم ومن تأمل قليلا وجد أن الشرح والاسهاب فى خفايا الرذائل، التى يندر حدوثها ويقل وقوعها، كان من الأسباب فى انتشارها، ولذلك قالوا: إن توضيح الجرائم التى من هذا القبيل فى القوانيين مما لا يؤمن معه تيقظ المجرم إليها، وقد سئل الشارع الحكيم اليونانى عن سبب إغفاله عقوبة القاتل لأبيه فى شريعته، فقال: ما كنت لأتصور أن يونانيا فى الوجود يقدم على قتل أبيه، فكان قوله هذا أنفى لوقوع هذه الجريمة من تدوينه شدة العقوبة عليها. واكتساب صاحب الفضيلة من كشف الرذيلة لايقوم بمقدار الضرر الذى يلحق بأهل الشر منها.

قال عيسى بن هشام - ودق الجرس، وعاد الناس إلى مقاعدهم، واشتدت بينهم الجلبة، وعلا الصياح، وزين السكر لأحدهم أن يقوم فيهم واعظا خطيبا، فما زال يهذى فى القول حتى سقط على الأرض يتخبط فى فيئة ورجيعة، لا فى دمه ونجيعه، ثم ارتفع الستار عن منظر غاية، يدور فيها ذلك الفتى ويتغنى بغناء يشبه أذان المؤذن، ومن ورائه عشيقته تتلفت وتتغير، ثم رأيناه قد ترك الغناء مرة واحدة وتقدم نحو الحاضرين يخاطبهم بالزجر والتأنيب على جلبتهم وصياحهم ويشكو مر الشكوى من الانصراف عنه فى غنائه. ثم إنه يعود إلى ما كان فيه من الغناء، ويأخذ بيد خليلته للهروب، فيدخل والدها عليه فى تلك الحال، فيحول بينها وبين عشيقها فينبرى له الفتى بضربة حسام تلقيه على الأرض صريعا، ويدركه قومه، فيصوب الفتى عليهم أسهمه ونصاله، فيلجأون إلى

الفرار، وتقع المرأة مغشيا عليها، ويقع العاشق باكيا وعلى هذا يسدل الستار وينتهى الفصل، ويعود الناس إلى مكان الشرب والتدخين، فنتتبع أثرهم، ونجلس ناحية فى بعض زوايا الحان، وإذا بالعمدة وصاحبيه وعاهرته جالسون جانبا أمام إحدى المنافذ، وأمامهم الراح والكئوس مترعة، وإذا برجل عابس الوجه بين الغلظة قد وقف أمامه يقول للمرأة فى كلامه: «أتظنين أن الهرب وخلف الميعاد يمنعك من ويوجل وفاء القسط، المطلوب لى منك، وأنا لا أزال أقتفى أثرك منذ الصباح إلى الساعة، وتحملت فى البحث عنك تعبا عظيما؟ والحمد لله إذ عثرت عليك فى هذا المكان، ولست أبرح من هنا، حتى تعطينى مبلغ القسط، أو تردى إلى هذه الحلى التى يتزين بها صدرك أمام عشاقك وخلانك» ويمد يده ينتزع الحلى من صدرها، فيمنعه الخليع متوسطا بينهما، ويقول له: ليس هذا وقته، وليس هنا محل المطالبة، وأمامك المحاكم؛ فلا يرجع الرجل عن عزمه، بل يقول : «أنا لا أطالب بحقى أمام المحاكم و أمامى مالى فى صدرها»، ثم يمد يده ثانية، فتقبض العاهرة على حليها، وتميل على العمدة تستغيث به وتستجير، فتأخذه الحمية والنخوة، فيدفع عنها الصائغ بيده، فيقول له: «إن كان قد عز عليك ياحضرة العمدة مطالبة صاحبتك، فالشهامة تقضى عليك بأن تدفع لى المبلغ من عندك لا أن تدفعنى عن حقى بيدك»، فيسأله العمدة عن مقدار المطلوب له، فتقول له المرأة: إنه لايزيد عن عشرين جنيها، فينقد الصائغ الدراهم فى الحال، ويطلب منه ورقة الاستلام ثم يقدمها إلى المرأة بيد

والكأس بيد أخرى، فتقبل حافة الكأس شكرا له وحمدا، وينصرف الصائغ ضاحك السن قرير العين، ويعودون إلى شربهم وحديثهم فيقترح العمدة عليها أن يغادروا هذا المكان إلى سواه، وأنه يفضل الذهاب إلى منزل صاحبته، ويطلب من الخليع أن ينظم له مجلسا هناك فوق سح المنزل فى ضوء القمر. وبينما هم فى أخذ ورد، وإذا بصاحب الحان الذى تشتغل فيه المرأة واقف على رأسها واضع يديه فى خاصرتيه يبكتها بقوله: «أهذا هو المرض الذى تعتذرين به عن تأخيرك فى هذه الليلة عن الشغل، وهذا هو المستشفى الذى تتعالجين فيه؟ وأظن أن حضرة العمدة هو الطبيب الماهر فى هذا العصر الحاضر»، ثم يجرها بيده لتذهب معه إلى مباشرة الشغل فى الحان، فيمسكها العمدة من أذيالها، ويقول له: «ما هذه الوقاحة، وما هذا التهجم بعد أن أخذت منها عشرة جنيهات فى نظير تأخرها عن الشغل فى الحان، ورضيت بهذا العوض لتكون على حريتها فى هذه الليلة؟»، فيقول له: «إن كانت أخذت منك هذا المبلغ لدفعه إلى فقد كذبت دعواها وادخرت الدراهم لنفسها، فإما أن ترد إلى المبلغ وتتعهد لى بأنك لا تجتمع بهذه المرأة فى غير محلى، وإما أن تستعد للقضية التى أقيمها عليك بطلب التعويض الذى لا يكفينى فيه دخل أطيانك»، ويشتد بينهم اللجاج والخصام، فتنبرى إحدى الممثلات الجالسات فى الحان، ممن انتهى دورهن، فتستصرخ «البوليس» لإخراجهم، فيأتى البوليس ويصمم على أن يسوقهم إلى «القسم» جميعا، ونخرج وراءهم، لاتباعهم، فيأبى الباشا ذلك كل الاباء وينفر

عنه كل النفور، ويقول: أنا لا أتوجه إلى «القسم» لاشاكيا ولاشاهدا ولامراقبا ولامستخبرا، فقد جربت ما يقع فيه، وكفاني ما علمته من ظواهره وخوافيه وقد شعرت بسأم في النفس، وصداع في الرأس، فلنذهب إلى البيت، لنتمتع بشيء من الراحة، ونخلص من رؤية هذه الحرمات المباحة، فأجيبه بالطاعة والانقياد، ونترك الصديق على ميعاد.

المدنية الغربية

قال عيس بن هشام: وما وصلنا إلى البيت حتى عمد الباشا إلى غرفة نومه، يحاول أن يشتفي بالرقاد من غمه وهمه، فتركته في غرفته، ورغبت في النوم كرغبته. وبينا أنا غريق في المنام، أسبح في بحر الأحلام، إذ سمعت الباشا يناديني نداء متتاليا، فقمت إليه مسرعا وملبيا، فأخبرني أن طول التفكر نفى عنه الرقاد، وأورثه الأرق والسهاد، وطلب مني أن نحيي اللية بالسمر، وأن اقتلها معه بالسهر، فجلسنا نتجاذب أطراف الحديث، من قديم في الزمن وحديث، إلى أن صارت الليلة في أخريات الشباب، فاستهانت بالإزار والنقاب، ثم دب المشيب في فودها(١٧٧)، وبان أثر الوضح(١٧٨) في جلدها، فعبثت بالعقود والقلائد، من الجواهر والفرائد، ونزعت من صدرها كل منثور ومنظوم، من درر الكواكب ولآلىء النجوم، وألقت بالفرقدين من أذنيها، وخلعت خواتيم الثريا من يديها، ثم إنها مزقت جلبابها، وهتكت حجابها، وبرزت للناظرين عجوزا شمطاء، ترتعد متوكئة فسترها الفجر بملاءته الزرقاء، ودرجها الصبح في أرديته البيضاء، ثم قبرها في جوف

الفضاء وقامت عليها بنات هديل[١٧٩]، نائحة بالتسجيع والترتيل، ثم انقلب المأتم فى الحال عرس اجتلاء وتغير النحيب بالغناء، لإشراق عروس النهار، وإسفار مليكه البدور والأقمار، وما نشعر إلا وقد طلع الصديق علينا مع الشمس للموعد الذى كان بيننا من أمس، فسألنا كيف أصبحنا؟ وهل نعمنا واسترحنا؟ فأخبرته بما كان، من اتصال السهر إلى الآن. وما كانت تجرى عليه المسامرة، وتدور به المذاكرة، وجملتها أن الباشا لايزال يدهش مما يراه فى رحلته، ولم يكن له أثر فى أيام دولته، ويستخبرنى عن سرعة هذا الانتقال، من حال إلى حال، وما الأسباب والعلل، فى انتشار هذا الفساد والخلل، فذكرت له بعض ما حضرنى منها، وماعلمته عنها، وإنك لخليق أيها الصديق أن تكشف لنا عن وجه الحق الصريح، وتخبرنا بما عندك من السبب الصحيح

الصديق - السبب الصحيح فى ذلك هو دخول المدينة الغربية بغتة فى البلاد الشرقية، وتقليد الشرقيين للغربيين فى جميع أحوال معايشهم، كالعميان لا يستنيرون ببحث ولا يأخذون بقياس، ولا يتبصرون بحسن نظر، ولا يلتفتون إلى ما هنالك من تنافر الطباع، وتباين الأذواق، واختلاف الأقاليم والعادات، ولم ينتقوا منها الصحيح من الزائف، والحسن من القبيح، بل أخذوها قضية مسلمة، وظنوا أن فيها السعادة والهناءة، وتوهموا أن يكون لهم بها القوة والغلبة، وتركوا لذلك جميع ما كان لديهم من الأصول القويمة والعادات السليمة، والآداب الطاهرة، ونبذوا ما كان عليه أسلافهم من الحق

ظهريا، فانهدم الأساس، ووهت الأركان، وانقض البنيان، وتقطعت بهم الأسباب، فأصبحوا فى الضلال يعمهون، وفى البهتان يتسكعون[180] واكتفوا بهذا الطلاء الزائل من المدنية الغربية واستسلموا لحكم الأجانب يرونه أمرا مقضيا، وقضاء مرضيا، وخربنا بيوتنا بأيدينا وصرنا فى الشرق كأننا من أهل الغرب، وإن بيننا وبينهم فى المعايش لبعد المشرق من المغرب.

الباشا ـ قد يكون ذلك، ولكن لست أدرى لأية علة أخذ الشرقيون بباطل المدنية الغربية، وارتدوا بلباسها، ولم يلتفتوا يوما للرجوع إلى سابق مدنيتهم الصحيحة وعمرانهم القويم، فهم أهل السبق فى ذلك كله، وعنهم أخذ الآخذون وقلد المقلدون فى كل زمان ومكان

الصديق ـ لا أعلم لذلك من علة إلا ما أعقب العزة السابقة من البطر والأشر، وما يتولد عنها من طول التوانى والتواكل، وسوء التراخى والتخاذل، فغفلوا عن ماضيهم وذهلوا عن حاضرهم، ولم يكترثوا لمستقبلهم، وقعدا بهم هماتهم عن مشقة التكاليف التى كان يتباهى أسلافهم باحتمالها، ويتفاخرون بممارستها، وراقهم أن يأخذوا بهذا الطلاء الحاضر من مدنية الغربيين بلا مشقة ولا تعب، ولا جد ولا كد، فعظم مقدار أهل الغرب فى أنظارهم، وتوهموا أنهم من طبقة عالية فوقهم، فخضعوا وذلوا وقهر الغربيون وغلبوا.

الباشا ـ ألا ليت شعرى كيف يمكننى الوصول إلى البحث والنظر فى أصول المدنية الغربية ظاهرها وباطنها، وأن أقف

على خافيها وباديها فى أرضها ودبارها، ولكن بعدت الشقة وعز المطلب.

عيسى بن هشام ـ لا تستبعد أيها الأمير حصول الغرض ونيل المطلب في يوم من الأيام فإنه لايزال يدور فى خاطرى أن أرحل معك رحلة إلى البلاد الغربية نجتنى منها ثمرات العلم والبحث، فإن كان هذا العزم من غرضك أيضا فأنا أجهز له أمرنا.

الصديق ـ وأنا شاء الله معكم.

قال عيسى بن هشام: ثم قمنا وعقدنا النية، على تحقيق هذه الأمنية، ونسأل الله أن يسلك بنا سبيل الهداية، فى المبدإ والنهاية.

الرحلة الثانية

باريس

قال عيسى: سبحان من لاتجرى الأمور إلا بتقديره، ولا تنفذ العزمات إلا بتيسيره، فقد يسر الله لنا الرحلة إلى الديار الأوروبية، لنشهد مظاهر المدنية الغربية، وبلغنا من سفرنا المدى، فألقينا بباريس العصا، وشرعنا نجوب منها الطرقات الجامعة، والساحات الواسعة، فلا القبائل تدعى وتهرع، ولا الجيوش تحشد وتجمع، ولا الموتى وهم ينشرون، ولا الخلق وهم يحشرون، يضاهى ما القوم فيه من ازدحام واقتحام، اصطدام والتحام، متدفقين فى سيرهم تدفق السيل، تحت

أضــواء مــحت آية الليل فــلا ليل ، يخــشى فــيــهــا على الأبصار، أن تعشو من شدة الأنوار، وربما انخدعت بها الديكة فأخذت في الصياح إيذانا بانبلاج الصباح.

فــإذا نظرت إلى الشــارع من العلو، لم تبـال بالغلو، إن قلت بحر مسجور(١٨٠)، قام عليه شاطئان من نور، وإذا أبصرته من أسلفه عند أوله، قلت أسراب الدو (١٨٢)، تصعد إلى الجو، بين الكواكب الزهراء من كرات الكهرباء والبيوت عن حافيته تشارف جو السحاب، وتحاول أن تعلق من السماء بأسباب، فارعة باسقة، متلاصقة متناسقة، كأنها في انتساقها سطور الخط، والأزهار على جدرانها شكل ونقط، فأين منه ما بناه لفرعون هامان، وشاده جن سليمان لسليمان، ورفعه سنمار للنعمان؛ وأين شماريخ ثبير(١٨٣) ، من سنام البعير، ومعارج الجبال، من مدارج النمال، لابل أين البحر العباب، من لامع السراب، وأجرام الكواكب، من بيوت العناكب؟.

وشاهدنا المارة يتسابقون في هذا الموقف المتلاطم، والمأزق المتزاحم، من كل شيخ وكهل وصبي وطفل، وفتى وفتاة، بين ركبان ومشاة، والألوف من صنوف العجل تخترق صنوف الناس، وتنفذ بينهم نفاذ السهام عن الأقواس، طائرة بقوة الكهرباء أو البخار أو الأفراس.

ولما لم يسابقهن شئ

من الحيوان سابقن الظلالا

وكل سائر منهم فى اضطراب العصفور، وتلفت القطا المذعور، إن خانته لفتته، أدركته منيته، وإن عثرت قدمه، هريق دمه، وإن شمخ شامخ بأنفه، وقع فى حتفه، فهم يتلمسون شاكلتى الطريق (١٨٤) كما يتلمس الشاطئ الغريق، والحوانيت على الجانبين متبرجة ببدائع البضائع، ونفائس الصنائع، تغوى الزاهد فيشتهيها، وتغرى الشحيح فيشتريها، والحانات من بينها ممتلئة بالنفوس، مشحونة بالجلوس، فى كل واحد منهم كأس الصهباء، وفى الأخرى جريدة المساء، ونحن فى هذا الموقف تكاد تطيش منا العقول، من هول الدهش والذهول، وتطير منا الألباب من شدة الوجل والاضطراب:

فى ساحة لون أن لقمانا بها

وهو الحكيم لكان غير حكيم

ومال بنا طلب الراحة، إلى حان فى تلك الساح، فلم نجد به مكانا خاليا من الزحام، فعكفنا مدة واقفين على الأقدام، وكدنا نذهب عنه آيسين، لولا أن تحرك بعض الجالسين، فذهبوا لشأنهم، وخلفنهم فى مكانهم، وجلسنا فى هذا المأمن نتصفح وجوه الحاضرين، وأجناس المارين، فإذا عدد ربات الحجال يربو على عدد الرجال، من كل ذات حسن وجمال ، وتيه ودلال، وقد متأود، وخد متورد.

تختال فى صفوف الألوان

من فاقع وناصع وقان

وهن يرفلن فى الوشى، ويسرعن فى المشى ويبارين فى رفع الفضـــول من الأطراف والذيول ويضـــربن الأرض بأرجلهن، ويزحزحن ما استطعن من حللهن.

ويبسمن عن در تقلدن مثله

كان التراقى وشحت بالمباسم وينشرن من الأرج والطيب، مثل نشر الزهر فى الغصن الرطيب، ويرسلن سهام العيون فيحركن سواكن الشجون، ويسلطن من اللحاظ القواتل، ما يدمى حبات القلوب الغوافل

إشارة أفواه وغمز حواجب

وتكسير أجفان وكف تسلم واصناف الباعة يكثرون من الغدو والرواح، ويهيجون فى النداء والصياح، بمثل العواء والنباح دائبين فى الإلحاف والإلحاح.

ولما افقنا هنيهة، أخذ الباشا كعاده [١٨٥] فى الســـوال، يستجلى منا واقعة الحال، ويقول: ما أشك فى أن هذا اليوم يوم عيد، عند أهل هذا العالم الجديد، أو هم فى نظرى سكان مهاجرون، أو جند قافلون، انتهوا من حومة المنايا، بالغنائم والسبايا، فأقول له: لا بل هى كما يصفها الواصفون، ويعرفها العارفون تلك المدينة الفاضلة، أم المدنية الكاملةمهبط العمران والحضارة، ومظهر الزينة والنضارة وموطئ العز والمجد، ومصدر النحس والسعد، بل هى تلك عندهم إرم ذات العماد، التى لم يخلق مثلها فى البلاد، لو رآها صاحب الإيوان كسرى

أنو شروان، لم يفخر على الدهر، بإيوان ولاقصر ، ولحكم بأن «المدائن» لديها سبب [١٨٦] قفر، ولو نظرها قيصر الرومان لاقسم أن رومية، وهى عنده عاصمة الدنيا، قرية لديها من الطبقة الدنيا، مثل التى ذكرها فى كشفه عن طماعيته، قبل ولايته، إذا قال: أفضل أن أكون الأول فى أدنى قرية، ولا أكون الثانى فى مدينة رومية، ولو شاهدها أفلاطون حكيم اليونان، لم يقل فيما دبر من الزمان: «أحمد الله على نعم ثلاث، يعجز على حمدها اللسان، ولا يقوم بحقها شكران: أن خلقنى من نوع الإنسان لا من نوع الحيوان، ومن جنس الرجال، لا من جنس النساء، ثم جعل نسبتى إلى «اثينا» عاصمة اليونان، دون سائر البلدان» ولو أطلع عليها هاروت وماروت، لم يماريا فى أن بابل عندها فلاة سبروت [١٨٧].

كـــــجنة الخلد تســـــر - من رأى

فـــــتـــــزدرى «الخلد» و «ســـــر من رأى» [١٨٨]

هذه هى اليوم بيت العلم والفضل، ودار السلام والعدل، ومعهد الحق والإنصاف، ومهد الاتحاد والائتلاف. هذه هى المدرسة التى يشرق منها على العالم شمس الهدى والعرفان، ويتلقى الإنسان عنها حقوق الإنسان، ويعرف منها وجوه الخير والإحسان، ولكل إنسان وطن، وهى لكل وطنى وطن ثان، لولاها لم يدرك الإنسان لنفسه من قدر، ولم يأمن فى دياره من اغتيال أو غدر، فقد كفت عن الناس عاديات المظالم، وكفتهم بائقات[١٨٩] المغارم، وعلمتهم كيف تؤتى المكارم، وتجتنب

الأوزار والمحارم، وكيف يعيش البشر في دار الشقاء، عيش السعادة والهناء، تحت ظل «الحرية» و «المساواة» و «الإخاء». إذا ناداها المظل، من أي جنس وأي قوم، أجابته لبيك مات الظلم فلا ظلم اليوم.

وهؤلاء أهلها كما تراهم يهجرون الرقاد، ويواصلون السهاد، ويصرفون الحياة في الجد والعمل، ولا ينتهي بهم أمل إلا إلى أمل، فليس على هممهم شئ بمحال، في كل حال، يذيبون بعزائمهم صلب الحديد، وتلين لإشارتهم صم الجلاميد، ويذيبون الهواء، ويكتبون على الماء، ويفتلون الحبال من الرمال ويزيلون راسيات الجبال، برانشات النبال، وينضبون الدأماء[190] بمتح الدلاء، ويمحون آية الليل فلا تبلغ فيهم أمدا، ويجعلون النهار دائما عليهم سرمدا.

أولئك الناس إن عدوا بأجمعهم

ومن سواهم فلغوا غير معدود

والفرق بين الورى جمعا وبينهم

كالفرق ما بين معدوم وموجود أقول قولي هذا، والباشا ينصت ويتأمل، و «الصديق» يتبرم ويتململ، فالتفت إليه أستخبره، عن سبب هذا الضجر، فما أتمت عليه أحرف السؤال، حتى انهال علينا في المقال، انهيال السيل من مشرف عال: الصديق ـ تالله لقد سئمنا ومللنا من سماع مثل هذه المبالغات، وتردادها على آذاننا في وصف هذه الديار، ونحن في ديارنا السنين، والأعوام، وولى ما يوصف هذا الوصف ل

للغائب عنها لا للحاضر فيها، وأنت رجل باحث نباث(١٩١) من دأبك استنباط الغوامض واستجلاء الدخائل، والزم ما يكون لنا الآن أن نجعل فكرنا مجردا عن مثل هذه الأوصاف والأخبار، التي شحنت خيالنا زمنا طويلا، فننساها ولا نذكرها، ليكون حكمنا على المشاهدة والعيان خاليا من مقدمات سبقت على الغيب، ورسخت في أذهاننا بالخبر، وقد علمت أن ذهن الإنسان يغلب عليه الانقباض عن الفحص والتمحيص، ولا يباشرهما في الغالب إلا مضطرا مقسورا، لما في التسلم المطلق والتصديق المعجل من راحة الفكر وسكون البال، وربما ارتسم في خياله أمر استحسنه بالخير، فيركن إليه ويرد كل ما يرد عليه من قبيله إلى صحيفة الاستحسان والقبول في نفسه - والأذن تعشق قبل العين أحيانا كما أنه إذا هو استقبح أمرا كان الأمر على هذا القياس، ولذلك ترى العاشق، يرد كل ما يصدر عن معشوقه إلى الحسن، وإن كان غير حسن في الواقع عند الفحص والتأمل للميل الأول والاستحسان السالف، واستعداد لوح الرضا والقبول في نفسه، لانتقاشه فيه، ومن هنا جاء قولهم: وعين الرضى عن كل عيب كليلة

كما ان عين السخط تبدى المساويا ولقد ترى الرجل الشاعر الأديب إذا أنت أنشدته بيتا من الشعر لم يكن يعرفه ولم تسم له قائله ربما استهجنه ولم يستملحه، فإذا سميت له أبا تمام مثلا أو أبا الطيب، ارتد إلى الاستحسان، وأخذ يتمحل لقائل البيت عذرا، إن كان في البيت ما يستهجن حقيقة وما كان ذلك إلا لما أطمأنت عليه نفسه، وتعودته من القبول

الاستحسان لكل ما يصدر عن هذين الشاعرين ويمكن من هذا كله أن نستخرج معنى الحظ والسعد والإقبال الذى يناله الإنسان فى دنياه، إن صادف عمله فى النفوس صحيفة الاستحسان بين الناس، ومعنى النحس والتعس والإدبار، إن صادف ما يأتيه عندهم لوح الاستقباح، والشاعر يقول:

إذا أقبل الإنسان فى الدهر صدقت

أحاديثه عن نفسه وهو كاذب

فما بالك بأحاديث الرواة عنه وحسن القالة فيه، وقد عهدنا الغربيين عموما، وهؤلاء الفرنسيين خصوصا، لانتصفح لهم كتابا ولا نسمع منهم حديثا إلا بتمجيد مدنيتهم، ومباهاة الناس طرا بنظام معيشتهم، وأنهم هم أرباب الخلق وسادة البشر، وأن الهدى هداهم، والضلال فيمن عداهم وأنه أوحى إليهم من سماء مدنيتهم أن يخرجوا الناس، من الظلمات إلى النور، فإما الإيمان بها وإما الحسام، وقد ذاعت فينا دعوتهم، وأعانهم منا على نشرها من أعانهم، فقبلنا مبالغاتهم بالتصديق والتسليم من غير بحث ولا نظر وصرفنا كل ما يأتونه إلى وجوه الحكمة والصواب، وبسطنا لهم صحيفة الاستحسان من النفس، يرتسم فيها كل ما يتخيلونه لنا ويموهون به علينا.

فالرأى لنا حينئذ أن يطرح عنا ماقالوا وما وصفوا، وننظرا اليوم إلى الأمور فى حقائقها، ونحكم عليها بحسب قيمتها فى

ذاتها لا على حسب ما رسمه الوهم، وسوله الخيال فى نفوسنا، ومعنا الباشا يمتاز علينا والحمد لله بأنه كان بعيدا عن هذا العالم، محتجبا عن هذه الدنيا الدهر الطويل، فبقى خالى مما شحن رءوسنا من هذه المدنية، فحكمه اليوم على ما يشاهده بالعيان، دون الخبر والرواية، يكون أصح حكم، ونظره أصدق نظر، وما علينا إلا أن نشاركه فى صحة النظر مجردين عن الهوى، حتى نقف على كنه الحق والباطل فى نظام هذه المدنية وقوفا تاما.

عيسى بن هشام: لك الله فيما تبدئ وتعيد!! كأنك تريد أن نخالف الإجماع ونقابل الناس بغير ما ألفوه، فننتقدلهم ما هو خال عندهم من انتقاد، بعيد من الذام والعار، فيرمونا بغلظة الطبع، وجفاء الفهم، وسخف الرأى! ولا يفوتنك أن كثيرا من ذوى الرأى يرون ليس من أدب الدنيا أن كل حقيقة تقال وكل صحيح يروى.

أو ليس من صواب الرأى حينئذ أن نسير على أسلوب الذين سبقونا إلى زيارة هذه البلاد، فنرجع على أهل الشرق باللائمة عليهم فى انخفاضهم وارتفاع أهل الغرب فوقهم، وأن نصف ما القوم فيه من القوة والمنعة، ومظاهر العزة والعظمة فى النعيم المقيم، وأننا لا نزال راقدين رقادنا الطويل فى كهوف التراخى والخمول، يقولون فنسمع، يأمرون فنصدع، ويقتسمون أرزاقنا فنشكر، وينقصون من أرضنا فنحمد، ويحتلون ديارنا فنقبل أفلا أقل من أن نسهب فى بيان الأسباب

التى ارتقت بهم إلى مرتبتهم فى الوجود، ونطنب فى شرح القواعد والأصول التى أسسوا عليها بنيانهم، لنحذو حذوهم، ونعمل على شاكلتهم. أو ليس الأليق بنا أن نحض قومنا، لينفضوا عنهم غبار الكسل، ويخلعوا عنهم لباس الخمول، ويهبوا إلى تقليد هؤلاء المجتهدين فى أنواع الكمالات؟ أو لست ترى، من أفضل الأبواب فى الحث والتحريض. أن نفخم ما استطعنا فى وصف هذه المدنية، ونعظمها فى أعينهم، ونكبرها فى صدورهم، ونبكتهم بأحاديثها، ونرفع من قدرها بقدر ما نحط من قدرنا، ونعيرهم بالمقارنة، ليكون الحث والتحريض على المباراة أشد، والإثارة إلى اللحاق بهم أبلغ، ولو سكت الأستاذ عن تلميذه، ولم يعيره بسبق غيره عليه، أكنت تراه يجد فى الأخذ، ويجتهد فى التحصيل.

الصديق - لا يعزب عن فطنتك بادئ الأمر أن جل هؤلاء الذين تحكى عن طريقتهم ممن زار هذه البلاد من أقوامنا، وعادوا إلى بلادهم فحدثوا عنها، وكتبوا وقرروا وحكموا ينقسمون إلى أقسام:

القسم الأول منهم: الطلبة الذين تلقوا فى هذه البلاد دروسهم، هؤلاء لما فيه من غلواء الشباب، والافتتان بكل رائع يغلب عليهم الأخذ بالظواهر، ولا متسع ثمة عندهم للبحث والفحص ودقة التمييز فيما هو داخل تحت حكم الفضيلة، وداخل تحت حكم الرذيلة، عند النظر فى معيشة أهل هذه المدنية الغربية، بل هى تتجلى لهم فى صورة معظمة، فيأخذونها على الجملة زاهية زاهرة، حتى إذا انقلبوا إلى أهليهم، رووا لنا

عنهم مثل حديث المغرم عن معشوقه فى أوقات نشوته، وكان همهم أن يظهر عليهم أثر من آثار تلك المدنية العظيمة مما تخف مئونته وتهون تكاليفه، ليلحقوا بأنفسهم من تلك العظمة التى بهرت خيالهم، ويبهروا بها أعين الناس، ولسنا من أهل هذه الطبقة.

والقسم الثانى: جماعة منا قصدوا هذه البلاد للنزهة والاستراوح. لا سواهما، فهم لا ينظرون إلى هذه المدنية إلا من وجه تطبيق العيان على الخبر، ومن بحث منهم فانكشف له فيها عيب، كره تغيير الرأى ومخالفة المعهود لما فيه من المشقة والكلفة، ثم أضف إلى ذلك ما يكون للاختصاص بمشاهدة المحاسن دون المعايب، والتبسط فى الحكاية عنه من الفضل على السامعين والمستخبرين، ولسنا من هذا الصنف.

والقسم الثالث: طائفة من أرباب الوظائف فى الحكومة يفرون إلى هذه البلاد من أسر الخدمة مسافة الشهر أو الشهرين فرار الأسير من القيد. ومنهم من تلقى دروسه فيها، وحكمه حكم الذين ذكرناهم فى القسم الأول، وفيهم من لم يتعلم فى أوروبا، فهم يسيرون على نهج المبارة للمتعلمين فيها، سائرين على نمطهم، ليلتحقوا بهم، ويحشروا فى زمرتهم، ويرتفع عنهم بعض امتيازهم عليهم، وحكمهم حكم واحد أيضا. على أنهم ليس عندهم جميعا من سعة الوقت ما يفسح لهم مجال البحث والتدقيق فيما يرونه، فإن كل موظف منهم لا ينفك مدة زيارة مشتغل الفكر مقسم النظر، بين أمرين: عين

تنظر إلى ما بقى فى صحيفة إجازته من الأيام، وعين ترمق ما بقى فى كيسه من الدراهم، ولسنا من هذه الرتبة أيضا.

وجميع هذه الأقسام كما تراهم مولعون بالمبالغة فى الوصف والغلو فى القول، ولا غرو فالناس لا يرون لهم فضلا فى الرواية والنقل مالم يضيفوا إليهما الكثير المفترى من عندهم، ولحكاية الغريب ورواية العجيب لذة فى نفس الراوى، وحلاوة فى أذن السامع. على هذا درج الخلق منذ خلق الله آدم إلى اليوم، ومنذ جرت أساطير الأولين عن الجن والعفاريت والأغوال والسعالى إلى قصة «ألف ليلة وليلة» وسيرة «عنترة» و «جريدة العجائب».

وهناك قسم رابع ربما فحص ودقق ووقف وعلم، ولكن له هوى خاصا به يمنعه من كشف الحقائق، ويدفعه إلى المبالغة على القصد، والغلو على الصمد، فلا يروى ما يرونه عن هذه المدنية إلا بالتشييد والتمجيد، باطلا كان أم حقا، لينصر مذهبا له معينا وغرضا مضمرا، فدأب بيننا كالأجير للأجنبى؛ يرفع لنا من شأن مدنيته وقوة حضارته؛ ليرتفع معه بارتفاعه، ويتسلط علينا بسلطانه، وينتفع منه بتمكين جاهه فينا وقدرته علينا، وفى هذا القسم من يرى أن فى استيلاء المدنية الغربية على الشرق وتغييرها لتقديم عاداته وأخلاقه انتصارا لمذهب بعينه، فهم فى إشادتهم بأمرها وتشجيعهم لها، وتبشيرهم بها، كالمتشيعين لمذهب، والمبشرين بدين.

فقد تبين لك إذن أننا لسنا بمعدودين فى قسم من هذه الأقسام، وقد خرجنا من ديارنا واصطحبنا فى سفرنا على شريطة الفحص والتنقيب، والاعتراض والانتقاد، وأن نتحدث عن هذه المدنية بما فيها من ضار ونافع، ومعوج ومستقيم، على المشاهدة فى منبت أرضها وتربة نشأتها، وأنا رجل أميل إلى أن كل حقيقة تقال، وكل صحيح يروى، فدعنا حينئذ من الغلو والاغراق، واتركنا من التخيل فى النعت وتعمل الشعر فى الوصف، وخذ بنا فيما عهدناه على أنفسنا، وقد آن نسأل الباشا - وهو ينظر إلى الأمور بنظر صادق مجرد عن الهوى - عما وقع عليه من التأثير فى نظرته الأولى عن هذا العالم الحديث عنده، وعن جملة ما حصل منه فى نفسه؟.

الباشا - ما أرانى أميز شيئا فيما رأيته من هذا الخلق المزدحم، وهذه الحركة المشابهة لحركة الأسواق فى هذا الدوى المماثل لدوى الخلايا، وهذه الأضواء التى يتأذى منها البصر، وجملة ما أنا فيه الدهشة والحيرة، ولعل هذا هو الذى يمنعنى من التمييز، وكنت أود أن يقع اختيارنا على ناحية ساكنة من المدينة، خالية من مثل هذا الزحام، حتى نألف الديار وساكنيها.

عيسى بن هشام: ليس ما توده من هذا القبيل بميسور، لأن الزحام منتشر فى جميع أرجاء المدينة، وهذه الحركة لا تنتهى الليل والنهار، ولا جرم فإن عدد سكانها يقدر ببضعة ملايين، وذلك أن تقول فيها: إنها جملة بلاد متجمعة متشابكة يعدونها مدينة واحدة.

الصديق - وفى هذا من عظمة الملك ما لا يخفى على أحد!!.

الباشا - إن كان الأمر كذلك، فلابد لنا من مرشد يرشدنا وهاد يهدينا، فنقف منه على ما يخفى علينا فيها، وما يغمض من حقائق الأمور.

الصديق - ما إخالك واحدا لطلبتك، فقل أن تجد فى أهلها من لايسلك السبيل المعروف فى تشييد مجد قومه ونشر مفاخرهم بما نحن فى غنى عنه، ولسنا نستفيد منه إلا كثرة اللغو وقلة المحصول.

قال عيسى بن هشام: وجاء وقت الطعام فقمنا إلى المطعم، ولما أخذنا مقاعدنا على المائدة تبصرنا أمامنا ثلاثة أشخاص من أهل المدينة يتجادلون بينهم. فأنصتنا إليهم نتلقف من أفواههم ما يخوضون فيه، أحدهم شاب ضئيل الجسم حسن الشارة محلوق اللحية والشارب. ظاهر التكلف فى زيه، ينم شكله وحديثه على أنه أديب من كتاب العصر، وثانيهم رجل بدين منتفخ البطن، أحمر اللون، ينبئك وجهه وقوله أنه من طائفة التجار، وثالثهم شيخ جميل المنظر فى وقار السن ورزانة العلم، ما يشك رائيه والسامع له فى أنه رجل من أهل الفلسفة والحكمة، ولذ لنا أن نجعل التفرغ لاستماع كلامهم سمر المائدة، فوجدناهم ينتقلون فيه من باب إلى باب، ومن شأن إلى شأن حتى انتهى القول بهم فى الأحوال الحاضرة إلى حرب الصين، فسمعنا «الكاتب» يقول وهو يضرب المائدة بيديه والأرض برجليه:

الكاتب ـ لقد آن للمدنية أن تزيل الهمجية وتمحو الوحشية من الوجود، وأن نقوم بنشر الرسالة التى سخرنا أنفسنا لتبليغها إلى الناس، فنصلح من شأن الإنسان فى أى مكان كان، ونغرس فيه أصول المدنية، ونأخذه بتعاليمها، لنصل بالعالم الإنسانى إلى الراحة الدائمة والسعادة المطلقة فى هذه الحياة؛ وإلا فما مزية جهادنا فى فنون الترقى والتقدم والتسابق فى العلوم والفنون؟ وما فائدة هذا الاختراع والابتداع فى أبواب الصناعات والآلات؟ فإن كان المقصود من المدنية أن نتقن هذه الآلات الحربية ونعد هذه القوى العسكرية، ليقتل بها بعضنا بعضا، ونخرب بيوتنا بأيدينا، فبئست العلوم والفنون، وبئس ما سخرنا له أنفسنا وأضعنا فيه أعمارنا، إذ تنقلب الغاية من تهذيب المدنية إلى فظاعة الوحشية.

ولقد كان الواجب على دول الغرب وأممه أن يتحد بعضها ببعض فتنصرف بكليتها، وتندفع بجميع قواها، التى شيدتها لها أفكار العلماء وذوى المعارف منا إلى تهذيب بقية أهل هذا العالم، المقيمين على الجهالة إلى اليوم؛ لننتزعها من حضيض الهمجية إلى مقام الرفعة الإنسانية، فيحق لكل واحد منا بعد ذلك أن يفتخر على الطبيعة بأنه أصلح فسادها وسد نقصانها.

التاجر ـ نعم هكذا يجب أن تكون سيرتنا، وإلا فكيف يتسنى لنا تصريف بضاعتنا، وترويج صناعتنا، التى تقوم عليها معايشنا، وتضيق بها أرضنا، إذا اجترأ أهل الصين على أن يقوموا فى وجوهنا ويعطلوا مصالحنا؟ وكيف نجهد

أفهامنا فى العلوم، ونشقى ونتعب، وفى العالم أقوام نيام على أرض من الذهب كالأرصاد فوق الكنوز، لا ينتفعون بها ولا يتركون الانتفاع بخيرات الطبيعة وطيباتها للذين استحقوها بكشف أسرارها ورفع أستارها.

الحكيم - إن كان الكلام بينكما عن المدنية الصحيحة التى تقوم على الحرية والمساواة والإخاء حقيقة، وتعم الخلق من غير استثناء بالعدل والإحسان، وتوفر لهم أسباب السلم والأمن فى السعة والرخاء، فلسنا منها فى شئ، إن كنا نظنها مقصورة على إتقان الآلات وحشد الجنود، والتفنن فى تشييد قوى الحرب، وإنفاق ثروة فى سبيل ذلك، حتى تضيق بنا الأرزاق فى أرضنا، فنعمل على طلبها فى أنحاء المسكونة، وتسلط على أهلها هذه القوى الحربية. ولسنا من المدنية فى شئ أيضا، إذا كنا نعتبر أنفسنا ملائكة الأرض، وصفوة البشر، وأرباب الخلق، فنحتقر بقية العالم، ولا نرضى منهم إلا بتغيير أخلاقهم ونسخ عاداتهم، وأن يفوضوا إلينا أمورهم، ويسلموا إلينا مقاليدهم ونكون فوقهم كالأوصياء نصرفهم إلى ما نحب ونسوقهم إلى ما نهوى. وليست المدنية أن نذهب إلى الصينى فى أقصى الأرض، وهو آمن مطمئن بين أهله وولده فى عيش يرتضيه ونظام يألفه فنقول له: قم فقد جئناك بالهدى والحق، فهلم فكسر أصنامك، واهدم مناسكك، واحرق كتابك، وغير ثيابك، وبدل طعامك، وارفع حجابك، وكن أوروبيا فى الصين القديم، وغريبا فى الشرق الأقصى، فإذا قال لنا: لست أفقه شيئا مما تدعوننى إليه، ولا أدرى ما هذا الدين الذى تبلغوننى

رسالته؟ قلنا له: ليس هذا بدين ولا بمذهب، وإنما هى دعوة المدنية الغربية ندعوك إليها لتقرها وتتلبس بها، فيقول لنا: إن كانت لكم مدنية غربية فلنا مدنية شرقية أسسها تجارب القرون المتراكمة، وبقيت فينا نقية خالصة هذبتها الدهور، وأخلصتها يد الزمان، وليس يبقى على الزمن من الأخلاق والعادات إلا ما كان له أصل ثابت وجوهر نقى. وأنتم إن كنتم تورخون وجودكم فى العالم بسبعة آلاف من السنين، فنحن نورخ وجودنا بمئات الألوف، وإن كانت مدنيتكم بنت قرن أو اثنين، فإن مدنيتنا بنت عشرات القرون، اصطلحنا عليها وألفناه، وطاب لنا العيش بها طول هاتيك الدهور. ومن دلائل المدنية الصحيحة أن تعيش فيها بأمن وسلام لا يطمع أحد فيما ليس له، ولا يغير على حتى لغيره، وقد علمتم أننا عشنا دهرنا الطويل لم نطمع فى أرضكم ولم نثر حربا لفتح، ومن دلائلها أنها لا تنتهى بأصحابها إلى مفاسد الترف والنعيم فتضعف الأجسام ويقل النسل، وقد علمتم أن بلادنا هى فنقول له: ما أضل أحلامكم يا معشر الصينيين! ألم تعلموا بأن مدينتنا هى مدنية العالم كله لا سواها، قامت على العلوم والمعارف، واستوت على أساس متين فكان ينشده الخلق منذ القدم، فمازالوا يتخبطون دون الوصول إليها، حتى سمحت الطبيعة آخر الدهر فأنجبتنا لها، فأخرجناها للناس هدى ورحمة، وعهدنا على أنفسنا دعوة الخلق إليها ليسعدوا بها مدى الحياة؟ بهذا وصانا أئمة المدنية فينا ورجال الدعوة منا.

إن كانت هذه هى المدنية التى نفاخر بها ونساجل، فلا بدع أن يعتقد أهل الشرق أنها ليست إلا وسيلة من وسائل الفتوحات لنيل المطامع وبلوغ المآرب.

قال عيسى بن هشام: وتأتى غادة هيفاء، تتثنى بقوامها وتتكسر فى مشيتها، فتخاطب «الكاتب» بالعتاب، لأنه أهملها فى الانتظار، وجلس للكلام والجدال، وتسوقه أمامها بعصا المظلة، ويتبعهما التاجر، ويبقى الحكيم يرمى ثلاثتهم بالنظر الشزر، وينعى عليهم سوء رأيهم وفساد نظرهم.

ويلتفت إلى «الصديق» فيقول لى: ما أغرب ما نرى من هذا الشيخ الفرنسى، فما أصلبه فى قول الحق، وما أجراه على الجهر بالصدق، وما أولانا بمعاشرة مثله نستبصر به ونسترشد؟ فأرفع ببصرى إلى الشيخ، فإذا هو يرمى بنظره إلينا، ويستمع لحديثنا بالعربية ويظهر نحونا البشر، فقابلته بابتسامة أخطب بها ودة، فبادرنا بالحديث، واتصل بيننا حبل الكلام، فسألنا عن أمرنا، وسألناه عن أمره، فتبين لنا أنه رجل من أساتذة الفلسفة والحكمة، ومن المستشرقين الذين يشتغلون بالشرق وأهله، وكشفنا له حقيقة أمرنا، والغرض الذى رمينا إليه، فاتفق معنا على المخالطة والمصاحبة نحكى له عن الشرق ويحكى لنا عن الغرب، ودعانا لزيارة المعرض العام معه فى الغد، فقابلناه على ذلك بالشكر والحمد.

المعرض

قال عيسى بن هشام: وانطلقنا نقصد عكاظ الممالك والأمم، وسوق الأقدار والهمم، ومشهد النفائس والعظائم، ومظهر

القوى والعزائم، وحلبة الابتكار والابتداع، وميدان الإنشاء والاختراع، ومعرض التبصر والاهتداء، فى حسن التقليد والاقتداء. ولهذا المعرض خمسون بابا، تختلف ابتعادا واقترابا، فبلغناه من ناحية الباب المعظم، والمدخل المقدم، فإذا الباب قبة تقوم على ثلاث قوائم، تلامس بعلوها الغمائم، كأنها اليفاع[192] فى الاتساع والارتفاع، ينحدر من تحتها الجيش المتراكب، فلا تتماس فيه المناكب، وعلى كلا الجانبين[193] سارية، تقارن السحب غادية وسارية، يدور فى رأس كل واحدة منها نبراس وأى نبراس، إذا اشتعل جعل فحمة الليل قبسا من الأقباس، فكلتاهما علم فى رأسه نار يستوى عندهما بالليل والنهار، ومن لصخر الخنساء أن يأتم بهما فى ظلمة البيداء وهو المؤتم به فى أبيات الرثاء :

وإن صخرا لتأتم الهداة به

كأنه علم فى رأسه نار

فهما عمودا فجر، لاعمودا صخر، يكتنفان تمثال غانية غيداء، قائمة على رأس تلك القبة الشماء، رشيقة القد، بارزة النهد، ممكورة لقاء[194]، مجدولة عجراء، قد خلعت الإزار والوشاح، وتبدت فى «قميص الصباح»، وهى تضمه بيديها إلى صدرها، خشية أن يحاول النسيم هتك سترها، إذا عارض وجهها القمر، علا وجهه الكدر، ثم بان فيه الكلف والنمش، فاحتجب بالغمام وانكمش، وغارت منها الزهرة، غيرة الضرة من الضرة، فغارت فى الدجون، وغابت عن العيون، لوقام نابغة

بنى نبيان من قبره، لشهد أنها الدمية التى وصف بها المتجردة فى شعره:

أو دمـــيـــة من مـــرمـــر مـــرفـــوعـــة
بنيت بآجـــــر يشـــــاد وقـــــرمـــــد[١٩٥]

أو درة صـــدفـــيـــة غـــواصـــهـــا
بهج مـــتـــى يرهـا يهل ويســـجـــد

لو أنهـا عـرضت لأشـمـط[١٩٦] راهـــب
عـــبـــد الإلـه صـــرورة مـــتـــعـــبـــد[١٩٧]

لرنا لرويتـهـا وحـسن قـوامـهـا
ولخـــالـه رشـــدا وإن لـم يـرشـــد

فـقـد أقـامـهـا الصـناع آية الفن فى التـصـوير والتشكيل، وشاردة الشوارد فى الرسم والتمثيل، يخيلون بها «فرنسا» فى ترحيبها بالزائرين والقاصدين، تحيتها للواردين على المعرض والوافدين، والباب كله مرصع بحقاق من البلور، إذا تلألأ فيها شعاع النور، خلتها أنوار الأزهار فى أغصانها، أو أنيال الطواويس فى اختلاف ألوانها، بل قلائد منظومة من در وجوهر، وعقود ياقوت من أحمر وأزرق وأصفر، لا بل فصوصا منضدة من الماس، يتراءى فيها طيف الشمس بالانعكاس.

ولما تجاوزنا الباب، انتهينا إلى سهل المنيفة، كما ينبت الروض بالأغصان الوريقة، تضل فيه الحداة، وتحار الهداة، ولابدع فالمدينة في اتساعها فطر من الأقطار، وهذا المعرض فى سرتها مصر من الأمصار. وما زلنا سائرين على أرض تزهو فيها أغراس الجنان والبساتين، وأزهار الأغصان والرياحين، يتخللها من الدمى والتماثيل ، ما يعرب عن الدقيق من المعانى والجليل، فتكاد تبادرك بالخطاب، أو ترد رجع الجواب. ولما امتلأت العين من هذه المحاسن الشائعة، وجن اللب من هاتيك المناظر الرائعة التفت إلى أصحابى أتلمس ما يجرى فى خواطرهم، وأتحسس ما يدور فى ضمائرهم، فرأيت الباشا يتأمل ويحدق، ويمعن ثم يطرق، وإذا هو يقول فى همسه، وحديثه لنفسه: لله أبوهم. ما أبعد شأوهم فى التشييد، وأجل شأنهم فى الإنشاء والتجديد، وما التجديد، وما أسبقهم فى الجد والاجتهاد، إلى التوسع وحب الازدياد. وما أشغلهم بما يكفى الإنسان أقله وأدونه، ويكفل راحته أصغره وأهونه. ولو تيقن ابن آدم أن القبر غايته، لم تخفق على القشور رأيته، ولكان همه بحفر القبر، أعظم من همه بتشييد القصر، فمقامه هناك طويل، وبقاوه هنا قليل، ولو علم أن هذه الأحجار المذهبة في الشرفات العالية، لا تلبث أن تنقل صفائح فى القبور البالية، لم يعمل عمل المخلدين، وهو بين أظفار المنايا رهين.

قــبنى المنازل أعــمـــار مـــهـــدمـــة

مـن الـزمــــان بـأنـفـــــاس وســــاعـــــات

ووجـدت «الصـديق» فى هـذا الموقف على حـال لا تتـغـيـر، وهيئة لا تتأثر، ينظر إلى ما نستعظمه نظرة الفلاح إلى قريته، والبدوى إلى دمنته، لا يعجبه شئ ولا يزدهيه، مما تحار أحلام الورى فيه.

لا مـــــعـــنـــى بـــكـــل شـــئ ولا

كل عـــجـــيب عنده بعـــجـــيب

إلا أنه مع ذلك غير هادئ البال، ولا ساكن البلبال، كأنما هو يغوص على معنى يدق فى الفهم، ويبحث فى أمر يجل عن الوهم، يستجمع لديه حواشى التفكير، ويلم أشتات التذكير فاستخبرته عما يشغله وسألته عما يذهله، فلم يسعف بالجواب، ولم يسعد، غير أني سمعته يترنم وينشد:

مـــا أقل اعـــتـــبـــارنا بالزمـــان

وأشـــد اغـــتـــرارنا بالأمـــانى!

وقـــفـــات على غـــرور، وإقـــدا

م على مـــزلق من الحـــدثان

التـــفـــاتا إلى القـــرون الخـــوالى

هل ترى اليـــوم غـــيـــر قـــرن فـــان

أين رب السـدير فـالحـيـرة البـيـضـاء

أم أين صـــاحـــب لإيـوان؟[198]

والسيوف الحداد من آل بدر

والقنا الصم من بني الريان

يكرعون العقار فى فلق الإبـ

ريز كرع الظماء فى الغدران[199]

من أباة اللعن الذين يحيو

ن بها فى معاقد التيجان[200]

تتراءاهم الوفود بعيدا

ضاربين الصدور للأذقان

فى رياض من السماح حوال

وجبال من الحلوم رزان

وهم الماء لد للعطشا

ن بردا والنار للحيران

ما ثنت عنهما المنون يد شو

كاء أطرافها من المران[201]

عطف الدهر فرعهم فرآه

تعد بعد الذرا، قريب المجاني

وثنتـــهم بعـــد الجـــمـــاح المنايا

فـى عنـان التــــسليم والإذعــــــان

ليس يبـــقـى علـى الزمــــان جـــرئ

فـى إبـاء أو عـــــاجـــــز فـى هـوان

ورأيت الشيخ «الحكيم» يهز كتفيه وينظر فى عطفية. ويقول فى التفاته إلينا، وانعطافه علينا: ما أسه الأوامر بالأوائل، فى التفاخر بالباطل الزائل! لا يظن ظان أن كل ما يراه من هذا المشهد الفخم، يستعظمه من البناء الضخم، بما أنفق عليه من الأموال الطائلة، وما اقتضاه من المشاق الهائلة، سيدوم السنين والأعوام على الدهر، وإنما بعد بقاوه باليوم والشهر، وليس يمكث من كل هذا البناء والعمران، إلا هذان القصران، وأشار بيده إلى قصرين متقابلين كأنهما فى ارتفاعهما ذروتا جبلين، وهنا أخذ الباشا يستفهم منه ويستعلم، وأنا أنقل له وأترجم:

الباشا ـ وما مقدار الأموال التى أنفقت فى تشييد هذا المعرض؟

الحكيم ـ اشتركت الحكومة فى الإنفاق عليه بعشرين مليونا من الفرنكات، وبلدية باريس بعشرين مليونا، وتألفت جمعية اشتركت فيه بستين مليونا أصدرت بها خمسة وستين مليونا من التذاكر لأيدى الناس تحت ضمانة البنك العقارى.

الباشا ـ وما الغرض منه؟

الحكيم ـ الأصل فيه الكسب والربح، والغرض منه عرض الأعمال والصناعات بما يظهر مقدار المسافة التى تقطعها الأمة من حين لآخر فى باب الإجادة والإتقان، ليتضاعف الجد والاجتهاد، وتتسابق الهمم فى أسباب التقدم والارتقاء فى مدارج المدنية.

الباشا ـ وهل تظنه يأتى بربح عظيم؟

الحكيم ـ كان أمل الربح منه عظيما ولكن خاب الظن فيه، فإن الشركة قدرت عدد الزائرين والمترددين عليه بخمسة وستين مليونا فى مدة وجوده وهى مائتان وأربعة أيام ولكن لم يتردد عليه إلى الآن سوى عشرة ملايين وقد مضى من المدة نصفها، وقد بلغ عدد الشركات التى اشتهر إفلاسها فيه سبعن ن شركة إلى اليوم، وآخر شركة شاهدت إفلاسها أمس شرك «شارع القاهرة»، ورأيتهم يبيعون «معروضاتها» وأثاثها بحكم المحكمة فى ناحية من نواحى المعرض، كانت الشركة أقامت لها فيه مكانا فسيحا جمعت فيه ما يكون فى شوارع مدينتكم من لعب القرود، والتواء الثعابين، ورقص الزنوج، وتسريح الجمال، وسوق الحمير، فرأيت الجمال، وهى ثلاثة تباع بمائتين وخمسين فرنكا، وبيع الحمار من الأربعين حمارا بتسعة عشر فرنكا، وكان من ينظر إلى هذه الدواب، وهى تعرض للبيع بهذه الأثمان فى غير بلادها يتخيل من أعينها كأنها تندب نحس طالعها، وبخس قيمتها فى غربتها، ولا تسل عن سوء الحال التى كان عليها النساء والرجال المصاحبون

لهذه الحيوانات وقد تداركهم «مأمور التفليسة فخصص لهم مقدار من الدراهم، ينفق عليهم لإعادتهم إلى وطنهم، وعلى الجملة فالخسارة فى هذا المعرض عظيمة وأرى أنهم أخطئوا كل الخطإ بالتوسع فيه وتكبير ساحته حتى لا تكاد تدرك الدورة الواحدة فيه إلا بقطع مسافة لا تقل عن عشرة كيلو مترات، فوزعوه وشتتوه مع قلة الزائرين والواردين، ولو أنهم اختصروا فيه لكان خيرا لهم.

الصديق - أهذه الشركة التى تذكرها فى كلامك هى «شركة المعرض المصرى» الذى سمعنا به؟

الحكيم - لا ولكنها شركة أخرى فرنسية، وليس من الضرورى أن يكون أصحاب الشركة من أبناء مصر.

الباشا - ولماذا لم تقدروا فى هذا المعرض حسابكم بما لكم فى مختلف الأمور من الدقة وصحة النظر؟

الحكيم - كانوا يحسبون أن أمم العالم ستهرع إليه من كل فج، وكانوا يعتقدون أن أكثر ملوكها يفدون على المعرض فينفقون فيه خزائن أموالهم، ودفائن كنوزهم، فلم يحضره إلا ملك السويد من ملوك الغرب، ولم يزره إلا شاه العجم من ملوك الشرق، وكانوا قد دعوا إليه ستا وخمسين مملكة للاشتراك فيه فلم يجبهم سوى ثلاثين منها.

قال عيسى بن هشام: وكنا وصلنا فى هذه الأثناء إلى باب أحد القصرين المشار إليهما بالبنان، المعدودين لعرض ما يسمونه بالفنون الجميلة، وهو بالقصر الصغير، فعولنا عل

البدء بزيارته، فدخلناه فإذا هو ببنائه وتشييده وزينته وزخرفه ونقشه ورسمه يفوق كثيرا من قصور الملوك والقياصرة، وناهيك أنهم أنفقوا فى إقامته اثنى عشر مليونا من الفرنكات، وقد عرضوا فيه نفائس المصنوعات مما حفظ عن الأوائل منذ العصر الرومانى إلى القرن الثامن عشر، من قطعة المعدن المضروبة، إلى نقوش أبواب الكنائس، ومن أوانى الفخار إلى الحلى والجواهر، ومن النعل المطرزة إلى التاج المرصع. وهنا يعجز القلم عن الوصف والنعت، والإحاطة بمثل هذه النفائس لا تأتى من طريق الخبر والنقل، بل من جهة المشاهدة والعيان، ولا يمكن أن يتجلى اثرها فى نفس القارئ مثل أثرها فى نفس الرائى. ولما فرغنا من دورتنا الأولى فى القصر، استوقف الصديق الباشا يسأله عما شاهد من التحف ورأى من الطرف:

الباشا - ما أرى إلا كثيرا مما يوجد عندنا بعضه فى الأسواق القديمه وبعضه فى البيوت العظيمة.

الحكيم - اعلموا أن ما ترونه هنا هو أنفس الأشياء وأغلاها قيمة فى العالم لاتتناول كنهها الظنون. مثال ذلك أن هذه الساعة التى بجانبنا، ولم تلتفتوا إليها فى وقوفكم عندها، قد رغب فى شرائها بعض الأغنياء، فساومها بثلاثة ملايين فرنك، فلم يسمح صاحبها بالبيع لقلة الثمن، وما هى إلا كرة محمولة على أيدى ثلاثة هياكل من الرخام، ولكن دقة الصنعة وقدم العهد أورثاها هذه القيمة العجيبة فى الثمن.

الصديق ـ حقا إن التحفظ على التحف القديمة والآثار العتيقة حسنة من حسنات أهل الغرب يغبطون عليها، فإن النظر إليها يورث احساسا جليلا فى النفس، وذكرا جميلا بمجد الأمم الغابرة، ودرسا مفيدا فى التاريخ كما أن فى ذلك من حفظ السلسة فى الصناعات ما يفيد الفكر، ويساعد على الترقى فى العمل، وقد أهمل أهل الشرق هذا الباب إهمالا لا يغتفر لهم، حتى اندثرت المآثر واندرست، ولم نعد نعلم من كيفيات المعايش عند المتقدمين إلا الأسماء التى غابت عنا مسمياتها، وقل لى بالله: أى شئ يكون اليوم أجمل فى العين نظرا وأجل فى القلب وقعا ولو حفظنا ماضيعه التفريط مثلا من «درة عمر» و «صمصامة معدى كرب» و «قميص عثمان» و «درع على» و «تاج الرشيد» و «راية المعز»؟ ولكننى أرى مع ذلك أن الغربيين تجاوزوا الحد، وتغالوا فى هذا الباب غلوا كبيرا، وذهب بهم حب التنافس فى اقتناء العتيق مذهبا يلامون عليه لحبسهم الأموال الطائلة على أثمان هذه المقتنيات، التى لولاها لكانت من قسمة الأرزاق بين العباد، وكم فى هذا العالم المتمدين من الألوف الذين لا يجد أحدهم فرنكا واحدا لقوت يومه، بينا نرى أحد المولعين بالمقتنيات يعرض ثلاثة ملايين لاقتناء مثل هذه القطعة من الرخام.

الحكيم ـ نعم لك الحق فيما تعتب به علينا من هذه المغالاة لمجرد التباهى والتفاخر، مع حرمان الناس من أرزقهم، ولكن ليس عندنا من الوقت الآن ما يكفينا لبسط القول فى نصرة المذهب الاشتراكى.

قال عيسى بن هشام: وأدركنا التعب والكلال، وإن يكن يدركنا السام والملال، واحتاج الجسم إلى الراحة والسكون، فغادرنا القصر وفى النفس منه بلابل وشجون.

القصر الكبير

قال عيسى بن هشام: وزرنا القصر الكبير بعد القصر الصغير، أعنى الآية الكبرى، بعد المعجزة الصغرى، ناطقة بما لا يتصور من جمال الوضع، وحسن الصنع، فيما احتواه هذان البناءان من الكنوز التى لم تجتمع لأحد من قبل، ولم يظفر بمثلها ملك فى الدهر ولا قيل، ماكنوز قارون عندها إلا من التراب والحصى، ولا قرط «مارية» إلا من الخرز أو النوى، وما طوق «عمرو»، إلا طوق أسر، وما أسلاب الإسكندر لديها إلا من أطمار «المجانيب» و «الأولياء»، ولاوشى «دارا» إلا من فراء «العرفاء» والفقهاء، وما أقلام البلغاء، إلا مغازل النساء، إذا هى حاولت فى وصفها تسطيرا، ورامت لنعتها تحبيرا وماذا تقول فى خزائن المسكونة تسكن فى دارين، وأفلاذ البسيطة مبسوطة بين جدارين، لو توزع بعض ما اخترناه على الخلق، لم يكد أحد بعدها فى طلب الرزق، ولم يشك شاك من عيش الحرمان، ولم يبك باك غنيا، وغدا اسم الفقر فى الدنيا خبرا مطويا، ولتساوى الناس فى الرتبة والقدر، ولم يسلكوا فيما بينهم سبل الختل والغدر، نعم ولم يغر سالب على مسلوب، ولم يفتك غالب بمغلوب ولم تفترف فى العيش المآثم والذنوب، ولم يبق للنفوس فى الدنيا من مشتهى ولا مطلوب،

فالقصران قائمان يفخران على الدهر، بما ليس له به عهد من الثراء والوفر، وسرنا فى أنحاء الغرف، نتأمل التحف والطرف، ومن أبدع ما اجتلاه النظر، بين تلك الدرر والغرر، معرض التماثيل والصور، فكم هناك من صور براها الإتقان والإحكام، تمثل للعقول والأفهام، ما لا يمثله تأليف الكلام، وتشخص لك حوادث التاريخ ومناظرة، كأنك كنت حاضرة وناظرة، ويوضح لك قلم الرسم والتصوير، مايعجز عنه قلم الخط والتحرير، من مكنون الأهواء والأشجان ، بلفظ مبين من النقوش والألوان:

أراك المنى فــــتـــمنيـــتـــهـــا

وصــــاغ لك الطيف حـــتى انبـــرى

فما شئت فيها من أثر يجلو صدأ الحس، ويرقق حواشى النفس، فتتولاك هزة الطرب لرويتها، وتعتريك نفحة السحر من هيئتها، فتكاد تئن للفارس المقتول، وتعطف على الواله المتبول، فتترحم على قتيل الرمح والحسام، كما تستغفر لشهيد الهوى والغرام، وتستبيك الفتاة الحسناء، والكاعب العذراء، فتصبو إلى محبتها، ونطمع فى مودتها، لولا عيون الرقباء من أهلها. وهم ضاربون من حولها.

وترى هناك صورة غادة باهرة الخلق، عريقة الحسن والعتق[٢٠٢]، يتألق على وجهها نور العفاف والصيانة، ويبدو على محياها خصال الرزانة والركانة [٢٠٣] مع قوة الشكيمة، وثبات العزيمة، قد وطئت تحت أقدامها غولا من الأغوال، لها

مائة فم للنهش والاغتيال وطعنتها بالرمح فى أحشائها، فأوردتها مورد فنائها، وعلى رأس الغادة فوج من ملائكة النصر، يتوجونها تاج العز والفخر، وتلك هى صورة «الفضيلة» فى مصارعتها «للرذيلة» وعن يمينها حرة بارعة الجمال، بادية المهابة والجلال، وترمقها بعين المستبشر بظفر حزبه، والمغتبط بنيل سؤله وإربه، وتلك هى «الحكمة» التى لا تنال الفضيلة إلا بها، ولا تدرك إلا بخالصها ولبابها، وعن شمالها حرة أخرى، يتلألأ فى غرتها نور المعرفة واليقين، وقوة الإدراك والتمكين، تحمل على كتفها طفلا فى سن الرضاع، وتمسكه فى يده شبه القلم*أو اليراع، وهى تنظر إلى «الفضيلة» نظر التوقير والتعظيم، فى موقف التبجيل والتكريم وتلك صورة «العلم» وفضله، وذلك الطفل صورة الإنسان فى جهله.

وترى امرأة نصفا وضعت على كل ثدى لها طفلا ترضعه وتضمه وكأنها تقبله وتشمه. ومن حولها أطفال عراة تجذبها إلى حجرها، وتسترهم بفضل إزارها، وعلى محياها سمات الغبطة والارتياح، وعلامات الرضا والانشراح فيكاد يلوح فيها ما طوته يد الزمان، من براعة الحسن والافتتان - وتلك صورة «الخير والإحسان».

ثم ترى صورة وليدة من حسان الولائد، وخريدة من أبهى الخرائد، كأنها المهاة فى المخائل، والظبية فى الشمائل، يطول شعرها فضل الأزار ويريك الليل فى وضح النهار.

بفــــرع يعـــيـــد الليل، والصـــبح نيـــر

ووجـــه يعـــيـــد الصـــبح، والليل مظلم

تبدت فى ملتف غابة أغصاننها من العود والند، وأغراسها من البنفسج والورد، فالأرض مفروشة بمنثور الأزهار، والسقف معروشة من أغصان الأشجار:

فهى تختال فى زبرجدة خضراء تغذى بلؤلؤ منثور وغدت كل ربوة تشتهى الرقص بثوب من النبات قصير

وقد نثرت الشمس عليها مثل نثار العرائس، بدنانير تعى أيدى اللوامس، كما عى المتنبى بمثلها من قبلها، وهو يجتاز شعب بوان، ويصف فيه التفاف الأغصان:

فسرت وقد حجبن الحر عنى

وجئن من الضياء بما كفانى

وألقى الشرق منها فى ثيابى

دنانيرا تفر من البنان

والأطيار واقفة من حولها على هيئة التغريد، وترديد النشيد، كأنها تجاوب الفتاة فى سوالها، عن أوبة خلها، بأن لكل حمامة منا شوقا ينازعها، إلى إلف يضيعها، فيشتد بالفتاة الولع والهيام، وتشترك فى الهديل مع الحمام وتلك هى «الطبيعة» فى جمال الفطرة، وجلال القدرة.

وترى «هوميروس» أدم الشعر اليونانى وهو أعمى البصر، متلفعا بالوشى والحبر، تضئ لحيته بنور المشيب، ويملأ العين بالمنظر المهيب، متربعا على سرير الملك، ملك الأشعار، لا ملك

الأقطار، وسلطان الأوزان، لا سلطان البلدان، وشعراء الجن يكللونه بأكاليل الانتصار، وشعراء الإنس بين يديه فى موقفالاعظام والإكبار، من «هبرنون» و «إسكيل» و «هوراس» و «فيرجيل»، وعن يمينه أطال الشجعان، وفرسان الزمان ، ممن روى الشعر أنباءهم، وخلد النظم أسماءهم ، وهم على سمة الخضوع، وهيئة الخشوع، من «أشيل» و «اسكندر» و«إينية» و«قيصر»، وعند رأسه كاعبان، كأنهما اللؤلؤ والمرجان، متفقتان فى جمال الوجه والجسم، وإن اختلفتا فى الشكل والرسم، هما الفنان اللذان ابتكرهما فى الشعر، منذ شبيبة الدهر، والشعراء فى وقوفهم كأنهم يتأدبون بأدبهم، وينعمون بقربهما، والقيان من حولهما صفوف، يضربن بالمزاهر والدفوف، ويوقعن النغم واللحن، على ذلك النظم والوزن.

ومن لنا بهذا الشاعروأمثاله من الأولين الأقدمين، والسابقين المقدمين، يصورون بأشعارهم ما بين أيدينا من صور هذه الألواح والمهارق، فالتصوير شعر صامت والشعر تصوير ناطق.

ولما أفقنا قليلا من نشوة الاعجاب والازدهاء واقتربت زيارتنا من الانتهاء، إذا نحن برجل أمامنا رث الثياب، خلق الجلباب، كأنه المعنى بقول القائل، من شعراء الأوائل:

أخـــو ســـفـــر جـــواب أرض تقـــاذفت

به فلوات فـــهـــو أشـــعـث أغـــبـــر

وقد اختلط شعر جبهته بشعر لحيته، فاختفت بينهما مقاطعة وملامحه، وغمضت أساريره ولوائحه، ونحل جسمه نحول الشاة بالأجادب(٢٠٤) ، وطالت أظافره فتقوست كالمخالب، واختزن فيها الوسخ فصارت كالمكاحل علقت بها المراود، أو كخطوط الحداد على صفحات الجرائد، وهو يلحظ الداخلين والخارجين لحظة المزدرى المحتقر، ويذهب بنفسه ذهاب المبتدع المبتكر، والناس يقابلونه مع ذلك بالاحترام، ويواجهونه بالإكرام، فالتفت الباشا إلى صاحبنا «الحكيم» يستخبره عن هذه الكتلة من الدمامة، والكومة من القمامة، وكيف راق لهم الجمع بين هذه المناظر الحسان، وبين منظر هذا الشيطان، فاشتبك بينهما الخطاب، وأخذت أترجم لهما في السؤال والجواب.

الباشا - أفما كان ينبغى منع هذا الرجل وأمثاله عن هذه الأماكن النفسية ليحفظوا لها رونقها، ولئلا يضيعوا بهجتها في نفوس الزائرين؟ ولكن لعلهم أرادوا بذلك صرف عين الكمال.

الحكيم - هذا الرجل هو من كبار المصورين الذين تفتخر على العالم بصنع أيديهم، مما ابتهج به نظرك في هذا القصر الذى أقيم لتفخيم هذه الصناعة، وأنفق على تشييده أربعة وعشرين مليونا من الفرنكات، ولا تعجب من تفاوت المنظرين، فالذهاب من التراب والماس من الفحم.

الباشا - وكيف جاز لكم أن تتركوهم على مثل هذه الحالة

من الفاقة وشظف العيش وتضنوا عليهم بما يصلح أحوالهم، وينقذهم من هذه الرثاثة التي يرثى لها الناظر؟ وإن كانت هذه الصناعة لا تدر الرزق على أربابها، فلم هذا التشييد لها وشدة العناية بها؟

الحكيم - إن هؤلاء الذين تعطف عليهم، هم بيننا أوسع الناس رزقا، وأكثرهم بضاعة رائجة، واللوح الواجد من صنعتهم يقدر بالمئات من الألوف وبالملايين، وليست هيئتهم هذه عن حاجة أو فاقة، وإنما هي ناشئة عن إهمال أنفسهم وذهول عقولهم، وعذرهم فيها أن أرباب الأعمال الدقيقة التي يغوص فيها الفكر، تجهد القريحة، ويتوزع لها الذهن في عالم الخيال، قل أن تتوازن فيهم قوى الدماغ، فما تنمو قوة إلا بضعف أخرى، فيصيبهم من الفتور والذهول ما يقصر بهم عن النظر في نظام الملبس والمطعم، ولا يميزون في المعيشة الطيب من الخبيث، فتختل أجسامهم، وتسوء أخلاقهم إلى أن ينتهوا إلى حال من الطيش والحماقة لا تطاق معها المعاشرة مع الأقارب والأجانب. ومنهم من يتصنع ذلك كما يتصنع بعض أهل الدينالتقشف والزهد، وقد ألف الناس ذلك منهم، فإذا قيل لك: هذا فلان الشاعر، أو فلان الصانع، أو فلان المتفنن، غفرت له ما ساءك من منظره، لما يسرك من مخبره، وربما لم يكن عند بعضهم من حسن الصناعة سوى قبح الهيئة ورثاثة المرأى.

الصديق - إني لأعجب لقوم يعتمدون في أعمالهم على رءوسهم، ثم يذهلون عن أبدانهم، وقد علموا أن القريحة السليمة لا تسكن إلا الجسم السليم، وكيف يصح البدن إذا لم

تتعهده بالنظافة وطيب الغذاء وحسن الرياضة وقضاء الفروض الطبيعية له، ولقد يعرض للرجل المتفكر، وهو فى تجلى قريحته أن يشم رائحة كريهة، أو يبصر منظرا رثيثا؛ فيضيق فى الحال صدره، وينقبض فكره، فكيف بمن يجد ذلك فى نفسه، ويحس به فى جسمه، وأحر بمن ينقطع فى عمله للفنون النفسية أن يكون نفيسا فى ذاته، فلا يعرف عجرفة الطبع، ولا شراسة الخلق، بما تولده فيه من صفاء الحس ولطف الشعور، وبما تورثه من حلاوة الشيم ورقة الطبع. وعلى الوجه الأعم، لست أدرى ما فائدة العلوم والمعارف والفنون إذا لم تكسب صاحبها بادئ الأمر محاسن الأخلاق، ومكارم الصفات، فيكون القدوة الحسنة لمن يقتدى بعلمه، ويتأدب بأدبه، وإلا فكيف تنبت الزهرة من السبخة، ويسطع النور من مهجور القبور؟

الحكيم - صدقت وأجدت ومن قصر فى تربية نفسه فكيف يطمع فى تربية غيره؟

الباشا - وماذا يصنع هؤلاء الصناع بهذا الرزق الواسع والثراء الوافر، وحالهم فى سوء المعيشة على ما أسمع وأرى؟

الحكيم - يصنعون به ما يصنعه أهل الطيش والنزق من أرباب المواريث فى الإسراف والتبذير، وهم لشغفهم بالجمال، الذى تستمد صناعتهم منه حسنها ورونقها، لايفترون عن التولع بالنساء والافتتان بمحاسنهن، فترى ثمن اللوح الثمين يخرج من خزانة الغنى المتباهى، إلى يد الصانع المفتون، إلى

كيس الفاجرة الهلوك، إلى صندوق التاجر والصائغ. وعندهم أيضا باب إنفاق عظيم على طائفة من النساء التى يطلقون عليها اسم «المثال».

الباشا ـ وما «المثال»؟

الحكيم ـ «المثال» هو المرأة التى يتخيرها المصور، ليأخذ فى التصوير على مثالها، لجمال وجهها، أو لحسن تركيبها وتناسب أعضائها، فهذه وهذه لنهدها وتلك لقوامها، والأخرى لشكل ابتسامها، وهلم جرا، فترى غرف المصورين ممتلئة بهاته «الأمثلة» التى تختلف أجورها باختلاف أقدارها، وقلما تدخل على مصور فى مصنعه إلا ترى أمامه امرأة مكشوفة البدن، عارية الجسم، يقلبها كيف شاء ذات اليمين وذات الشمال، حتى تصير على الشكل الذى يريد أن يملأ عينه منه ويحصره فى ذهنه، ليخرج الصورة على مثاله.

الباشا ـ ما هذا الذى تحكيه من التبذل والتفضح؟

الحكيم ـ ليس هذا عندنا بعيب ولا نقص، ولا غضاضة على النساء منه، فالأمر معدود بينهن كأنه صنعة من الصناعات الجليلة، لا عار فى مزاولتها، ولا بأس على السمعة منها، وعندنا اليوم خلاف قائم: هل يجوز للمصور أن يمارس صناعته على هذا الشكل فى طريق الناس، وفى مسالك السابلة، كما يفعل ذلك فى داخل مصنعه؟ فإن أحد المصورين عن له بالأمس أن يصور صورة انبعاث من القبور، فقصد

إحدى المقابر وجلس هناك بأدوات صناعته وفيها امرأتان للمثال، وأقامهما أمامه وهما عاريتا الجسد، وكان يقيم هناك فى كل يوم الساعة والساعتين على هذه الحال، يمعن النظر فى الفتاتين، ثم يخطط ويصور، وكان بجانب المقبرة دار تبنى قام على حائطها البناءون، فاشمأزوا من هذا المنظر ودفعهم دافع الحياء إلى مخاطبة المصور ليعدل عن قبح ما هو فيه، فلم يعبأ بهم، ولم يبال بتأنيبهم، واستمر على ذلك أياما، فرفعوا الأمر إلى رجال الشرطة ثم إلى قضاة المحاكم، لمنع الرجل عن هذا الفعل السيئ، ولا تزال الجرائد تتجادل فى المسألة، أيجوز المنع أم لا يجوز، فبعضها يذهب إلى وجوبه، ارتكانا على نص القانون الذى يعاقب من ينتهك حرمة الآداب العامة فى الطرق، وبعضها يرى الإباحة، لأن كل إنسان حر فى صناعته، ولا يجوز لأحد أن يحول بينه وبين ما فيه إتقان صناعته وإجادة فنه.

الباشا - نعوذ بالله من هذه البدع؟!

قال عيسى بن هشام: وانتهينا بالخروج من القصر، بعد أن كدنا نضل فيه، لاتساع أطرافه ونواحيه، وتعدد غرفاته وحجراته، وهى كلها غاصة بالصور والتماثيل، ثم وقفنا فى الخارج وقفة الإجلال والإعظام، أمام هذين القصرين اللذين هما تاجا المعرض، وإكليلا الصناعة، وعاد الباشا إلى «الحكيم» يسأله:

الباشا - وماذا يكون شأن هذين القصرين بعد انتهاء المعرض؟

الحكيم - يبقيان على حالهما دون أبنية المعرض لعرض أعمال أهل الصناعة والتصوير فى كل عام.

الصديق - إننى كلما نظرت إلى هذه العناية الكبرى عندكم بفن التصوير والغلو فيه إلى هذا الحد، ثم نظرت إلى قلة العناية به عندنا، حرت فى معرفة السبب، فإن كان ذلك ناشئا عن الترقى فى المدنية، فإننى أراه فيكم قديما منذ جاهليتكم الأولى كما أراه والمدنية مسفرة بينكم، وربما كان القديم أبدع من الحديث، مع أن أهل الشرق، على ماتعلمون، أوسع مجالا فى الخيال، وأبعد شأوا فى التصور؛ فكيف نما هذا الفن فيكم دون أن ينمو فينا؟

الحكيم - إن أهل الغرب كانوا قبل الدين المسيحى أهل عبادة للأوثان والأصنام؛ فقضى الاعتقاد الدينى بإتقان الرسم والتصوير، واتسع نطاقه على الأخص فى الدولة اليونانية والدولة الرومانية، حتى تعدى التصوير تماثيل الآلهة إلى تماثيل الخلق، فأقيمت التماثيل لكبراء الرجال وعظماء الأبطال، ووصل الغلو فى ذلك أيام الدولة اليونانية أنهم أحصوا ثلثمائة تمثال لشخص واحد فى شوارع «أثينا» فى حال حياته، فلم تمكث بعد وفاته ثلثمائة يوم، لأنه كان ممن نال الشهرة بالباطل، وعلو الصيت على غير استحقاق. ومن ملح ما يروى فى هذا الباب أن بعض الناس قال لعظيم من عظمائهم جليل القدر كبير

الخطر: إنى لأعجب لأهل «أثينا» يقيمون لمثل هذا الرجل ثلثمائة تمثال بغير حق، ولا يقيمون لك تمثالا واحدا، وأنت المقدم المفضل فيهم، فقال له: لأن يتعجب الناس ملك من أنهم لم يقيموا لى تمثالا واحدا أفضل عندى من أن يتعجبوا لماذا أقيمت لى التماثيل؛ ولما دخل الدين المسيحى على هذه الحال، لم يحظرها ولم يحرمها، فاستمر لناس على ما ألفوه، وتناولوا الدين المسيحى نفسه بفن النقش والتصوير، وصوروا المسيح وأمه فى كثير من أطوار حياتهما، ودونوا به ما شاءوا من روايات التاريخ المقدس، فبقيت العناية بذلك متصلة قائمة إلى اليوم، بخلاف الدين الإسلامى عندكم، فإنه حظر التصوير، فكان هذا سبب تقلص هذا الفن بين الأمم الإسلامية، وإلا فهو منتشر فى الشرق انتشاره فى الغرب بين الأمم الوثنية كالصينيين واليابانيين والمجوس من أهل الهند.

قال عيسى بن هشام: وسرنا عن هذين القصرين نقصد سواهما من المعاهد، ونقف على ما اشتهر فى المعرض من المرائى والمشاهد.

الأشجار والأزهار

قال عيسى بن هشام: ودخلنا معرض الأشجار، وبستان الأزهار، فى قصر لم يبن بناء القصور والديار، ولم تشد أركانه بالشيد(٢٠٥) فوق الأحجار، ولم ترتفع بالآجر حجره وغرفه، ولم تتخذ من الخشب أبوابه وسقفه، عقدت له القباب والأبراج، من صقيلل البلور وسبيك الزجاج، فهو صرح ممرد(٢٠٦) من

قوارير، كأنه لجة يم أو صفحة غدير، لو دخلته «بلقيس» صاحبة العرش فى الأيام الخالية، لكشفت عن ساقيها مرة ثانية، جمعوا فيه أشتات النبات الغض، من كل بقعة وناحية فى الأرض، مما ينبت بين ثنيات الجليد وتنشق عنه صم الجلاميد، وما اخضر فى ربا الصحراء، وأورق فى وهاد البيداء، وأزهر فى المد، وأينع فى الومد[٢٠٧] ، ومن حيث تجرى الأنهار والجداول، إلى حيث تعتصم الأراوى والأجادل[٢٠٨]، ومن حيث تشدو الحمامة الورقاء، تحت الظلال والأفناء، إلى حيث تدور الحرباء، حول الغزالة فى كبد السماء[٢٠٩]. ومن أدنى الشرق إلى أقصى الغرب، ومن طرف القطب إلى طرف القطب، فما أردت هناك من جميع الأنواع، فى متفرق البقاع، ما بين ملتف ومنتشب[٢١٠]، ومتسلق منه ومتشعب، يفتر بكل محمر ومبيض، ومذهب ومفضض، ومشرق ومومض، وأين ابن الرومى يتأملها فيخلع عنه رداء الفخر والتيه، ويقر بعجزه فى الوصف والتشبيه، ويحرق ديوانه بكبريته المذكور فى تشبيه المشهور:

ولا زوردية تزهو بزرقتها
بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها، وضعاف القضب تحملها
أوائل النار فى أطراف كبريت

هنالك تستبيك ألوان الأزاهر، بما يزرى بلمعان الجواهر، كما الياقوت عندها والزبرجد، وما الفيروز والزمرد، وما العقيق

والجمان، وما الدر والمرجان! وكيف يقاس الحجر، بالشجر، وتستوى الحصباء اليابسة، بأكمام الأغصان المائسة، وكيف يقدم الجامد الثابت، على النامى النابت؟ وأين الحركة من السكون، والمنشور من المدفون؟ وأين المنثور على ظهر الروضة الزهراء، من الملحود فى بطن الغبراء؟ ولئن انتظمت القلائد، بجواهر تلك الفرائد، فى لبات الخرائد، وكان مكانها من الحور، فى المعاصم والنحور، لكانت هذه الزهور، بين الرئات والصدور، وكم أنعشت خامد النفوس والأرواح، بطيب الأنفاس وشذى الأرواح! فوقفنا نستنشق الأريج والنشر، من أصناف ذلك الطيب والعطر. لو كان معنا ضرير قرير العين، ولأنس من وحشته، وذهل عن فاقته وخلته(٢١١) ، وعلم أن من المسكر ما هو طلق(٢١٢) حلال، ولم يتلهف على شرب المعتقة حيث قال:

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة
تجهلنى كيف أطمأنت بى الحال

فأجهل أنى بالعراق على شفا
رزى الأمانى لا أنيس ولا مال

ومازالنا فى هذه الروضة الغناء، والجنة الفيحاء، نردد قول العبد الصالح الأواه: «ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة إلا بالله».

ونكرر النشيد، لبيت التوحيد:

فـــــــــــــــفــي كـــل شـــئ لـــه آيـــة

تـــدل عـــلـــى أنـــه الـــواحــــــــــــــــد

حتى إذا آن أوان الإنصراف، خرجنا من بين هذه الجنة الألفـاف (٢١٣)، خروج أبينا من دار الخلود والبقاء، إلى دار الهموم والشقاء، ولما تركناها إلى نواحى المعروض ضئول فى أعيننا، ما كان يروقنا ويزدهينا، وصغر فى أنفسنا، ما كان يخلبنا ويشجينا، وذبل أمامنا ما كان من المناظر ناضرا، وذال(٢١٤) ما كان فخما نادرا، وغلب ذلك المنظر على كل بديع رائع، من مختلف الفنون والصنائع، وأين قدرة الحيوان الناطق، من قدرة المبدع الخالق، وما تسويه آلات المصانع، مما تصدره يد البارئ الصانع، وكاد الباشا يهم بالرجوع من حيث أتينا، ويقتصر فى يومه على ما رأينا، لولا أن استوقفنا قول «الحكيم» للصديق فى عرض كلامه، عن ترتيب المعرض ونظامه:

الحكيم - نعم تنقسم أماكن المعرض إلى قسمين: هذا القسم الذى شاهدناه من نفائس الصناعة والطبيعة، وهو مباح للزائرين بغير أجر؛ وقسم آخر أقاموه لترويح النفس، واستجلاب الأنس، بالمشاهدات الغريبة، والمناظر البديعة، يدخله الداخلون بأجر معين.

الصديق - لقد قرأت فى الجرائد عن هذا القسم الأخير ما يعجب ويدهش، وأشد ما تشتاق نفسى لزيارته تلك «النظارة

المعظمة» الهائلة التي اخترعوها لمشاهدة القمر على بعد متر واحد، فتحيط به العين في زعمهم كما يحيط الجالس في الغرفة بأجزاء جدرانها، فأين ذلك المكان منا الآن؟

الحكيم ـ ليس هو ببعيد، وهم يسمونه «قصر الأضواء والمرايا» ولطالما أسهبت الجرائد كما قلت في وصفه بما يهيج الرغبة إلى زيارته، ولم أزره بعد، فهلم بنا نقصد قصده.

الباشا ـ البدار البدار إلى زيارته، فلو كان ما يقولونه عنه صحيحا لكان إحدى المعجزات.

قال عيسى بن هشام: وسرنا جميعا نلتمس هذا المكان، حتى وصلنا إلى قصر مشيد، قل أن يكون منه لكبار الأمراء والملوك في فخامته وضخامته، ومكتوبا على بابه، بين صور الكواكب والنجوم، هذه العبارة باللغة اللاتينية:

«من هنا يصعد الإنسان إلى أجرام الكواكب باللانهائية».
ولما دخلناه رأيناه مزدحما بالجموع فبدأنا معهم بالدخول في حجرة واسعة تبلغ خمسة عشر مترا في الطول وعشرة في العرض، وهي مقسمة بالمثلثات والأضلاع من زجاج المرايا القائمة، يبلغ علو الواحد منها مترين ونصفا في عرض متر ونصف، وقد تخللتها مصابيح الكهرباء. فإذا مشى بضع خطوات ضل الطريق، ولم يهتد السبيل، وكلما ظن أنه وجد منفذا للخروج منه، اندفع إليه، فيصطدم وجهه بزجاج المرايا، فتعلو أصوات الضاحكين وهم في حيرتهم وضلالهم، ولايزال

على هذه الحال مدة من الزمن حتى يصل إلى نهج الطريق من طريق الأنفاق. وما أوسع مجال الخيال هنا للشعراء فى وصف أشكال الزائرات، وانطباع صورة الواحدة منهن على صفحات المرايا ألف مرة، كما تنطبع محبتها وهى واحدة على صفحات قلوب الرجال وهم ألوف.

ولما اهتدينا للخروج من هذه الغرفة التى يضل الداخل فيها، كما يضل الراكب فى الفيافى والقفار، سرنا نقصد غيرها، «والحكيم» يقول للصديق» فى حديثه:

الحكيم - إن الفكرة فى إقامة الأماكن والأبنية على أوضاع وأشكال، يضل الداخل فيها، ولا يهتدى للخروج سبيلا، شئ قديم فى الوجود، وقد علمنا أن قدماء المصريين هم أول من شيد الأبنية للضلال والتيه، منها الهيكل الذى راه «هيرودتس» فى زمانه ووصفه فى تاريخه، وكان يحتوى على ثلاثة آلاف حجرة بعضها متداخل فى بعض، فمن دخل هذا المعبد، ولم يكن معه دليله، ضل فيه حتى يهلك جوعا، ولايزال أثره باقيا عندكم إلى اليوم بقرب بحيرة «موريس» أمام المدينة القديمة المعروفة بمدينة «التمساح». وقد حذا قدماء اليونانيين حذو المصريين، فأقاموا فى مدينة «كريد» معبدا مماثلة، ومما يذكر عنه فى أساطيرهم أن غولا من الغيلان كانت تفسد فى الأرض وتعيث، ثم تلجأ إليه، فلا يدركها أحد، وصمم أحد المشهورين من شجعانهم على اتباع أثرها، والفتك بها، فلم يتوصل إلى ذلك إلا بالحصول على خيط معلوم دلته عليه عشيقته فربط

طرفه عند الباب قبل دخوله، وسار به فى طريقه، فأدرك غايته، وفتك بالغول، واهتدى به فى رجوعه، والفرق بين ما صنع القدماء فى السالف، وما صنعه المحدثون فى الحاضر، كما ترى، أن بناء المتقدمين من الحجر، وبناء المتأخرين من الزجاج.

قال عيسى بن هشام: ودخلنا بعد ذلك غرفة فى إثر أخرى وكلها على هذا النمط من انعكاس الأضواء فى المرايا وتعدد الصور، فتتخيل هنا بئرا، وهناك بحرا، إلى غير ذلك من وجوه التخيل، ثم انتهينا إلى تلك الغرفة المنشودة التى يرصد فيها القمر على بعد متر واحد، فما جاوزنا بابها حتى أطفئت فى وجوهنا المصابيح، وتحبطنا فى الظلام الدامس، ثم سلطوا أشعة الكهرباء على قسم من الحائط فأضاءت عليها خريطة القمر مصنوعة بكيفية تتبين فيها مرتفعات كرة القمر ومنخفضاته، فتتراءى لك الأولى بمقدار قلامة الظفر، والأخرى بمقدار خروق الغربال، ووقف هناك رجل كالمرشد يشرح للناس ما يشرحه عن هذا الرسم ويزعم أنه صورة القمر بعينه على بعد سبعين كيلو مترا كما يرى فى «النظارة» التى انتشر الإعلان عنها بأنها تريكه على بعد متر واحد، وأسهبت فيها مقالات الجرائد العلمية والسياسية مدة من الزمن قبل افتتاح المعرض، ثم خرجنا «والصديق» يقلب كفا على كف من شدة الدهش والعجب، ويسأل صاحبنا «الحكيم» عن كنه هذا الغش والكذب.

الحكيم - خفض عليك، فإن أكثر ما تقرأ من التفخيم والتهويل لمثل هذه المسائل فى الجرائد لا يعول عليه، فإنها تتعمد ذلك لمصلحتها الخاصة لما تتناوله عليها من الأجور، ولمصلحة أبناء البلاد فى ترغيب الناس إلى زيارة المعرض، وهى تستحيل الغش والكذب فى سبيلهما، ولا تعجب إن قلت لك: إن الذى باشر هذا المشروع هو أحد مشاهير المستعمرين من النواب عندنا، فقد قام فى المجلس خطيبا، وطلب منه الموافقة عندنا على إقامة المعرض العام، وأعلن انه وجد عنقاء المعرض والآية الكبرى فى ارتقاء الصناعة بإنشاء «نظارة معظمة» يرى الناظر فيها القمر عن بعد متر، ومازال يحكى، والجرائد تكتب، حتى أنشأ شركة من بعض الفلكيين لعمل هذه «النظارة» التى يقولون عنها: إنها ترى القمر على بعد سبعين كليو مترا، وأقاموا هذا القصر بمناظرة لاجتناء الربح من تهافت الزائرين، وإقبالهم عليه لروية المعجزة الكبرى، وعلى هذا تدور أكثر الأمور بين الناس فى العالم من التهويل الباطل فى أقوالهم، والغلو الفاضح فى وصف أعمالهم، بمقدار الفرق ما بين المتر الواحد والسبعين كليو مترا، والرابح فيهم من كان ماهرا فى الغش والخداع، والفائز فيهم من كان سباقا فى المكر والاحتيال.

قال عيسى بن هشام: وانصرفنا ونحن نعجب من هذا النائب الذى لم يكفه الغش من طريق السياسة والاستعمار، حتى ترقى فيه إلى طريق الكواكب والأقمار.

المرائى والمشاهد

قال عيسى بن هشام: وسرنا فى قسم المرائى والمشاهد، ندخل واحدا منها فى إثر واحد، فلا نجد فيه، عندما نوافيه، مصداق ماسمعنا من وصف واصفيه، بل ربما وجدنا ما يخالفه وينافيه، إلى وصلنا إلى قصر مشرف منيف، يزهو على القصور بحسن الترصيص والتصنيف، أعدوه هناك لأنواع الرقص والعزف، وفنون القفز والقصف، منذ الغابرة، إلى عهد الحضارة الحاضرة، ومن عيش الخشونة والشظف، إلى عصر النعومة والترف، فماشئت من رقص الحماسة والشجاعة، إلى رقص الخلابة والخلاعة، فترى رجال البداوة يرقصون بالسيوف، فى مواقف الحتوف وترى العذارى من ورائهم يضربن بالدفوف، ويصفقن بالكفوف، تحريضا لهم على الحرب والهابا وإثارة لهم على العدو وإغضابا، فتحلو لهم مضاضة الإقدام، كما تحلو لشاربها غضاضة المدام، ويرتشفون كئوس المنايا، كما يرتشف سواهم رضاب الثنايا، ثم ترى رُقص الآيبين من السفر، والقافلين بالنصر والظفر، بين عذارى الحى وجواريه، وسبايا العدو ومأسوريه، بإشارات تبين أيما بيان، عن مكنون الهوى والأشجان، فى صدور ملوها الغيرة والشمم، وقلوب حشوها الشهامة والكرم، ونفوس تفزع لصواته الوحوش الكواسر، وتفرق من هيبّتها الأسود الكواشر، لكنها تخضع لربات القدود والنهود، خضوع العابد للمعبود، فتتفرق لديها أوزاعا[٢١٥] وتطير أمامها شعاعا، إن خشيت منها بادرة صد وجفاء، أو حركة نفور وإباء، وهن

يقابلن حركات التذلل والتزلف، بحركات التدلل والتعفف، ويجزين على التولع، بالترفع والتمنع، ويبدين لطيف التجنى، ببديع التثنى، ويغضضن من أبصارهن، فى جلائهن وإسفارهن، ثم يسرعن إلى الالتفاف، ويسترن ماانحسر من الأطراف، فيرتد طرف الواله حسيرا، وقلب الهائم كسيرا، وما أبدع الحياة فى وجه الجميل، كماء الفرند فى السيف الصقيل، إذا عارض حياء الشجاعة فى الفارس المغوار، فل غربه عن رية الحجل ،السوار، وكأنما الشجاع منهم فى يد الغادة لا يفتأ ينشد قول أبى عبادة:

نحن قوم تذيبنا الأعين النجـ

ـل على أننا نذيب الحديدا

طوع أيدى الغرام تقتادنا البيـ

ـض ونقتاد بالطعان الآسودا

ثم رأينا أشكالا متفرعة من الرقص والحجلان، وأنواعا متعددة من الدوران والخطران مما هو شائع عند عبدة الأوثان، وسائغ مباح فى بعض الأديان، حتى يجد المشاهد لحركة تلك الأبدان، مايجده راكب السفينة من الهيضة والغثيان، وكأن الأصل فى ذلك إنهاك القوى الجثمانية، لإضعاف الجوانب الشهوانية.

ثم شاهدنا بعد ذلك مافى رقص المدنية والحضارة، من الفضاحة والدعارة، فترى أفواج النساء، كأسراب الظباء،

لايستر أجسامهن إلا غلالة كالقشرة، فى لون البشرة، تنطبق على أعضائهن انطباق الغرقئ على ترائك الرئال[216] وتلصق التصاق القميص بأجساد الصلال[217]. فهن عاريات للنظر، كاسيات فى الخاطر، فيأتين فى رقصهن أشكالا تشرح فى ساطع الضياء، مذاهب الأعصاب ومفاصل الأعضاء، فتارة ينثنين، وطورا ينحنين، وآونة يدرن على أطراف أصابعهن، غير متنقلات من مواضعهن، وفيهن من ترفع ساقها حتى تلطم فى الخد سواد الخال، بذهب الخلخال، وتلمس الجبين الوضاء، بطرف الحذاء، والنظارة من أنحاء المكان يستعذبون ويستجيدون، ويصفقون ويستعبدون، ثم مالبثن أن عدن بنوع آخر من أحدث الأنواع، فى ضروب التفنن والإبداع فتوحشت كل واحدة منهن بملاءة بيضاء، متسعة الأطراف والأنحاء، إذا استدارت فيها خلتها قصعة غمام، أطل منها بدر التمام، أوزفة حمائم بيضاء [218]، ترفرف ظمأ حول الماء وفى قبالتهن مصباح الكهرباء يرسل أشعته من أعلى المكان، بمختلف الأضواء والألوان، فتبدو الراقصة بانعكاسها فيها كأنها طاقة أزاهر، أو قلائد جواهر، وكأنها فى سرعة تلونها واهتزازها، زبد اللج هاجته السفينة فى اجتيازها، فانعكست فيها أشعة الشمس المشرقة، بألوانها السبعة المتفرقة، وفى يد كل راقصة منهن عصا جرداء، إذا هزتها فى الهواء، وقابلت بها شعاع الكهرباء أزهرت بأزهار من نور، وأينعت بأثمار من البلور، يخالها كل من يرى «كعنقود ملاحية حين نور[219]» لوراها

سحرة فرعون وهامان، لأقروا بفضل العصا فى كل زمان ومكان.

ولما توارت عن أعيننا هذه الأدوار، وانسدل عليها الستار، خرجنا ونحن فى دهش وذهول، والتفت الباشا إلى «الحكيم» يخاطبه ويقول.

الباشا - أرى أن للرقص عندكم، معشر الغربيين، شأنا فخما، كأنه من نفائس الفنون وطرائف الآداب، وأنه لا بأس لديكم بهذه المناظر والأشكال، التى يأبى الأدب انتشارها واشتهارها على أعين الناس بهذه الكيفية الفاضحة.

الحكيم - إن شأنه عندكم أعظم، وشكله فيكم أفضح، ولايزال كتابنا وأهل النقد منا يعيرونكم به، ويستفظعون ذلك الشكل الذى يسمونه «رقص البطن»، وهذا المعرض المصرى هنا، كل من دخل فيه، وشاهد النساء المصريات حاسرات النهود، عاريات البطون، يحركن طياتها، خرج يقطر وجهه خجلا، وتكاد تجيش نفسه غثيانا، من شناعة هذا المنظر فى عينيه، فيحكم عليكم بخسة الآداب، وقلة الاحتشام، ومن شاهد مواضع اللهو فى بلادكم، لم يجدها حافلة بسواه، فإذا عرضتم علينا آثاركم فى ديارنا كانت هذه الراقصات فى أوائل ماتعرضونه لنفاسة قدرها بينكم وجمال موضعها فيكم.

الصديق - إن الأمر على غير ما تتوهمه أيها الحكيم، فإن هذا الرقص ليس بمنتشر فى عاداتنا، ولامعروف فى بيوتنا،

وإنما هو من عمل المواخير وبيوت الفاحشة، يباشره العواهر فما يباشرنه من أبواب الاثم والفجور فى بيوتهن، ولم يظهرن به على الملإ فى الملاهى العامة إلا بفضل أصحاب الحانات من الأجانب الذين يرون وجوه الربح متساوية لاحظة فيها ولانقيصة، والجمهور عندنا على استقباحة والنفور منه كما تنفرون، ولا يشهده عندنا سوى أهل البطالة والخلاعة، ولايأتيه من النساء إلا الفواجر العواهر، وكلما حاولت الحكومة، فى محافظتها على الآداب، حظره ومنعه، اعترضتها امتيازات الأجانب، وحريتهم المطلقة فيما يأتون ويذرون. أما الرقص عندكم، فهو متأصل فى عاداتكم، وسنة متبعه بينكم، لا يقتصر على الملاهى والأماكن العامة، ولاينفرد به النساء دون الرجال، ولا يخلو منه بيت من بيوت السوقة ولاقصر من قصور الملوك، ولاتقام عندكم وليمة من الولائم، ولا يتم لكم احتفال فى المواسم إلا والرقص ركن من أكبر أركانه، ومظهر من أفخر مظاهره، والرقص عندكم من الفنون النفيسة، يدرسه الرجال كما يدرسون العلوم، ويتعلمه النساء كما يتعلمن الغزل والتطريز.

الحكيم - ليس الرقص فى أصله من المنكرات ولا مما يعاب شأنه كما تذهب إليه، وهو حركة طبيعية فى الإنسان إلى ميزانها ونظامها عندما تلحقها خفة الطرب وهزة التأثر، وهو قديم فى الفطرة، وربما تجاوز نوع الإنسان إلى بعض الحيوانات والطيور، وقلما خلت أمة من أنواعه منذ البداوة إلى اليوم. وهو ينقسم إلى أربعة أنواع: نوع يستعمل فى الحرب، ونوع يستعمل فى الصيد، ونوع يستعمل فى حكاية الهوى من

طريق الإشارة والإيماء، والنوع الرابع في الشعائر الدينية. وقد اعتنى بأمره كثير من أمم الحضارة الغابرة وبلغ عند قدماء اليونانيين مرتبة عالية، وكان كبراؤهم وأمراءهم يمتازون بإتقانه ، ويتباهون بالتبريز فيه، وفيهم من انقطع له واشتهر به. ولقد كان السفير بين أهل «أثينا» وبين الملك «فيليبس» والد الإسكندر المقدوني رجلا اسمه: «توستديموس» من أكبر الأساتذة في هذا الفن، ثم إن هذا الملك نفسه تزوج براقصة معروفة اسمها «لاريسا» وكان سقراط أبو الحكماء يهوى الرقص ولا يستنكره، وكان «إيبامينونداس»، وهو من أشهر الفلاسفة، راقصا مبرزا في الفن، والأمر على ذلك أيضا من جهة الرقص الديني في الدولة الرومانية عند نشأتها، ثم انتشرت فيها أنواعه انتشارا عاما، إلى أن دخل الدين المسيحي على الوثنية الرومانية، فلم يستنكره في بادئ الأمر بأشكاله التي تفنن فيها الرومانيون، على ما هو معهود فيهم من التناهي في الملاذ الفاضحة في أواخر دولتهم، ثم دخل في عادات الأمم الغربية، فتمسكت به، ولم يصدها عنه بعد ذلك استنكار الرؤساء الدينيين له تارة بعد أخرى، إذ كانت النفوس ألفته واعتادت ألا ترى فيه عيبا أو شينا، وإنما الذي شأنه في نظركم اجتماع الرجال والنساء عليه في حفلاتهم، وذلك ناشئ عن ارتفاع الحجاب عندنا ووجوده فيكم.

قال عيسى بن هشام: وقطع الحديث بيننا أن رأينا في طريقنا مكانا يتزاحم عليه الناس، وعلمنا أنه أحد المرائي الشهيرة الذي قرأنا عنه فصولا متعددة في الجرائد العالمية

مثل «الديبا» و «الفيجاروا»، ووصفته بأن الداخل يركب فيه سفينة عظيمة تسير به فى مياه البحر المتوسط فتمر به على الثغور فيرى ما فيها من البنيان ويشاهد حركة السكان، فدخلناه بعد أن دفعنا الأجرة، وصعدنا السلم حيث انتهينا إلى هيئة سفينة كبيرة فركبناها، فإذا هى تميل بجانبيها كما تميل كفة الميزان بالصعود والهبوط فى حركة مثل حركة السفينة عند اضطراب الأمواج، ويحف بها من الجانبين حائط من قماش نقشت فيه أمواج البحر وأشكال الثغور الكبيرة مثل «نابولى» و «فينسيا» وغيرهما، فيخيل للراكب عند ذلك أن السفينة تسير به فى عرض الأمواج المرسومة، والرسم متصل بآلة السفينة تديره بسرعة كبيرة، والسفينة فى تمايلها كالأرجوحة لاتتحول عن مكانها، فلم نر فى الأمر مايستغرب له.

ثم زرنا بعد ذلك العدد الكثير من قسم المرائى، فرأيناها كلها على هذا النسق من التمويه، ومابرح «الصديق» يظهر التذمر لشدة الفرق بين مارآه من هذه المناظر التافهة، وبين ما انتشر عنها فى أنحاء العالم من المبالغة فى الوصف والغلو فى البيان، ولم يخالفه «الحكيم» فى ذلك، وإنما أشار علينا بأن نزور المنظر الوحيد الذى أعجبه حسنه من قسم المرائى كله، وهو منظر القرية التى أقامها أهل سويسرا، فى المعرض، يمثلون بها جبالهم وأنهارهم ومعيشة الأهالى فيها على حال الفطرة. ولما دخلناها تملكنا الطرب وتولانا الابتهاج من حلاء المنظر وبهاء الهيئة، وشاهدنا الجبال شامخة نسيل من قممها السيول إلى قرار الوادى، فتتشعب منها الجداول والأنهار، وتتخلل البيوت والجدران، وشاهدنا هناك الأبقار المشهورة فى

تلك البلاد واقفة على مذاودها، ومن حولها الولائد [٢٢٠] والجوارى تتألق فيهن نضرة الشباب وتبرق أسرتهن بحسن البداوة.

حسن الحضارة مجلوب بتطرية.

وفى البداوة حسن غير مجلوب

وهن يحتلبن ألبانها فى قعوب من البلور، ويقدمنها برغوتها لمن يرغب فى استقلائها من الزائرين، ورأينا الرجال فى حوانيتهم يملئون العين حسنا وبهاء واقفين واقفة التأدب يعرضون ما طاب وحلا من أثمار بلادهم، وأزهار جبالهم، ولقد علمنا أنهم أقاموا فى تشييدها ثلاث سنوات وأنفقوا عليها ثلاثين مليونا من الفرنكات فأعجبنا المقام، وقضينا هناك زمنا نتناقل ونتفاكه ونتذاكر فى حديثنا فضل المعيشة الطبيعية فى سذاجتها، على المعيشة المدنية فى تصنعها وكلفتها.

الافتراء على الوطن

قال عيسى بن هشام: وفيما نحن ندور بين أقسام المعرض ونحول، إذ سمعنا صوت مزمار وطبول، فهاج منا الذكرى والشجن، وأذكى فينا الحنين إلى الوطن، حنين أنضاء النوق[٢٢١]، بلامعات البروق، تنبعث من أفق بلادها، وتنازعها الأشواق فى أغوارها وأنجادها، فشخصت إليه الأحداق، ومالت نحوه الأعناق، فقصدنا منبعه، وأممنا مطلعة، عسانا نجد عنده من آثار مصر فصلا، ومن أشكال بلادنا شكلا،

يملأ العين جمالا والصدر جلالا. ويؤنسنا في وحشة الفراق، بما يخفف من لواعج الأشواق، ويكون لنا في المعرض موضعا للفخر والمباهاة، في باب المسابقة والمباراة، فوجدنا أخلاطا من الزمر والجماهير، حول الطبول والمزامير، ورأينا في وسطهم رجلا يعلوهم فظا في هيئته، كظا في طلعته (٢٢٢)، لو استزاد من الغلاظة لم يجد له من مزيد، كأنه جلمود صخر أو قطعة جليد، بوجه تثور منه السماجة، ثوران العجاجة (٢٢٣). و «طربوش» عليه طوق مثل الدهن من العرق والوضر(٢٢٤)، لو ولج فيه شعاع الشمس لاحتدم واستعر، وهو يعج مثل عجيج الإبل في الفلوات، ويصيح بصوت من أنكر الأصوات دونه صوت الحمر الناهقة، أو الرعد بالصاعقة، وفي يده مروحة يتزود بها هواء للتنفس، خشية الاختناق من التهيج والتحمس، وهو يتمايل عجبا واختيال، ويذهب في الحلقة يمينا وشمالا، مناديا في الجمع، بألفاظ مكروهة في السمع، ترغيبا للرائح والغادى، في دخول ذلك النادى، ليروا من أسباب الأنس، ومستمتع الحواس الخمس، ما ينفى بلابل الصدور، ويجلى بواعث السرور، من كل منظر ليس له نظير، لا يحيط به التخمين والتقدير، مما بذت به مصر سائر الأمم، وحلت به في الفخر محل الذرا، والقمم، ولاغرو فهي لاتزال في مضمارها منذ القدم، عالية الكعب راسخة القدم وأن هذه فرصته لابد أن تلتمس، وخلسة من الدهر يعقبها الندم إن لم تختلس فمن لم يبادر إليها فقد أساء الاختيار، وأوقع نفسه في الخسار، ولم يقف من المعرض على موضع حسنه وجماله، بعد أن يفقد

النفيسين من وقته وماله، ومن لم يشاهد صنعة «زهرة» و «معتوقة»، لم يشاهد فى الدهر معشوقة ولا موموقة، ولم يحصل إلا على الخيبة، فى السفر والأوبة، فدخلنا نستكشف الأثر، ونستشف الخبر، فتلقانا بالباب رجل حسن الثوب والعمامة، فى زى أهل التشيخ والإمامة، مشغول اللسان بالترحيب واليد بالتسبيح، كأنه إمام مصلى أوسادن ضريح، لولا أن تأملته فعرفته رجلا من ذوى الرتب بين التجار، مشهورا بتجارة الطيب والأعطار.

ذئب تراه مصليا	فإذا مررت به ركع
يدعو وجل دعائه	ما للفريسة لاتقع

فهنأنا بالسلامة، وبالغ فى الحفاوة والكرامة، وتقدم بنا إلى ساحة من ساحات اللهو واللعب، و «مرسح» من مراسح الرقص والطرب، وانكشف لأعيننا الستر عن بنات الفجور والعهر، فأخذن فى «رقص البطن» بتلك الحركات الشنيعة، والأشكال الفظيعة حتى تخيلنا عدنا إلى أدوار تلك المدة، فى مصاحبة «الخليع» و «العمدة»، فلوينا أعناقنا نحو الباب، ونحن فى حزن واكتئاب، وخرجنا نستر وجوهنا بأيدينا خجلا، وتمنينا ألا ننسب إلى بلادنا أصلا، لنخلص من وصمة هذا العار، وما يجره علينا من الأزدراء والاحتقار. ورجعنا مهرولين ابتعادا عن هذا «المعرض المصرى» وما يحويه، من مثل هذا المشهد المعيب والمنظر الكريه، وأقسمنا على ألا نمر من هذه

الناحية، مرة ثانية، فأخذ «الحكيم» يهون علينا من وقع المصاب، ويخاطبنا فى معرض العتاب.

الحكيم ـ لم هذا التسرع والتعجل؟ أما علمتم أن المعرض ينقسم إلى قسمين: قسم الصناعات والآثار، وقسم المشاهد والمرائى؛ وقد رأيتم من «المعرض المصرى» القسم الثانى، فدعوه إلى سوء أدبه وقبح أثره، ولا يمنعنا ذلك من زيارة القسم الأول منه الذى هو قسم المجد والعمل، ولعلنا نجد فيه من محاسن الأعمال والآثار ما يصرف عنكم هذا الذى اعتراكم من الهم والكدر؟

الباشا ـ ما أظن هذا القسم إلا عنوانا للقسم الآخر، ومن أساء الاختيار فى قسم المشاهدات، فجدير به ألا يحسن الاختيار فى قسم الصناعات، وبلغ به الانحطاط فى انتخاب مشاهد بلاده ومرائيها إلى عرض بطون النساء وفحش العاهرات للرائح والغادى من أطراف المسكونة فى هذا المعرض، فلا يرجى منه حسن الاختيار فى آثار البلاد وأعمال صناعها.

الصديق ـ لقد أعمى الطمع فى الربح مثل هؤلاء التجار عن قبح هذه المشاهد، وغرهم ولع السفهاء بها فى مصر، فحسدوا، عليها أصحاب الحانات، ولم يكن من اللائق بهم أن يزاحموهم فيها ببلادهم، فانتهزوا هذه الفرصة للتفرد بها فى بلاد الغربة، وظنوا أن الغربيين يقبلون عليها إقبال الشبان فى بلادهم فيفوزون بالربح، وليس من يعير بقبيح وجهه فى بلاد

لايعرفهم بها أحد، فإن فيهم مثل هذا التاجر الوجيه ذى الرتبة الثانية الذى لودعوته لرؤية الرقص فى مصر لغطى وجهه بجبته ولوى عنقه يستعيذ ويستغفر من هذا الإثم الذى ينهاه عنه دينه وأدبه، ولكن جاء الأمر على خلاف ماقدروه، فلم ينالوا ربحا، ولم يستروا قبحا ، فإن أدب زوار المعرض على اختلاف أجناسهم ينهاهم عن مشاهدة هذه الفضائح، فلم يقبل عليها أحد، ولم يبق لأصحابها إلا سخط المصريين عليهم جزاء تغيير الأمم لنا بسوء رأيهم، وقبح اختيارهم.

قال عيسى بن هشام: ولما جاوزنا باب اللهى قليلا، انثنينا إلى القسم الأول من هذا المعرض المصرى مطاوعة لرأى صاحبنا، فوجدنا بناء مشيدا مثل أبنية الجوامع والمساجد، يفاجئك مدخله بحانة للخمر ذات اليمين تتخطر فيها شمطاء من عجائز باريس ومن حولها بناتها وحفدتها، وعن ذات الشمال رجل معمم قد جلس متربعا، غريق فى القبح والدمامة، تنطبق عليه القبعة دون العمامة، وأمامة منصد عليها دواة وقرطاس، وقد التف عليه جماعة من أجناس الناس، يتقدم إليه الواحد بعد الآخر فينقده بعض الدراهم، فيسأله عن اسمه واسم أبيه وأمه ثم يخط له بالعربية فى ورقة معصفرة مزعفرة بعض الدعوات الصالحات، وسمعنا بعض النظارة من الغربيين يقولون فى انكبابهم عليه: هلم إلى شيخ المسلمين ليكتب لنا شيئا من «قرآن محمد»؛ فحز بنا الأمر، وانتظرنا قليلا حتى انفض الجمع عنه، وأقبلنا عليه نسائله، فانفضح لنا أمره عن لهجة سورية، فزجرناه قياما بواجب الدين الإسلامى الذى

ينكر مثل هذه البدع السافلة على أبنائه، فأخبرنا أنه استأجر هذا المكان من «شركة المعرض المصرى» للارتزاق بهذه الوسيلة التى دفعته إليها ضرورة العيش، فتركناه وتوغلنا فى داخل المكان، وإذا برجل آخر معمم ومن حوله صبيان فى أزياء المصريين التفوا حلقة على الأرض كحلقة أولاد الكتاب حول الفقيه، وهو يقرئهم آيات الكتاب بصوت عال ويروضهم على اهتزاز الجسم فى أثناء التلاوة، وفى يده قطعة من جريد النخل يهددهم بها ويؤدبهم، والجمع من حولهم يسخرون ويضحكون من شكل التدريس فى مصر وتعليم الدين بين المسلمين. ولما سألنا هذا الفقيه عن أمره أيضا وما فيه من المنكر، تبين لنا أنه رجل مسلم من عامة المصريين اجتلبة أعضاء الشركة مع صبيانه ليمثلوا به هذا المنظر، ولم يستنكروه، وفيهم بضعة من صلحاء المسلمين، وأن طمع الربح سهل عليهم هذا الموقف، فكان إنكارنا لأمر هذا المسلم المتعبد، أعظم من إنكارنا لحال ذلك المسيحى المتصيد.

ولما توسطنا ساحة البناء وجدنا بها سوقا تشبه أسواق الموالد وحوانيتها، فعن اليمين بائع «لب وحمص» و «فول وترمس»، وعن الشمال بائع «عرقسوس وسحلب»، وفى هذا الجانب بائع «حراير شامية» وفى الجانب الآخر بائع «حلوى استامبولية»، ومن دونهم بائع «أحذية صفراء وطرابيش حمراء». ولما استخبرنا: أهذه كلها آثار مصر والمصريين؟ قالوا: نعم ويزيد عليها «معروضات المصنوعات والمزروعات» فى داخل هذا المكان، وأشاروا إليه، فدخلناه، فإذا هو مكان متسع على

شكل معابد القدماء من المصريين، ووجدنا حوانيته أشبه شئ بحوانيت العطارين انتقلوا منها إلى سواها، وتركوا فى أنحائها وزواياها من صنوف تجارتهم، فهنا صرة فيها بذرة قطن، وهناك قطعة بها حبوب حلبة وذرة، وفى صدر المكان صوان من زجاج به كسوة مطرزة بالذهب مما يلبسه العداءون «القمشجية» أمام الخيول بمصر فانقلبنا خارجين من «قسم المزروعات والمصنوعات» على حال من الغم والحزن أشد وأدهى من الحال التى خرجنا عليها من ملعب المغنيات والراقصات.

وفزعنا إلى الهرب من هذا المعرض المصرى وسيئاته، فعارضنا أحد المروجين له، واستحلفنا ألا نتركه من غير أن نشاهد أعجوبة العجائب فيه، فطاوعناه، فدخل بنا غرفة محجبة، وانكشف لنا الستار عن فتاة مقطوعة الزراعين تغزل برجليها وتستعملهما استعمال اليدين فى كثير من الشئون، فخرجنا لانلتفت وراءنا، وقد حان وقت الغروب، حتى سرنا فى الشارع، فرأينا مثل القطيع من النساء المصريات وبأيديهن الدفوف، والشموع، وفى وسطهن امرأة عليها زينة العرائس، وهن ينشدون حولها أناشيد الأعراس فى زفاف المصريات، فعجبنا من تركهن لمكان اللعب والرقص إلى خارجه فى وسط الشارع، وبينا نحن كذلك إذ بصر «الصديق» بأحد المصريين من أصحابه، فاستوقفه يطارحه الحديث عن خبث ما رأى وسمع، وينعى على المصريين سوء سمعتهم بين الأمم بهذا «المعرض المصرى»:

الصديق - ألا تخبرنى عن سر هذا التفضح، فإنهم لم يكفهم ما يدور فى داخل المعرض من كل مخجل معيب، حتى انتشروا به فى الشوارع على نحو ما تراه، لو قلنا إن جماعة من أعداء المصريين تألبوا على النكاية بهم، ليظهروهم بأسوإ المظاهر بين الأمم، فانتهزوا هذه الفرصة لتنفيذ مكيدتهم لما أخطأنا الصواب.

المصرى - ليس الأمر كما ذهبت إليه، وإنما دفع أهل الشركة الشره والطمع واستجلاب الربح بكل سبيل، كما تراه فى تسيير موكب الزفاف فى أنحاء الشوارع للإعلان والترغيب فى زيارة المعرض بقطع النظر عما يجلبه من العار على أهل مصر جميعا، ولكن الذى يقف على حقيقة هذا المعرض وتأليف شركته لا يلبث أن يهون عليه الأمر شيئا ما، لأنه لاينتسب للمصريين بنسبة رسمية، فقد امتنعت الحكومة المصرية عن إجابة الدعوة التى أرسلتها الحكومة الفرنسية إليها ولم تشترك فيه رسميا، كما أعلنته فى الجرائد، وليست شركة المعرض بالشركة المصرية، لأن الجانب الأعظم فيها من الشرقيين المقيمين بمصر مع بعض من لا خلاق لهم من المصريين.

الصديق - وهل تظن أنهم يربحون الشئ الكثير من هذا المعرض، وهو على ماتراه من حال الكساد والبوار؟

المصرى - ما أظن الربح على هذه الحال بميسور، ولكن الشركة لاتخسر شيئا، وإنما الخسارة على الذين اكتتبوا فيها، وهم يقدرون الخسارة إلى اليوم بثمانين ألف فرنك، وعسى أن

يستمروا على هذه الخسارة عبرة لهم وتأديبا، حتى لايقدموا مرة أخرى على مثل هذه المشروعات التى لايسلمون فيها من الخسارة، ولايسلم المصرى فيها من وصمة العار.

قال عيسى بن هشام: وزودنا الرجل بالتحية واالسلام، بعد أن خفف علينا بعض ما بنا من الآلام.

خبز المدنية

قال عيسى بن هشام: وانتهى بنا التجوال فى المعرض إلى «أقسام الدول»، فرأينافيها من مفاخرة الأواخر ومآثر الأول، ما يشهد لهن بالعلو والارتقاء، فى أبواب الإبداع والإنشاء، وقد تبارين فى ميدان المناضلة، وتسامين فى مضمار المفاضلة، بما لا يشق لهن فيه غبار، وتقصر دونه الأنباء والأخبار، وكانت الدولة الألمانية من بينهن أسبقهن قدما، وأرفعهن علما، وأعز مكانا، وأعظم شأنا، كأنها لم تقنع بالسبق عليهن فى ميادين الحرب والطعان، فأرادت أن تسبقهن أيضا فى حلية العلوم والعرفان، وأن تبذهن فى حالتى الحرب والسلم بشدة البأس وقوة العلم.

وبينا نحن نمتع النظر بحسن الصنع، وجمال الوضع، إذ شعرنا بضجة، والناس يتقاذفون بعضهم على بعض كالبحر اللجى، فى الليل الدجوجى[٢٢٥]، قد ركبوا رءوسهم من شدة الفزع، وطارت عقولهم من الهلع والجزع، وانتشر بينهم الصراخ والصياح، واشتد فيهم العويل والنواح.

فسألنا عن الخبر، فقيل لنا: إن القنطرة القائمةعلى رأس المعرض، هوت بمن فوقها على من تحتها، فتوجهنا ناحيتها، فوجدنا من المنظر الشنيع ما تنقبض له النفوس وتذرف العيون، فمن جثث هامدة وأجساد دامية، ما بين فتاة وصبي وشاب وكهل، من زوار المعرض، يزيدون على المائة، والدماء تجرى كالسيل، والناس يترامون على الأرض ليتعرفوا بمن عسى أن يكون بين المصابين من أقربائهم وأصدقائهم، وما فيهم إلا كل متوقع للمصيبة ومترقب للمكروه، فالبكاء شامل والأنين عام، والأطباء يضمدون، ورجال الصحة يحملون، واشتد علينا الحال باشتداد الهول، وتكاثر الزحام فضاق علينا التنفس كما ضاقت النفس عن احتمال هذا المشهد الفظيع، فجذبني «الباشا» إليه لنخرج من هذا المأزق فأسرعنا إلى مطاوعته وسار بنا وهو يقول:

الباشا - تالله ما يفي كل ما رأيناه في هذا المعرض من بهجة وسناء في ترويح النفس، بمقدار ما اعترانا من الضيق والكرب أمام هذا الموقف الهائل، حتى لقد تخيلت أنني أشاهد يوما من أيام الحرب تتمزق فيها الأعضاء وتتناثر الأشلاء.

الصديق - صدقت، ويزيد على ذلك أن هول الوقائع الحربية قد يكون أقل في النفس وقعا، لأن الحروب رجالا استعدوا لها واستأنسوا بها وغلظت أكبادهم، ولست ترى من حولهم مثل هؤلاء الصبية والأطفال، وهاته النسوة اللواتي رقق النعيم أديمهن ورفه الرغد أجسادهن، يفزعن من مس الإبرة ويدعرن

من لمس الوبرة، فأصبحت الأوصال ممزقة تحت الردم، والأعضاء مدكوكة فى الأنقاض، وهكذا صارت وقائع المدنية فى سلمها أشد من الوقائع فى حربها.

الباشا - لقد آن لنا أن نعود نغادر هذا المعرض ولا نعود إليه مرة أخرى، فقد قطعناه طولا وعرضا، واستوفيناه بحثا وتدقيقا، وبدأ فينا الملل من طول التردد عليه.

الحكيم - إن كنتم عقدتم العزم على الانتهاء من زيارات المعرض بعد اليوم، فلا يفوتنكم أن تختموها فيه برؤية العجيبة التى هى فى الحقيقة أم العجائب، ومصدر هذه الطرائف والغرائب، والأصل الذى تتفرع عنه الفنون والصنائع. والمنبع الذى تسيل منه مظاهر المدنية والمطلع الذى تشرق منه شمس الرفاهة والحضارة

قال عيسى بن هشام: فشوقنا بكلامه إلى متابعته، وسرنا وراءه إلى حيث يريد، فانتهى بنا إلى بناء فخم من أبنية المعرض لم نكن وصلنا إليه من قبل، ولما دخلنا وقف بنا عند فوهة هاوية عميقة مظلمة، يضطرب البصر عند رويتها، وتختلج النفس من هيبتها، فدعانا للنزول فيها ودفعنا لركوب آلة هناك للهبوط والصعود، كأعظم ما يكون من الدلاء، فهوت بنا إلى قرار بئر عميق، وجب سحيق، فتولانى من الهلع والذهول ما انسانى كل شئ فى ذاكرتى، مما يحفظه أهل الدنيا، إلا ثلاثة أبيات لم يبق لى سواها ما أنا فيه من هذا الانحدار، والهوى فى ظلمات بعضها فوق بعض قالها الفرزدق لما تعلق بحبال

الغواني من أعلى الجدران. فرارا من صولة الثائر والغيران:

فلما استوت رجلاى فى الأرض نادتا

أحى يرجى أم قتيل نحاذره

فقلت ارفعوا الأسباب لا يشعروا بنا

ووليت فى أعجاز ليل أبادره

هما دلتانى من ثمانين قامة

كما انقض باز أقتم الريش كاسره

ولولا أن حسن العشرة وطول الخلطة مكن الثقة من نفوسنا بالحكيم الفرنسى، لقلنا: إنه كاد لنا وأراد أن يجدد فى عصرنا الحاضر مافعله أبناء يعقوب بأخيهم فى عصرهم الغابر، ولما أفقنا من الإغماء فى بطن الأرض، سألناه أين نحن من الآخرة، أو فى أية طبقة من الطباق السبع، فعلمنا أننا فى مكان صوروه على نمط معادن الفحم الحجرى تحت الأرض، وكيف يستخرجه العمال فى غياهب الجب، فأخذنا نحدق العيون فى حنادس الظلماء عسانا نبصر شيئا، فتمثل أمامنا العمال يدأبون فى عملهم على ضوء سراج معقود بناحية كل عامل كأنه نار الحباحب تتقدح بين الأشجار فى ظلمات الليل البهيم، وأنى لأضواء السرج الكهربائية أن تشق غباب هذا الظلام الدامس، وهو يكاد من تكاثفه يمسك باليد ويقبض بالراحة، وحسبك أنها لا تفيد فى كشف الظلام وإضاءته، وإنما تزيد فى

بيـانه وإراعته، ثم خطونا قليـلا وعـثـرنا كـثـيـرا، فـرأينا من السـرداب والكهوف ومن الأخـاديد[٢٢٦] مـا تضل فيه الصـلال بالتوائها، وتتكمش دون انسيابها ونظرنا فى كل فجوة أشباحا يتشكلون بأجسامهم على كل أشكال الصـراع الذى يتفنن فيها والمنعطفات، وفي أيديهم ما ثقل ودق من أدوات القطع والحفر، وأخشـاب الإسناد يقـيمـون بها مـا يريد أن ينقص من جدران المغـائر والكهـوف، فـمنهم الواقف فى عـمله على أصـابعـه، والمضطجع على جنبه، الجاثى على ركبتيه، والمنكب على وجهه، والمياه تسيل عليهم من الثنايا والشقوق، هذا بعض ماتقاسيه الأجسـام من المتاعب والمشاق والله العليم بمايدور فى القلوب والرؤس من توقـع الخطر، وترقب الهـلاك، بما شئت من أنواعه المتعددة ابهيالا واندفاعا، وانفجارا وانبثاقا، وغرقا واحتراقا، وارتداما واختناقا، وهمهم الأكبر أن يراقبوا ما على نواصيهم من السـرج، خشية أن تصاب برضـة تنثلم فيها ثلمة، فتتصل بغاز الفحم المتسرب فى المعدن تسرب الهواء، فتميد الجدران، وتندك الأحجار، وتخسف بهم الأرض وإهتدينا آخر الأمر إلى منفذ فـخرجنا منه، وتركناهم يعملون فى ظلمات ثلاث بعضـها فوق بعض.

فـالفـحم ظلام جامد، والظلام فـحم سائل، وعيشـهم أسود حالك وكفانا الله شر المهالك.

ثم درنا قليـلا فى «مـعدن االذهب»، بعد أن انتـهينا إليـه من «مـعدن الفـحم»، فلم نجـد أرباب العمل فـيه أسـعـد حـالا، ولا متـاعبه أهون احتمـالا، لا نصـيب لهم من الأصـفـر الرنان، مما

يجلو عنهم صدأ الكروب والأحزان، سوى أنهم صفر الأيدى من الفضة والذهب، صفر الوجوه من النصب والتعب.

والعيس أقتل ما يكون لها الصدى

والماء فوق ظهورها محمول

وكادت الرطوبة فى المعدن تعقد دمامنا فى مجاريها، فأسرعنا إلى مكان الصعود، فانتشرنا من بطن الأرض إلى ظهرها، وأقمنا هنيهة نعالج بأيدينا غشاوة الظلماء عن الأبصار، عند مفاجأة ضوء النهار، وسرنا نتمتع بفضاء الأرض لا ننطق حرفا ولا نحس خطابا، وإذا بصاحبنا «الحكيم» يستوقف أنظارنا إلى «مسبك المدافع» الذى يمثل أعظم المسابك فى فرنسا، تطل منه أعظم اسطوانة للمدفع فى العالم، ويخاطبنا بقوله:

الحكيم - وهذا هو الثالث من أمهات المدنية وأقانيم الحضارة، فقد رأيتم الأقنوم[٢٢٧] الأول وهو الفحم، والأقنوم الثانى وهو الذهب، وهذا الأقنوم الثالث وهو الحديد.

الصديق - «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس».

الحكيم - نعم إنهم يستخرجون الذهب، ليشتروا به الفحم، ليصهروا به الحديد، فيصنعوا منه ما شاءوا من آلات السلاح وأدوات الصناعة، فيخرجوا للناس ما يشاهدونه من عجائب الصنع، وإن كل ماترونه مما يبهر الأنظار، ويستهوى القلوب، راجع فى الأصل إلى ذلك الفحم الأسود، الذى هو اليوم الخبز

الثاني للإنسان في عالم المدنية، منه نعيمها ورفاهتها، وبه بأسها وقوتها، تبا للإنسان فما أعق عمله وأقبح صنعه! يهوى بالملايين من العمال إلى أسفل طبقات الأرض، فيخربون باطنها، ليستخرجوا منه ما يخربون به ظاهرها، تعسا له! ويزعم أنه يعمل لسعادة الحياة وراحة العيش، وهو يقضي عمره في الشقاء والبلاء حتى يأتيه حمامه، فيخرج من الدنيا باكيا كما دخلها باكيا، بعد أن قضى فيها لحظة العمر على حال تفضلها حالة الحيونات، والحشرات وهو بزعمه أفضل المخلوقات!.

الباشا - كم يكون عدد العمال الذين يستخرجون الفحم في فرنسا، وما مقدار أجرة العامل في اليوم؟.

الحكيم - يشتغل في معادن الفحم مائة ألف عامل، ويبلغ مايستخرجونه منه سبعة وعشرين مليونا من الأطنان تباع بمائتين وستين مليونا من الفرنكات، ويعمل العامل منهم في جوف الأرض على عمق المئات من الأمتار، وفي وسط الأخطار التي لاتقل حوادثها في العام عن ألف وخمسمائة حادثة، فتذهب بالعدد الجم من القتلى والجرحى، غير ما يصيب العمال من أدواء الصدرية والأمراض الرئوية لاستنشاق «الكربون» وفاسد الهواء ومنهم من يشتغل بالليل ومنهم من يشتغل بالنهار، ومعهم أولادهم ونساؤهم، كل هذا بأجرة تختلف من اثنين إلى خمسة فرنكات في اليوم!.

الباشا - وأين تذهب هذه المئات من الملايين من أثمان الفحم التى هى ثمرة كدهم ونتيجة تعبهم؟.

الحكيم - تذهب إلى فـئـة مـعـينة من أرباب الشـركـات والامتيازات، فينفقونها على شهواتهم أو يدخرونها فى صناديقهم، ولا تظن أن هذه الفرنكات التى يأخذها العامل أجرا له فى اليوم تصل إلى يده، فإن اكثر الشركات تبتنى بيوت السكنى للعمال فى أحياء بجوار المعدن، وتقيم بجانبها الأسواق، فيشتغل العامل فى معدن الشركة، ويسكن فى بيت الشركة، ويشترى طعامه ولباسه من سوق الشركة، والشركة تخصم عليه من أجرته، فإذا خرج آخر الشهر لا عليه ولا له، كان رضى الحال، رحى البال!.

الصديق - من هنا نشأت المذاهب الاشتراكية ونحوها، فإنه كيف يصبر الإنسان على هذه الحال، يعمل عمل الحشرات فى باطن الغبراء، ليغنى المقعدين فى قصور العز والهناء!؟.

قال عيسى بن هشام - ووصلنا فى مسيرنا إلى البرج الشهير، برج «إيفل» المهندس القدير ، فأسندنا إليه ظهورنا نتفكر فى أعمال الإنسان، وما يأتيه من فنون الجنون فى كل زمان، وهو يدعى أنه المخلوق الكامل، والحكيم العاقل.

المعجزة الثامنة

قال عيسى بن هشام: ووقفنا نشاهد ذلك البرج المنيع، والعماد الرفيع، فهالتنا رفعته وأدهشتنا صنعته، فهو فى باب

المشاهد الفريدة العصماء، والغرة الشهباء، والهضبة العلياء والقلة الشماء، أعجوبة الصنائع وضعا وإتقانا وبكر هذا المعرض وإن كان فيه عوانا[٢٢٨]، تنحني أمامه الآطام[٢٢٩] والآكام، وتخر له الربا والأعلام، فأين من ارتفاعه الهرمان، ومن علوه صرح هامان، لما أمره فرعون بقوله في كفره وعناده، وجحوده وإلحاده: «ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى، وإنى لأظنه كاذبا» لو رآه فرعون لهدم ماشاد وأعلى، ولم يقل أنا ربكم الأعلى، ولانحى على هاماته فجلده ألفا، وعلقه فى الجذع شنقا[٢٣٠]، وأين «برج بابل» من برج يشاقه بروج السماء، ويشارف الشعرى الغميصاء؟ إذا حوم عليه نسر الجو صار ثالث النسرين، واتخذ وكره فى منازل الفرقدين! وأنى لخيال الشاعر أن يعلو فى وصفه علوه، ويسمو سموه، لاجرم أنه يضيق عليه نطاق الوصف، فيلجأ إلى تشبيه الأكبر بالأصغر، والأعظم بالأحقر، كما شبهوا شمس النهار، بكأس العقار، والثريا عنقود، والجوزاء بعود، ودرار النجوم، وبالودع المنظوم، والليل الدجوجى، بالعبد الزنجى، والإشفاق، بالدم المهراق، فلعله يقول إذا: إنه ألف الهجاء، فى كتاب التقدم والارتقاء، همزته رأيته التى تخفق فى صفحة الأفق، أو أول العدد المرقوم فى جدول الفنون والعلوم، أو الإبرة التى تغرز فى خريطة الكرة القلم الذى يخط فى اديم البدر، ما بلغته أمم الغرب من علو الشأن والقدر، أو هو قرن الثور فى زعم البعض، نفذ إلى ظهر الأرض.

ولما فرغنا من الطواف حوله مرارا، امتلأت له نفوسنا إعظاما وإكبارا، سمعنا «الصديق» يتنهد ويصعد، ويعيد فى قوله ويردد:

الصديق - هذه سنة الدهر منذ القدم، وعادة الزمن فى أبنائه، كلما ترقت أمة من الأمم فى معارج المدنية، شيدت لها أثرا يفوق سواه من بديع الصنعة، يقوم لها شاهدا بين الورى على ما بلغته من السمو والقدرة فى زمنها ثم لا يلبث أن يمحوه الدهر من صحيفته، ليقوم مقامة آخر ينتهى إلى مثل نهايته، لايزال الدهر هكذا فى محو وإثبات. ولايزال ابن آدم عن العبر فى غفلة وسبات، اللهم إنه عمل باطل، وظل زائل.

الحكيم - لا تعل بنا فى أفكارك علو البرج عن مشاهدته، وهلم بنا إلى الارتقاء.

قال عيسى بن هشام: ودخلنا من أحد جوانبه فى غرفة للصعود، فارتفعت بنا من سطح الأرض إلى عنان السماء فى لحظة كلمح البصر، فرست بنا فى الدور الثانى منه، وإذا هو سوق من أكبر الأسواق، اصطفت فيه حوانيت التجار بأنواع البضائع، والحانات بأصناف الخمور، وفى وسطه مطعم فخم يزرى بمطاعم الأرض، فأخذنا مجلسنا فى بعض حافاته، وجعل «الباشا» يسأل «الحكيم» إجمالا وتفصيلا:

الحكيم - يرتفع هذا البرج عن سطح الأرض بثلثمائة متر، وهو من الحديد الخالص ويبلغ وزنه تسعة ملايين كليوجرام،

وعدد قطعة التى يتركب منها اثنتا عشرة ألف قطعة، والخطاطيف فيه مليونان ونصف وله من العمر عدة سنوات، وبلغ دخله من الصاعدين فيه فى أثناء المعرض الماضى سبعة ملايين فرنك، ولو تم لأهل العصور الماضية بناء مثله لكان الثامن للآيات السبع.

الباشا - وما الآيات السبع؟

الحكيم - إن ذكرها ليطول.

الصديق - نحن فى مجلسنا هذا، وفى علونا عن الأرض، وتفرغنا عن العالم مايبعثنا على جولان الفكر فى تاريخ البشر، للمطا قة بين أعمال الإنسان فى ماضيه وحاضره، وإن اختلا ف العصور، ومرور الدهور، لم يغير شيئا من جبلته، فهو على مهده فى غرامه بالمعجب المدهش، يبيع نعيم الدنيا بشقائها فى سبيل ذلك، ويشتغل بمالا تقضى به الحاجة لمجرد الزهو والعجب، والتباهى والتفاخر.

الحكيم - نعم. يحق لك هنا أن تذهب مذاهبك الحكيمة فى تعليل أعمال البشر وطباع الخلق، وأنت تنظر إلى أهل العالم السفلى من العالم العلوى، كأنهم جموع النمل تغدو وتروح فى سبيل أرزاقها، ولكن الفرق بين الجنسين أن النمل فى تآزر وتعاون، والناس فى تضارب وتقاتل، والمصير واحد، والفناء شامل، وعمل النمل حق وعمل الإنسان باطل.

وإن أبيتم إلا أن أحدثكم حديث المعجزات من أعمال البشر، فهي: الأهرام، والحدائق المعلقة، وسور بابل، وتمثال جوبيتير، وصنم رودس، وهيكل إيفيز ومدفن الملك موزول.

أما أهرام مصر فأمره مشاهد معلوم.

وأما «الحدائق المعلقة» في أرض العراق فقد أقامها «بختنصر» فوق الربوة التي تعرف الآن بربوة «عمران بن علي»، وهي في اتساع أربعين فدانا، شيدت بالبناء على أشكال الجبال، وعقدت فيها القباب على عمد وأساطين أفرغوها وملئوها بالطين، وغرسوا فيها الأشجار تنساق جذورها في أصولها، وتورق في رءوسها ووضعوا فيها الدرج يصعد منها الصاعد إلى مثل رءوس الجبال، حيث تثمر الأثمار، وتزهر الأزهار، وتعشب الاعشاب، وتدور الدواليب لرفع الماء من مجرى الفرات إلى أعلى القباب، ويقال: إن السبب في إقامتها على هذا الشكل أن امرأة الملك كانت تحن دائما إلى مناظر بلادها التي نشأت فيها، فأنشأها لها الملك بالصناعة ما يعوضها به عن الطبيعة.

وأما سور بابل «فهو عدة أسوار متداخلة بعضها في بعض، يتسع محيطها للإحاطة بسبع مدائن مثل مدينة باريس، وكان ارتفاعه ثمانية واربعين مترا وعرضه سبعة وعشرين مترا ومن حوله خندق عميق وعليه أبراج متعددة، وله مائة باب من حديد.

وأما «تمثال جوبيتير»، الإله الأكبر عند اليونانيين، فقد صنعه لهم «فيدياس» النحات الشهير، وطول قامته أربعة عشر مترا، وهو جالس على العرش، مكلل بورق الغار وفي يمناه تمثال «إله النصر»، مصنوع من الذهب الخالص وسن الفيل، وفي يسراه الصولجان، منضد بكرائم الأحجار، وفي طرفه نسر من الذهب، والطيلسان والحذاء من الذهب أيضا، أما العرش فكان من الرخام وسن الفيل والأبنوس، وكان موطئ قدميه من العرش أسدين من الذهب، وقد أجاد صانعه وأتقن في تناسب الأعضاء في هذا الحجم العظيم، حتى عده القدماء انفس ما في الوجود من الصنع، وكان كل يوناني يعد نفسه ناقص الإيمان إن مات ولم يحجج إليه.

وأما «صنم رودس» فهو تمثال «أبولون» إله الفنون عند اليونانيين، أيضا، أقاموه تجاه المرفأ، وكان ارتفاعه اثنين وثلاثين مترا، وهو أكبر ارتفاع بلغته تماثيل القدماء، وانتهى بأن أسقطته الزلازل وهشمته، ونقلت العرب كثيرا من بقاياه في القرن السابع.

وأما «هيكل إيفيز» (وهي مدينة من مدن اليونان)، فهو معبد «ديان»، آلهة الصيد والقنص، ولم يكن له مثيل في البناء والنقش والزخرف والتصوير بين معابد القدماء على الاطلاق، ومما يذكر للدلالة على أنه أعظم أثر عندهم أن أحد أهل الشقاوة من المولعين بحب الشهرة، على كل حال، واسمه «إيروسطراطه بحث عن أكبر عمل يمتاز به في الوجود، ويخلد

ذكره على مدى الدهور، فاحتال لإحراق المعبد، فاكلته النار وأعلن الجانى عن نفسه أنه هو الفاعل لتلك الفعلة الشنعاء، فحكم عليه القضاء بالتعذيب حتى يموت، وأدركوا غرضه من إحراقه، فأمروا أن يلحق به كل من ذكر اسمه، فكان ذلك داعية انتشاره، لأن الناس أخذوا يهمسون به بينهم، حتى اشتهر وخلد ذكره بسوء فعلته إلى اليوم. وكان حرقه فى الليلة التى ولد فيها الاسكندر، فلما بلغ من الملك ما بلغه، عرض على أهل «إيفيز» أن يعيد لهم بناءه من ماله بشرط أن ينقشوا عليه اسمه، فأبوا ذلك حتى لايكون لأجنبى عنهم فضل عليهم فى معبدهم، وباشروا هم أنفسهم تجديد بنائه وزخرفته، حتى تم لهم فى مائتين وعشرين عاما، ومازال قائما حتى جاء «نيرون» القيصر الرومانى فنهب ما فيه من الذخائر والكنوز ونقل الفسيفساء من أرضه فوضعها فى قصوره بمدينة «رومية» ثم انتهى الأمر بأن خربه «الجرمانيون» فى حروبهم.

وأما مدفن الملك «موزول»، فهو مدفن أقامته له امرأته (وكانت أخته) بعد موته، جمعت له مهرة الصناع من سائر البقاع، وخصت كل طائفة منهم بجانب من العمل، وكان ارتفاعه اثنين وأربعين مترا، وأساطينه من المرمر النقى نقشت عليها صور الحوادث التاريخية، وكان غطاؤه صخرة من المرمر صورت فيه وقائعه الحربية، وبقى هذا المدفن سليما إلى القرن الرابع عشر، ثم اندثر أثره فى القرون الوسطى، ونقل جانب من أجزائه قريبا منه لبناء قلعة «بودرون» بالأناضول فى القرن

السادس عشر وبقى منه قطع من الرخام المنقوش لاصقة بارضه إلى أواسط هذا القرن، فاشترتها انكلترا ووضعتها فى متحف لوندره.

الصديق ـ ما أشبه الليلة بالبارحة! وما أبعد ابن آدم من العبرة والتذكرة!!

تراكمت القرون وشاب فود الدهر، وتغيرت الأرض، واندثرت المعالم، في كل زمان ومكان، الإنسان هو هو لا يزال على غيه، يعتقد لأعماله البقاء، ولآثاره الخلود، لافرق فى هذا الاعتقاد بين الأشورى عند برج بابل، والفرنسى اليوم تحت «برج إيفيل» كلاهما يتعب ويشقى، وكلا العملين لا يدوم ولا يبقى، وما تبقى إلا الأحاديث والذكر.

كل بيت إلى الهدم ما تبتنى الـ
ورقاء والسيد الرفيع العماد

والفتى ظاعن ويكفيه ظل السـ
دو (٢٣١) ضرب الأطناب والأوتاد

الحكيم ـ نعم صدقت، ويحضرنى فى هذا الباب محاورة ابتكرها أحد قدماء العلماء وأجراها فى عالم الأموات على لسان «ديوجين» الفيلسوف الزاهد القديم، والملك «موزول» صاحب ذلك المدفن الشهير، واذكر منها:

ديوجين ـ مالى أراك أيها الرجل الأسيوى مختلا تياها فى أكفانك كأنك تريد أن تنزل هنا أيضا بين الأموات منزلة أشرف من منزلتهم وتحل تحت طبقات الأرض فوقهم مكانا عليا.

الملك ـ وهل من شك فى ذلك أو ارتياب! ومتى تساوت الملوك بالسوقة! وأنا أكبر الملوك ملكا وسلطانا، وأحسن الخلق بهاء وجمالا، وأعظم الفاتحين نصرة وجلالا، وقد كنت فى الحياة أرفع ذوى التجان عرشا وقدرا، وأنا اليوم فى الممات أعظمهم مدفنا وقبرا، وإن افترى مفتر منهم أنه كان يساوينى فى فخامة الملك، فقد انقطعت ألسنتهم أن يكون لهم مثل هذا القبر، فهو معجزة البشر فى النقش والحفر، وآية الدهر فى المجد والفخر، فهل ترى بعد ذلك أيها المتقشف فى الدنيا، والمندثر فى الآخرة أن ليس من حقى التخايل والترافع!؟

ديوجين ـ ولكنى أراك أيها الملك العظيم الجليل لم يبق لك من سلطانك وجلالك أكثر مما بقى لى، وهذه جمجمتك لا تمتاز عن جمجمتى بشىء، فكلتاهما مثقوبتا العينين، محفورتا الأنف، بارزة الأسنان؛ وأما ذلك المدفن الفخم والصخور المزخرفة فوق رأسك، فلا فائدة لك اليوم منها بعد أن تساويت فيه بمن دفن فى بلقع من الأرض، وإنما أصبحت فائدته للأحياء من أهل بلدكم يتباهون به على الوافدين إليه من الأقطار حينا من الدهر، ثم لا يلبث أن تندك أحجاره، وتزول آثاره.

الملك ـ ما الذى أسمعه، يارب الصواعق والرواعد!! أيذهب كل ما أوتيته من أسباب العز والمجد متاعا باطلا، وأصبح مساويا لديوجين، فيوسعنى تأنيبا وتبكيتا!؟

ديوجين ـ لاتقل أيها المخلوق إنك أصبحت مساويا لى، فشتان ما بينى وبينك فإنك لاتنفك تتحسر على ما كان لك فى الدنيا من الملك والسلطان وزخرف الحياة، وأما أنا فلا يحزننى شئ، ولا يكدرنى الآن مكر، ولم أترك فى الحياة شيئا أسف عليه، ويوجعنى فراقه، ولئن خطر الزنبيل الذى كنت أسكنه فى الدنيا على بالى يوما لكان للاغتباط بأن مسكنى الآن فى بطن الأرض اوسع لى مجالا واحسن منزلا، ولكن لى فى قلوب أهل الدنيا ذكرا حسنا، وأثرا من الفضائل خالدا، لاتمحوه الأيام، ولا يبلى ببلاء الزمن، فأين مكانك أيها المغرور من مكانى، وأين ذكرك أيها المفتون من ذكرى؟

الباشا ـ ما أحكم الموعظة وأجل العبرة!

الحكيم ـ ولو علمتم أن «المسيو إيفيل» صاحب هذا البرج العظيم قد انتهى أمره بتهمة السرقة والاختلاس وسجن فى قضية «بناما» الشهيرة، لاشتد بكم العجب فى نتيجة هذه الآثار، وذهاب أصحابها بسوء السمعة والأخبار.

والآن فقد أحطتم بمشاهد المدينة ومناظرها فى صنائعها بآلاتها وأدواتها، من بطن الأرض إلى سطح البرج، متجلية لكم فى هذا المعرض بأجلى مظاهرها، وأسنى مراتبها، فإن كان من عزمكم العودة متعجلين إلى بلادكم، فقد كفاكم ما شاهدتموه، مما يملأ الصدر مهابة والعيون حسنا، وأودعكم مع الأسف الشديد لفراقكم، فقد رايت فيكم من حسن العشرة، ولطف الخلطة، وذكاء القريحة، ودقة الفكر مالم أكن أتوسمه من قبل فى كثير من أهل الشرق، وإن كان فى نيتكم الإقامة زمنا بيننا،

وكان الميل فيكم شديدا لاستطلاع العالم الأدبى، بعد العالم المادى، فى هذه الحضارة الغربية، وأحببتم الوقوف على ماتجرى عليه أحوال الجمعية البشرية، وما تدور به المعملات فى المعايش والمرافق، وما تنطوى عليه من الأخلاق والصفات، ويتسلط عليها من الطباع والعادات، فأنا حاضر بين أيديكم لمصاحبتكم ومرافقتكم، والفضل كل الفضل لكم فيما أجده من الانس بكم، ولذة النفس فى مباحثتكم ومناقشتكم.

قال عيسى بن هشام: فحبب إلينا البقاء بكلامه، وحمدناه على حسن صنعه وإكرامه، وصادف رأيه لدينا حسن القبول، ففضلنا الاقامة على القفول، وبهذا انتهينا من زيارة معرض النفائس والاعلاق، لنبدأ بالنظر فى معرض الأطوار والأخلاق.

من الغرب إلى الشرق

قال عيسى بن هشام: وأقمنا مع صاحبنا «الحكيم» نهتدى فى سيرنا بهديه، ونستضئ بنور فكره ورأيه، ونتبعه اتباع الإبل لحاديها والرفقة لهاديها لمرافقتنا، وأنزله على موافقتنا، وقضينا معه الليالى والايام، منذ انتهينا من المعرض العام، وكأنها حلم من الاحلام، ينتقل بنا فى الأندية الحافلة، والمجالس الآهلة، ويدور بنا فى اختبار الأخلاق والصفات، بين مختلف أهل الطبقات، فيعلو بنا تارة إلى مراتب الخاصة والحامة[٢٣٢] ونسفل معه أخرى إلى أدنى منازل السوقةوالعامة، فاليوم مع كبار الرجال والأمراء، وغدا بين شرائم الصناع والأجرام، ثم نتحول مع محادثة أرباب القصور

العالية، إلى محاورة أصحاب الأكواخ البالية، ومن منابر الوعظ والخطابة. إلى مجامع ذوى الدعارة والدعابة، ومن أروقة العلماء والفضلاء، إلى أزقة الأوباش والسفهاء، ومن جمعيات العلوم والمعارف، إلى حانات المراقص والمعازف، حتى لم يبق مجتمع تختبر فيه الفضائل والرذائل، وتسير فيه الطباع بين الأعالى والأسافل، إلا لدينا طرف من خبره، وعلم من أثره، باحثين فى العلل والأسباب، مستشفين لما وراء الحجاب، إلى أن أدركنا الشتاء بخيله ورجله، وجليده ووحله، ورعوده وبوارقه، وعواصفه وصواعقه وتوارت الشمس عنا الأيام بعد الأيام، وانسدل على العالم ستر الظلام، وأصبحنا نستضئ بمصابيح الكهرباء من الصباح إلى المساء، وانطلقت فى الجو مداخن المعامل ومداخن الاصطلاء، فعقدت سحبا أخرى تحت سحب السماء، وتدفقت السيول والأمطار، طول كل ليل وكل نهار، حتى أغرقت الغدران والأنهار، فطغى الماء بمثل الطوفان، وسال فى الأودية والبلدان، وامتد نهر المدينة فوصل إلى أرض المنازل والمساكن، وقد يعلو إلى الأدوار والأماكن، فانزوينا فى الغرف والحجرات نقضى بها جميع الأوقات، وكأنما نحن فى العذاب، نعذب تارة بنار الاستدفاء، وتارة بزمهرير الشتاء، وأقمنا عاكفين على الحديث والسمر، بما وعيناه عن هذه المدنية من كل خبر أثر، وكان «الصديق» بيننا كعهده، يرسل علينا القول إرسالا، ويذهب فى حدة انتقاده يمينا وشمالا.

ويذكر من أسواء المدنية الغربية ما يهول السمع، ويذرف الدمع، حتى استفز «الحكيم» للرد عليه، وتهوين ما ذهب إليه.

الحكيم (الصديق): لقد أسرفت أيها «الصديق» فى القول، وغاليت فى الوصف، وإن كان فى بعضه الجانب الصحيح، والحق الصريح، ولكن لهذه المدنية الكثير من المحاسن، كما أن لها الكثير من المساوئ، فلا تغمطوها حقها، ولاتبخسوها قدرها، وخذوا منها معشر الشرقيين ما ينفعكم، ويلتئم بكم، واتركوا ما يضركم، وينافى طباعكم، واعملوا على الاستفادة من جليل صناعاتها، وعظيم آلاتها، واتخذوا منها قوة تصد عنكم أذى الطامعين، وشره المستعمرين وانقلوا محاسن الغرب إلى الشرق، وتمسكوا بفضائل أخلاقكم وجميل عاداتكم، فأنتم بها فى غنى عن التخلق بأخلاق غيركم، وتمتعوا فى رخاء بلادكم، وسعة أرزاقكم، واحمدوا الله على ما آتاكم.

قال عيسى بن هشام: ولم يبق لنا بد فى هذه الحال، من السفر والانتقال، فاستخرنا الله فى العودة إلى ديارنا، والأوبة إلى أوطاننا والحمد لله باطنا وظاهرا، أولا وآخرا.

(وإلى هنا انتهى الحديث)

(١) الرجام : الحجارة المتداعية من القبور القديمة.
(٢) الخضراء : المراد بها السماء.
(٣) الصفائح : ما يسوى فوق القبر من حجارة عريضة
(٤) الحصباء : الحجارة الصغيرة ومثلها الحصى.
(٥) الخليل : إبراهيم عليه السلام، وقصته من النيران معروفة.
(٦) هو أبو قابوس النعمان بن المنذر بن امرئ القيس ابن عدى اللخمى. ممدوح النابغة، وكان قد حمى الشقائق: وهى نبات أحمر يشبه الدم، فنسبت إليه، والقابوس أعجمى معرب
(٧) الصيد: جمع أصيد، وهو المزهو بنفسه كبرا ونبهاء
(٨) هاروت وماروت: ملكان هبطا من السماء إلى أرض بابل بالعراق لتعليم الناس السحر؛ ابتلاء من الله للناس وإظهارا لقدرته. وقيل هما رجلان صالحان كانا يعلمان الناس السحر ويقولان إنما نحن فتنة.
(٩) الأثيث : الغزير
(١٠) اللجين : الفضة
(١١) المقتر : الشحيح، والمراد به هنا الفقير.
(١٢) قصد نهجه: عرف طريقه
(١٣) الناكب: الذى مال عن الطريق
(١٤) الرواء: البهاء وحسن المظهر.
(١٥) الوهل : الفزع ومثله الوجل.
(١٦) الدخل : فساد العقل أو الجسم.
(١٧) الرداء : ما يلبس فوق الثياب كالمعطف والعباءة
(١٨) العانى: الأسير.
(١٩)العافى : مفرد العفاة، وهم طلاب المعروف.
(٢٠) الندى: الكرم والجود.
(٢١) الردى: الهلاك.
(٢٢)الحماليق: جمع حملاق، وهو باطن الأجفان الذى يسوده الكحل.
(٢٣) صعر خده : أماله تكبرا.

(٢٤) الأبلج: المشرق المضئ ويعنى به الواضح.
(٢٥) الوهن: الضعف، والعقد: العهد.
(٢٦) التضاغن: الانطواء المتبادل على الأحقاد والضغينة.
(٢٧) الحور: الضعف والاستحذاء.
(٢٨) الإصر: المذنب.
(٢٩) الزؤام: الكريه، والشديد المبهر.
(٣٠) حميم آن: ماء حار مفرط فى حرارته.
(٣١) التحضيض: الحث والتحريض.
(٣٢) الزلل: الخطأ.
(٣٣) الأراوى: جمع أروية وهى أنثى الوعل. والأعصم من الظباء والوعول ما فى ذراعيه أو أحدهما بياض وسائره أسود أو أحمر والأنثى عصماء.
(٣٤) الطلح: شجر عظام من شجر العضاة ترعاه الإبل، والضال : السدر البرى.
(٣٥) القتاد: شجر صلب له شكوك كالإبر. والسيال شجر سبط الأغصان له شوك أبيض.
(٣٦) الرخم: جمع رخمة. وهو طائر أبقع ويشبه النسر فى الخلقة.
(٣٧) الصلال: جمع صل، وهو الحية المنكرة.
(٣٨) لم شعثه: المراد جمع ما تفرق من أشيائه، أو أصلح هيئته.
(٣٩) الثفال: جلد يوضع تحت الرحا ليقى الطحين من التراب.
(٤٠) عزة: هى صاحبة كثير الشاعر التى تغنى بها فى شعره الغزلى.
(٤١) نوار: امرأة الفرزدق، وكان يشبب بها فى بعض أشعاره.
(٤٢) الضبع: العضد، أو الإبط، أو ما بينهما.
(٤٣) الظنابيب: المخالب واحدها ظنبوب، وهو أيضا حرف عظم الساق.
(٤٤) السوام: الإبل الراعية. وبنو السيد: قبيلة.
(٤٥) النكس : الضعيف.
(٤٦) النطع: قطعة من الجلد تتلق دم المقتول بالسيف.
(٤٧) الوغد: الرجل الدنئ الذى يخدم بطعام بطنه.

(٤٨) العنقاء: طائر معروف الاسم مجهول الجسم.
(٤٩) القار: الزفت.
(٥٠) الأوضار: الأقذار.
(٥١) السعلاة: أخبث الغيلان، ويقال للمرأة سعلاة إذا كانت قبيحة سليطة.
(٥٢) الأغمار : جمع غمر بسكون الميم وضمها وهو الذى لم يجرب الأمور.
(٥٣) حندس الليل: شدة ظلمته.
(٥٤) المطمورة: المراد بها السراديب، وهى فى الأصل الحفرة التى يطمر فيها الطام ويخبأ.
(٥٥) وجب القلب: اضطرب. أحرار البنائيين. جماعة سرية الغت نشاطها الثورة.
(٥٦) الغيهب: الظلمة الحالكة.
(٥٧) الغرائر: جمع غرارة، وهى الجوالق (الزكايب).
(٥٨) اليراعة: واحدة اليراع، وهو ذباب يطير بالليل كأنه نار.
(٥٩) الهشيم: النبات اليابس المتكسر.
(٦٠) يستعط: يدخل الدواء فى أنفه.
(٦١) القامس: الواسع العميق، وقاموس البحر وسطه ومعظمه.
(٦٢) الدامس: الشديد الظلمة.
(٦٣) جهرت العين: لم تبصر فى ضوء الشمس.
(٦٤) سدرت: تحيرت.
(٦٥) المدجج: المزود بكل انواع السلاح على جسمه ومثله الشاكى.
(٦٦) الشويهة: تصغير الشاة، وهو الواحدة من الغنم.
(٦٧) الغيداء: الحسناء التى تتثنى لينا.
(٦٨) الهجر: فحش القول.
(٦٩) المثانى: القرآن. وقيل فاتحة الكتاب.
(٧٠) يعنى الأثر: يمحوه.
(٧١) النميل والرحيم والوخيد: ضروب من السير.

(٧٢) تمتم: الثوب زخرفة ووشاه.
(٧٣) العصب: ضرب من البرود اليمنية والمراد هنا: أن الروضة تلبس ثوباً موشى.
(٧٤) المسك الأذفر: مسك بين الرائحة شديدها.
(٧٥) المرط: كساء من خز يؤتزر به.
(٧٦) الشنف: ما يعلق فى أعلى الأذن، والقرط ما يعلق فى شحمه الأذن وقيل هما سواء.
(٧٧) السؤر: ما يتبقى فى القدح من شراب أو ماء.
(٧٨) تمارق: واحدة تمرق وهو الوسادة.
(٧٩) المزهر: العود الذى يستخدم فى الغناء
(٨٠) الأوار: حر الشمس والنار واللهب.
(٨١) تأربت: احكمت، والأربة العقدة التى لا تتحل.
(٨٢) العبهر: النرجس.
(٨٣) النحيزة: الطبيعة.
(٨٤) المران: شجر تصنع منه الرماح.
(٨٥) مسبار: المراد به المقياس، والأصل فى المسبار ما يسبر به الجرح لمعرفة مدى غوره.
(٨٦) سجوف: أستار.
(٨٧) الارتكاس: مثل الانتكاس، وهو عودة المرض.
(٨٨) الايطاء والإسناد والأقواء: عيوب تلحق بالقافية.
(٨٩) المصلى: الفرس الثانى فى سباق الخيل.. لأنه يضع انفه بين صلوى الفرس الأول (المجلى) والصلوان الوركان..
(٩٠) افتلى: استخراج.
(٩١) نأسو: نداوى.
(٩٢) الكماة: جمع كمى وهو الشجاع.
(٩٣) الظبات: جمع ظبة، وهو حد السيف أو السنان.
(٩٤) الرغاء: صوت الناقة.
(٩٥) العقيق: مكان، وسبق شرح الطلح والضال.

(٩٦) الأحوى: ماتضرب خضرته إلى السواد.
(٩٧) انهر: وسع، وانهر الدم اساله.
(٩٨) العراق: العظم آكل لحمه.
(٩٩) الخلة: الحاجة والفقر.
(١٠٠) الفدام: مايوضع على فم الابريق ليصفى به ما فيه.
(١٠١) تنتضل: تتسابق إليه المنايا بالرمى.
(١٠٢) اللجب: الجيش الكبير.
(١٠٣) بوائق: جمع بائقة وهى الداهية او الظلم والشر.
(١٠٤) الرنق: الكدر الذى يشوب الماء.
(١٠٥) الردن بالتحريك: الغزل المنكوس.
(١٠٦) الخلق: البالى.
(١٠٧) اسن الماء: تغير فلم يشرب.
(١٠٨) إربته: حاجته.
(١٠٩) قنبر: هومولى على بن أبى طالب رضى الله عنه.
(١١٠) الحمس والعشر: من أظماء الربل.
(١١١) الدلفين: حيوان بحرى.
(١١٢) الوجناء: الناقة الشديدة والمراد هنا: المطية الصلبة.
(١١٣) الكنة: امرأة الابن.
(١١٤) الأسقاط: جمع سقط وهو الوعاء.
(١١٥) يحر: يشتد.
(١١٦) الشمول: الخمر.
(١١٧) العقار: الخمر ايضا.
(١١٨) الأخدرى: حمار الوحش.
(١١٩) الروائم: المطوعة عطفا وشفقة.
(١٢٠) شروى: مثلى.
(١٢١) الدفر: النتن.
(١٢٢) ذكاء: الشمس، والكافر: الليل المظلم.
(١٢٣) الدد: اللهو واللعب.

(١٢٤) القذال: مابين الأذنين من مؤخر الرأس.
(١٢٥) الأمشاج: والأخلاط، والجرائر جمع جريرة، وهى الأثم.
(١٢٦) قدك: كفاك، بمعنى حسبك.
(١٢٧) الحمة الأبرة التى تضرب بها العقرب.
(١٢٨) السخل: ولد الشاة.
(١٢٩) الظئر: المرضعة.
(١٣٠) الخورنق والسدير: قصران معروفان.
(١٣١) الحزن: ماغلظ من الأرض.
(١٣٢) الشماريخ: جمع شمراخ وهو رأس الجبل، ورضوى وثبى جبلان معروفان.
(١٣٣) الجنادب: جمع جندب، وهو الجراد الصغير.
(١٣٤) استنفض المكان: ألم بكل ما فيه حتى يعلم دخائله، وأهل الاستنفاض: الذين يبعثون فى الأرض يتجسسون.
(١٣٥) السجوف جمع سجف وهو الستر، والكلة الستر الرقيق.
(١٣٦) مضت لطيتها: أى لما تنتويه.
(١٣٧) الخميس: الجيش.
(١٣٨) أصمة القوارير: ماتسد به.
(١٣٩) المنافر: ماينسج من الزرد على قدر الرأس.
(١٤٠) الظلم: ماء الأسنان وبريقها.
(١٤١) الهلوك: المرأة الفاجرة.
(١٤٢) الورهاء: الحمقاء.
(١٤٣) المرهاء: المرأة أبيضت بواطن أجفانها لم تتعهدها بالكحل.
(١٤٤) العجفاء: المهزولة، والشوهاء: القبيحة.
(١٤٥) الهامة: الرأس.
(١٤٦) الغسلين: ما يسيل من جلود أهل النار، والقطران ما يطلى به الإبل.
(١٤٧) العريسة: بيت الأسد.
(١٤٨) القليت: البئر.

(١٤٩) اللخناء: المرأة لم تختتن، أو التى انحرفت وفسدت.
(١٥٠) الحبا: من الاحتباء وهو أن يجلس الرجل القرفصاء ويضم ظهره إلى رجليه بثوبه أو بديه، وحل الحبا: هو الاستعداد للقيام: والمراد التعظيم والإكرام.
(١٥١) بزل الخمر: ثقب إناءها، والمبزل: المثقب.
(١٥٢) الصبابة: ما يتبقى فى الكأس أو الإناء.
(١٥٣) الشرب: جماعة الشاربين للخمر.
(١٥٤) السبال: مقدم اللحية.
(١٥٥) الجد: الحظ.
(١٥٦) أهرت الشدقين: واسعهما.
(١٥٧) الظربان: دويبة كالهرة منتنة الرائحة.
(١٥٨) لسبته: لدغته.
(١٥٩) نضو سفر: البعير المهزول من طول السير. وجهد السفر.
(١٦٠) الميزاب: القناة يجرى فيها الماء.
(١٦١) مطلع قصيدة للمتنبى؛ والشيم: البارد.
(١٦٢) رضوى وشمام: جبلان معروفان.
(١٦٣) الفتيان: الليل والنهار، وكذلك الملوان.
(١٦٤) الخلد: الفأرة العمياة.
(١٦٥) العهن: الصوف.
(١٦٦) المرو: حجارة بيض رقاق براقة.
(١٦٧) الأوساد: جمع أسود وهو العظيم من الحيات.
(١٦٨) الرئال: جمع رأل وهو ولد النعام.
(١٦٩) الأوابد: جمع أبدة وهى الشرود الممتنعة من كل شئ: والمراد هنا المتوحشة.
(١٧٠) الأيد: القوة.
(١٧١) الغمار: جمع غمر وهو معظم البحر.
(١٧٢) غبرات العيش: بقيته. والغوابر: جمع غابر، وهو الباقى من الشئ أو الذى انهى ومضى.

(١٧٣) التهاويل: النقوش.
(١٧٤) طارت شعاعاً: أى تفرقت وتبددت، والنفس خافت.
(١٧٥) الكناس: وهو الموضع من الشجر يختفى فيه الظبى.
(١٧٦) الجلبانة: المهذارة السيئة الخلق. والورهاء: الحمقاء
(١٧٧) الفود : جانب الرأس.
(١٧٨) الوضح: بياض الصبح.
(١٧٩) بنات هديل: الحمائم.
(١٨٠) تسكع الرجل : تمادى فى الباطل.
(١٨١) المسجور: المرتفع الأمواج.
(١٨٢) الدو: الفلاة.
(١٨٣) الشماريخ: رءوس الجبال وقدسبق شرحه وثبير جبل معروف.
(١٨٤) شاكلتا الطريق: جانباه، والشاكلة: الجهة والطريق وفى القرآن: قل: كل يعمل على شاكلته.
(١٨٥) العاد : العادات.
(١٨٦) السبسب: الصحراء، والأمراض البعيدة المدى.
(١٨٧) السبروت: القفز.
(١٨٨) الخلد: قصر للنصور. وسر من رأى بلد بالعراق.
(١٨٩) البائقات: جمع بائقة وهى الداهية وقد سبق شرحه.
(١٩٠) الدأماء: البحر.
(١٩١) نباث: منقب.
(١٩٢) اليفاع: التل المرتفع.
(١٩٣) السارية: الأسطوانة والعمود.
(١٩٤) المكورة: المرأة المكورة: المستديرة الساقين أو المدمجة الخلق. واللفاء: الممتلئة الساقين.
(١٩٥) القرمد: كل ما يطلى به.
(١٩٦) الأشمط: الذى خالط سواد شعره بياض.
(١٩٧) الصرورة: الذى لم يتزوج.
(١٩٨) السدير والحبرة البيضاء: قصران معروفان الإيوان: قصر كسرى.

(١٩٩) الفلق: جمع فلقة، وهى القطعة.
(٢٠٠) أباة اللعن: هم ملوك الجاهليين وكانوا يخاطبون «بأبيت اللعن».
(٢٠١) المران: الرماح.
(٢٠٢) العنق: الجمال.
(٢٠٣) الركانة: الوقار.
(٢٠٤) الأجادب: الأرض الجدباء التى لا نبات فيها.
(٢٠٥) الشديد: بكسر الشين المشددة: كل ما طلى به الحائط من جص وبلاط.
(٢٠٦) ممرد: أملس مصقول.
(٢٠٧) الجمد: الثلج. والومد: الحر.
(٢٠٨) الأوارى: جمع أروى وهو الوعل وقد سبق شرحه والأجادل جمع أجدل وهو الصقر.
(٢٠٩) الكبد: وسط الشئ.
(٢١٠) منتشب: ملتف.
(٢١١) الخلة: الفاقة.
(٢١٢) الطلق: الحلال.
(٢١٣) الألفاف: البستان المجتمع الشجر.
(٢١٤) ذال: هان.
(٢١٥) أوزاعاً: جماعات.
(٢١٦) الغرقى: القشرة الملتصقة ببياض البيض والتريكة: بيضة النعامة. والرأل : النعامة.
(٢١٧) الصل : الحية.
(٢١٨) زفة: جماعة الحمام.
(٢١٩) الملاحية : شجرة العنب.
(٢٢٠) الولائد: جمع وليدة، وهى الصبية . الأمة.
(٢٢١) أنضاء : جمع نضو وهو المتعب المنهوك من جهد السفر، وقد سبق شرحه.
(٢٢٢) رجل كظ: عسر متشدد.

(٢٢٣) العجاجة : الغبار.

(٢٢٤) الوضر: الوشخ. وقد سبق شرحه.

(٢٢٥) الدجوجى : المظلم.

(٢٢٦) الأخاديد: جمع الخدود وهو الحفرة العميقة.

(٢٢٧) الأقنوم : الأصل.

(٢٢٨) العوان: المرأة النصف فى سنها وهى غير البكر.

(٢٢٩) الآطام: الحصون.

(٢٣٠) الشنف: كالقرط وقد سبق شرحه.

(٢٣١) السدو: شجر النبق.

(٢٣٢) الحامة: مرادف الخاصة.

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٠٨٧ /٢٠٠١

I . S . B . N 977 - 01 - 7228 -6





بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامي وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الإبن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن علي التوالى، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك



مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة

٣٠٠
قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب